



مركز  
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للعلماء



عمر  
عليه السلام

www.Ghaemiyeh.com  
www.Ghaemiyeh.org  
www.Ghaemiyeh.net  
www.Ghaemiyeh.ir

ڪارستان ٺيٺور

# رحلة إلى شبه الجزيرة العربية وإلى بلاد أخرى مجاورة لها



للجزء الثاني



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

# رحلة الى شبه الجزيرة العربية

كاتب:

نيبور كارستن

نشرت في الطباعة:

موسسه الانتشار العربى

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

## الفهرس

٥	الفهرس
٨	رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر المجلد ٢
٨	اشارة
٨	الجزء الثاني
٨	فهرس المواد التي يتضمنها الجزء الثاني
٨	فهرس بلوحات الجزء الثاني
٩	إشعار من الكاتب
١٠	ملاحظات في بومباى و في سورات
١٠	اشارة
١٩	الرحلة من بومباى إلى سورات
١٩	ملاحظات في سورات
٢٣	العودة من سورات إلى بومباى
٢٤	رحلة من بومباى إلى مسقط و بوشهر
٢٦	ملاحظات في بوشهر و شيراز و برسيبوليس (Perspolis)
٢٦	اشارة
٣١	وصف أنقاض برسيبوليس
٣٤	ترجمة النقوش ب
٣٤	ترجمة النقوش ج
٣٥	ترجمة النقوش ه
٣٩	الملاحظات التي دونتها في شيراز
٤١	العودة إلى بوشهر
٤٢	ملاحظات حول الخرج
٤٢	اشارة

- ٤٦ ..... الرحلة من الخرج إلى البصرة
- ٤٦ ..... ملاحظات حول بوصله الشرقيين
- ٤٦ ..... اشارة
- ٤٦ ..... من الجهة الشرقية
- ٤٧ ..... من الجهة الغربية
- ٤٧ ..... ملاحظات حول البصرة
- ٤٧ ..... اشارة
- ٤٩ ..... موقع مدينة البصرة القديمة
- ٥٠ ..... حرب بين أهل البصرة و العرب
- ٥١ ..... الطرق المؤدية من البصرة إلى حلب عبر الصحراء
- ٥٢ ..... الرحلة من البصرة إلى لموم و مشهد على، و مشهد الحسين، و الحلة، و بغداد
- ٦١ ..... ملاحظات وضعتها في بغداد
- ٦٩ ..... سير رحلتى من بغداد إلى الموصل
- ٦٩ ..... اشارة
- ٧٠ ..... ملاحظات حول البيزيدين
- ٧١ ..... رحلتى من بغداد إلى الموصل
- ٧٣ ..... ملاحظات دونتها في الموصل
- ٧٥ ..... الرحلة من الموصل إلى ماردين
- ٨٠ ..... الرحلة من ماردين إلى حلب عبر ديار بكر
- ٨٠ ..... اشارة
- ٨٣ ..... لائحة بمختلف قبائل التركمان
- ٨٤ ..... لائحة بقبائل الاكراد الرحالة
- ٨٥ ..... الطريق من ديار بكر عبر أرضروم
- ٨٥ ..... الطريق من قيسارية إلى ديار بكر و من ديار بكر إلى توقات

- ٨٥ ..... الطريق من توكات إلى اماسيا (Amasia)
- ٨٥ ..... الطريق من وان و ديار بكر إلى أرضروم
- ٨٥ ..... ملاحظات حول سوريا و سكان جبل لبنان
- ٨٥ ..... اشارة
- ٩١ ..... سيطرة الموارنة على جبل لبنان
- ٩٦ ..... تعريف مركز القائمة باصفهان للتمريرات الكمبيوترية

## رحلة إلى شبه الجزيرة العربية / تعريب عبيد منذر المجلد ٢

## إشارة

ام كتاب: رحلة إلى شبه الجزيرة العربية / تعريب عبيد منذر

نويسنده: نيور، كارستن

تاريخ وفات مؤلف: ١٨١٥ م

موضوع: سفرنامه

زبان: عربي

تعداد جلد: ٢

ناشر: موسسه الانتشار العربي

مكان چاپ: بيروت

سال چاپ: ٢٠٠٧ م

نوبت چاپ: اول

rhlah ila shbh aljzirah ala'rbiah wila blad a'khra mjaourah Iha

تأليف: كارستن نيور تاريخ النشر: ٠٤/١٠/٢٠٠٧

ترجمة، تحقيق: عبيد المنذر

الناشر: مؤسسة الانتشار العربي

النوع: ورقي غلاف كرتوني، حجم: ١٧×٢٤، عدد الصفحات: ٧٦٢ صفحة الطبعة: ١ مجلدات: ٢

يحتوي على: صور ارسوم، جداول، رسوم بيانية

## الجزء الثاني

## فهرس المواد التي يتضمنها الجزء الثاني

ملاحظات في بومباي و سورات وصف جزيرة بومباي تجارة الشركة الانكليزية للهند الشرقية في هذه البلاد و سلطنتها و تجارة موظفيها في مرافيء اخرى فيما وراء رأس الرجاء الصالح. سكان جزيرة بومباي من اوروبيين، و كاثوليك مولودين في الهند أو برتغاليين مزعومين، و هندوس أو وثنيين، فارسين أو عبدة النار و مسلمين وصف لباغود (هيكل) جزيرة القبل. وصف لمدينة سورات سلطنة الانكليزي في سورات. السكان الاخرون الخ .. الخ .. ١٣

الرحلة من بومباي إلى مسقط و بوشهر الرحلة من بومباي إلى مسقط. وصف لهذه المدينة و سكانها. الرحلة من مسقط إلى بوشهر. ٧٨

ملاحظات في بوشهر و شيراز و برسيوليس وصف لمدينة بوشهر. ملاحظات خلال الرحلة إلى شيراز. في الأكراد و التركمان البدو و في جيش من الفرس اجتاح البلاد. ملاحظات في شيراز وصف لبقايا قصر برسيوليس و لآثار أخرى في هذه البلاد. ملاحظات لاحقة في شيراز. العودة إلى بوشهر ٨٨

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبيد منذر، ج ٢، ص: ٦

ملاحظات في الخرح (Charedesch) موقع هذه الجزيرة الخاضعة للهلنديين. الحرب بين الفرس و سيد بندريخ (Benderrigh) و التي شارك فيها الانكليزي. ملاحظات في الخرح و حول سكانها. الرحلة إلى البصرة ملاحظات حول البوصلات العربية. ١٦٥ ملاحظات في البصرة وصف هذه المدينة و طريقة الحكم فيها. سكانها. موقع البصرة القديمة. حرب قبيلة كعب العربية ضد الفرس، و الاتراك و الانكليزي، ثم ما بين قبيلة كعب و قبيلة منتفق، و سرقة بساتين البلخ في البصرة. الدروب عبر الصحراء من البصرة و بغداد إلى حلب. بريد الحمام الزاجل ١٨٣

الرحلة من البصرة إلى بغداد الرحلة على الفرات من البصرة إلى لموم (Lemlium). مدن هذه البلاد و قبائلها العربية. رحلة من الرماحية (Rumahie) إلى مشهد على. وصف هذه المدينة و مسجد الشيعة الواقع الموجود فيها، فضلا عن بقايا الكوفة. رحلة إلى ضريح حزقيال، و إلى الحلة (Helle) و مشهد حسين وصف كربلاء و ضريح الحسين. الفرق بين السنة و الشيعة، تغيير ديانة هؤلاء الاخيرين تحت حكم نادر شاه، معلومات أخرى حول بطل بلاد الفرس هذا. وصف مدينة الحلة موقع جنان بابل المعقدة، و معبد ييلوز (Belus). الرحلة من الحلة إلى بغداد ٢٠١

ملاحظات في بغداد وصف هذه المدينة، و موقع بغداد القديمة. ضريح موسى الكاظم، و أبي حنيفة مؤسس أحد مذاهب السنة. عقروق (Agerkuf) و المؤلف. تجارة مدينة بغداد. تاريخ بغداد الحديث.

طريقة حكم هذه المنطقة. سلطنة الباشا. ملاحظات حول كردستان، بما في ذلك المنطقة الخاضعة لحاكم بغداد و الاخرى المستقلة. ٢٣٧

الرحلة من بغداد إلى الموصل ملاحظات في ينكشا (Yankasha)، الطاق (Tauk)، كركوك، التان (Altan)، كوبري (Kupri)، اربيل أو اربيلاد. مبادئ الزيدية التي يقال إن اتباعها يتبعون الشيطان. ملاحظات في كرمليس (Carmelies)، و التقدم الكبير الذي أحرزته المرسلون الكاثوليك في هذه البلاد. في اللغة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبيد منذر، ج ٢، ص: ٧

الكلدانية الحية في بعض الاحياء. موقع مدينة نينوى. الطرق المختلفة بين الموصل و بغداد.

وصف مدينة الموصل و سكانها. أسماء القرى التابعة لولاية هذا الباشا. ٢٤٤

الرحلة من الموصل إلى ماردين تحضيرات الشرقيين للسفر في الصحراء. رحلة قافلة كبيرة إلى نصيبين (Nissabin).

ملاحظات حول هذه المدينة القديمة و الاقاليم الواقعة على طرفي الطريق بين الموصل و ماردين.

وصف مدينة ماردين و حكمها، و سكانها المختلفين سببا شمسيين و هم أتباع ديانة قديمة للغاية وضعوا أنفسهم تحت حماية بطريك العقوبيين. ٢٨٨

الرحلة من ماردين إلى حلب عبر ديار بكر وصف مدن ديار بكر، سوريك (Soverack)، عرفة و بيراجيك (Biradsjik)، و ملاحظات أخرى حول الطريق من ماردين إلى حلب. لائحة بأهم قبائل الاكراد و التركمان التي تهجم مع خيماها في ارمينيا و الاناضول و سوريا. المسافة بين مدن عدة في ارمينيا و في الاناضول. ٣٠٧

ملاحظات حول سوريا و لاسيما سكان جبل لبنان أقسام هذه البلاد. الامم و اللغات المختلفة. في السنة و المتأولة و اليهود و المسيحيين.

ملاحظات حول الدروز، أصلهم، و طبيعتهم و دينهم. منازل النصيرين و الاسماعيليين و ديانتهم. طريقة الحكم عند الدروز. تاريخ هذه الامة الحديث. النبلاء منهم. وصف جغرافي لمناطقهم. سيطرة الموارنة على جبل لبنان. النبلاء بين الموارنة. امراء جبل لبنان المزعومون. وصف منطقة كسروان و مدينة بيروت. احياء طرابلس الخاضعة لولاية الباشا و التي يسكنها المسيحيون. تغييرات جديدة في جبل لبنان. ٣٢٩

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبيد منذر، ج ٢، ص: ٨

## فهرس بلوحات الجزء الثاني

١- جزيرة بومباي ١٥

٢- أ، ب، ت ثلاثة حروف مختلفة للهند، ج حروف الفرس و ح حرف الصابنة. ٢٧

٣- تصميم لمعبد جزيرة القبل ٣٤



- ٤- تنسيق اعمدة المعبد ٣٧
- ٥- رسم لصور المعبد الرئيسة، قرب الارقام ١، ٢، ٣، على تصميم اللوحة ٣٨ III
- ٦- رسم للصور قرب الرقم ٤، اللوحة ٣٩ III
- ٧- رسم للصور قرب الرقم ٥، اللوحة ٤١ III
- ٨- رسم للصور قرب الرقم ٦ و ١٢، اللوحة ٤٣ III
- ٩- رسم للصور قرب الرقم ٧، اللوحة ٤٤ III
- ١٠- رسم لأهم صورة قرب الرقم ٩، اللوحة ٤٦ III
- ١١- رسم للصور قرب الرقم ١٣ و ١٤، اللوحة ٤٧ III
- ١٢- أ. هكريس (Hakris) ٦٦
- ب. لباس الهنود ٦٦
- ج- المعطف الواقي من المطر عند الفلاحين الهنود ٦٦
- ١٣- أ. محفة يستخدمها الهنود في الصيف ٦٧
- رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٩
- ب- محفة يستخدمونها في الشتاء ٦٧
- ١٤- موقع مدينة سورات على نهر ثابي (Tappi)، و خارطة لحديقة قرب سورات ٧٤
- ١٥- خارطة لمدينة مسقط ٨١
- ١٦- خارطة لمحيط بوشهر ٨٧
- ١٧- خارطة السير من بوشهر إلى برسيوليس ١٠٦
- ١٨- تصميم لآثار قصر برسيوليس ١٠٨
- ١٩- صورة لبقايا برسيوليس ١٠٩
- ٢٠- أ. ب: رسم للحيوانات الموجودة على السور أو على اللوحة ١١٣ XVIII
- ٢١- صورة لرسوم السورج للوحة ١١٥ XVIII
- ٢٢- صورة لرسوم السور د للوحة ١١٦ XVIII
- ٢٣- صور لرسوم السور د الأخرى، اللوحة XVIII، و حروف الكتابة الفارسية القديمة الأخرى. ١١٨
- ٢٤- كتابات متنوعة من برسيوليس بحروف ابجدية ثلاثة مختلفة ١٢٥
- ٢٥- أ. ب، رسم لعامود من برسيوليس، ج، رسم لشخص من الأعيان، لا بد أنه كاهن د. ه. رسم لأبطال قدامى و، ز، ح، ط، ك، جوار حملها أشخاص آخرون رسوا في هذه البقايا. ١٢٤
- ٢٦- مشهد للصرح «ز» للوحة ١١٨ XVIII
- ٢٧- كتابات كوفية، غربية، وغيرها من برسيوليس، نقشي رجب و نقشي رستم. ١٣٠
- ٢٨- منظر للصرح «ط» للوحة ١٣١ XVIII
- ٢٩- رسم للصور الموجودة على عواميد البابين ١٣٤ W.W
- ٣٠- رسم للصور الموجودة على عواميد البابين ١٣٧ XX
- ٣١- كتابات من برسيوليس بحروف ابجدية ثلاثة مختلفة. ١٣٨
- ٣٢- رسم للصور الموجودة قرب نقشي رجب. ١٤٣
- ٣٣- رسم لبعض صور نقشي رستم. ١٤٤
- ٣٤- كتابات نقشي رستم. ١٤٧
- رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٠
- ٣٦- المشهد العام لمدينة شيراز. ١٥٣
- ٣٧- تمارين الفرس. ١٥٧
- ٣٨- خارطة مدينة نخرج و قلعته. ١٦٤
- ٣٩- خارطة مدينة البصرة. ١٨٢
- ٤٠- خارطة سير من الخليج الفارسي حتى السماوة. ٢٠٣
- ٤١- خارطة السير من السماوة حتى قره طوبه. ٢١١
- ٤٢- خارطة مدينة مشهد على (أ) مشهد عام لمسجد هذه المدينة الكبير (ب) خارطة مسجد الكوفة (ج) مشهد عام لمسجد مشهد الحسين (د) (ه) حجارة من الطين يستخدمها الشيعة في صلاتهم. (و) سيف عليّ الشهير. (ز) ختم محمد النبي (ح) مشهد عام لمسجد موسى الكاظم قرب بغداد. ٢١٤
- ٤٣- أ، ب، ج، د، كتابات من الكوفة. ه، جزء من كتابة طينية من بغداد. و، كتابه من اسكي موصل ز، كتابة على حجر في قصر شنج على الطريق بين الموصل و نصيبين. ٢١٧
- ٤٤- خارطة مدينة بغداد. ٢٣٦
- ٤٥- خارطة السير من قره طوبه حتى زاحو (Sacho) ٢٧٥
- ٤٦- خارطة مدينة الموصل ٢٨٢
- ٤٧- خارطة مدينة ماردن، و قرية نوبه ٣٠٣
- ٤٨- خارطة مدينة ديار بكر ٣١١
- ٤٩- كتابات كوفية على سور مدينة ديار بكر ٣١٣
- ٥٠- خارطة السير من عناد حتى اورفة ٣١٦
- ٥١- خارطة السير من اورفة حتى عدن ٣٢١
- رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١١

#### إشعار من الكاتب

أقدم اعتذارى للقراء الذين انتظروا طويلا ظهور الجزء الثاني من عملي بعد وصفي لرحلتي. و أرجو ألا يلومني هواة التاريخ الطبيعي، لأنهم جمعوا منذ صدر الجزء الأول من هذا العمل، ثمارا أخرى من الرحلة و ذلك من «شبه الجزيرة»، و من «وصف الحيوانات و النباتات في مصر و بلاد العرب»، و هما ما كتبه المرحوم البروفسور فورسكال، فضلا عن «الأيقونات الطبيعية» التي طلب من الرسام بورنفتد رسمها استنادا إلى الصور الأصلية. و منحتي الملكة، الذي يشجع عادة العلوم و يعلم العلماء على الملاحظات حول الرحلة إلى شبه الجزيرة العربية، شرف مساعده، و طلب مني العمل على نشر الكتب المذكورة أعلاه، فقمتم بهذه المهمة انطلاقا من واجبي و بفرح لأحبي ذكرى رفاق رحلتي الذين أصبحوا ضحايا العلم. و بما أنني فقدت رفاقي في بداية العام ١٧٦٤، عدت وحيدا من الهند عبر البصرة و حلب، لا يتوقع مني عشاق التاريخ الطبيعي ملاحظات من هذا النوع في بلاد زرتها وحيدا، و ينبغي أن يستخدموا نتائج هذه الرحلة التي أمر بها عاهل الدانمارك. لكني واثق من أن الجغرافيا جنت الكثير، و ترتدي هذه الملاحظات الجغرافية طابعا من الأهمية سيما و أن البلد الذي زرت هو أقدم بلد تعرفه. حاولت في كافة الأمكنة وضع خرائط للمدن التي صادفتها كي يتمكن العلماء من تحديد مساحتها، و عدد سكانها، و استخدمت لذلك المقياس نفسه لذا يمكن أن نقارن مساحة المدن بعضها ببعض بسهولة. و لا نجد أثرا لبابل و نينوى، هاتين المدينتين الشهيرتين في ما مضى، فقد بنيتا في مناطق منخفضة و رطبة حيث تندر حجارة البناء، فاستعملوا لتشيدها مواد سينة، نقلت منذ زمن إلى مدن أخرى أو هدمت كليا.

وقد يهتم هواة الآثار برسوم الأتسار الهندية في جزيرة الفيل(Île d'Elephauta) ولا ـ أظن أن رحلتى إلى برسيبوليس (Persepolis) ـ جدوى منها، بالرغم من أننا نملك أكثر من وصف مفصل لهذه المدينة، وسيجد هواة اللغات هنا بعض الكتابات التى لم يروها من قبل أو لم

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٢

يحصلوا عليها واضحة. و بما أن رسومات الاتار التى نشرها كل من شاردان و لوبرن(Chardin, le Brayn) مختلفة من نواح عدة، ليحكم القارىء و ليرى من أخطأ. و مسجد هواة الديانة الإسلامية معلومات وافية حول المذاهب المختلفة التى لم يعرفوها حتى اليوم أو سمعوا باسمها فقط و اعتبروها و تبنية.

و سأخصص الجزء الثالث لرحلتى من حلب إلى جزيرة قبرص و القدس و الى مدن أخرى فى هذه البلاد، فضلا عن رحلتى من حلب إلى القسطنطينية عبر الأناضول، والى بولونيا غير القسم الاوروبى من تركيا، زد على ذلك مجموعة من الملاحظات حول افريقيا. و سأصدر هذا الجزء الثالث قريبا، إن أطال الله بعمرى و أمدنى بالصحة، و سأختمه بفهرس للمواد التى تضمنتها الاجزاء الثلاثة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٣

#### ملاحظات فى بومباي و فى سورات

#### إشارة

شغلت تقع جزيرة بومباي على الشاطيء الغربى للهند و تملكها منذ مئة عام الشركة الانكليزية للهند الشرقية التى أقامت هنا وصاية تخضع لها المصانع على طول هذا الشاطيء نحو الشمال من سيلان و حتى البصرة.

و تتميز بمرفتها الكبير و المحمى من الرياح مما يجعله ثروة للأمة، أما الجزيرة نفسها فليست بشاسعة كثيرا، إذ لا يتعدى عرضها فى بعض الاماكن نصف ميل و طولها ميلان إن لم نصف اليها جزيرة صغيرة قريبة يطلق عليها الانكليز اسم «جزيرة النساء المسنآت». و يتكون قعر البحرين هاتين الجزيرتين من صخرة ضخمة، يمكنك العبور عليها من جزيرة إلى اخرى اتاء الجزر من دون أن تبتل. و حول ما اذا كانت المياه تتراجع على شواطيء مالابار كما فى الخليج العربى و فى مناطق أخرى من العالم، نملك هناك الدليل على ذلك إذ تولف بومباي و جزيرة النساء المسنات جزيرة واحدة احيانا. و تشتهر بومباي بإنتاج جوز الهند و الارز كما تؤمن الشواطيء الملح، و يضطر السكان كلهم تقريبا إلى تأمين مؤنهم من اليايسة سيما من سلفات(Sifet) و هى جزيرة كبيرة و خصبة لا يفصلها عن بومباي سوى مضيق صغير. كانت تخضع فى ما مضى للبرتغاليين، و يملكها حاليا الماراتيون. و منذ رحلتى عن تلك البلاد، حاول الانكليز السيطرة على هذه الجزيرة و قد تمكنوا من ذلك وفقا للأخبار التى وردتنى لكنى لست واقفا من قدرتهم على الدفاع عن أجهزة سلفات ضد قوات الماراتينى. تمثل اللوحة الاول خريطة بومباي التى نسختها على الجزيرة نفسها ثم قمت بتقليص حجمها.

و تقع مدينة بومباي فى وسط الجزيرة على ارتفاع القطب ١٨، ٥٥، ٤٣، و يبلغ طولها حوالى ربع ميل أما عرضها فقليل للغاية. و تقع من جهة البحر على قصر قديم لا يثير الاهتمام، أما

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٤

من جهة اليايسة الجزيرة فهى محاطة بسور ضخم، و بحفرة واسعة، و بحصون نصف دائرية أمام ابوابها الثلاثة.

و قد بنيت هذه التحصينات بمعظمها خلال الحرب الاخيرة ضد الفرنسيين، إذ يؤكد البعض أن الانكليز صرفوا سنويا ٣٠٠٠٠٠ روبية (حوالى ٢٠٠٠٠٠ درهم) لتحصين هذه الجزيرة، و بما أن السلام كان قد حلّ منذ فترة عندما زرت البلاد، لم يكن العمل فيها حثيثا، لكن هدف الانكليز إلى انهاء هذه التحصينات تباعا وفقا للرسم الجديد حتى تصبح بومباي فى ما بعد من أمنع المدن و أوقاها فى الهند. و تؤمن الجزيرة نفسها الحجارة المستخدمة فى بناء التحصينات و هى تتميز بليونتها فى المقالع مما يجعل استخراجها و استعمالها سهلا، لكنها تستحيل صلبة للغاية مع مرور الوقت و تعرضها للهواء.

و نجد على جزيرة بومباي، فضلا عن القلعة الرئيسية، العديد من الحصون الصغيرة كذاكك القصر الصغير الواقع قرب ضاحية ماجم(Mahim) فى شمال الجزيرة، و الحصون قرب ريفسال(Rivale) ، و صسيون(Sion) ، و سوسرى(Sure) ، ؟ ، و مازاغون(Mazagon) ، و ورله(Worle) ؟ و غيرها. و بالرغم من أن هذه التحصينات ليست عظيمة أبأ أنها قادرة على مقاومة الاعداء لا سيما هجوم الهنود.

و يتسع سكان بومباي البحرية تحت الحكم الانكليزى، لذا يزداد عددهم منذ طرد البرتغاليين من المنطفة. و أكد لى انكليزى، قدم إلى الجزيرة منذ أقل من عشرين سنة، أن عدد السكان فى ذلك الوقت لم يتعد ٧٠٠٠٠ شخص و أنه يتجاوز اليوم، أى فى العام ١٧٦٤، ١٤٠ الف نسمة.

و يشكل الاوروبيون نسبة قليلة من السكان أما البقية فمن الهنود الكاثوليك أو البرتغاليين كما يدعون هنا، و من الهندوس أو الوثنين، و من المسلمين لا سيما السنة و الشيعة منهم، فضلا عن الفرس أو عبدة النار. و تتسجم هذه الديانات المختلفة بعضها مع بعض، فمدارس كل منها شعائرها الدينية بحرية و أمان فى معابدها، كما تقيم مسيرات عامة من دون أن يبدى الاخرون ازعاجا.

و صادفت بعض الامرن و اليونانيين فى بومباي، و لا أدرى إن كنا نجد فى تلك البلاد مسيحين من أتباع القديس توما الذين يترأسهم أسقف لعموم سوريا يقيم فى حلب.

يسيطر فى بومباي مناخ معتدل من جراء هواء البحر المنعش و الامطار الغزيرة التى تهطل فى الاشهر التى تكون فيها الشمس فى الموقع الاقرب من السمت. و منذ تم تجفيف بعض المستنعات فى المدينة و محيطها، لم يعد الهواء غير صحى كما وصف فى ما مضى. لا

يزال

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٦

بعض الانكليز هنا يموتون ميتة فجائية، لكن يرذ السبب برأى إلى تصرفهم الخاص، إذ يأكلون الكثير من اللحوم الشهية كالحم العجل و لحم الخنزير التى منع المشرعون القدامى الهنود من أكلها.

كما يشربون خمرا مركزا من البرتغال فى ساعات القيظ الشديد، زد على ذلك أنهم يرتدون هنا كما فى أوروبا ثيابا ضيقة لا تصلح لهذه البلاد لأنها لتلتصق ببعض أعضاء الجسد فتعيق الدورة الدموية و تجعلهم أكثر تأثرا بالحرارة من الهنود الذين يرتدون ثيابا طويلة و فضفاضة.

و يحلو لهم أن يقللوا من الثياب التى يرتدونها عند المساء مما يعرضهم للاصابة برشح خطير، فى حين أن الشرقيين يأكلون أول وجباتهم عند الصباح، و يتناولون وجبتهم الاساسية عند المغرب و يقلون من أكل اللحوم و شرب الكحول، و يغطون عند المساء رؤوسهم و صدورهم مما يقيهم من أمراض البلاد الحارة و يجعلهم يعتمرون طويلا.

يقيم الاوروبيون فى وسط المدينة، فى الحى الذى يقوم فيه منزل الحاكم، و هو منزل كبير ورائع، و تقع بالقرب منه كنيسة ضخمة، و لا يعتمد الاوروبيون فى بناء منازلهم السطوح المتساوية انما تلك المائلة المغطاة بالقرميد. و يستخدم الانكليز الزجاج لوافدهم، أو أصدانافا رقيقة جدا مرصوفة فى الخشب مما يجعل الشقق مظلمة، أبأ أن هذه النوافذ أفضل عند هطول المطر من الشباييك الخشبية أو الحديدية و من المصراعين، لأن الاولى لا ترد المطر كليا فيما تحجب الأخيرة النور عن الشقق. و يجب الشرقيون التمتع بالهواء فى المواسم الجافة لذا يقيمون فى منازل مفتوحة من إحدى الجهات، و لا تتوفر فى هذه المنازل وسائل الراحة كما لا تلفت هندستها الاظفار.

و من بين التحصينات التى أشغافها الانكليز على بومباي لتسهيل التجارة و الملاحة، يبقى الرصيف أهمها و اعظمها، إذ كان يتسع، حين كتث فى البلاد، لوضع مركبين، الواحد وراء الآخر و اصلاحهما، و كانوا يعملون على توسيعه لمركب ثالث. شيد جزء من هذا الرصيف من الصخور و الجزء الاخر من الحجارة المقصوبة. و لا بد أنه كُلف الشركة كثيرا لأنها لا تسمح فقط لتجار بلدهم بالدخول و تصليح سفنهم إنما يستعين به الاجانب فقط، كما رست بقره حين كتث فى بومباي سفينة حربية من سفن امام عمان. و يرتفع منسوب المياه هنا عند ما يكون القمر بدرأ أو جديدا و يصل من ١٦ إلى ١٨ قدما، و تسجل أعلى نسبة عند مدخل المرفأ (حوالى ميل و ١ / ٤ أو ميل و ١ / ٢ نحو الجنوب من بومباي) فى الساعة الحادية عشرة، و قرب المدينة قرابة الساعة الثانية عشرة، و يرتفع المدّ فى بعض فصول السنة (استنادا إلى اقوال البحارة) الليل أكثر منه اتاء النهار، و يحصل العكس فى فصول أخرى. و كانت الابرة المغنطة تميل حوالى درجتين نحو الغرب.

تملك شركة الهند الشرقية في مستعمراتها على شواطئ مالابار، والتي تعتبر بومباي مركزها،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٧

سبع عشرة سرية مشاة و ثلاث سرايا مدفعية، مؤلفة بمعظمها من أوروبيين والباقي من التوبازي أي الهنود الكاثوليك الذين يرتدون اللباس الأوروبي.

و تألفت كل سرية من ١٠٠ إلى ١٢٠ رجلا و إذا ما انضم إليها بعض المجندين من اووويا و أضفنا التوباز يصل العدد إلى ١٧٠ عنصرا. و يخضع للانكليزي في جزيرة بومباي وحدها حوالي ٣٠٠٠ جندي هندي، ومعظمهم من المسلمين أو الوثنيين، و هم يرتدون اللباس الهندي و يخضعون لفساطهم الخاصين الذين يعاونهم رتباه أوروبيون يعلمونهم القتال، كما يخضع لهم في سورات بعض العرب الذين يقضون رواتب أكبر من رواتب الهنود، و أكد لي ضباط انكليز أن هؤلاء أشجع من الهنود، و لكثرة ما يشاهد بقيمة العرب و شجاعتهم ( يبدو أن المقصود هم عرب عمان أو الخليج الفارسي و ليس عرب اليمن)، ما من امير وثني إلا و يجعل بعضا منهم في خدمته، و يقدم الهنود خدمات جيدة ما إن يخضعوا لإمرة الأوروبيين.

إن حالة المدفعية الانكليزية في بومباي جيدة جدا. ففي العام ١٧٥١ أو ١٧٥٢، أرسلت الشركة إلى البلاد مهندس سويدي (عمل لسنوات في فرنسا) و تقيب مدفعية مع سرية كاملة جندتها بنفسه من المانيا مما مدّ الجزيرة بحرفيين بارعين من نجارين و بنائين، و نجد العديد من الالمان و الهولنديين الذين يقصدون الانكليز، و نرى العديدين منهم في عداد الجنود و الضباط الاكفأ.

لا يمكن للاروبيين الاجانب أن يثروا هنا من التجارة، لكن لا يتم التفريق بينهم و بين الانكليز و الابرلنديين و الاسكوتلنديين على الصعيد العسكري، و قد صادفت هنا بين الضباط، ضابطا بولونيا و بعض السويسريين و الهولنديين و السويديين فضلا عن العديد من الالمان. و يبدو أن جميعهم كلاميذ بحرين، ثم يتدرجون بحسب أعمارهم حتى يصبحوا آرمي سرية. و هذا ما يحصل بسرعة لأن الكثيرين يريدون العيش هنا على النمط الأوروبي فتوافيهم المنية بسرعة. و يقضى غيرهم اثناء الحروب. و يتحول آخرون نحو التجارة، و يعود القليل منهم إلى أوروبا للتمتع بما جمعوه من ثروات أو لأنهم لم يجدوا في الهند ما كانوا يتوقعونه. و كان الضابط الاول من رتبة رائد حين كنت في بومباي. و يتلقى العسكريون أجورا جيدة هنا، و هذا ما يجعل التجار يستسيغون الخدمة العسكرية، لأن أقل رجل علم قد يغدو جنرالا (رئيسا، حاكما)، في بومباي. و يظن هؤلاء الشباب أنهم أهم من الضباط المستنئين الذين خاطروا بحياتهم أكثر من مرة بغية حماية تجارة الانكليز.

و بما أن الملاويين (Malvanes)، و السنغاريين (Sangeriens)، و الكولييين (Kulis) و غيرهم من الأمم الصغيرة على هذا الشاطئ، فضلا عن عرب الخليج الفارسي هم من القراصنة، تضطر الشركة إلى الاحتفاظ بسفن حربية، فلها في بومباي و سورات عادة من ثمانية إلى عشرة مراكب حربية صغيرة، فضلا عن العديد من المراكب الصغيرة المسلحة. أما ضباط هذه المراكب و رايبتها

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٨

فمن الانكليز، و يعمل على منتهى و على متن المراكب التجارية بحارة من الهنود الكاثوليك و المسلمين، و يسهل على الانكليز القضاء على هؤلاء القراصنة لأنهم لا يجنون أي فائدة من ذلك، إذ إن سفنهم الحربية و التجارية تحمّل البضائع أولا، و إن أرادت السفن الهندية بعد ذلك الانتقال من مرقا إلى آخر تشكل قافلة و تطلب مواكبة من الانكليز و تدفع لقاء ذلك مبلغا من المال.

و لا يخشى الانكليز أحدا على شواطئهم، باستثناء المارايون لأنهم أسياد اليابسة و الجزر المحيطة ببومباي، و بمدونهم جزء كبير من مؤنهم، و يقيم رئيسهم في بونا (Puna)، و لا يملك قوى بحرية عظيمة أو على الاقل لا يخشاه الانكليز، لكن اكادوا لي أن بإمكانه جمع حوالي ٨٠٠٠٠ فارس مما يجعل قواته البرية خطيرة بالنسبة لجزيرته. و لا تزال هذه الامة الوثنية قوية في الهند حتى أن اورنجزاب (Aurengzeb) الاكبر اضطر إلى التنازل لها عن ربع رسم الدخول إلى العديد من مدن امبراطوريته لتتركه و شأنه و لسيود السلام، كما اضطر المغول إلى قبول وجود موظف من هذه الامة في جماركهم بسجل ايرادات. إن زعيم هذه الامة و كبار موظفيها هم من البراهمانيين (Bramans) الواسعي النفوذ شأنهم في ذلك شأن المسلمين، و يدعون أن النظام و العدالة يسودان بينهم و أن الزراعة و الصناعة مزدهرتان لذا يكثر السكان في بلادهم. و يتجنبون الفرص للاقتضاض على الاقاليم المجاورة التي يحكمها المسلمون، فيسرقونها و ينهبونها و يحرقونها بالبرابرة كما يتصرفون بكبرياء ازاء الانكليز أنفسمهم. و في العام ١٧٤٤ قادوا طرادة من بومباي إلى مرفقهم، و توقع الجميع أن يعلن الانكليز الحرب عليهم لكن بما أنهم أرسلوا الجيش إلى البنغال و مدارس، و أعدوا العدة لمهاجمة الملاويين (Malvanes) في العام التالي، و لأن حكومة بومباي، التي لن تبقى في مكانها طويلا، لم تتأ الاساءة إلى تجارتها الخاصة مع الماراتيون، سعت إلى حلّ هذا الاشكال سلميا.

و يختلف شكل حكم الانكليز في الهند عن حكم الهولنديين و الفرنسيين و البرتغاليين، إذ تخضع مستعمرات هذه الاعم الثلاث الاخيرة في الهند لحكومة بانافيا (Batavia)، و بونديشاري (Pondicherie) و غوا (Goa)، فيما تتوزع السلطة عند الانكليز على أربعة مراكز رئيسية: ١) بومباي على شواطئ مالابار (٢) كالكتوتا في البنغال (٣) مدارس على شواطئ الكورمندر (٤) بنكولا. في سومطرة. و هي مراكز مستقلة كليا بعضها عن بعض و لا تتلقى اوامرها إلا من لندن مباشرة، لكنها ملزمة بمساعدة بعضها بعض عند الحاجة. عندما كنت في الهند، تم إرسال قوى من بومباي إلى البنغال على أثر مشاكل وقعت في هذه المنطقة الاخيرة من دون انتظار أوامر انكلترا. تتم محاكمة كافة المواطنين هنا أيأ كانت جنسيتهم و ديانتهم وفقا للقوانين الانكليزية من دون محامين أو قضاة يعرفون هذه القوانين.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٩

تألفت حكومة بومباي من شخص الحاكم أو الرئيس و اثني عشر مستشارا، و جميعهم من التجار باستثناء الرائد الذي يملك الصوت الثالث في المجلس. أما الموظفون المدنيون الآخرون في الشركة فهم إما تجار كبار، و إما مساعدا و تجارا، و إما وسطا و إما كتاب، و يتدرجون عادة بحسب اعمارهم من وظيفة كاتب إلى مركز مستشار، لكن إن عاد الرئيس إلى انكلترا و توفي هناك، يخلفه المستشار الذي يتمتع بصداقات واسعة في لندن- و يتم نقلهم أحيانا من منصب إلى آخر كما حصل مع السيد سينسر، و هو رجل مستقيم و باع كان مستشارا في بومباي عند وصولي و عيّن حاكما للبنغال قبيل رحلي.

و ينبغي أن يقيم الحاكم على الجزيرة بشكل مستديم، و يضطلع المستشارون بمهامهم هنا، فمنهم أمين الصندوق، و مفتش المحال و ماسك الذفات الخ أو يعملون كمدره للتجارة في مستعمرات أخرى تابعة لهذه الحكومة. و حين كنت في تلك البلاد، كان للحكومة مستشار في سورات (surat) و آخر في تليشري (Tellichery) و ثالث في انجنجو (Anjengo)، و تملك الشركة في هذه الاماكن الثلاثة قسورا و حاميات عديدة، و كان لها في البصرة مستشارا. كما أرسلت واحدا إلى بلاد الملاويين في بداية العام ١٧٦٥ (أي بعد رحلي) بعد أن تغلبت عليهم، و سيطروا منذ رحلي على بردش (Baradsh) و هي مدينة كبيرة إلى شمال سورات، لها حاكمها الخاص، و يملك فيها الهولنديون مركزا تجاريا مهما، فأقام فيها مستشارا في بومباي، كما يملك الانكليز على هذا الشاطئ العديد من المؤسسات الصغيرة، يرسلون إليها التجار و المساعدين و الوسطاء كما في تاتا (Tatta) و هي مدينة كبيرة يقيم فيها زعيم بلاد السند، و في لاربندر (Lar Bunder) و في شاه بندر، ثم في بوشهر في الخليج الفارسي، و في كمباي (Cambay) و في اونور (Onor)، و في كالكتوتا (Calecut)، و في حصن فيكتوار. و يقع هذا الحصن الاخير على ساعد نهر كبير، يجري داخل البلاد و يصل إلى بونا مفر اقامة زعيم الماراتيين، و قد باله الانكليز ببعض القرى الواقعة قبالة غيري (Gueri) و هي قلعة استردوها من القرصان الشهير انجريا (Angeria). و أملا بهذه الطريقة أن يقيموا تجارة مثمرة مع بلاد الماراتيين، لكن هذا المشروع لم ينجح على النحو المتوقع، إنما استفادوا من الماشية في هذا المكان حيث يكثر المسلمون في حين أن الوثنيين في محيط بومباي لا يذبحون الحيوانات و لا يبيعونها لتقتل. و يتم نقل الكتاب و التجار و حتى المستشارين أحيانا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٠

و ينالون بحسب أعمارهم مراكز مريحة أكثر، مما يتيح لهم الفرصة للتعرف على تجارة كافة الامكنة، وبالتالي يعود عليهم ذلك بالفائدة عندما يحتلون مناصب في مجلس بومباي يتطلب منهم مراقبة كافة الأعمال.

إن الأجر الذي تدفعها الشركة لموظفيها في الهند قليلة للغاية، لكنها تسمح لهم بالتجارة في كافة العرافة بدءا من دلغو (Delegoa) قرب رأس الرجاء الصالح في الشرق و حتى الصين، و حتى جدة و البصرة في الشمال، و يجمعون بهذه الطريقة الثروات الضخمة التي ذاع صيتها في أوروبا. و يؤدي ذلك إلى تجاوزات، تعاني منها الشركة احيانا، لكنه تدير جيد بشكل عام إذ إنه يدفع الموظفين إلى الجدّ، فيؤمنون للشركة فوائد اثناء مسعهم لتوسيع تجارتهم الخاصة ما كانت لتالها لو لا ذلك، و يسمح للجميع

بممارسة التجارة وذلك بدءاً من رئيس المؤسسة وحتى اصغر كاتب. تفرض السلطة التي تتمتع بها هذه الحكومة احترام علم بلادها، وتدفعها ثرواتها إلى نشر تجارتها أكثر فأكثر، ذكرت في الجزء الأول أن الأوروبيين لا يتجاوزون عادة مرافاً جده و يحبرون مباشرة من الهند إلى السويس، لكن منذ ذاك اليوم حاول الانكليز ذلك. في البدء، حين أخذ الأوروبيون يترددون على مرافاً جده كانت رسوم الدخول وغيرها المفروضة عليهم قليلة مقارنة بتلك المفروضة على التجار المسلمين، إذ إن السلطات سعت لتشجيع الأولين على زيارة مرافها اعتقاداً منها أن الآخرين مضطرون للمرور فيها. و اتسع نفوذ الانكليز، و كثرت رحلاتهم نحو الخليج العربي في حين أن عدد مراكب التجار المسلمين تراجع تدريجياً مما أثر سلباً على جمارك جده.

و لم يكن بالامكان مطالبة الأوروبيين بدفع رسوم أكثر من تلك المحددة في الاتفاقات، لكن فرض على التجار الذين يشترون منهم نسبة مئوية، فتمكنت الحكومة من جمع مبالغ أكبر مما لو وصلت البضائع على متن سفن التجار المسلمين، و استاء الانكليز من هذا الوضع إذ اضطروا إلى بيع بضائعهم بأسعار أرخص، و قد اعتاد هؤلاء في الهند على تحديد ما يعطونه للحكام و للمغول حسب ما يشاؤون، لذا لم يحتسبوا تصرف مسؤولي الجمارك في جده، و كان بإمكانهم القضاء على تجارة هذه المدينة لو ارسلوا بعض السفن الحربية الصغيرة و افوقوا كافة السفن المتوجهة من السويس إلى الهند، و لكنهم يخاطرون بفقدان تجارتهم من هذه المناطق، و بما أن الباشا و الشريف التزما بهذه المعاهدات ظاهرياً، قد يعتبر السلطان انه تعرض للاهانة، و يطرد الانكليز كلهم من الشرق. و هدد الانكليز بتجاهل مرافاً جده و التوجه إلى السويس مباشرة انتقاماً من هذه الاجراءات، لكن احداً لم يصدق أنهم يتجرأون على الإبحار في طريق يعتبرها كافة البحارة الاخطر في العالم، و لعلمهم هم أنفسهم لا يودون ذلك لأنهم لا يملكون خارطة لهذا الجزء من الخليج. و اخيراً، فكر السيد هولفرد، و هو بحار ماهر تعرض لمشاكل عدة في جمارك جده، جدياً بتنفيذ هذه التهديدات،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢١

فحصل على نسخة عن الخارطة التي وضعتها للخليج العربي (وصف شبه الجزيرة اللوحة XX) و التي سلمتها لصديق في بومباي. و لا يمكن أن يتوقع السيد هولفرد الكثير من المنفعة إلا من خارطة بحرية دقيقة، لأن الأوروبيين يحبرون في عرض البحر في حين أن المركب التركي الذي قمت بالرحلة على متنه حاذى الشواطئ لذا لم أضع سوى تصميماً لهذه الأخيرة، لكن الانكليز وجدوها ملائمة لهم و لم يكن يتفهمهم سوى تأكيد حاكم القاهرة أنهم يستطيعون نقل بضائعهم بأمان و ائصالها في المدينة. في الامبراطورية العثمانية، حيث يتم استئجار الاقاليم، يسعى كل حاكم وراء مصلحته الخاصة من دون أن يأبه للباشاوات الآخرين، و قلما يترك فرصة كهذه تفوته. و لا تستفيد حكومة القاهرة من الأقمشة الرائعة التي تنتقل من البنغال إلى جده و منها برا بواسطة القافلة الكبيرة إلى مصر، و لم يكن على بك صاحب السلطة المطلقة حينذاك ينتظر من الانكليز دفع رسوم كبيرة و حسب بل حمل هدايا قيمة له، لذا لم يهتم برده فعل باشا جده و شريف مكة و حتى السلطان، فوعد الانكليز بتنفيذ ما طلبوه.

عندما ارسل تجار البنغال إلى السويس، في العام ١٧٧٢، مر كبا لم يكمل الرحلة بل عاد إلى البلاد إثر تعرضه لأضرار في خليج البنغال. و في العام ١٧٧٣، قام السيد هولفرد بهذه الرحلة و نجح فأصبح بالتالي أول انكليزي يقود مركبا إلى السويس. و في السنة التالية، وصلت مراكب أخرى، و يقال إن خمسة مراكب خاصة، في العام ١٧٧٦، قامت بالرحلة مباشرة من الهند إلى السويس، و قد استخدم هذا الطريق أكثر من مرة كطريق للبريد، لأن حكومة الهند أخذت ترسل بريدها في حالات الضرورة من السويس إلى انكلترا فتقلق الرد بوقت أقصر مما لو أرسلت رسائلها إلى أوروبا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٢

عبر الطريق المعتادة. أي عبر رأس الرجاء الصالح. و توجه سفن الشركة، القادمة من أوروبا، إلى أحد المراكز الأساسية، فتلك المخصصة لساحل مالابار تنج نحو بومباي مباشرة، و تستغرق هذه الرحلة خمسة أشهر تقريباً حين ينطلقون في فصل مناسب، و قد قام أحد الربانية بهذه الرحلة خلال ثلاث أشهر و ثمانية عشر يوماً، و هي أقصر رحلة سجلت. و قلة هي السفن التي تعود من بومباي إلى انكلترا، فمنها من يقوم برحلة إلى فوكه في الخليج الفارسي و البنغال، و مدارس، و بنكولا و حتى إلى الصين، و يكسب ربانية هذه السفن الكثير من المال أثناء هذه الرحلات التي لا يتمتعون بحرية القيام بها إنما يخضعون للرئيس الذي يرسل من يشاء مساعدته و تفضيله، و يأتي سواها في هذه البلاد أربع سفن من لندن، و خلال الحرب الأخيرة قلَّ عددها، لكن خلال عام ١٧٦٤، توقع وصول ست سفن. كانت كل سفينة تحمل في ما مضى ٤٠٠٠٠ درهم نقداً إلى بومباي فضلاً عن الاموال التي ترسلها انكلترا إلى مراكزها الاخرى، لكن أكدوا لي أن الاموال لم تعد ضرورية منذ سيطرت الشركة على البنغال و أنها قادرة أيضا على ارسال الكثير من المال إلى الصين.

و يبقى القماش أهم بضاعة يحملها الأنكلز من بومباي إلى بلاد فارس و البصرة، أما البضائع الاخرى فهي دودة الحرير، و العاج، و الحديد، و الصلب، و القصدير، و النحاس، و الحديد الأبيض، و المرايس، و المدافع و أسلحة أخرى، و يحمل أصحاب السفن بضائع أخرى بغية بيعها لحسابهم الخاص. و تباغ البضائع الأوروبية في المزار العثني ما إن تصل السفن، و بالتالي، و في مواسم معينة يعرفها كافة التجار الهنود، يتم ارسال ما لا يباع هنا إلى المستعمرات الصغيرة. و يتم ارسال توابل من سواحل مالابار، و ملح النشادر من السند، و أقمشة مختلفة من سورات إلى انكلترا عبر بومباي، كما يتم ارسال عدد كبير من هذه الأقمشة من لندن إلى غينيا، و ينقل أصحاب المراكب لحسابهم الخاص العطور و الصمغ و العقاقير المختلفة من الهند و الخليج العربي و الفارسي.

أشرت آنفاً إلى أن الانكليز يملكون كنيسة كبيرة و جميلة في بومباي، يشرف عليها كاهن لكنه توفي. و بالتالي لم يعد هناك رجل دين انكليزي واحد على طول الساحل بانتظار وصول احدهم من أوروبا، و لا تضم السفن الانكليزية التي توجه إلى الهند كاهناً ضمن ( بالرفم

من أن عدد الانكليز المقيمين في هذه المدن مرتفع. و حين يود المقيمون في المدينتين الاخيرتين تعميم ولد من اولادهم، يستفدون كاهناً دانماركياً، لكن عدد المتزوجين بين الانكليز الموجودين في الهند قليل للغاية و بالتالي قلما تسمح بعمادة طفل في بومباي. إن نسبة الكاثوليك المقيمين في الهند أكبر من نسبة البروتستانت، و لا يتفهمهم كنهان، و علمت أن البابا أرسل منذ سنوات مطراناً إلى بومباي لكن الحاكم أعلمه عند وصوله أن لا حاجة للبلاد برجل دين يحمل

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٣

هذا اللقب الرفيع. و نجد هنا أربعة رهبان كرمليين، يرأسهم عدد من الكهنة درسوا في غوا (Go) أو في بومباي، و قد أقام الأكبر سناً بين الرهبان في هذه البلاد لسنوات، ثم عاد إلى أوروبا، ليعود من جديد إلى بومباي، و هو أمر لا يلام عليه لأنه يعيش هنا بحرية أكبر وراحة أكثر، فضلاً عن أنه يتبع هنا باحترام أكثر مما لو بقي في دير في أوروبا. و يخدم الثاني في كنيسة (سيده الرجا) سنيورا اسبرازاه و هو صرح رائع خارج المدينة لم يكتمل بناؤه، و الثالث في كنيسة سان ميشال في مجيم (Mahim)، أما الرابع ففي كنيسة سلفاسيونى (Salvatione). و يملك الكاثوليك ايضا كنيسة صغيرة في المدينة و أخرى في مازاغون، و كان للآباء اليسوعيين ديوا جيلا قرب قرية باريل (Barell) في وسط الجزيرة، لكنه تحوّل منذ سنوات إلى منزل ريفي للحاكم، و أصبحت الكنيسة غرفة طعام و رقص رائعة لا مثيل لها في الهند كلها.

يتمتع الانكليز رعاياهم حرية الاعتقاد، لكنهم لا يسمحون للرهبان بهداية الناس كما يحلو لهم، فحين يود شخص من دين آخر أن يصبح كاثوليكياً، يضطر الرهبان إلى إبلاغ الحكومة مسبقاً، فتدرس الاسباب التي دعت المعنى إلى اتباع الدين و إن وجدتها مقنعة سمحت بتفسيره، لكن يبدو أن هذا نادراً ما يحصل لأن الراهب الكرملى في مجيم اشتكى من أنه لم يحصل على إذن لتفسير امرأة و تنية، تعيش مع كاثوليكي كزوجة له و قد انجبت له أطفالاً عدة. و يحضر عبيد الانكليز و البرتغاليين قداس الكنيسة الكاثوليكية، و حين يصل افريقيون جدد إلى البلاد يعتادون ليس قلادة تحمل صورة احد القديسين، و اشترت هنا في اسود، في السادسة عشرة من العمر، ولد من أبوين افريقيين اتبعا الديانة الكاثوليكية، و علمته الديانة المسيحية على يد كاهن كاثوليكي. و أردت اصطحابه معي إلى الدانمارك عبر الصين، لكن حين قررت العودة عبر البصرة و تركيا، فضلت اهدائه لأحدهم في بومباي خوفاً من أن يأخذه المسلمون مني، و قد تعرض لمشاكل عدة بسببه لأن العادة لم تدرج في تركيا أن يحصل الأوروبيون على عبيد من افريقيا، و لعلمهم اهتموتني بأني أخذ إلى أوروبا في من أبوين مسلمين لأجعله مسيحياً.

و يسمى سكان هذه البلاد القدامى، و الذين تصادف الكثيرين منهم في بومباي، هندوس أو هنود، و عندنا نحن الأوروبيين على تسميتهم كفرة أو وثنيين، لذا تكون فكرة خاطئة عنهم. لكن يتبين للذين يتعرفون اليهم عن كتب أنهم لطفاً، و فاضلون و جادون و يتجنبون الاساءة إلى غيرهم أكثر من أي أمة أخرى، و لكنهم من جهة أخرى الامة الاكثر انطواء على نفسها خوفاً من رجال الدين

عندهم فيعيشون منفصلين عن الأمم الأخرى و لا يتواصلون مع بعضهم البعض. و بالرغم من أن اليهود و الشيعة يعتبرون اتباع الديانات الاخرى غير طاهرين و لا يأكلون معهم، يأكل اليهودى مع اليهودى و الشيعى مع الشيعى من أى بلد كان، في حين أن صاحب النسب الرفع عند الهندوس

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٤

كالبراهمي مثلا الذى يخدم أحد البنيان الاثرياء لا يتجرأ على الأكل لأنه أعظم منه نسبا. استادا إلى المعلومات التى جمعها و الاكثار التى كونتها عن الهندوس فى الشمال، ينقسم هؤلاء إلى أربع قبائل رئيسة:

١- البراهمانيون أو رجال الدين (٢) الرسويطيون أو الجنود (٣) البنيان أو التجار (٤) الفلاحون.

و تنقسم كل قبيلة من هذه القبائل أو كل فئة من هذه الفئات إلى طبقات عدة أدنى، و لا يأكل أعضاء الطبقة العليا مع الطبقة الاذننى منهم. و أكدوا لى أن لكل طبقة، و هى تعدى الثمانين، شعائرها الدينية الخاصة، و لا أدرى إن كانوا يتبعون الديانة نفسها من حيث الجوهر، و ينبغى اعتبارهم بالتالى مجموعات مختلفة، لكل منها رئيسها الخاص، و كهنتها المعتمدين، و الهيا التاتوى الذى يكرم فى مناسبات معينة عبر شعائز خاصة.

و يسود الاعتقاد فى أوروبا، أن الابن فى الهند يتبع خطى ابيه و يعمل فى المهنة نفسها، لكن هذا ليس ضروريا لأن البراهمانيين و هم رجال دين يمكن أن يكونوا حكاما كما رأينا آنفا عند الماراتيين. و يحتل البراهمانيون عند الأمراء الوثنيين الآخرين من الرسويطيين وظائف مدنية، و يعملون عند المسلمين كموظفى جمارك أو كضارعين. و عرفت تجارا من البراهمانيين و حرفيين من البنيان أو الرسويطيين، إنما يحملون اسم قبيلتهم التى ولدوا فيها، على ما يبدو كى لا ينسوا مركز اجدادهم، و كى تتمكن ذريتهم من الانضمام اليهم حين يطل لها، أو كى يكرموا بعض القديسين من اسلافهم.

و لا ينتقل أى هندى من جماعة إلى أخرى أعلى منها شأنًا، و قد سمعت بأمر علمائى أضحى من البراهمانيين و أصبح بالتالى أتيل لكن هذه القضية تارتقت مع الكثير من الظروف و الكلفة فلا أظن أن أحدهم سبيع مثله. يحكى أن شخصا من طبقة الجنود فى جنوب الهند أخذ يخضع تدريجيا جيرانه فأسمى سيد بلاد شاسعة و غنية للغاية، ثم أراد أن يصبح من البراهمانيين. اعترض الكهنة على ذلك و اعتبروا الأمر مستحجلا لأنهم يدعون تخدرهم من الالهة و أن المولود كرجل عادى لا يمكن أن يولد من جديد، لكن تم له أخيرا، ما أراد شرط أن يبني معبدا ضخما و أن يقدم له بقرة من ذهب، عظيمة الحجم حتى أنه يمكن لرجل ما أن يدخلها من دبرها و يخرج منها من الفم، فقام الامير ببناء المعبد و قدم للبراهمانيين البقرة الذهبية (و معها ايرادات طائلة تكفى لعدد كبير من الكهنة على الأرجح) و مَرَّ شخصيا أكثر من مرة بالبقرة حسب الطريقة المذكورة آنفا، فاعتبر بعد ذلك من البراهمانيين. و قد ينظر العالم بأسره إلى هذا الامر على أنه مهين حتى لرجل من العامة، لكن فى الهند حيث تقدس البقرة الحية، لا بد أن الكثيرين تمنا أن يرموا عبر بقرة كهذه (لأن الامر يستحيل مع بقرة حية) و لم يتالوا هذا الشرف. و لا بد أن البراهمانيين، و بهذه الشعائز، أى بإدخال الامير من دبر البقرة يذكرونه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٥

بأصله الوضع و يآخراجه من الفم يعلمونه أن الاله اعتبره من سلانته أى براهمانى.

و إذ يصعب أن ينتقل الشخص من طبقة الجنود إلى طبقة الكهنة، و يصعب أن يتدرج من طبقة دنيا إلى طبقة أرفع، يستحيل أن ينضم مسيحي أو مسلم أو أى إنسان من أية ديانة أخرى إلى إحدى الطبقات الهندية. أى إن الهنود لا يستقبلون مهتدين جدد. و هذا هو برأى السبب الرئيس الذى جعل الهنود فى الوضع المزرى الذى هم عليه اليوم، لأنهم لو رضوا بجعل الأفغان و التاتار الذين سيطروا أولاد على بلادهم من البراهمانيين أو الرسويطيين، لاعتنق هؤلاء مع الوقت ديانة أهل البلاد كفاتحي الصين، و لأصبحت الهند اليوم مملكة مزدهرة، لكن بهذه الطريقة بقوا رعايا هادئين و مكافحين تحت سيطرة أسيادهم الأفراب كما لو أنهم يخضعون لزعمائهم، و بقوا فخورين بأصلهم الهندى.

و لا- يلائم الحكام الأجانب ألا يتمكنوا من أن يتجنسوا فى بلاد يحكمونها استبداديا، و ألا يرضى السكان بالأكل معهم حتى أنهم يعتبرونهم غير طاهرين، لكنهم يحملون ذلك لأن الوثنيين يملكون خزائنتهم بالمال. و يتقبل الفاتحون المسلمون كأبناء بينهم أولئك الذين يصرحون علنا باعتناقهم لكنهم لا يحاولون هداية الكفار بالافتقار أو بالاكراه و ذلك لأن الهنود الذين يعتنقون الدين الإسلامى يكفون عن العمل الجاد و يصبحون مجرد جنود، فى حين أن الزعماء المسلمين يستقدمون الأفغان و التاتار لبقاء هذه البلاد الغنية تحت سيطرتهم و لتوسيع نفوذهم. و ما لم يهدمه المسلمون، هدمه لاحقا الأوروبيون الذين ارادوا جمع الثروات على حساب الهنود السادحين- إنما نجد فى البلاد امراء هنود واسعى النفوذ. و تحلص الحكام المسلمون فى الاقاليم الكبيرة تدريجيا من سلطة زعيمهم المشترك المغولى، إذ إن سلطه هذا الأخير ضعفت للغاية حتى عزله ملك بلاد فارس، و أخذ ملك الأفغان أى أبناء دينهم و من بعدهما التجار الانكليز فى الهند. و لا يخضع المغولى وحده لسلطة الانكليز بل بعض الحكام الكبار أيضا مما جعل حكم المسلمين ضعيفا للغاية فى الهند. و اذا ما امتدت سلطه الانكليز حتى تلك البلاد الثابتة، و هذا ما قد يحصل فى وقت أقرب مما توقعه اليوم، قد يستعيد الهنود قوتهم و يعيدون ضم الاقاليم التى كانت مكتظة بالسكان، و التى خربتها الامم الغربية إلى دولتهم المزدهرة. يعتبر الهنود الامنة الأكثر تسامحا فى العالم، ففى أى بلد أوروبى يسمح لأناس من ديانة أخرى أن يدعوا علنا إلى ديانة تخالف تلك المسيطرة فى البلاد؟ يبدو فى الهند و كأنهم لا يكتفون للأمر، كما أن طريقة حكمهم تختلف عن تلك المعتادة لدينا أو لدى الامم الأخرى. و تحرض كل طبقة على حسن تصرف أعضائها. و بالتالى نادرا ما يضطر القاضى إلى معاقبة تجاوز ما. حين يخالف أحدهم القوانين، يفرض عليه القيام بحج أو دفع غرامة نقدية أو أى عقاب آخر، و حين

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٦

يرتكب جريمة كبرى، ما من وسيلة لتأديبه سوى إقصائه عن طبقته أو قبيلته، و عندها لا تستقبله هو و ذريته أية طبقة أخرى باستثناء أديانها، فيعيش دوما فى الفقر و المهانة. و يعتبر وجود المسلمين و المسيحيين بالنسبة لهؤلاء الهنود نعمة إذ يخشون عن ملجأ لهم بينهم، و أكد لى أوروبيون أمضوا سنوات عدة على سواحل الكورومندل(Coromandel) أن الذين يعمل المشرون الأوروبيون على هدايتهم إلى الدين فى الهند هم اناس من هذا النوع أو من أحرر الطبقات أو القبائل، يعتن هؤلاء المسيحية أو الإسلام ليتمكنوا من العيش بكرامة فى المجتمع إن هم اجتهدوا فى عملهم. و فى بلاد الأتراك، يدفع الرهبان الأوروبيون كاهنا ما أو حتى أسقفا من طائفة مسيحية أخرى للاعتراف بالبابا كرتيس لكنيسة لقاء مبلغ سنوى معين، لكنهم يكسبون الكثير فى المقابل لأن العديدين يتبعون مثل رجل ذى نفوذ كهذا. يقال إنهم لم يتمكنوا فى الهند من هداية أى براهمانى بالرغم من جهلهم و فقرهم المدقع، و يقال إن اليسوعيين على شواطئ الكورومندل استمالوا يوما فتى يافعا من البراهمانيين، و قاموا بتربيته على الدين المسيحي الكاثوليكي، و لم يكشفوا له عن أصله إلا حين تأكدوا من أنه مسيحي متدين إلى حد أنهم قرروا الاستعانة به كمشير. و أعطوه البراهين القاطعة بأنه من سلالة البراهمانيين كى يمكنه من التقرب من مواطنيه، لكن ما إن علم بذلك حتى توجه، حسب ما يروى، إلى أبناء طبقته، و تلقى عقابا صارما أو على الاصح عانى الامرين حتى الشهادة ليظهر من المسيحية بحسب رأيه و ليقبلوه كبراهماني.

يصعب علينا نحن الأوروبيين أن نعرف ديانة الهنود و مذاهبهم المختلفة لأن كتب الشريعة القديمة لديهم و التى يعتبرونها الهية كتبت بلغة قلة هم الذين يفهمونها بين علماء البراهمانيين و لأن الهنود اليوم يتكلمون لغات مختلفة و تتنوع طرق كتاباتهم. يمكن رؤية ذلك على الوجه II، من كتابات مختلفة أخذتها عن بنيان لا تبعد أمكنة ولاذتهم عن بعضها كثيرا. و لم تكذب الحروف بشكل جيد للغاية، لكنى أعتقد أن محبى اللغات سيقدرونها بانتظار الحصول على نسخ أفضل، و لا أظن أن أى مسافر أوروبى يعرفها.

أ. حروف الأجدية التى يستخدمها البنيان فى مقاطعة كوجورات(Guzurat) و قد أخذتها عن تاجر هندى فى المخاب؛ ب. حروف اجدية هنود ملتى بنجاب(Multuni Ben Penjab) و كتبها بنسائى فى خرج، و سلمنى الحروف الإجدية «ج» بنسائى من دوفلى(Devuli) فى أبى شهر. إن الرموز التى يستعملها الهنود كآرقام أقرب إلى الأرقام التى نستخدمنها عن تلك التى يستعملها العرب.

و من المؤلف بالنسبة لمسافر أوروبى يؤد الاستعلام عن ديانة الهنود، أن العلماء البراهمانيين لا يهتمون ابدأ باللغات الأجنبية. و لا أظن أنه من الصعب، على من يستطيع التحدث معهم، أن يكسب صداقة رجل منهم، و أن يحصل بالتالى على معلومات قيمة لأنهم لا يخطون مبادئ.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٨

دينهم بالسرية كالدروز والتصيريين والزيديين الذين يعيشون تحت سطوة الاثراك فيبذعون انتماءهم للإسلام. و لم يتمكن من التفاهم مع علماء الهندوس سوى بواسطة مترجم لذا لم أجمع الكثير من المعلومات حولهم، لكن نجد بين التجار الهنود من يتكلم البرتغالية والانكليزية، ومنهم بعض الاشخاص المطلعين على الدين وقد أكدوا لي أن المتقنين والحكماء بينهم لا يعبدون كخائق لكل شيء، سوى إله قدير، حاضر و غير مرئي، لكن البراهمانيين اخترعوا آلهة ثانوية أعطاها أشكالاً معينة و وظائف محددة لأن الشعب البسيط عاجز عن فهم الأفكار المجردة . و يطلقون على آلهتهم الثلاثة الرئيسة الأسماء التالية: براهما(Brama) . فيشتو(Wistnu) و مادو(Madeo) ، ويعلمون الشعب أن براهما هو الخالق الأعظم الذي أوكل لفيشتو مهمة العناية بكافة المخلوقات الحيّة، و لمادو مهمة العناية بأرواح الموتى . اختلف البراهمانيون على مدى السنين روايات مقدّسة، و كلّفوا أتباعهم بشعائر كثيرة حتى أن معظمهم نسي ديانته القديمة. و بعثى البنيان الذي أكدوا لي أنهم لا يعبدون سوى الاله القادر، الأبدى و غير المنظور، بأبقارهم إلى حدّ كبير و كأنها الهة، و حين ابدت ملاحظات حول هذا الموضوع، أكدوا لي أنهم بمجردون الخالق عبر مخلوقاته، و أن على الانسان أن يشكر الرب الذي أهداه هذا الحيوان الوديع الذي يحرق حقله و يؤمن له الحليب.

عندما رأيت هذه العناية الفائقة التي يوليها البنيان للأبقار و سعّهم الدائم لحصول على تماثيل مختلفة، تساءلت إذا كان بين المصريين القدامى من أتبع إحدى هذه المذاهب الهندية، و حتى بين الاسرائيليين الذين أرادوا صنع عجل من ذهب قرب طور سيناء، لكن دراسة كهذه ليست من اختصاصي اذ قد أخطئ.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٩

يعتقد الهنود أن نفس الانسان تنتقل من جسد إلى آخر حتى تنطهر كليا، و أعلمني بعض البنيان أنهم يعتقدون أن روح الانسان قد تنتقل إلى جسد حيوان ما. لكن هذا ليس بالنسب الذي يمنع البنيان والبراهمانيين من تناول ما ينض بالحياة لأن الرسيوطيين (و هم من الوثنيين أيضا) يأكلون لحم الخراف، و لا يمنع الامراء الهنود رعاباهم من مسيحين و مسلمين من ذبح الأبقار. و تحدثت مع قبطان سفينة أوروبية و تاجر زجيا في السجن عن الممارتين، فأعلنا أننا لا نستطيعان العيش من دون لحم فقدموا لهما يومية لحم الخراف و الدجاج . و لو اعتقد الهنود بأن أرواح أسلافهم تعيش في هذه الحيوانات لما سمحوا لرعاباهم المسيحين و المسلمين بذبح أي من هذه الحيوانات لا سيّما الأبقار و لما قدّم البراهمانيون لسجّانهم لحم الخراف و الدجاج.

و لعل الهنود لا يأكلون لحم الأبقار لأسباب صحية، فمسلمو مصر و سوريا و حتى القسطنطينية، حيث الحرارة ليست مرتفعة كما في الهند، يعتبرون أن لحم البقر غير صحي لا سيّما في الفصول الحارة لذا قلما يأكلون منها. و لعل المشرعون اليهود، ظنوا أنه ضروري للصحة تحريم اللحم لأن الشعب يتبع المعتقدات الدينية أكثر من نصائح الطبيب، كما اعتقد أن القوانين الدينية الشرقية أمرت بتنظيف الجسد مرارا لأسباب صحية أيضا.

إن البراهمانيين و البنيان متعاطفون جدا مع كافة الحيوانات، و قد اعتاد تاجر تري من المخا أن يحمل كل صباح الشعير حتى سطح منزله لإطعام الحمام و الطيور التي تحط عليه. و في يومية، رأيت خادم أحد البنيان يطعم الطيور الكواسر خارج المدينة، و بدت هذه الطيور و كأنها تعرفه اذ تحلقت حوله ما إن رآته، أما رؤيتها و هي تلتقط كسرة الخبز أثناء طيرانها فتمتعة للعين. و قد أكدوا لي أن الهنود يطعمون النمل، و قال لي التاجر أنه يضع في منجره طعاما للفئران و الجرذان كي لا تقترب من بضاعه، و يدعى البعض أنهم لا يرمون الماء أرضا خوفا من أن يقتلوا بعض الحشرات.

و يستغلّ بعض اتباع الديانات الأخرى حبّ الهنود للحيوانات، فقد اعتاد جندي أوروبي في يومية أن يجز كلبا بحبل في الشارع التجاري و أن يهدده و يضربه، فيتقدم منه أحد الوثنيين و يقدم له شرابا ليمتعه من إساءة معاملة مخلوق بري . و يبيع صياد و الأسماك المسلمون في المخا سلاحف البنيان كي يقوم هؤلاء بعمل صالح بإطلاق سراحها.

يضع البنيان موتاهم على كومة حطب و يحرقونهم عند المدّ، حتى يحمل اول جزر رمادهم معه،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣٠

و هذا ما شاهدته شخصيا و أكثر من مرة . و يتم دفن أولادهم الذين لم يتعد عمرهم ثمانية عشر شهرا، و يقال إنهم يشقون بطن المرأة الحامل و ينتزعون الجنين و يدفونهم في حين أنهم يحرقون الأم.

و قلما يسمح في يومية و في مدن أخرى خاضعة لحكم المسلمين بحرق النساء و هنّ أحياء مع أزواجهن المتوفين، حتى أن هذا الأمر لا يسمح به غالبا في مناطق حكم الهنود. روى لي تاجر من البراهمانيين في مسقط أن عائلته نالت شرقا غالبا يفوق العائلات الاخرى لأنه سمح لها بحرق جدته مع زوجها المتوفى، و لأن هذا الشرف لا يمنع إلا للتي تثبت للقاضي بأدلة قاطعة عفنتها و حبها لزوجها.

يقسم البراهمانيون الوقت منذ تكوين العالم و حتى نهايته إلى أربع فترات، تمتد كل منها كما يلي:

(١) وقت ساتا ياغ(Sata Jug) ، و يمتد على ١٧٢٨٠٠٠ عام

(٢) وقت تريتا ياغ(Treta Jug) ، و يمتد على ١٢٩٦٠٠٠ عام

(٣) وقت دويبور ياغ(Doapor Jug) ، و يمتد على ٨٦٤٠٠٠ عام

(٤) وقت كالا ياغ(Calla Yug) ، و يمتد على ٤٣٢٠٠٠ عام

و قد مرّ من الفترة الاخيرة ٤٨٦٥ سنة و ذلك في نهاية العام ١٧٦٤ للميلاد، و بالتالي، و وفقا لحسابات البراهمانيين، بقي للعالم ٤٢٧١٣٥ عام.

و نجد ما حصل في الفترات الأربع في الكتب التالية:

(١) كتاب راغر ويد(Ruger Wed) حول وقت ساتا ياغ.

(٢) كتاب سدسفور ويد(Sudsfur Wed) حول وقت تريتا ياغ.

(٣) كتاب شام ويد(Scham Wed) حول وقت دويبور ياغ.

(٤) كتاب اتوروا(Attorwa) حول وقت كالا ياغ .

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣١

يحسب الهنود الزمن أيضا وفقا لنظام آخر، فيعتبرون العام ١٧٦٤ للميلاد هو العام ١٦٨٦ بعد شاه ليوان(Schach Liw un) (الذي يسميه البعض سلاوان(Sallawan) و سنكه راديب(Radsia) )(Sancka) ملكك منجيباتان(Mundsijipatan) . و يبدو أن تغييرات عدة طرأت على النظام السياسي و الكهنّي في عهده. تدوم هذه السنة ٣٦٥ يوما و ست ساعات و اثنتي عشرة دقيقة، أما الأشهر فهي:

جيتز ٣١ يوما(Scheiter) .

بيشاك ٣١ يوما(Weis ck) .

دياد ٣١ يوما(Dfiad) .

آشار ٣١ يوما(Afar) .

أسفو ٣٠ يوما(Asfo) .

كارتيك ٢٩ يوما(Kartig) .

موكشر ٣٠ يوما(Mogfir) .

بوش ٢٩ يوما(Poos) .

شراين ٣١ يوما(Srauren) .

بدروا ٣١ يوما(Badrowa) .

ماك ٣٠ يوما(Maag) .

بالكن ٣٠ يوما(Paggen) .

استادا إلى الحساب المدني، يعتبر هنود ساحل مالابار نهاية العام ١٧٦٤ للميلاد، العام ١٨٢١ بعد راجا وير و يكرام ماندي(Radsja Wir Wilkkram Mandsji) ملك يوج(Udsje) في مالابار(Mallawa) و والده الشاه ليوان الذي ذكرته آنفا. و هي سنوات قمرية، تبدأ أشهرها عند التقاء الشمس و القمر، و يتم أحيانا زيادة شهر بأكمله، كي تقع أيام الأعياد في الموعد دائما، و تستسى هذه الأشهر اديك ميتو(Adik Meino) أي الشهر المضاف، لكنه لا يعتبر مقدسا أكثر من أي شهر آخر في السنة العادية.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣٢

تبدأ السنة المدنية عند هوند قوجارات و السند بالشهر الذي وصل فيه بطلمه العظيم رامشي، الذي يقيمون له احتفالات عدة، إلى مقاطعاتهم، لذا يحتفل برأس السنة في قوجارات و في بومباي في شهر كاركك في حين أن سكان السند يحتفلون به في شهر آشار. و تلى الأشهر المدنية بعضها البعض بترتيب الأشهر الفلكية نفسها. أما بالنسبة لأيام الأعياد عند الهنود، فما عرفته بطلعنا على كبار قديسهم و أبطالهم و يعطينا فكرة عن ديانتهم اليوم. و تدموم حفلة الدوالي(DWali) أو رأس السنة ثلاثة أيام، و تمتد من اليومين الأخيرين للسنة الماضية و اليوم الأول للسنة الجديدة، لكن بما أن السنة لا-تبدأ في اليوم نفسه في كافة الأقاليم، يحتفل بهذا العيد في أوقات مختلفة. و يطلق الهنود الاسم التاريخية و المفرقات في أعيادهم كما يضيفون بيوتهم بالقاديل.

خطف راوان(RaWan) ، و هو ملكك جبار في سيلان، يوصف بأنه ذو عشرة رؤوس و بأنه غول كجسده، زوجة راجا رامشي(Radsja Ramcschi) ، فقص هذا الاخير سيلان و قضى على راوان وجدته. و احتفاء بهذه المناسبة، يحتفل بعيد هول(HULLI) في ١٢ و ١٣ و ١٤ و ١٥ من شهر ماك. و عندما نرى الهنود المعروفين بجديتهم، خلال هذه الأيام، نحكم عليهم كما حكم التركي على الأوروبيين أثناء الكرنفال و اعتبرهم مجانين اذ يصغون ثيابهم و وجوههم و أيديهم باللونين الأحمر و الأصفر كما كانت ثياب رامشي و جماعته مخضبة بالدماء بعد معركة سيلان. و يركضون في الشوارع بأيديهم الملونة و حتن مليئة بالألوان يرشقون بها أبناء دينهم و لا يمسحها أحد منهم لأن آخر سيمود و يلونه بها. و قد منع القاضي المسلم هوند سورات من الاحتفال بهذه المناسبة علنا لكنه عاد و سمح بذلك لقاء مبلغ من المال. و حين كنت في بومباي، تم الاحتفال بهذه المناسبة مع كافة الشعائر.

و يعتبر اليوم الاول من شهر جيتز يوم عيد لكنى لا أعرف مناسبة ذلك، و يصادف في التاسع منه يوم عيد في ذكرى قصة ما لبطلمه رامشي. و يصومون في ١٤ و يزاك في ذكرى شينغا و انتر(Neschinga Wanter) . و في الخامس من شهر شرابن، ترمي ثمرة جوز الهند ذهبية في الماء و يترافق ذلك مع شعائر عدة، و هو يعتبر يوم عيد ايضا. و يروي الهنود حكاية حول هذا اليوم و هي أن براهماني تبنأ لراوان، الذي ذكرته آنفأ، أن فاة ما ستهلكه، فشدد عليها الحراسة منذ ذاك الحين. و عندما بلغت السنة أشهر، هطلت أمطار غزيرة ففرق من حولها كلهم، لكن المياه حملت الفتاة الموضوعة في صندوق من جزيرة سيلان حتى اليابسة قرب شاطئ. شخص يدعى راجا(Radja) الذي سعد برؤيتها فأخذ يرمي ستويا جوزة هند في البحر في الموعد نفسه. و تزوجت هذه الفتاة لاحقا رامشي الذي قضى على راوان. و لا يقتصر هذا العيد، الذي يقام تخليدا لبقاه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣٣

هذه الفتاة المجاني على قيد الحياة، على هوند سواحل مالابار، و يحتفلون به دائما عند نهاية موسم الأمطار. و يبقى البحر ثائرا هانجا في الأشهر التي تسبق هذا الاحتفال، فلا يتجرأ أي مركب هندي على الخروج من المرفأ، لكن ما أن يضحى بجوزة الهند، إذا ما صحّ التعبير، يبحر الوثيون من دون خوف. و يصادف هذا الاحتفال في السند قوجارات في الشهر التالي، و العمل لراو يعود إلى أن الأمطار تتوقف عن الهطول في وقت لاحق.

في ١١ شرابن، يحتفل بولادة كيش ناوانتر(Kisch NaWanter) ، و يدعون أن المعجزة الثالثة حصلت في ذاك اليوم: تبنأ براهماني للملك عظيم يدعى كنس(Kauns) أن أخته ياسادا(Jassada) المتزوجة من المدعو نودادجي(Naudadsji) ، ستضع فتى يغدو في ما بعد رجلا عظيما و يقتله، فأمر كنس بقتل أولادها السنة. و حين حملت من جديد، قيدها بجدار منزلها. و أنجبت طفلا اطلقت عليه اسم كيتش ناوانتر أي كيتش الجبار. و أتمس الفتى بالذكاء، فأوصى لأبيه أن يبادله بفتاة وولدت في الوقت نفسه الذي ولد فيه، لكن هذه الفتاة تعيش على الضفة الأخرى من نهر عظيم و عميق، و حار نانجي كيف يقطعه فقال له ابنه أن يكمل طريقه بأسان، فاجتاز النهر سيرا على الأقدام و يبادل ابنه بالفتاة و عاد إلى منزله. و ما إن علم كنس بأن أخته أنجبت حتى أمر بقتل الرضيع، فماتت الفتاة.

و في ١٠ أسفوء، يحتفل الهنود بعيد يسمونه دسفارا(Desfara) ، و يتم في هذا اليوم تعظيم و تمجيد شجرة الساموري(Samorie) لأحد رامشي جلس في فينشا حين جمع جسده للتسوية إلى سيلان و قتل راوان. و رأى في هذا اليوم طيرا يطلق عليه اسم نيلشاه(Nilschahs) ، فأمل أن تمز عليه سنة سعيدة.

سأورد المعلومات الاساسية التي تلقيتها حول الوضع الحالي لديانة الهنود. اذا ما قارناها اليوم بما علته الفلاسفة القدامى في الكتب التي يعتبرونها مقدسة و التي ترجم الكولونيل دوي(Dow) شيئا منها لوجدنا أن ديانة الهنود كديانات غيرهم شهدت تغيرات عظيمة خلال القرون التي مرت عليها و إن حاول العلماء البراهمانيون المحافظة على ديانة أسلافهم كاملة. و يقتصر غذاء الهنود الاساسي على الأرز و الحليب و الزبدة، و يكتفى عامة الشعب بخبز الذرة، و يحون اضافة التوابل شيئا الحز إلى أطباقهم كما يحبون السكر، و لا يأكل أي جندي، من أي طائفة كان، لحم البقر، لكن الراسبوطيين أو طبقة الجند تأكل لحم الخراف و ربما لحوما أخرى.

و تعتبر قوانين البراهمانيين في ما يتعلق بالطعام أصعبها، إذ لا يتجرأون على أكل ما هو نابض بالحياة، و اذا ما أرادوا التقيد بدقة بما تفرضه عليهم طبقتهم لما أكلوا البصل و الفجل و خضارا أخرى تأكلها الطبقات الأخرى بحرية مطلقة. و ينبغي أن يحضّر براهماني الطعام الذي يأكلونه، و أن

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣٥

يحضر الماء الذي يشربونه في انائه الخاص و ذلك في وقت لا يحضر فيه أحدهم الماء من البئر نفسها، كما يصومون نصف أيام السنة و لا يأكلون خلالها إلا أصناف محددة. باختصار، إن واجبات البراهماني متعددة و صعبة للغاية، حتى أن تاجرا براهمانيا في مسقط أكد لي أن قلائل من طبقته هم الذين يتمكنون من التقيد بهذه التعاليم و تنفيذها كلها من دون استثناء. و لا يأكل النبات أيضا ما ينضب بالحياة، لكنهم لا- يتوافقون على العيش كالهنود، و نادرا ما يصاب هؤلاء الأخيرون بالأمراض، كما يتجذدون دائما في عملهم، على عكس الأوروبيين الذين لكثرة ما يأكلون و يشربون و في أوقات غير منظمة لا يقوون على العمل و يصابون بأمراض تؤدي إلى موتهم غالبا.

وضع البراهمانيون قواعد عدة للهنود حول الأكل و الشراب، فيجلسون متريعين على سجاد أو أرائك كالأتراك و العرب و بعيدين عن بعضهم البعض حتى أن ملابس أحدهم لا تلمس ملابس الآخر. و لا يستخدمون للأكل شوكة أو سكينه أو ملعقة، بل صحنونا هي عادة أوراق كبيرة يرمونها خارجا ما أن ينهوا و جيتهم، و لا يشربون أبدا من إناء استخدمه شخص من ديانة أخرى. عندما أبحرت نحو جزيرة الفيل، كان البحارة يحتفلون بجزء مياه مشتركة، يشربون مباشرة من دون أن تلمس الجرة شفاههم، و لعل الجرة تعود لوثنيين. و هناك بين البحارة مسلمون أو أن الوثنيين من طبقات أخرى. و يطلب من الهنود المحافظة على نظافتهم، حتى أكثر من المسلمين، فلا يكتفون بالاعتشال قبل الوجبات و بعدها و في اوقات معينة، انما ينبغي أن يغتسلوا كليا صباحا و مساء.

و نجد في الهند حاليا، حيث ازدهرت الفنون و العلوم في الوقت نفسه الذي ازدهرت فيه في مصر، أعمالا قديمة تثير العجب. لكن يبدو أن الأوروبيين لم يكتروا لها، فقد ذكر العديد من المسافرين المعبد الوثني القديم على جزيرة الفيل الصغيرة قرب بومباي عرضا. و ألفتيه غربيا و جديرا باهتمام محي الآثار، حتى أتى زرتة ثلاث مرات و رسمت كل ما أثار انتباهي. و يقع هذا المعبد عاليا في الجبل حيث حفر في الصخور الصلبة، و يبلغ طوله ١٢٠ قدما و عرضه المساحة نفسها تقريبا اذا ما استثنين المداخل القائمة على الجيوتين، و نجد رسما له على اللوحة III. و يقوم المدخل الرئيس في الجهة الشمالية و يمتد أمامه سهل تنق بفق و يطل على البحر و الجزر المجاورة، كما نجد مداخل من جهتي الغرب و الشرق لذا لا يفتقر المعبد للهواء المنعش اذا ما نظّف، لكنه يستخدم حاليا كزريبة للحيوانات لا سيّما ذوات القرون التي تدخله عند اشتداد القيظ. إن سطح المعبد غير مرتفع بسب الجبار الذي يحمله الهواء و التراب الذي تجرفه الاطمار، لكن الكمية قليلة مما يدعو للاعتقاد بأن المعبد نظّف منذ سنوات.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣٦

و يبلغ ارتفاع الصرح الرئيسي الداخلى أربع عشرة قدما و نصف. و يستند الجبل الذي حفر المعبد فيه إلى اعمدة عدة نحتت من الصخرة نفسها، و هدمت العوامل الطبيعية و عامل الوقت بعضها من الأسفل، و قد أشرت اليها بنقاط على الرسم. و أشير إلى أننا نرى على بعض هذه الاعمدة، عند النقطة من اللوحة IV، صورة للاله غونيس(Gonnis) ، و هو إنسان برأس فيل، لكنى لم أورددها هنا. و نجد أيضا في الصرح الرئيسي غرفة أ، لوحة III، حفرها الباني في الصخر حين بنى المعبد، و لها أربعة مداخل و تطلعنا صورة



بشرى من كل جهة من هذه الابواب يبلغ ارتفاعها ثلاث عشرة قدما و هي ناتئة فلا يستند إلى الحائط سوى الظهر، و قد تحت في الصخر نفسه عند بدء العمل. و قد تعرضت هذه الصور الثماني للذئ من الأسفل، و لا يعود السبب إلى تصف الترانلين كما يدعى المسافرون إنما لمياه الأمطار التي تتناقص على المعبد منذ سنوات و تبقى فيه لوقت طويل. و لو أراد البرتغاليون إلحاق الضرر بهذه الصور الوثنية لما حملوا المدفعية على جبل عال كهذا و اكتفوا باستعمال المطرقة، و لعل البعض استخدمها بالفعل لهدم بعض التماثيل و المنحوتات.

و تكثر الصور العالية، و المنحوتة في الصخر على الجدران الجانبية، و لا بد انها تصوّر تاريخ آلهة الهنود و أبطلهم، لذا تفتح أفقا جديدة امام العلماء و تزودهم بمواضع للدراسة. و لا يضاهاى جمال هذه التماثيل جمال المنحوتات الاغريقية و الرومانية لكن رسمها و موضعها افضل من الرسومات المصرية و انهى نظرا لقدمها. نجد قرب الرقم ١ من الخارطة و بالتالي عند المدخل التمثال الاساسى الذى يمثل على ما يبدو راما قشتو و مادو أو إليها آخر بنى المعبد من أجله. و قد رسمته على اللوحة٤ مع التماثيل الموجودة قرب العمودين ٢ و ٣، و هو عبارة عن تمثال نصفى بثلاثة رؤوس، و أربع أيد، و يبلغ ارتفاعه ثلاث عشرة قدما. و يتميز هذا التمثال كغيره بشفاة سفلى عظيمة، و أرقام كبيرة تتدلى حتى الكتاف و هي موضوعة ما لا زالت سائدة في الهند اليوم. و يحمل أحد الرؤوس شارين، أما الرأسان الآخران و التماثيل الاخرى فلا تحمل شارين أو ذقا (يطلق الشباب الهنود شواربهم و يرعى العجزة ذقونهم). و يتميز و جهان من هذه الوجوه بسماط جديدة أما الوجه الثالث فيستمسك لحيحة (كوبرا كايلا)، و لا يمكن اكتشاف ما يحمله التمثال في يديه اليسرين. تم حفر القبعات بمهارة، و يبدو أنها من المعدن، استنادا إلى الزينة التي تملؤها، و يبدو أن التمثال الأمامى كان يحمل على جبينه حجرا كريما و في رقبته عقدا رانعا من الأحجار الكريمة و اللؤلؤ. أما الرأس الذى يحمل شارين فيقول بقبعه رأس ميت.

يبلغ ارتفاع التمثال الموجود إلى يمين المذکور أعلاه و قرب الرقم ٢ على الخارطة، عشرة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٤٠

أقدام، لكنه فقد قدميه و إحدى يديه مع الزمن، و يبدو و كأنه يتكىء بيده اليمنى على رأس شخص آخر يجلس قره متمسكا. و يستند التمثال الرئيسى من الجهة الاخرى (قرب الرقم ٣ على الخارطة) بذراعه اليسرى على رأس قدم، و يلتفت جبل رفع حول اكتاف التماثيل الكبيرة، و تتدلى من آذانهم أرقام ثقيلة، و يزين سواعدهم سوار فوق الكوع و آخر تحتها، كما يظهر على اللوحة.

ترى قرب الرقم ٤ على الخارطة حوالى ٣٠ تمثالا تمثل من دون شك مغامرات بطل ما أو اله ما من آلهة الهنود، و اكتفيت برسم اهما على اللوحة٤. أما التمثال الرئيسى فيمثل امرأة بتدى وحيد، و أربع أيد، و لعلها فارسة تستند بيدها اليمنى الامامية على رأس تور، و تمسك بيدها اليمنى الخلفية أفعى، و بيدها اليسرى الامامية قطعة قماش أو ما شابه ذلك، و بالخلفية ترسا صغيرا. و تتميز التبعة نفسها التي تعمرها التماثيل الاساسية في هذا المعبد، و تضع ايضا اقراطا و عقدا و حزاما، فضلا عن الاساور في يديها. و تقوم على صخرة منحوتة لكن العوامل الزمنية حثتها، أما في الجهة الشمالية، فنجد امرأة صغيرة تحمل في يدها مذبة كلتك التي تستخدم في الهند حاليا.

و اثار انتباهي تمثال يقوم إلى اليمين و قبالة رأس الفيل، فله ثلاثة رؤوس و أربع ايد و رسم على مقعده عيون، و ترى الصورة المحفورة على كتف احد التماثيل في أماكن اخرى. اذا ما كانت الصور تمثل نبتون الهند، و اذا ما كانت التي تتحرك في الأعلى تمثل الملائكة، و ما يعنى كل هذا إنركه لعلماء الآثار الهنديّة، و لعلنا اذا ما حصلنا على معلومات حول ديانة الهندوس و اذا ما أطلع بعض المسافرين علماء البراهمانيين على هذه الصور نتمكن من تفسيرها.

يمكن أن ترى المغارة على اللوحة٧ و على الخارطة قرب الرقم ٥. يبلغ طول التمثال الرئيسى إحدى عشرة قدما و يتكىء بيده اليسرى الامامية على قزم ينظر إلى الأعلى بطريقة تدعو إلى الرثاء كما يشكى من ثقل وزن معلمه. و يحمل القزم يسراه مذبة كبيرة و تلتف حول يده اليمنى حية، و يعتمر ما يشبه العمامة. و يستند تمثال المرأة الكبير على أنثى قزم تبدو و كأنها تزح تحت هذا الثقل، و ترى إلى اليمين امرأة صغيرة ترتدى سروالا.

و تطلعنا قرب د. (على الخارطة المرسومة على اللوحة٨) شقق مظلمة، تكثر فيها المياه، في الفصل الذى زرت فيه المعبد، و هي مياه تعب منها الأبقار التي تتراد المكان، و نجد قرب ٥٥ شقة كبيرة مظلمة أيضا. و قد اعتاد المسافرون، حين يزورون السراديب أن يطلقوا عبارات نارية لظرو الحيوانات المفترسة التي تختبئ فيها، أما أنا ففضلت ألا ألج هذه المغارة أو غيرها. حيث يحتمل وجود حيوانات مفترسة لا سيما حين لا أكون متأكدا من وجود مخرج آخر لها أو إمكانية لرجاعها بعد اخافتها. اطلق الكسندر هاملتون عبارا ناريا في أحد الممرات، فخرجت أفعى يبلغ

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٤٢

طولها ١٥ قدما و عرضها قدمين فقط و رفاقه من المعبد و اضطر إلى انهاء دراساته كما أطلق ضابط من يوميات النار في معبد مماثل في كتارى في جزيرة سلفت(Salfet)، فهاجمه سرب من الزنبور و رماه أرضا، و سارع أصحابه حين سمعوا الطلق الناري لرؤية اذا ما تعرض لهجوم أى حيوان مفترس فوجدوه في حالة مزرية. و تعيش هذه الزنابير في أعشاش كبيرة مستديرة معلقة في القبة، و لم تكن لتهاجم الضابط لو لم يزعجها أولا.

تمثل الصورة أعلى اللوحة٨٨ مغارة حدد موقعها قرب الرقم ٦ على خارطة هذا المعبد يظهر التمثال الرئيس جالسا، و له أربعة أذرع، ثلاثة منها مقطوعة، و فقد التمثال الصغير الجالس إلى يمينه رأسه كما لحق الضرر بأسفل الصخرة التي يقومنا عليها. و نجد في الجهة اليسرى للتمثال الرئيس امرأة تحمل طفلا كما تفعل نساء الهند حاليا .

و تختلف هذه المغارة عن غيرها لوجود تماثيل و كأنهما غارقان في الأرض، و يبدو على وجهيهما الالم، أما ما يضعه احد الشخصين على رأسه فيشبه الشعر المستعار مما يدفعا للاعتقاد بأن الاوروبيين ليسوا أول من عرف هذه الزينة. و يعلو هذين التماثيل، عدد من التماثيل التي تغير في الهواء و من بينها واحد بلحية.

و ترى قرب الرقم ٧ مغارة اللوحة٨٩، أما التمثال الاساسى هنا فامرأة بأربعة أذرع تمثل على ما يبدو أحد الآلهة، و نجد إلى الشمال تمثالا بأربعة أذرع واقفا. يعلو الها جالسا و له ثلاثة رؤوس، كما نلاحظ على هذه اللوحة تسريحات عدة شبيهة بالشعر المستعار. تم إلحاق الضرر عمدا بتماثيل المغارة الواقعة قرب الرقم ٨ على الخارطة، إذ إنها فقدت رؤوسها، و يبدو التمثال الرئيسى جالسا، و له ستة أذرع و يمسك بيده امرأة. و ترى قرب الرقم ٩، اللوحة٩٠ تمثالا كبيرا للغاية بشمانية أذرع كما يبدو على اللوحة٨٩، و قد فرغناه و بدا عليه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٤٥

الغضب كما فقد يديه و رجله الامامين بفعل الزمن. و يمسك هذا التمثال بيده اليمنى حساما كبيرا، و الاخرى طفلا من ساقه، أما بيده اليسرى فيحمل حوضا، و بالتالي جرسا صغيرا، و يرفع بيديه الخلفيتين جلا طويلا. و نجد حول هذا التمثال الكبير، العديد من التماثيل الاخرى الصغيرة التي يبدو عليها الخوف.

اعتبر بعض المسافرين هذا المشهد صورة الحساب الاول لسليمان، و قال لى هندي انه يمثل كوس(Kos) أو كس(Kanus) الذى اتيت على ذكره سابقا، و الذى قتل عددا من أولاد عائلته يظهرهن هنا على شكل سلسلة رؤوس، و يشير الصحن إلى أنه جمع فيه دماء الاطفال، فيما يعلن الجرس قدومه. في النهاية، أنه ضميره للغاية عندما تذكر الجرائم التي ارتكبها، فحاول ان يتوارى عن أنظار الناس و هذا ما يشير اليه الحبل الذى يرفعه بيديه الخلفيتين.

شوّهت تماثيل المغارة القائمة قرب الرقم ١٠ (اللوحة٩١) كليا تقريبا، و نجد فيها العديد من التماثيل الشبيهة بالتي وصفتها سابقا باستثناء واحد يمتطي جوادا.

إن التمثال الموجود قرب الرقم ١١ ضخم للغاية، له ستة أذرع، لكنه تعرض للضرر و ترى إلى شماله ثلاث نساء و الي يمينه تمثال يحمل رمحا في يده، و نلاحظ فوقه رأس فيل و شخصين يجلس احدهما فوق الاخر، و قبائنه شخص جالس و له ثلاثة رؤوس. كما نجد بين التماثيل الصغيرة المعلقة، اذا ما صح التعبير، في الهواء غونيس أو هانانوات(Gonniss ou Hannawant) شاهرا سيفه و سأسفّه بالتفصيل لاحقا.

يبلغ الارتفاع الداخلى للمصليات حوالى ٩ أقدام و بالتالي ليست أعلى من الصرح الرئيس، و قد حفرت ايضا في الصخر. و نجد خلف احداها غرفة صغيرة (ج) لم أر فيها سوى حجر مقلوب، و تغطى التماثيل الجميلة جدران المصلى الأمامى الجانبية، و هي تضاهي تماثيل المعبد الكبير من حيث الجمال لكنها أصغر من حيث الحجم.



رسمت التماثيل الاساسية في المغارة الموجودة قرب الرقم ١٢، اللوحة II على اللوحة IIV قرب الحرف «ب». و يبدو الشخص الرئيسي جالسا بالطريقة نفسها التي يجلس فيها الشقرون اليوم، عندما يكونون وحيدين أو مع أمثالهم مع فارق بسيط و هو أن إظهار باطن القدم يعتبر اليوم مناف للآداب. و يجلس الشخصان الموجودان إلى جانب التمثال الاول على عقيهما كما يجلس مسلم من طبقة دنيا في حضرة شخص من الأعيان . و نرى في الأعلى تماثيل أخرى صغيرة لكنها تعرضت للضرر.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٤٨

و نجد الصور الثلاث II، اللوحة IX، قرب الرقم ١٣ من اللوحة III، و هي لم تتعرض للضرر.

يبلغ طول التمثال الاساسي ٦ أقدام و بوصتين، يقف على جانبه قدما غطاهما شعر مستعار ضخم، و يحمل أحدهما أفعى كبيرة على كتفه. و تقع بالقرب منه على مغارة أخرى تماثيل عدة متضررة، و كان للتمثال الرئيس فيها أربعة أذرع، و نلاحظ بين التماثيل الصغيرة، واحدا فوق الآخر و للأعلى أيضا أربعة أذرع فيمثل إنسانا بثلاثة رؤوس يركب جابوسا عظيم القرنين فضلا عن حية كبيرة.

إن المصلي الواقع في الجهة الأخرى للمعبد أكبر من ذاك الذي وصفته، لكنه بالارتفاع نفسه.

و قد تعرضت عواميد المدخل الرئيس لعامل الزمن. فالكاد نكتشف أثر لها، لكن الرسوم المنحوتة على الحائط لازالت في حالة جيدة. نرى قرب الرقم ٣ من اللوحة III كهفا رسمت منحواته الاساسية قرب الحرف ب على اللوحة IX، يبلغ ارتفاع أكبرها سبعة أقدام و نصف و يستند برمح على رأس امرأة صغيرة وضعت عليه و سادة لهذه الغاية على ما يبدو. و من بين الرسوم التي لم أنسخها، شخص بثلاثة رؤوس يجلس على مقعد مزين بالعيون، و شخص بأربعة أذرع يجلس على كتفي شخص آخر و يعولها رسوم صغيرة عديدة.

تعرضت الرسوم على الحائطين ١٥ و ١٦ لأضرار عديدة بفعل مرور الزمن، أما الرسوم الاساسية فكبيرة الحجم و بالتالي أقل تضررا. و هي تمثل إليها ناثويا هو غونيس أو هاناوات. إن قصته معروفة، و قد أوردها مسافرون عدة، لكني سأتي على ذكرها هنا كما سمعتها على لسان البحارة الذين أوصلوني من بومباي، رولا لي أن بارفوتي (Parvotti) زوجة ماديو (Madedo) كانت تسبح يوما في نهر، و طاب لها المقام فلم تعد تباركا إلى المنزل، لذا صنعت من الاوساخ التي غسلتها عن جسدها فتى اسمه غونيس و أرسلته إلى المنزل ليحرسه أثناء غيابها. في هذه الانتاء، عاد ماديو و سأل الفتى عن نفسه و عما يفعله في المنزل، فأجابته أنه ابن بارفوتي و أنها أرسلته لحماية المنزل، فغضب ماديو غضبا شديدا و قطع رأسه. بعد ذلك، روت بارفوتي لزوجها كيف كوّنت ابنتها، و تبين لماديو أن زوجته ليست بمذنبه، فتأثر لرحيمته و أراد بعث الفتى غونيس من جديد لكنه لم يجد رأسه و بما أن الفتى لا يمكن أن يعيش من دون رأس، قطع ماديو رأس فيل صغير و وضعه على جسد الفتى. و لهذا السبب، يصوّر غونيس كرجل برأس فيل، و يعده سكان شواطئ مالابار اليوم.

و لا يهتم سكان جزيرة الفيل، و هم حوالي مئة عائلة فقيرة، إلا بهذا المصلي الصغير في المعبد كله، و لازالوا يرتادونه اليوم و هذا ما رأيته شخصيا، ففي أحد الأيام، بينما كنت في المعبد الكبير، دخل أحد هؤلاء و أخذ يصلي. و تم المحافظة على نظافته، و قد صيغ تمثال غونيس فضلا عن بعض الحجارة منذ فترة وجزيرة باللون الأحمر. و تمثل هذه الحجارة، على الأرجح، بعض الآلهة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٤٩

الثانوية أو بعض الأبطال أو القديسين، لأننا نجد مثلها في بومباي غالبا، لا سيما تحت بعض الاشجار التي يتبرها الهند مقدسة. و تفاجأت لوجود هذه الحجارة في معبد تكثر فيه هذه الكمية من الأبطال و الآلهة، لكن لعل الهنود لا يعيدون حاليا من آلهة البلاد القديمة الا غونيس و لعل كومة الحجارة تمثل بعض الأبطال الجدد الذين لا نجد لهم تماثيل من هذا المعبد و لا يجيد البراهمانيون رسمهم بغياب نحائين ماهرين أو مؤمنين اغنياء. و أترك لمن سيسافر لاحقا أمر الاستعلام حول هذا الموضوع من البنيان.

و نرى قرب الرقم ١٧ من اللوحة III رسما كبيرا لشخص يحمل حية بيده اليمنى الثانية و يتكبه بكوعه الامامي اليسر على تمثال صغير، و نشاهد قرب الرقم ١٨ تمثالا كبيرا و آخرين صغيرين لكنها مشوهة.

و نجد في هذا المصلي غرفة «ب» حفرت في الصخر كالغرفة «أ» لكنها تختلف عنها بكونها بمدخل واحد، و بأن جدرانها مستوية، و نلاحظ أنها أعلى من المصلي لأن المسقف نظيف، و تطلعتا في وسط هذه الغرفة حفرة سدت بحجر. و بالتالي، لكل معبد غرفة خاصة، خصصت على الأرجح للفرض نفسه، و اترك للآخرين اكتشاف ما اذا تم دفن رماد المؤمنين هنا، أو ما اذا تم الاحتفاظ هنا بالاشياء المقدسة التابعة للمعبد، أو استخدمت لأغراض دينية، و أشير إلى أنني لم أجد أية كتابات.

و لا يعرف سكان الجزيرة الصغيرة الحاليين شيئا حول الآثار و حول تاريخ هذا المعبد، و استنادا إلى رأيهم، وصل في يوم من الأيام، و عند المساء، أناس إلى المنطقة و حفرها هذا المعبد في الصخر ثم غادروا عند الصباح. و هي الفكرة التي تسود بين المصريين حول الاضرحة الرائعة التي خلفها اسلافهم.

و يدعون أن معبدا آخر صغيرا حفر في الصخر يقع بالقرب من هذا المكان، لكنني لم أراه و بغياب طريق مههد و مع ارتفاع العشب لم يتجرأ الدليل الذي يرافقتي على التقدم خوفا من الافاعي و الحيوانات المفترسة الاخرى.

و نشاهد على مقربة من شاطئ البحر فيلا مصنوعة من حجر أسود صلب. و لعل الاوروبيين اطلقوا على هذه الجزيرة اسم جزيرة الفيل لهذا السبب علما أن الهنود يسمونها غالي بوري (Gali Pouri). و لا يضاى حجم هذا التمثال حجم التمثال الكبير الذي رأيته في سورات، و هو يحمل على ظهره شيئا يصعب اكتشاف ماقيته، و قد تعرض هذا التمثال للعوامل الطبيعية فكاد أن ينهار.

أما بالنسبة للحصان الذي أتى على ذكره كل من اوفنتون و هاملتون فلم أراه.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٥٠

و نجد في جزيرة سلفت، التي تحدثت عنها، العديد من المعابد الاثرية المحفورة في الصخور كذلك الموجودة على جزيرة الفيل، و تخضع هذه الاخيرة للمارتين، لكن صغر حجمها و قلة السكّان فيها لا تجعلها موضع اهتمام فيقصدھا الانكليز ساعة يتشاورون لكن إذا أراد اوروبي ما زيارة المعابد القديمة على جزيرة سلفت الخصبة و الكبيرة، فعليه أن يطلب الاذن من حاكم تانا (Tana)، و من قائد المارتين في بونا (Puna).

و لم أقم بالرحلة لأن المارتين، استولوا قبيل وصولي إلى بومباي، على مركب دانماركي، و احتجزوا بعض الاشخاص. كما وقعت خلافات بينهم و بين الانكليز، لذا لم يكن من الحكمة طلب الاذن.

و نجد بالقرب من حصن فيكتوار، حسب ما قيل لي، معبدا كبيرا حفر في الصخر، أو ٢٥ مترا مع غرف حفرت في الصخر على حدّ تعبير البعض. و اكدّ لي ضابط انكليزي انه وقع قرب تريجانابولي (Teridschonapoli) على معبد عظيم حفر في الصخر. باختصار، نجد لدى هذه الامة العريقة العديد من البقايا الاثرية التي تستحقّ عناية و اهتمام العلماء الاوروبيين، اهتماما أكبر من الذي أبدوه حتى اليوم.

إن هذه الاضرحة لا تظهر للعيان واضحة كأهرام مصر، لكنها استلزت الكثير من العمل و الفن، لأن بناء الأهرام الموجودة قرب القاهرة لم يتطلب سوى المال و العمال، و قد وجد المهندس قره الحجارة التي تلازمه و هي حجارة كلبية لينة تسهل معالجتها و لا يستوجب تكديسها و وضعها

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٥١

الواحدة فوق الاخرى سوى آلات بسيطة لأن الأهرام عالية لكن قاعدتها عريضة مما يجعل رأسها على شكل منحدر سهل يمكن رفع الحجر اليه بواسطة بكرة. و بعد أن يتم تكديس الحجارة بعضها فوق بعض على شكل درجات، تقطف الزوايا الناتجة فتصبح الأهرام مستوية، و هذا ما نتبينه من بعض البقايا قرب الهرم الثاني.

و يتطلب بناء أحد هذه المعابد الهندية التي ذكرناها الكثير من العمل، لحفر الصخور و نقش هذا العدد الكبير من التماثيل على جدران الكهوف، كما يستوجب مهارة في الرسم و النحت، و هي مهارة يفتقر إليها المصريون.

تطابق ديانة الهنود القدامى ديانة المصريين إلى حدّ كبير، و لا تعرف عن تاريخ آلهة المصريين القدامى و أبطالهم سوى ما نقله اليونان و هم بالتالي أمة غريبة، لأن المصريين خضعوا غالبا للألم الأخرى، فتغيرت لغتهم و تبدل دينهم كما فقدوا كتبهم. و تعرضت كل من ديانة الهنود و لغتهم لتغيرات عدة، على مرّ السنين، لكن ليس بقدر ديانة المصريين و لغتهم، اذ لم يتأثروا كليا بالألم الأجنبية، و بقوا على دينهم في الاقاليم الخاضعة لسيطرة المسلمين، و لازالوا يحتفظون بالكتب القديمة التي يجيد البراهمانيون قراءتها. و إن كان هناك آلهة تانويون و أبطال قدامى نقشت رسومهم على جدران المعابد و بظلت عبادتهم حاليا، نجد براهمانيين يعرفون

تاريخهم، لذا ينبغي ارسال عالم متجرد و نزيه إلى الهند يرافقه رثام ماهر، و يجب أن يتعلم الاول اللغة الهندية ليتمكن من التحتث إلى البراهمانيين. و بعد أن يرسم التفوش الموجودة في المعابد، و ما رسمته في جزيرة القيل لا يشكل سوى جزء صغير منها، يتوجه إلى البراهمانيين بالسؤال و لا بد من أن يجد من يشرحه له، فربما ساهم هذا في فهم الكتاب اليونان و الوثنيين القدامى.

لا يمكن أن نطلب من عالم ما أن يسافر إلى الهند على حسابه الخاص ليقوم بأبحاث حول الآثار و لغة السكان و دينهم، فإن قدرات العالم محدودة و حين نجد عالما ثريا قد لا يرضى بتكيد هذا العناء. و قد أرسل ملكك الدانمارك بعثة من خمسة أشخاص إلى شبه الجزيرة العربية هدفها تقدم العلوم، فهل تأمل بأن ترسل أُمم أخرى، قامت بفتوحات عدة في الهند، بعض الأشخاص للتعرف عن كتب على هذا البلد الشهير، شرط أن يتننى العلماء ذلك بشدة. و تتوفر هذه الفرصة للإنكليز اذ يمكنهم

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٥٢

السفر على متن سفن أمتهم إلى بومباي، و العيش في الهند بين مواطنهم في أغلب الأحيان، و لن يضطروا إلى قطع مسافات بعيدة عن مستعمراتهم. و لن تكون هذه الرحلة بكلفة و صعوبة الرحلات إلى الشرق التي أمر بها فردريك الخامس و مؤلها حتى نهايتها كريستيان السابع. و إن لم يقوموا بمبادرة كهذه، سيبقى الهنود بالنسبة لنا أمم غريبة، علما ان الإنكليز سيطروا لعدة عام على بومباي و لا تبعد هذه الاخرة كثيرا عن جزيرة القيل و عن سلفت. و يقوم كل اوروبي يزور بومباي تقريبا برحلة إلى المعابد الرائعة المجاورة، لكننا لا نجد حتى اليوم سوى تقارير غير مكتملة حول هذه الاصرحة الالثرية، لذا لا يمكن أن نتوقع المزيد، لأن المسافرين يهتمون بأمر أخرى لا- تسمح لهم بصب اهتمامهم على هذه المعابد. و قد خضعت كل من سلفت و جزيرة القيل، منذ قرون، لسيطرة البرتغاليين، حتى أنهم حوّلوا أحد المعابد في كناري إلى كنيسة، و بالتالي أتحت لهم الفرصة لإعطائنا تفاصيل و رسوما حول هذه الآثار الغريبة، لكنهم غطّوا عرضا عن ذلك هذه التماثيل الرائعة المنحوتة في الصخر بالكلس ليطويها النسيان كليا.

و يقيم في الهند الكثير من الفرس الذين طردهم العرب المسلمون من موطنهم منذ ١١٠٠ عام، و اذا ما أراد شخص ما الاستعلام عن ديانة قدامى الفرس، يكفي أن يقرأ كتابهم الاساسي الذي نشر السيد الكاتيل ترجمته الفرنسية منذ فترة و جيزة. و قام هذا الاخير برحلته إلى الهند للحصول على كتب شرعية الفرس و لتعلم اللغة القديمة التي كتبت فيها، و بالتالي قام بأبحاث واسعة حول ديانتهم و عاداتهم اكثر من تلك التي قمت بها شخصيا لاشغالي بأمر أخرى، لكنني سأورد هنا ما عرفته حول هذا الموضوع من أبحاثهم و ما لاحظته بعيد الفرس، اتباع زرادشت، إلهها واحدا قادرا و أهدبا، خالق الكون و حافظه، لكن بما أن الانسان بحاجة لشئ ملموس يذكّره بالخالق، ووجه الفرس صلواتهم للشمس و القمر و النجوم و الي أمور أخرى أهمها النار على أنها أكثر العناصر طهارة و نقاء و فعالية، لذا يبقون النار مستعدة في معابدهم و يأجوجونها بأخشاب عطرية، كما يجعل التجار الاغنياء في منازلهم نارا مائتة. في احد معابدهم في بومباي، بقيت هذه النار مشتعلة حوالي ٢٠٠ عام، و تصل عبادتهم للنار إلى حد أنهم لا ينفخون على شعلة خوفا من أن يندسوها بأنفاسهم كما لا- يطفئون النار بالماء حتى لو أحرقت منزلهم بالكامل. إن تطهير الجسد نقطة اساسية في ديانة الفرس، فضلا عن المسلمين و الهنود كما يؤدون صلواتهم ووقفا، و قلما يقومون بختان اولادهم شأنهم في ذلك شأن الهنود، و يزوجون اولادهم كهؤلاء الاخيرين قبل بلوغهم سن السادسة و يكتفون بامرأة واحدة فإن كانت عاقرة يتزوج

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٥٣

الرجل امرأة أخرى. و لا- يتجرؤون على شرب الخمر و الكحول، كما لا- يحرم عليهم دينهم و قانوتهم أكل لحم البقر، لكن لدى وصولهم إلى الهند وعدوا الامير الوثني الذي حماهم بعدم قتل هذه الحيوانات، و استحال هذا الوعد مع الايام قانونا صارما لدى الفرس فامتنع عن اكله حتى أولئك الذين يعيشون في المناطق الخاضعة لسيطرة المسلمين أو الأنكليز، و يعتبر القواع (الارنب البري) الحيوان الاكثر نجاسة عندهم. و يلبسون الزئ الهندي تقريبا، و يخلقون شعر رأسهم، لكنهم يتركون فوق أذنيهم خصلة شعر كاليهود. و يعتبر الفرس ضليعين بعلم الفلك ككافة الامم الشرقية المتحضرة و العريقة، و يستشيرون هذا العلم عند ولادة أى ولد و عند الزواج و في الحالات المهمة الاخرى، مما ساهم في ابقائه و تناقله.

و يمكننا أن نفهم بسهولة ان علم الفلك لم يتطور و يتقدم عند الفرس بالرغم من أنهم يستخدمون أفضل الالواح في بلاد الشرق، و هي الاولوغ بيغ (Ulugh Beigh) التي أخذوها عن أبناء دينهم، فضلا عن التي أخذوها عن المسلمين يحسبون أيامهم منذ شروق الشمس و حتى الشروق الجديد، و تضم سنتهم اثني عشر شهرا يتألف كل منها من ثلاثين يوما، لكن يضاف إلى الشهر الاخير خمسة أيام، فتصبح سنتهم ٣٦٥ يوما. و لا يعلمون شيئا عن السنة الكبيسة، لكن كي يصادف عيد رأس السنة الجديدة في الموعد نفسه يضيفون، كل ١٢٠ عاما، شهرا كاملا إلى السنة فضلا عن الخمسة أيام المذكورة أعلاه، فتصبح السنة التالي مؤلفة من ١٣ شهرا. يبدأ توقيتهم للأحداث بعد بزدرج (Jesdejerd) ، ملكهم الاخير الذي طرده المسلمون من الحكم، و ذلك في خريف العام ٦٣١ بعد الميلاد، لأن الخامس و العشرين من شهر تشرين الثاني ١٧٦٤ تزامن و اليوم العاشر من الشهر الثاني للعام ١١٣٣ عند الفرس في بومباي. و صادف يوم رأس السنة عندهم في ١٨ تشرين الاول ١٧٦٣، و ١٧ تشرين الاول ١٧٦٤ (و هي سنة كبيس).

و أكدوا لي أن توقيت الفرس في كرمان (Kirman) يفرق شهرا بأكمله عن توقيت فرس الهند و نستنتج من ذلك أن هؤلاء الاخيرين انفصلوا كليا عن فرس كرمان. و لعل السبب يعود إلى أن الفرس في بلاد فارس استخدموا الواح المسلمين المصححة، أما اسماها الاشهر الفارسية فهي:

١- فرودين (Forwardin) .

٢- اردببشت (Ardibescht) .

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٥٤

٣- خرداد (Gordad) .

٤- تير (Tir) .

٥- مرداد (Amerdad) .

٦- شهرپور (Scherwar) .

٧- مهر (Mer) .

٨- آبان (Auan) .

٩- آذر (Ader) .

١٠- دي (Dah) .

١١- بهمن (Boman) .

١٢- اسفندار (Asfendar) .

و لم استعلم حول الاسم الذي يطلق على الشهر الذي يضاف كل ١٢٠ عاما، لكنه لا يعتبر مقدسا اكثر من غيره من الاشهر. و يحتفل الفرس بأعيادهم في أيام معينة تسمى غمبار (Ghumbar) ، يكرمون خلالها عملية الخلق، و تستمر الاحتفالات خمسة ايام متتالية. و يحتفلون في الغمبار الذي يبدأ في ١١ اردببشت بخلق السماء، و في الذي يبدأ في ١١ تير بخلق الماء، و من ٢٦ إلى ٣٠ شهرپور يحتفلون بخلق الارض، و من ٢٦ إلى ٣٠ مهر بخلق العشب و النبات، و من ١٦ إلى ٢٠ دي بخلق الحيوانات.

و يحتفل الفرس في الايام الخمسة التي يضيفونها إلى السنة بذكرى خلق الله للانسان، و هو أكبر أعيادهم و يطلق عليه اسم غاتا غمبار. لم ألاحظ شعائر ظاهرة يمارسها الفرس في هذه الاعياد، كما يفعل الهنود في عيد جوز الهند و الهولي (Hulli) ، و السنة في عيدي الفطر و الأضحى و الشيعة في الحسين، الخ. بل يحتفلون بالعبادة في منازلهم و معابدهم، و يحسبون من هنامهم و يزورون أصدقاءهم. و استعلمت حول ما اذا كان كهنتهم ينشغلون بالنبوءات في هذا اليوم خاصة، و إن كانوا يؤجلون اعراسهم و امورهم الرسمية الاخرى حتى هذا اليوم، فليل لي المكس. و يعيش هؤلاء بشكل عام بسلام و طمأنينة، و يمارسون الاعمال المختلفة و يحتنون فيها، و يتمتعون بمكانة جيدة بين الهنود، فزاد عددهم في هذه البلاد في حين أن عدد أتباع ديانتهم يتراجع في بلاد فارس تحت نير المسلمين. و يساندون

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٥٥

فقرهم و لا يسمحون لأي شخص من دينهم بطلب الاحسان من اتباع ديانة أخرى و حين يلقي القبض على احدهم، لا يألون جهدا و لا مالا لتخليصه، لكن إذا اساء شخص ما التصرف و لم يتمكنوا من رده إلى الطريق المستقيم، يظرونه من جماعتهم. و قد تم اعدام

فارسي شنتا حين كنت في البلاد بتهمه الشذوذ، لكن قيل لي إنه ليس من أمتهم أصلاً، وإن تاجرًا اشتراه كعبد. ولا يستعدون اتباع الديانات الأخرى كما يفعل الهندوس بل يستقبلون المهتمين.

و يتبع الفرس طريقة فريدة في دفن موتاهم، فلا يرضون بتركهم في باطن الأرض كاليهود والمسيحيين والمسلمين، ولا بحرقوهم كالهنود، بل يتركوهم لتاكلهم الطيور الكواسر . و يملكون في بومباي برجاً مستديراً على جبل، بعيداً عن المدينة، مسقواً بأخشاب، يضعون فيه أمواتهم، وبعد أن تلتهم الطيور اللحم يجمعون العظام و يرمونها في قعر الريح، فاصلين الرجال عن النساء.

و تم اغلاق هذا البني، منذ أن زار عاشق عشيقته الشابة الجميلة التي ماتت فجأة و دفنت على الفور في هذا المكان الكيب. و بما اني تمكنت من الحصول على حروف ابجدية قديمة يستخدمها الفرس قمت بحفرها على اللوحة التالية، و تسمى المشار اليها بحرف «د» البهلوي (Pelvi) و هي الحروف المستخدمة لتدوين كتبهم المقدسة، أما تلك المشار اليها بحرف «ه» فهي الحروف الجنحان (Dsjnanchan) و يستخدمونها للكتب الأخرى. و قد كتب هذه الحروف احد رجال الدين المهين في سورات، و هو واحد من الذين اجبرهم السيد اناكيتل على مساعدته في ترجمة زند افستا، لكني لم اتلقاها منه مباشرة بل من الأب ميدارد، و هو كاهن كيبوس من الازراس، تربطه به صداقة منذ سنوات لذا اعتقدها صحيحة . كتب الاب ميدارد اسماء الاحرف المختلفة استنادا إلى لفظ الكاهن الذي ذكرته آتفا.

عرف القارىء في نهاية الجزء الاول اني وصلت و السيد كرامر إلى بومباي في أيلول/ سبتمبر العام ١٧٦٣ مريضين، و ساعدنا هنا طبيب انكليزي ماهر، كما حصلنا على الراحة التي حرمتنا منها في شبه الجزيرة العربية. و أملاً ان نحر إلى البصرة على متن سفينة ستغادر بومباي في كانون الثاني/ يناير ١٧٦٤، لكني كنت ضعيفاً و تدهورت حالة السيد كرامر، ثم وافته النية في العاشر من

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٥٤

شهر شباط/ فبراير. و لم يبق من بعثتنا الكبيرة غيري، و حين فكرت بطريق العودة المرسوم لنا عبر البصرة و منها تركيا، توقعت مصاعب كتلك التي تعرضنا لها أثناء رحلتنا من مصر إلى بومباي لذا تضامل املي برؤية أوروبا. و اعتبرت أن أول واجباتي هي المحافظة على صحتي لأني اذا مت قد لا تصل اوراقي إلى أوروبا، و دفعتني هذه الفكرة و غيرها إلى اتخاذ القرار بالسفر مباشرة من بومباي إلى لندن على متن سفينة من الشركة الانكليزية للهند الشرقية، لكني وجدت سفينة انكليزية كبيرة (القبطان جيمس مسات James Massat ) تستعد للبحار نحو سورات حيث ستحمل بضائع للصين، فقررت أن أسافر على متنها إلى هذه المدينة التجارية الشهيرة.

#### الرحلة من بومباي إلى سورات

في ٢٤ آذار/ مارس ١٧٦٤ قبل الظهر، غادرنا مرفأ بومباي، و كانت الرياح مؤاتية فوصلنا عند المساء إلى مهم . و من هنا أصبحت أسرع، لأننا رسونا في ٢٤ صباحاً في مرفأ سورات على ارتفاع ٢١ درجة، و تبعد المدينة عن المرسى حوالي ثلاثة أميال، لكن بما أن الريح و حركة الموج عاكسات، توجهت و القبطان و بعض الانكليز إلى دوموس (Domus)، لتكمل الرحلة عبر البر إلى سورات. و دوموس هي قرية صغيرة، لا يلفت الانتباه فيها سوى أن رتبا اوروبيين يقيمون بها، و يضطرون إلى اعلام التجار المقيمين في المدينة بالمرآكب التي تصل كلها، كما نجد هنا شجرة عظيمة تستخدم كعلامة للتجارة. و تتميز هذه الشجرة بأن أغصانها تنمو الاسفل، و ما أن تلمس الاقنان الأرض حتى تضرب جذورها و تسند بالنالي الشجرة، و هذا الامر ليس باندر في الهند لذا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٥٧

وصفه المسافرون القدماء منهم و المعاصرون. كما يعبد الهنود هذا النوع من الأشجار، لأنه حين يعمر، يمتد أكثر و تكثر جذوعه فتغذى رأس الشجرة حتى و إن فسد الجذع الاساسي.

و سافرنا من دوموس إلى سورات على عربة بعجلتين تجرها الثيران، و لم أزرعح يوما من الغبار في قوافل الجمال و الخيول و البغال بقدر ما ازعجت على هذه الدرب حيث أحاطت بنا غيوم كثيفة من الغبار في غياب أي هواء، و لكن ينبغي التأقلم مع الاماكن و الاوقات اثناء الرحلات.

#### ملاحظات في سورات

تقع مدينة سورات في سهل خصيب، و على ضفة نهر كبير يدعى تاپي (Tappi) نجد خارطة صغيرة له على اللوحةXIV . و تأخذ المدينة شكل نصف قمر، يحيط بها سور من جهة النهر و سور مزوج من ناحية اليايسة، فتقسم بالنالي إلى مدينة داخلية، و أخرى خارجية. و هي مدينة كبيرة، تتطلب الجولة فيها ساعتين و ربح ، لكن ربح المدينة الخارجية أو الجزء الممتد بين السورين مسكون أما المساحة الباقية فتكثر فيها الحدائق. و يقع القصر على ضفة النهر و في المدينة، و تحيط به حفرة تملئ بالياه في موسم الامطار. و نجد في السور الواقع من جهة الماء خمسة أبواب، و في السور الداخلي للمدينة من جهة اليايسة ستة، أما في السور الخارجى فاثني عشر بابا . و بما أن المدينة خضعت لفترة طويلة لسيطرة المسلمين، نجد العديد من المساجد، لكنها ليست راقعة مقارنة مع المساجد التركية، و قلّة هي تلك التي تعلوها مآذن، في حين أن المساجد

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٥٨

التركية الكبيرة تعلوها مئذنان أو أربع احياناً. أما سطوح المنازل الكبيرة فمستوية كبيوت شبه الجزيرة العربية، و يتوسطها فناء مربع، في حين أن سطوح المنازل الأخرى مائلة. كما نجد في هذه المدينة مساحات فارغة و شوارع واسعة أكثر من القاهرة، لكنها قلما تكون مرصوفة كما في المدن الشرقية الأخرى، مما يجعلها مزعجة بسبب الغبار الذي يتصاعد منها. و لكل شارع رئيسي باب يعلق ليلا لا سيما في فترات المشاكل الداخلية التي تكثر هنا كما في العاصمة المصرية.

و تعتبر سورات المرفأ الاساسي لامبراطورية المغول كلها، لذا لا تشهد التجارة فيها ازدهارا عظيماً، و يرسل تجارها سفنهم إلى الخليجين العربي و الفارسي. و الي الشواطئ الأفريقية، و شاطئ مالابار و كورمندل و حتى إلى الصين. أما بالنسبة لكمية البضائع الكبيرة التي تحضر في أقاليم و مدن الامبراطورية المختلفة، فتصل المدينة في قوافل كبيرة. و يقفد السكان الاوروبيين فيما يتعلق ببناء السفن لكن نوعية سفنهم جيدة، و يجدون في الهند نفسها معظم المواد التي يحتاجونها و بأسعار معقولة، و يستخدمون لهذه الغاية خشبا لا تجرؤ الديدان على نخره لشدة سماكته، لذا تبقى سفنهم صالحة من ٨٠ إلى ٩٠ عاماً، و بالنالي فهي أفضل من سفننا . و يمكن شراء المؤن في هذه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٥٩

المدينة بأسعار رخيصة، أما هواؤها فصحي، و ينعم الجميع بحرية المعتقد فيها، و بما أن هذه البلاد لا تعرف الاستاذية، يتبع كل شخص بحرية كسب رزقه بطريقة شريفة. زد على ذلك، أن الهندي الفقير سعيد في كوخه. فبالكاد يرتدي ثياباً، و لا يشرب سوى الماء و لا يأكل سوى خبز الذرة و الزبدة و يعمل جادا، فلا يستغرب أن تكون مدينة كسورات مكتظة حيث المواطن المجتهد يكذ دائماً، و لا يفتقر التاجر للبضائع. لكن عدد سكانها ليس كبيراً كما يعتقد البعض، حتى أن الاوروبيين الذين أقاموا لسنوات يعتبرون أن عدد السكان يبلغ مليون نسمة، لكن إذا ما أحصيتاهم أخشى ألا يتعدى عدهم الثلث.

يبلغ ارتفاع القطب في سورات، وفقاً لتقديراتي، ٢١، ٢١، و ترتفع الحرارة في المدينة خلال شهر آذار/ مارس فتصل في الياام الاكثر برودة إلى ٩٢ درجة على مقياس فهرنهايت، و وصلت في ٢٩ آذار/ مارس و بسبب الرياح الشمالية إلى ٩٨، في حين أن الحرارة في بومباي الواقعة على ١٤، ١٤، لا تصل في شهر ايار/ مايو إلأ إلى ٩٣ كما ذكرت في الجزء الاول.

لم أتمكن هنا من مراقبة حركة المدّ و الجزر، لكن استنادا إلى معلومات وثيقة، عند أقصى مدّ، و عند ما يكون القمر هلالاً أو بدرًا، تبلغ المياه أقصى ارتفاع لها عند الساعة الثانية عند المرسى، و عند الساعة الرابعة قرب المدينة. أما الفرق بين أقصى مدّ و أدنى جزر فتساوية عشر قدما قرب المرسى و اربعة عشر قدما قرب المدينة، و لا يدوم الجزر عادة قرب المدينة الا ثلاث ساعات في حين أن المدّ يستمر تسع ساعات. و تبتني مياه النهر هنا عذبة خلال ثمانية أشهر، و تصبح مالحة قليلة خلال الاشهر الاربعة الباقية، و يدعون أنهم لاحظوا أن المدّ يرتفع أثناء النهار خمسة أقدام أكثر منه أثناء الليل و ذلك خلال تشرين الثاني/ نوفمبر و كانون الاول/ ديسمبر كانون الثاني/ يناير و شباط/ فبراير حين تعصف الرياح الشمالية، و أن المدّ يرتفع في الليل ستة أقدام أكثر منه أثناء النهار و ذلك في الاشهر الأخرى. و يرتفع المدّ في خليج كمباي (Cambay) أكثر مما يرتفع في منطقة سورات، و أكد لي تاجر، أقام لسنوات في كمباي أن السفن، عندما يكون القمر هلالاً أو بدرًا سيما في الربيع أو الخريف، تبدو في الجهة الأخرى للخليج و كأن قسماً منها يبحر من جهة و

القسم الاخر من الجهة الاخرى، و يعود السبب على الأرجح إلى المدّ القوي للغاية في هذا الخليج.

و تكثر في التاي الارصفة الرملية، وسيصح من الصعب في المستقبل انزال سفن جديدة فارغة بنتت في سورات إلى النهر. لكن

منسوب المياه يرتفع احيانا، في موسم الامطار، ليبلغ ٢٨ قدما

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٦٠

قرب المدينة فتجرف الارصفة الرملية و يمكن للسفينة المحملة عندها الوصول إليها. و اذا ما فكر الحاكم باحتواء النهر ضمن حدوده بواسطة سدود، لاستفاد السكان من أرض صالحة للزراعة تفيض عليها المياه حاليا و لتخلص النهر من الارصفة و أسنى صالحا للملاحة، لكن اهتمام الحاكم المسلم برعاياه لا يصل إلى هذا الحد.

خضعت سورات منذ سنوات للإمبراطور المغولي، لكن منذ أن نهب نادر خان دلهي(Delhi)، لم يعد رجال الحكم في أقاليم بعيدة يهتمون بالمغول، و بقيت سورات خاضعة لهم بالاسم. سيطر حكام هذه المدينة على الحكم بالقوة أو بالحق، ثم جعلوا الامراتور المغولي يثبتهم في مناصبهم، كما يفعل الباشاوات في بغداد اذ يعينون انفسهم ثم يجرون السلطان على تأكيد سلطتهم. كان للمغولي حاكما في سورات مستقلين عن بعضهما كليا، و لكل منهما جيشه الخاص الصغير.

و يحكم احدهما في المدينة و الآخر في القصر، و كان الاخير في الوقت نفسه قائد أسطول المغولي، و يتقاضى اirdات كبيرة من بعض الأقاليم ليدفع لجيشه و للبحارة و لابقاء اسطوله الصغير في حالة جيدة بغية مواجهة القراصنة. و سعى البلاط في دلهي إلى تعزيز الخلافات بين الحاكمين ليطلا خاضعين له، لكن تك بغ خان(Teck Beg Khan)، و هو حاكم المدينة، نجح في تمييز امية حاكما للقصر عندما كان حكم دلهي ضعيفا. و اتحد الاخوان و أخذوا يعتبران سورات و ضواحيها ملكا لهما، و جمعا ثروات ضخمة و لم يعودا يهتمان بأوامر المغولي.

توفي تك بغ خان في العام ١٧٤٦، و وزع الثروات الضخمة التي جمعها خلال فترة حكمه للمدينة بين أهله و خدمه. و هكذا، أصبح البعض منهم تافذين فطمعوا بالحكم، أو أخذوا يساندون أحد أقرباء معلمهم ضد الآخر. و في العام ١٧٤٧ توفي أخوه حاكم القصر مخلصا وراه أوملة غاية في الثراء و الطموح، فحاولت جعل مسهرها حاكما للقصر و حاكما للمدينة أيضا، مما أدى إلى حروب داخلية شارك فيها أعيان المدينة كلهم، فأخذ كل منهم يجمع الناس حوله ليسيظ على الحكم لنفسه أو لأحد أصدقائه. و راح هؤلاء الطغاة يهاجمون بعضهم البعض و يعلنون هذا أو ذاك حاكما للمدينة أو للقصر، في هذه الأثناء، لم يرسل المغولي حاكما آخر أو جيشا لثبت شخصا ما في الحكم، و إن تمكن أحدهم من الحصول على فرمان من البلاط يعلنه حاكما، لا يتورع الاخرون عن طرده من مركزه إن استطاعوا ذلك.

و عرفت الامم الأوروبية التي تاجر في سورات كالهولنديين و الانكليز نفوذا واسعا، و كان لكل منها جندها و مدافعها في المدينة للدفاع عن مصالحها في حال حصول شغب طاريء. و خلال الحرب الداخلية الطويلة، أحضر الأوروبيون المزيد من الجند و السلاح و الذخيرة، كما أقاموا تحصينات في منازلهم و حدائقهم كأعيان البلاد. و رأى الاخرون ضرورة اكساب صداقة هؤلاء

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٦١

التجار. و بسا أيهم يدفعون أموالا طائلة و يعدون بمكاسب عدة إن ساندوهم للوصول إلى الحكم، زودهم الأوروبيون بالذخائر و شاركوا معهم في القتال. و أرادت كل من الامم الأوروبية الاعتراف بالحاكم الذي يعدها بمكاسب اكثر، و لعل الاتفاق مع كل طرف نصل على آتأ تمنح الامم الاخرى الامتيازات التجارية و الحرية نفسها.

كما طلب بعض هؤلاء المستبدين مساعدة الماراتيين، و نال هؤلاء مكاسب عديدة لأنهم اعتادوا أن يطالبوا من يصل إلى الحكم بتنفيذ وعود من جاؤوا لمناصرته و لإفهددونه بالحرب و يظفر للدفع لتجنب المواجهة معهم.

و منذ ذاك الحين، يحصل الماراتيون على ثلث الرسوم التي تدفع في سورات، في حين كانوا يحصلون على الربع في ما مضى، و يبقى في الجمارك حاليا أحد ضباطهم لمراقبة المداخل.

و في خضم هذه المشاكل الداخلية، عرفت التجارة ازدهارا ملفتا، فحين كانت الصراعات تنشب بين الطغاة، كان سكان المدينة يفتلون أبواب الشوارع الاخرى و يعودون إلى اعمالهم (كما فعل سكان القاهرة اثناء الحرب الاهلية بين البكوات).

و لم يتعرض البرجوازيون للنهب، و إن حصل ذلك أو شئت الثيران في منزل أحدهم، يتم التعويض عليه عادة.

أخيرا، طرد الحاكم الذي يسانده الانكليز من سورات، ثم عاد في العام ١٧٥٨، و لم يأل حماته، الذين ذكرتهم آفنا، جهدا و لم يوفروا مالا-حتى أن الحاكم الموجود تنازل له تلقائيا عن الحكم. و كان الانكليز يسعون للسيطرة على القصر، فأرسلت حكومة بومباي في بداية العام ١٧٥٩ السيد سينسر (أحد المستشارين، و هو رجل يحبه الأوروبيون و الهنود على حد سواء) إلى سورات على رأس قوة عظيمة، و لزمهم وقت طويل للوصول بسفنتهم إلى المدينة بسبب الارصفة الرملية في التاي.

و وصلوا المدينة، و أكدوا لحاكمها أنه سيبقى في منصبه إن فتح للانكليز أبواب مدينته و إن لم يعيقهم في عملية الاستيلاء على القصر، فوافق على ذلك، و استسلم القصر بعد بضعة أيام من دون أن يقع الكثير من الضحايا.

في هذه الأثناء، لم يكن الانكليز ليربوا الكثير إن اضطروا إلى صيانة القصر و إعالة الحامية اللازمة من مردود تجارتهم في سورات. و إن كانوا واثقين من صداقة الحاكم، وجدوا بين أعيان المدينة معارضين نافذين يرفضون الخضوع لسلطة أمة أوروبية.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٦٢

و خشي التجار أن يتعرض مصالحهم للخطر على يد اعداء انكلترا لا سيما الفرنسيين منهم، لذا بقي على السيد سينسر وضع أمور عدة في نصاها بعد السيطرة على القصر، لكنه تخشى هذه العقبات كلها بفضل حذره و لطفه. أكد للسكان بأنهم لن يعتبروا رعايا انكليز، و أن الانكليز لم يسيطروا على القصر لمصلحتهم الخاصة إنما باسم المغولي، و قام برفع علم هذا الاخير على القصر. و ذكر أعيان المدينة بأن الاسياد الذين سيطروا على الحكم في السنوات الاخرية، استخدموا الإيرادات لمصلحتهم الخاصة في حين أنها مرصودة لصيانة الاسطول و لتغطية التجارة و بأن البحر يعج بالقراصنة. و وعد، من جهة أخرى، بأن الانكليز سيدافعون عن تجارتهم، إذا ما منحهم المغولي المردود المخصص لصيانة الاسطول و التحصينات و التمويل الحامية. فتر التجار بهذه الوعود، و لم يشكوا في أن الانكليز التجار سيقتضون على القراصنة في حين أن أسلافهم استخدموا الاموال التي جمعوها لزيادة عدد جيشهم للبقاء في الحكم. و أرسل حاكم بومباي إلى الامراتور في دلهي تفصيلا عما حصل في سورات، و أورد أن المدينة عانت الاامرين خلال هذه الحروب الداخلية، سيما و أن الطغاة أهملوا الاسطول و مكثوا القراصنة من مهاجمة سفن المدينة، و أن السكان رجوا الانكليز أن يحموهم. و قد وقّع هذا الكتاب أعيان و تجار عدة من المدينة، و طلب الانكليز من المغولي أن يعين مدير تجارتهم المقيم في سورات حاكما للقصر و قائدا للأسطول، مما يعنى أنهم يطالبون بالبرادات المرتبطة بهذين المنصبين، و بسا أن المغولي لم يكن قادرا على القضاء على بعض العصاة في المدينة، كان أمه بطرد الانكليز من القصر ضعيفا، لا سيما و أن هذا الاخير بعيد عنه و قريب من أهم مراكز الانكليز، فمنعهم ما طلبوه.

إذا يتولى الانكليز، منذ ذاك الحين، منصب حاكم القصر في سورات، و قائد الاسطول تحت سيادة المغولي، و يحصلون على ثلث الرسوم و على مبالغ أخرى ضخمة تكفي لصيانة القصر و اعالة الحامية اللازمة فضلا عن العديد من المراكب الحربية التي تساعد تجارتهم. و لو أرادوا حكم البرجوازيين لتكبدوا إذن الكثير من الغناء و التعب، لذا فإنهم يتركون هذه المهمة لحاكم آخر يخضع للمغولي بالاسم فقط، و يملك قواته الخاصة، لكن يرجع للانكليز إبقاؤه في منصبه أو خلعهم و بالتالي عليه أن يحكم وفقا لإرادتهم و يسمحون له بدخل كبير للغاية يمكنه من العيش في بلذخ و ترف، لكنه يحدون من امتيازاته كي لا يغدو ثريا و ذا نفوذ. و يحافظون بدقة على حقوق الحكام السابقين، حتى أنه أثناء مسيرات الاعياد، حين يمارس السنة شعائهم الدينية في ساحة خارج المدينة، يرافقهم انكليزي على ظهر جواده و سأورد في ما بعد مثلا على ذلك.

و لم يعد يخشى التجار الكبار في سورات، و هم اصداقاء للانكليز، أن يحاول الحاكم الحصول

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٦٣

على مبالغ ضخمة منهم كما كان يحصل في السابق، لكنهم يبدون غير راضين من جهة أخرى عن الحكم السائد حاليا، إذ يضطرون مثلا-إلى الحصول على إذن مرور لسفنتهم من مدير التجارة الانكليزية، و إن اراد الأنكليز ارسال سفنتهم نحو هذا المرفأ فيهمهم آتأ سيسبقهم أحد اله. و من هنا، يقال إنه غالبا ما يتم حجز اذونات السفن الهندية حتى نهاية المنسن(Monson) و أن السفن لا يمكنها أن تصل إلى المرفأ في هذا الموسم. و صادقت سفينة من سورات في بومباي، كانت متوجهة إلى جدّة، لكنها عادت من

سقطه (Socatra)، و بقيت في المرفأ لبضعة أشهر بانتظار الفصل الذي تستطيع فيه أن تكمل رحلتها إلى الخليج العربي، مما يشكل خسارة كبيرة للتجار.

و وصلت المراكب الانكليزية، التي يقودها ربانة أوروبيين، وبالتالي بخارة أفضل من المسلمين، في الوقت الملائم إلى جدة و بالتالي نالوا أسعارا جيدة لقاء بضائعهم.

و يأتي الهولنديون في المرتبة الثانية بعد الانكليز من حيث الحضور و النفوذ في سورات، و يمثلهم فيها مدير، و تاجر أول، و تاجر، و مساعد و تاجر، و عدد كبير من رجال الدين الأوربيين، فضلا عن الموظفين و بعض الجنود. لكن تجارهم لم تعد بالحجم الذي كانت عليه، و يبدو أن أمورهم غير منظمة، إنما لا يعود لي ابداء ملاحظات حول هذا الموضوع.

أما حال تجارة الفرنسيين (١٧٦٤) في هذه المدينة فأسوأ مما وصفه فراير (Freyer) قبل مئة عام . و إن لم أكن مخظنا، لا يرفعون علما فوق و كالتهم، و هو امتياز يتجح به الأوروبيون هنا، و لم يتلق كيلهم أو مديرهم أى إعانة منذ أن فقدوا بونديشري (Pondichery)، و لم يعد يتوفر لديه المال ليعيش عيشة بسيطة. كان الاب مدارد و هو راهب كويشي من هذه الأمة، ذكرته سابقا، يعيش هنا جيدا بالنسبة لوضعه، و يحظى بمحبة الأوربيين و الشرقيين على حد سواء. و يقيم الكويشون في سورات منذ العام ١٦٣٨ و العام ١٦٧٦، و قد سجلوا كافة التغيرات المهمة في الحكم و بين الأوربيين المقيمين هنا، و هي ملاحظات مختصرة، دونوها لاستعمالهم الخاصة ليندكرو تاريخ هذا الحدث أو ذاك، لكنها بالتالي تفيد كل من يود معرفة التغيرات التي طرأت هنا منذ مئة عام و حتى اليوم.

إن تجارة البرتغاليين في سورات محدودة، و يمثلهم وكيل أو مدير لتجارهم و هو يهودي من مواليد هامبورغ .

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٦٤

و لا تملك أية أمة أوروبية أخرى غير الانكليز، و الهولنديين، و الفرنسيين، و البرتغاليين وكالة لها في سورات. حين استولى الانكليز على القصر، كان هناك سفينة دانماركية تعمل في التجارة في المنطقة، و لم يكن التجار الانكليز يتمتعون بالنفوذ كاليوم، زد على ذلك أن قبطان هذه السفينة اعتاد أن يؤدي لهم خدمات عظام فتركوا له المكاسب التي يمكن أن ينالها. و بعد سنوات وصلت المدينة سفينة سويدية، و حصلت على إذن من حاكم المدينة للتجارة لقاء بدل مالي معين. و بما أن السويديين يبيعون الحديد و النحاس بأسعار أرخص من أسعار الانكليز، نفذت محاولة سفينتهم، لكن حين استعدوا للرحيل إلى الصين، طالبهم الحاكم بمبلغ طائل قيمته مئة ألف روبية (حوالي ٢ / ١ ٦٦٦٦٦٦ درهم) و أمر التاجر بعدم مغادرة المدينة و بالتالي عدم الأبحار قبل دفع هذا المبلغ. و وقع السويدي في مأزق، إذ لم يكن بإمكانه طلب المساعدة من الانكليز، حتى انه كان مقتنعا بأن هؤلاء الاخرين أعطوا الحاكم فكرة المطالبة بالمال، و ظن أن أفضل ما يمكن أن يفعله هو الطلب من قبطان السفينة أن يرفع المراساة و يكمل رحلته إلى الصين، و بقي هو في المدينة فافتى الحاكم بمبلغ ٢٠٠٠٠ روبية، و شكّل هذا الامر اندرا و تنيها له بعدم العودة ثانية، و منذ أن سيطر الانكليز على القصر، ابتز الحاكم بالطريقة نفسها ٩٠٠٠٠ روبية من الهولنديين و أجبرهم على ازالة مدافعهم كلها من سورات، باستثناء بعض القطع الخفيفة التي يستعملونها لاداء التحية. و هكذا، أخذ الانكليز يسيطرون تدريجيا على تجارة هذه المدينة، و فقدت الامم الأوربية رغبتها بالسعي وراء الثروات فيها.

و يتبع الحاكم و الموظفون المهمون الديانة الإسلامية، لكن يبدو أنهم لا يتقيدون بتعاليم دينهم كأثالهم في مصر و تركيا، فعلى سبيل المثال يملك أحد الحكام الذين خلعوا من منصبهم، كلبا كبيرا يجلسه بجانبه و يلاعبه في حين أن الأتراك و العرب يعتبرون أن الكلب نجس لذا فهو ينجمهم ما إن يلمس ثيابهم، كما يشغل الهنود المسلمون اموالهم بالقائدة، و يشربون الخمر علنا.

و يتكلم الاعيان في الهند اللغة الفارسية و يستعملونها في مراسلاتهم، كما تعتبر لغة البلاط، في كافة الاقاليم الخاضعة لسلطة المسلمين. و تستخدم الطبقات الوسطى و الدنيا الاحرف الهندية، فلا نجد بينهم من يتكلم الفارسية.

في ٢ نيسان/ أبريل، و عند العاشرة مساء، أعلم الحاكم المدير الانكليزي، السيد هوجز، أن الهلال ظهر و طلب منه اعلان انتهاء شهر رمضان و بدء أيام عيد الفطر بطلقات من مدفع القصر.

و تم ذلك في كافة الحصون كي يتمكن الشعب من التحضير للعيد، و لأنهم لا يعتمدون تقويمنا و لا يتربح الجمع القمر أو يستعلم لدى القاضى الذى يتوجب عليه التنبه لهذذة الامور و ابلاغ الحاكم بها من الضروري اعلام العامة بانتهاء الصوم. و بما أن الانكليز يدعون أنهم حكام القصر باسم المغولى و يستفيدون من المعائدات المرتبطة بذلك، كان بإمكانهم أن يظهروا القليل من الاهتمام

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٦٥

و ابلاغ السكان المسلمين بأن اليوم الثاني هو يوم عيد، لكن السيد هوجز أبلغ الحاكم أن الوقت متأخر لإطلاق ضربات المدفع و أن كل شيء سيكون من جهته جاهزا للعيد، أى إن تاجرا انكليزيا بصفتة حاكم القصر، و فرقة من الجنود سيرفان المسيرة حتى مكان الصلاة خارج المدينة ثم يطلقون عددا محددا من طلقات المدفع. و لم أر المسيرة إلا عند عودتها و اليكم النظام المتبع:

يرأس المسيرة عدد من البرجوازيين الذين يركبون عربات صغيرة و خفيفة بعجلتين، و ترى رسما لها على اللوحة XIX قرب الحرف «أ». يجلس السيد داخل العربة أو على الاصح فوقها متربعا على و سادة، و تكون العربة مغطاة من الاعلى و الخلف، و عادة ما يضعون ستائر حريرية من الجهات الثلاث الأخرى. و يجلس الحوذى على عريش عريض مصنوع من الخيزران، فيما يجير العربة ثوران كتيبي، تنهى قرونها برأس من فضة أو من الشبهان. و لا تلائم هذه العربات المسافرين الأوربوي و قد اشكتبت آغا من رحلتي من دوموس إلى سورات، لكن تلك التي سافرت فيها لم تكن حسنة الصنع إذ لم تعد كونها صندوقا كبيرا ينقل فيه الفلاحون المون إلى المدينة، و بما أننا كنا نتردى ثيابا أوروبية لم يكن من السهل التربع فاضطرتنا للجلوس قرب الحافة و ازعجتنا الغبار المتصاعد من الارض الجافة. و بجدها الهنود الهاكرى التي يستعملونها للتنقل في المدن مريحة للغاية و هي كالعربات ذات العجلتين الأوربوية، لكن الثيران لا تسرع كالخياد. و يدفع هنا ٦٠٠ روبية (٤٠٠ درهم) لقاء زوج من الثيران البيضاء حتى أن أوربوبيين في بومباي يستخدمونها احيانا لجزر عرباتهم، و لهذذة الثيران قطعة شحم كبيرة على ظهورها فوق القائمتين الاماميتين.

و تلى العربات المسيرة جرد ذاتها التي يرأسها الموسيقيون و هم يحملون آلات موسيقية عسكرية تركية، و يحمل بعضهم اوباقا يبلغ طولها ٥ إلى ٦ أقدام، و تصدر أصواتا أشبه بصراخ الحيوانات.

و لا أذكر إن كان هناك حاجب يعلن وصول الحاكم، لكنى لا أشك في ذلك إذ علمت لاحقا أنها العادة في سورات عندما يخرج الحاكم على سهوة جواده و حين يخرج بعض مندراه الوكالات الأوربوية في عرباتهم أو على جيادهم. فحين يخرج المدير الانكليزي مثلا، يصرخ حاجبه باللغة الهندية «افسحوا الطريق، للسيد فلان قائد اسطول المغولى و حاكم قصره في سورات، مدير الشركة الانكليزية للهند الشرقية في المدينة، الخ» .

و تلى ستة مدافع صغيرة، و ضابط مدفعية، و بعض المدفعين مع اعلام صغيرة على ظهر قيل، ثم عدد من الاعيان على سهوة جيادهم العربية و الفارسية الرائعة (نقش على بعض منها بالحنة كثيران العربات)، و يسبق هؤلاء الاخيرين فرق من الجند و موسيقيون عسكريون.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٦٨

ثم يأتي التاجر الانكليزي على فرسه، بصفتة حاكما للقصر، و يرتدى لباسا أوروبيا، يعشى إلى جانبيه خادمان يحملان مدينتين، و امامه فرقة من الجند، تحمل اسلحة أوروبية في ما يحمل جند الحاكم بانادق بفتيل.

و ترى بعد ذلك بعض المحفآت الرائعة، التي يأمر الاعيان بحملها فارغة لإضفاء المزيد من الترف على المسيرة، و يستخدم الأوربويون و الاعيان بين الهنود هذه المحفآت لتنقل عوضا عن العربات التي تعرفها في اوربوا. و نجد رسما لها على اللوحة XIII. و يشار إلى المحفة الصيفية بالحرف «أ»، و تغطي عادة بستار كبير يقى من الشمس لكنى لم أرسمه كي أظهر بوضوح التفاصيل الاخرى و يتبين لنا أن المحفة ليست سوى سرير صغير مربوط بقضبة خيزران سميكة، يحمله أربعة رجال من الطرفين، و يملوه أزرار كبيرة مغطاة بالفضة. و تصنع الارجل من المعدن نفسه فضلا عن قبضة عقدة الحرير الرائعة، و يعطى الفراش و الوسادة قماش حريري رائع، باخضار، نجد محفات تكلف اصحابها مئات أو آلاف الدراهم، و لن يتفاجأ القارىء مما تقدّم لو علم أن كلفة قضبة الخيزران في محفة حاكم بومباي بلغت الف روبية (٢ / ١ ٦٦٦٦٦٦ درهم) بسبب سماكتها و انحنائها الرائع . في موسم الامطار تغطي هذه المحفآت بسقف مصنوع من اوراق شجر جوز الهند، المبطن بالقماش، (الصورة ب). و يرفع كلبا من احدى الجهات عندما يستلقى فيها أحدهم، و للمحفة نافذة من كل جهة تسمح بتشق الهواء و رؤية المارة. و تشبه محفات النساء الهنديات الخزائن المرعبة، و تحمل بعضيان

مستقيمة، و هي قبيحة للغاية فلا تستحق ان نذكرها أو أن نصفها، فضلا عن ذلك، لم تشارك في هذه المسيرة محفات للشاء أو للنساء.

ثم يتبع المحفات خدم الحاكم وبعض الاعيان فضلا عن الجنود والموسيقيين، و أخيرا يتقدم الحاكم نفسه على ظهر فيل ضخم نقش عليه بالحدّة، و يتربع الحاكم على مقعد أو عرش رائع تظله قبة قائمة على أربعة أعمدة، و يجلس أمامه و وراه خدم يحركون المذبات، فيما يجلس السائق على عتق الفيل. و ينثر الحاكم من الجهتين أزهار الفضة (كما تسمى هناك) على الشعب، لكن هذا السخاء ليس بعظيم، كما يخيل للبعض، إذ إن هذه الازهار ليست سوى قطع صغيرة من الفضة المسكوكة حرّز طرفها ثم طويت. و يلي الحاكم فيل غير محمل، و آخر مع طيال ليختم المسيرة جمل هزيل جدا. ما إن تنتهي المسيرة، حتى يتوجه كل سنى إلى منزله ليتناول الطعام.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٦٩

و يتبع الشيعة بحرية تامة في بومباي و في سورات حتى أنهم يختلفون بذكرى الحسين، و ينظمون مسيرات عامة، و هذا ما لم يكن يسمح به في مدن تركيا و في مدن شبه الجزيرة العربية.

تجدد في سورات عددا كبيرا من الهنود من طبقة البراهمانيين، و يعمل البنيان كجباة للمدينة و ملتزمي ضرائب و مكاسب لدى المسلمين لأنهم خبراء بالحساب ماهرين و رجال اقتصاد مجتهدين.

و ولدوا، اذا صح التعبير، تجارا، و تراهم يسيطرون على تجارة الهند، فما من أمّة اجنبية إلا و تستخدمهم كوسطاء، كما أن التجار هنا راضون عن عملهم أكثر من رضا تجار القسطنطينية و القاهرة على وسطانهم من اليهود. و غالبا ما يسلم الاوروبي أعماله و أمواله لأحد البنيان، و تسع غالبا أمثلة عن وفاة هؤلاء و تقابيحهم مما يثير العجب.

و بالرغم من أن التجار الهنود يملكون كميات ضخمة من الذهب، تراهم يرتدون ثيابا بسيطة من القطن الابيض (وقفا للذوق الاوروبي). و يلبسون سراويل أو أحيانا يكتفون بقطعة قماش كبيرة تتدلي نحو الأسفل و تربط حول الردين و يضعون فوقها لباسا طويلا، ضيقا من الأعلى و واسعا بطيات من الأسفل كتنانير النساء الاوروبيات، راجعوا الصورة XII. و يتميز هذا اللباس بأقسام طويلة للغاية لكنها ضيقة و مقلوبة نحو اليد، و يتملقون بحزام حول خصرهم، أما الخفّ فكبير و مرفوع الطرف كالمزلاج عندنا. و يضعون في آذانهم اقراطا ذهبية، كما يضع التجار الاثرياء لؤلؤة حقيقية كبيرة في آذانهم. و يختلف شكل عمامتهم و سكتينهم الذي يضعونه في الحزام. و باختصار يختلف لباسهم كله عن لباس العرب و الاتراك و الفرس، لكنه يلائم تقسيمهم. و يعيش الهنود الفقراء ككافة الفقراء في البلاد الحارة أي إنهم شبه عراة، يكتفون بحزام أو أحيانا بجبل حول خصرهم عليه قطعة قماش تميز بين أفخادهم، كأولئك الذين يحملون المحفة ءأ، على اللوحة XIII، مع اختلاف بسيط هو أن هؤلاء يعتمرون قلنسوة صغيرة مميزة أشبه بعلة الخدم. و يعتمر عامة الهنود عمامة، و عند ما تعطر يلبسون معطفا من أوراق النخل و أوراق جوز الهند على الشكل (ج) على اللوحة XII، و لا بد أنه لباس الهنود الذي وصفه هيروdotus في كتابه الثالث، الفصل ٩٣.

و تضع النساء الهنديات من العمامة، قطعة قماش كبيرة مضلعة بالاحمر حول اوراكنهن، و يرفعن الطرف عاليا بين الفخذين فيصبح اللباس أشبه بسروال قصير و واسع، و يغطين أجسادهن و رؤوسهن بقطعة قماش عريضة. إن ثديي المرأة الهندية لسا طويلين و منهدلين كائناه المسلمات، إذ ترفعهما

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٧٠

في ما يشبه القراب من الحجم المناسب في صدرية صغيرة ذات أكماف قصيرة لا تغطي سوى الصدر. و يبقى هذا اللباس التديين في حالة جيدة حتى أن العديد من الاوروبيات اللواتي يعشن في الهند، يحصلن عليه كما يضطرون لتقليد الهنديات في ما يتعلق بالنظافة كي لا يفقدن حب أزواجهن. و تعمل الهنديات باجتهاد كأزواجهن، و رأيت العديد منهن في بومباي، و هن يحملن الحطب فيكسبن قوتهن بصعوبة. لكنهن يضعن الكثير من الحلى من ذهب و فضة و أحجار كريمة، و هي حلى سيستفيد منها اولادهن أو اخفادهن. و يضعن مثلا خاتما يحمل حجرا كريما في انوفهن، و آخر في آذانهن، و خواتم في أصابع ايديهن و أقدامهن، فضلا عن أساور في معاصمهن و ارجلهن، و إذا خرجت امرأة مسلمة، تجدها محجبة كليا، كئساء شبه الجزيرة و تركيا، نساء لا يتجرأن على كشف وجوههن و حتى أيديهن أمام الأجانب، فلا يمكنهن بالتالي كسب أى شيء خارج منازلهن.

لم أحضر اجتماعا للهنود خلال أيام أعيادهم إلا مرة واحدة و ذلك في شبه الجزيرة العربية. كان هناك حوالي ١٢ بنيانيا متحلقين، يحمل كل منهم طبقين من المعدن و طبل صغير، و بعد أن يغنى أحدهم مقطعا باللغة الهندية، يردد الآخرون الكلمات نفسها و هم يضربون على آلاتهم. و لرافقتي في ذاك اليوم أحد المسلمين، و لاحظت أن حضورنا غير مرغوب به بين البنيان، ففادرت المكان بعد أقل من ربع ساعة كي لا أذكر عليهم صفو تعديهم.

لم أتكنم من معرفة كافة المهام التي يتوجب على البراهماني القيام بها بصفته رجل دين، لكن حين يولد هنود هندوسى، يجب أن يعرف البراهماني و استنادا إلى قواعد علم الفلك، ما اذا كان قد ولد في ساعة سعيدة أو ساعة تعيسة، و بعد ذلك، يعق على أكتاف الطفل حجلا رقيقا و هو يعتبر علامة امته المميزة و يحمله مدى العمر. و يبدو أن هذه العادة قديمة للغاية، إذ نلاحظ أن العديد من تماثيل معبد جزيرة الفيل يحمل حجلا كهذا على كتفيه. و اذا ما أراد بنياني تزويج ابنه، و هذا ما يفكر به حين يبلغ الولد سن السادسة أو الثامنة، يجب أن يحدد أحد البراهمانيين الزمن الذي ينبغي أن يبحث فيه الاب عن العروس فضلا عن موعد الزواج، في هذه الاثناء يبقى الاولاد في منزل أهلهم حتى سن البلوغ، كما يتوجب على البراهمانيين تحديد أيام الاعياد و اعلام الشعب مسبقا بذلك.

يضطر كل بنياني بعد أن يغتسل صباحا، إلى الطلب من أحد البراهمانيين وضع نوع من الختم على جبينه، و تقع هذه المهمة على عاتق كهنتهم العاديين، و رأيت يوما، مجموعة جالسة قرب النهر

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٧١

على مقربة من القصر، حيث تأتي النساء و الفتيات للاغتسال و الصلاة عند الصباح. و تعطي كل منهن الثياب النظيفة لأحد الكهنة، ثم يتزلن إلى النهر، بعدها يبدلن ملابسهن الرطبة و يرتدين الملابس الجافة على الشاطئ، و يقمن بذلك برشاقة و سرعة و حشمة حتى أن المتبته لا يرى الاجزاء التي يقضى الاحتشام بسترها. و يضع البراهماني اصبعه في صياح أحمر و يطع نوعا من الختم على جبين الفتاة فثبته قليلا و إلا صبح جبينها كله باللون الاحمر في لحظات. ثم يأخذ الشخص المختوم أو المظهر علمة الصياح و يؤدى صلاة قصيرة، و يعطي الكاهن حفنة من الارز أو أكثر، و يعود إلى منزله حاملا ثيابه المبللة. و تحمل بعضهن القليل من ماء النهر معهن ليستقن شجرتهن المفضلة أو لاستعمالات أخرى.

ولا يملك الهنود في سورات مستشفى للناس، انما مصصا كبيرا للحيوانات، فحين يعطيهم شخص من ديانة أخرى جودا عجوزا أو مريضا، أو بقرة أو أى حيوان آخر يعتنون به حتى ينفض.

و رأيت هناك سلحفاة كبيرة، عرجاء و عيابه و يعتقد أن عمرها يفوق المئة و خمس و عشرين سنة، كما وجدت كمية من الحيوانات ذوات القرون، و العلاج، و الارانب و الدجاج الخ و كلها حيوانات كسيحة، يعمل طبيب واحد على العناية بها.

و نجد بين الهنود أناسا يختارون تعذيب أنفسهم بغية كسب رضا الله و محبته، و يقال إن بعضهم يطبلون أن يدفئوا أحياء و وجوههم نحو الأسفل. و اختار أحدهم أن يعيش ٢٠ عاما في قفص في الهواء الطلق، مكثف اليدين و هو يرفعهما نحو الاعلى، ثم أن ينقل في ما بعد إلى المعبد في ذلهي ليقطع رأسه. و بقي بالفعل لسنوات في القفص أمام حديقة خارج سورات، لكن المنية وافته قبل وصولي إلى المدينة و قبل مرور العشرين عاما المذكورين. و بما أنه لم يكن يتحرك، عقدت اعضاءه في الوضعية التي اخذها، و لم يتلفظ بكلمة واحدة في السنوات الاخيرة، و بقي ينظر نحو الأسفل أمامه و عيناه لا تفارقان نقطة معينة، و لم يقص شعره أو أظافره خلال المدة التي قضاها في القفص لذا يمكن أن تخيل منظره المرعب بسهولة. و لم يتقصه يوما الخدم الذين ظنوا أنهم يكسبون بعض القدامسة من جراء الخدمات التي يقدمونها لهذا القديس المزعوم أو الذين اختاروا أن يعيشوا من الصدقات الكثيرة التي يحضرها الناس له. و نذر شخص آخر أن تبقي ذراعه دائما مرفوعة نحو الاعلى، و يقال إن هذا ما فعله لسنوات عدة، و ظن آخر أنه يظهر ورعه لله إن حمل سلسلة غليظة تنتهي بحجر. و يقال إن امرأة اعتادت تدريجيا على الصوم، حتى أنها لم تتناول خلال ٤٠ يوما سوى بعض الماء العذب يوما.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٧٢

باختصار، إن صوم الريهان المسيحيين و تقصّتهم و إماتة الجسد عندهم ليست سوى نقطة من بحر العقوبات التي يفرضها الهنود على



أنفسهم.

و نجد بين الهندوس أيضا رهبانيتين لقسيسين متسولين أو حجاج. يطلق عليهم اسم بارغي و غيسان (Bargus et Gusseins) ، و هم اعداء، يسافرون دوما مسلحين و ضمن مجموعات كبيرة احيانا، و حين يلتقون في مكان ما تقع معارك دامية بينهم. و خيم منذ سنوات عدد كبير منهم لأشهر قرب سورات، و بدأ الحاكم خائفا منهم، فلم يسمح يوما الا لعدد قليل منهم بدخول المدينة لشراء المؤن و الحاجيات.

كما لا تخلو المدينة من دراويش مسلمين، يحلو لهم أن يجلسوا قرب حفرة أو تحت شجره، و يجعلون قريهم جرارا كبيرة تملأها العجايز بالماء بغية تكريم الله. و لا يخلخ هؤلاء بالماء، كما يباركون الماؤه و يدعون للارويبين و المسلمين و غيرهم على حدّ سواء. لكنهم في الوقت نفسه متسولون و قحون، يجلسون احيانا أمام منزل ماء، و يرفضون المغادرة حتى يدفع لهم أهل البيت المبلغ الذي يطلبونه أو المبلغ الذي يتفقون عليه معهم. و لا تتدخل الشرطة في أمورهم حتى يضطر الناس إلى تهدئتهم بأى طريقة ليخلصوا من صراخهم و طلباتهم.

و نجد في سورات عددا كبيرا من الفرس، و هم تجار ماهرون، و حرفيون بارعون و خذّام جيّدون، كما يقم في المدينة بعض الأرمين و الجورجيين و اليهود، فضلا عن العديد من الكاثوليك الهنود و يسئى هؤلاء برتغاليون، و يجب على البرتغاليين القادمين من اوروا تعلّم لغتهم السيئة لأنها المستعملة في الهند، شأنها في ذلك شأن الايطالية العامية التي يستخدمها الاروييون في الشرق.

يبدأ المسلمون في سورات يومهم عند غياب الشمس كالغرب و الأتراك، لكنهم لا يحسبونه بالساعات، بل يستخدمون طريقة سكان البلاد القدامى أى البوار،(Be F)، و الغارى (Garrى)، و البول (Poll)، و الويول (Wipol) ، و يقسمون الليل و النهار إلى ٧ بوار أو ٦٠ غارى، و الغارى إلى ٦٠ بول، و البول إلى ٦٠ ويول. لتسجيل وقت الغارى، يستخدم الهنود ساعة مائية و هى كناية عن طاس من النحاس دائرية القاعدة على شكل أقداحا الصغيرة، و في قعرها ثقب تدخل منه المياه بقوة. و لاحظت أن المياه ملأتها خلال ٣ دقائق، وفقا لساعاتي، ثم غرقت الطاسة. لو كانت

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٧٣

السوتن غارى تعادل ٢٤ ساعة، ما كان يجب أن تنقر الطاس إلا بعد ٢٤ دقيقة، لكن تبين من التجربة أن مراقب هذه الساعات لا ينتبه إلى وضع الطاس على الماء أولا.والى أن الثقب الذى تدخل منه الماء يكون كبيرا احيانا. إن جرس الهنود عبارة عن قطعة نحاس مسطحة سميكّة و مستديرة، يبلغ قطرها حوالى قدمين و نصف. يعلق هذا الجرس، و عند كل غارى أى كل ما لمست الساعة المائية قعر الماء يضرب بمطرقة خشبية.

إذا عادلت ٨ بوار ٦٠ غارى، يساوى كل بوار ٧ غارى و ٣/٢ الغارى، لكن هذه الحسابات لا تتبع بدقة في الحساب المدني، نعتبر أن أول و ثالث بوار يساويان ٧ غارى، و الثانى و الرابع يساويان ٨ غارى. حيث يمزّ بوار بأكمله، و يضرب السبعة أو الثمانية غارى، يضرب بعدها ببطء عدد البوار، لكن لا يتعدى ذلك الأربعة، كما لا تدق أجراسنا سوى الثانية عشرة. و يبدأ النهار بوارى، و في سورات بعد ٣٢ غارى في أطول يوم و ٢٨ في أقصر يوم.

رأيت هذه الساعات المائية، و هذه الاجراس في منزل حاكم مخلوع، حيث تكرر الساعات على أنواعها، و قد تم الاحتفاظ بها على سبيل العادة أو للترف اذ قيل لي إن الاعيان يكتفون الخدم بحمل هذه الاجراس أمامهم في المسيرات، لكنهم يستخدمون الساعات الرملية عوضا عن الساعات المائية. و قلما نجد هنا ساعات تملو الأبراج كما في تركيا و شبه الجزيرة العربية.

و تلفت الانتباه، من بين حدائق سورات، تلك التى أمر بزرعها و بنائها تك بغ خان (ذكرته سابقا)، و التى كلفته ٥لاک روبية (حوالى ٣٣٣٠٠٠ درهم). نجد من بين أبنية هذه الحديقة العديدة، الكثير من الغرف الكبيرة المفتوحة من احدى الجهات يعلوها سقف كبير يضىف مزيدا من الفناء عليها، كما نجد حمامات رائحة، و شلال و بحيرات عدة تتصاعد منها المياه في نوافير، و هذا ما يتلذم و المناخ. لكن الدرب المؤدى من المدخل الرئيسى إلى المبنى الاساسى ضيق للغاية و متعرج تكرر على جوانبه الابواب حتى أن العره يمكن أن يضغ في وضح النهار، و ينطق الامر نفسه على الممرات الأخرى بين الأبنية، و يعود السبب إلى أن سيد القصر يخشى الهجمات المفاجئة. و تتميز الدروب في الحديقة و العديد من السهول بأنها مرصوفة، لكن هذا البناء الرائع و هذه الحديقة الفناء لا يوليان العناية اللازمة، لأن المسلمين هنا كما في تركيا و في شبه الجزيرة العربية يفضلون بناء قصور كبيرة ليخلدوا اسماءهم و يرفضون صرف المال لصيانة بناء شتده شخص آخر.

رسمت خارطة لأجزاء هذه الحديقة الاساسية على اللوحةXIV ، لاعطاء القارى فكرة عن كيفية تنسيقها: (١) المبنى الرئيسى المؤلف من ثلاثة طوابق مع شرفة في الاعلى. (٢) شرفة كبيرة على سور الحديقة. (٣) الأجنحة المؤلفة من طابق واحد، مع ديوان مفتوح لكل منها و شقق صغيرة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٧٤

عدة. (٤) خزانات مياه كبيرة و صغيرة مع نوافير. (٥) دروب و مساحات مرصوفة بالزجاج. (٦) مركز الحرس الداخلى في اسفل المبنى و قوفه غرف عادية. (٧) حريم مقفل أو منازل لزوجتى المالك مع حدائق و نوافير ماء، و ذلك في مكان أعلى من الحديقة الرئيسة، كى لا يتمكن أحد من رؤية ما في الداخل. و يتم تجهيز هذه الاماكن بطريقة تجعل كل زوجة مستقلة عن الأخرى و تتوفر لديها كل وسائل الراحة و يمكنها أن تستخدم العديد من الخدم و الحشم (٨) مكان اقامة الزوجة المفضلة على الأرجح، و فيه حمام رائع مع نوافذ زجاجية مصقولة كالمرآة. اعتاد الحاكم العجوز التوجه غالبا إلى هذا الحمام لتحيط به نساء جميلات عاريات يضطرون إلى بذل أقصى جهدهن لإثارة اهتمامه. (٩) بناء من طبقتين، فيه دواوين مفتوحة و مكاتب عدة صغيرة. (١٠) بناء متواضع، فيه دواوين عدة مفتوحة، يمكن استخدامه كحريم.

و نجد من جهتي سور الحديقة شققا صغيرة ملاصقة له مخصصة لخادمات و عبيد الزوجة التى يجعلها السيد تقيد في هذا المبنى المنفرد، (١١) مبنى واسع مؤلف من طبقة واحدة، فيه دواوين عدة مفتوحة و حمامات و شقق صغيرة، و قد اعتاد تك بغ خان استقبال ضيوفه و عقد اجتماعاته فيه.

(١٢) مبان صغيرة قرب شلال. (١٣) حائطان مثقوبان على شكل قوس. (١٤) باب عظيم، مع اماكن اقامة عدة للحرس، و يقع هذا الباب خارج الحديقة، اذ لا نجد في سور هذه الاخيرة الا ابوابا صغيرة. (١٥) ثلاثة آبار، تستخرج منها المياه بألة تعمل على المياه على شكل ناعورة ، ثم تجتمع هذه المياه في خزانات و تجر منها إلى البائيع و النوافير.

و تعتبر حديقة الهولنديين أجمل حديقة بين تلك التى زرעה الاروييون، و تتميز بموقعها قرب نهر تايى. و للارويبين في سورات مقبرة خاصة، فيها بعض الاضرحة التى تستحق الزيارة و الاهتمام، أما أكبر كنيسة في مدفن الانكليز فعبارة عن مبنى يبلغ علوه ٤٠ قدما ينتهى بقبة جميلة للغاية و ابراج على الزاويتين. و قد دفن فيها الاخوان كريستوف و جورج اوكسندن، و توفى الاول في سورات في العام ١٦٥٩، و الثانى، و كان حاكما لبومباى، في العام ١٦٦٩. و يعود أبهى قبر في مدافن الهولنديين لهترى ادريان بارون رهدن في دراكشتين، و قد ارسلته الشركة الهولندية للهند الشرقية إلى سورات بغية مراقبة سير أعمال و كالتها و موظفيها، لكنه لقي مصير الذين اتوا قبله في المهمة نفسها، توفى في العام ١٦٩٧، و هو في طريقه من باتانيا إلى سورات في المدينة الاخيرة في ماتم مهيب.

و كانت مدة اقامتى في المدينة قصيرة فلم تسمح لي برسم خارطتها، فضلا عن أن هذا العمل

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٧٥

أخطر في الهند بين الارويبين منه بين الأتراك و العرب، و لم أثنأ أن يشك بي الانكليز الذين تعاملوا معى بلباقة و أدب إن شاهدوني أرسم ممتلكاتهم . و تلقيت خارطة لمصّب التايى، رسمها انكليزى منذ سنوات، صمّح فيها بحار هولندى أقام لسنوات في سورات الموقع الحالي للأرصفة الرملية، و قد طبقت هذه الخارطة على اللوحةXIV لأعطي القارى فكرة دقيقة عن هذه المدينة.

#### العودة من سورات إلى بومباى

في ٨ نيسان/ أبريل، غادرت سورات لأعود إلى بومباى على متن السفينة نفسها التى قدمت بها.

و اتفقنا على المغادرة باكرا، لكننا لم نترك المدينة الا في الساعة العاشرة. و لم نبلغ السفينة الا في الثالثة بعد منتصف الليل، و لم أكن مستعدا لرحلة كهذه أثناء الليل فى مركب مفتوح فأصبت بزكام شديد. و غادر جايمس ماسات، قبطان سفينتنا في سورات، في اليوم التالى عند الخامسة صباحا، فوصل على متن السفينة في الواحدة بعد الظهر، و أبحر مركب صغير آخر بعد ساعة و لم يبلغ السفينة الا

في العاشرة وفي الساعة الثانية وعشر دقائق بعد الظهر، نستنتج من ذلك، أن الرياح وحركة الموج يمكن أن تعيق المسافرين فضلا عن أن سفينتنا كانت ترسو بعيدا عن اليابسة.

في ١١ نيسان/ أبريل، أبحرنا مع حوالي خمسين مركبا صغيرا، اجتمعت لتصل إلى بومباي في حمانا. في ١٢ من الشهر نفسه، صادفنا بعض القراصنة، أرادوا الاقتراب من موكبنا فتجمعت المراكب الصغيرة حول سفينتنا، وأطلق القبطان بعض القذائف المدفعية لكنهم لم يكتروا للأمر حتى أصابتهم إحدى القذائف. وابتعد القراصنة لكنهم لم يهتفوا علينا، مما جعلنا نخشى أن يعادوا الاقتراب منا لئلا لأهم يستغلون الظلمة ليهاجموا عادة من جميع الجهات، وحين تطلق السفينة الانكليزية النار من إحدى الجهات يخطفون المراكب الصغيرة من الجهة الأخرى. و لم يبحسروا على الاقتراب منا، فوصلنا بومباي في ١٣ نيسان/ أبريل.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٧٧

عند عودتي، كان الانكليز ينظرون سفينتين لإرسالهما إلى أوروبا قبل موسم الامطار، وأملت أن أجدهما في بومباي، لكنني علمت انهما لن تصلا قبل موسم الامطار، لأنه تم إرسالهما من البنغال ومدارس إلى باتافيا ونيكولن، وقررت أن أسافر على متن السفينة التي جئت معها من سورات إلى الصين لأبحر بعد ذلك نحو كونهانغن على متن سفينة دانماركية، لكن في ٢٠ آب/ أغسطس، وعند موعد ابحار السفينة، مرضت و لم يكن بإمكانني السفر من دون أن أعرض حياتي للخطر.

وبقيت في بومباي مرغما خلال موسم الامطار، فقررت العودة عبر البصرة حالما تسمح لي صحتي بذلك. كنت والسيد كرامر قد أرسلنا من ترنكبار كافة الغراب الطبيعية التي جمعناها في الخليج العربي ثم بعثت مخطوطات رفاقي كلها وجزءا من أوراقنا مباشرة عبر لندن إلى كونهانغن. ولأنني لا يسعني التكهن بما ينظرني في طريق العودة، اعتبرت أن الحذر يتطلب أن أرسل هذه الاوراق كافة عن طريق آخر كي لا تصبح الرحلة غير مجدية اذا ماوافقني المنية أو اذا ما تعرضت للسرقة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٧٨

### رحلة من بومباي إلى مسقط وبوشهر

تركت بومباي أخيرا في ٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٧٦٤ على متن سفينة حربية صغيرة تابعة لشركة بلاد الهند كان عليها السفر من مسقط ومن الخليج الفارسي. قلما تتغير وجهة الريح في هذه الأنحاء وعادة يعرف البحارة الماهرون مسبقا أي ربح ستقابلهم في هذا الموسم أو ذاك. في بعض الأشهر يسافر البحارة من بومباي إلى مسقط مباشرة أو حتى إلى البصرة دون أن يحتاجوا إلى طي شراع مصطبة السفينة. لكن في أشهر أخرى يجب أن يتجهوا نحو الجنوب أولا ثم يتزلوا شراعهم نحو الغرب إلى أن يلتقوا بالرياح فواصلتها يمكنهم العودة إلى الشواطئ العربية والخليج الفارسي. عندما حزمنا أمتعتنا للرحيل لم تكن في الموسم الافضل ولا حتى في الموسم الاسوأ للسفر. كان القبطان يتربح هبوب الرياح الشمالية مما جعله يحترس من التوجه كثيرا منذ بداية السفر نحو الغرب لأن الهواء الشمالي كان سيءا كنه حتما.

وعلى طول الساحل الهندي على بعد درجتين أو ثلاث درجات منه فقط كنا نرى حيات البحر الصغيرة التي ذكرتها في المجلد الأول. يقال ان الخليج الفارسي مليء بها كذلك. في مساء ١٢ كانون الأول/ ديسمبر اشتد لمعان مياه البحر كما لم أر مثله في حياتي فيدا سطح الماء وكأنه مغلف بشعاعات من النار على مساحة نصف ميل ألماني بينما لم تكن نرى في مناطق أخرى إلا لمعانا بسيطا جدا عندما يهتاج ماء البحر. وكنت قد ذكرت سابقا أن سبب هذا اللمعان يعود إلى قناديل البحر. في اليوم التالي عندما كان الجو لطيفا رأيت كمية كبيرة من هذه القناديل وكان بعضها كبير الحجم كما لم أر مثله قط. تشير الدلائل إلى وجود حيوانات بحرية أخرى تعطي أشعة أثناء الظلام. في بومباي لطلالما رأيت نورا يشبه الفوسفور على الطرقات وكنت في بادئ الامر أصعبه خشيا عفا لكنني اكتشفت انه بقايا سمك لزوج يشكل طعام الفقراء في هذا المكان.

أثناء رحلتي إلى مسقط كنت أنتظر المساء عندما يكون الجو صافيا لرؤية ضوء النجوم المشع الذي سأله عنه السيد ميكائيليس في سؤاله رقم ٨٨ خاصة وقد أكد بعض المسافرين أن النجوم الثابتة لا تلمع قط في بعض المناطق الشرقية كما في أوروبا تماما. في ١٥ كانون الأول/ ديسمبر،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٧٩

كانت السماء على درجة عالية من الصفاء فرأينا كوكب المشتري وكوكب الشعرى ما إن ظهرا، لكن لم نتمكن من رؤية كوكب برويون(Proyon) إلا عندما صعد إلى ارتفاع ٢ والنجوم الصغيرة الا على ارتفاع ١٠. أما النجوم الاكبر حجما فرأيناها تلمع على ارتفاع ٢٥ درجة كما لو لم تلمع أبدا في أوروبا في ليالي الصيف.

في ٢١ و ٢٢ من الشهر نفسه، رأينا مجموعة كبيرة من الدلائل التي بدت وكأنها تشير معنا والتي كانت تسبقنا بالرغم من أن سفينتنا كانت تسير بسرعة ٤/٣ الميل في الساعة. رأينا من ٨ إلى ١٠ دلائل تقفر في الماء دون أن تضع طريقها ودون أن تتأخر عنا. في هذا اليوم الأخير أي (٢٢ كانون الأول/ ديسمبر) رأينا رأس قلحت(Ras Kalhat) على ساحل عمان. اعتاد المسافرون الانكليز على اعتبار هذا الرأس جزءا من بلاد اليمن. في اليوم ٢٣ اقتربنا من مسقط. أصبح الهواء هادئا ولشدة ما كان الجزر جولا على الشاطئ. تراجعا عنه أثناء الليل ستة أميال ألمانية. في اليوم التالي، كانت وجهة الريح معاكسة بالنسبة إلينا وكان المسد لا يزال قويا فكبدينا الكثير من الضعاب كي نبقى بعيدين عن اليابسة. إن الساحل العماني شديد الخطورة ومياهه شديدة العمق تصل بالقرب من اليابسة إلى ٥٠ باعا. في اليوم ٢٨ كنا لا تزال بالقرب من رأس قلحت. منذ هذا اليوم حاولنا الوصول إلى عرض البحر ثم أصبحنا في مأمن من تحطم السفينة.

خلال باقى الرحلة واجهتنا رياح معاكسة ومد وجزر إلى اليوم الثاني من شهر كانون الثاني/ يناير ١٧٦٥. منذ ذلك اليوم كثرت العواصف والامطار وتواصلت وبما اني لم أكن أحمل ثيابا شتوية (لأنني استعدت لباسي الأوروبي في بومباي) تأثرت بالهواء البارد. لكن في اليوم الذي ذكرته آنفا أصبح الهواء جيدا ووصلنا إلى مرفأ مسقط في ٣ كانون الثاني/ يناير.

في اليوم الرابع وصلت إلى المرفأ عدة سفن هندية وكانت تعبر عن فرحها بالوصول على طريقة بلادها ففرح الطبول وتنفخ في الايواق. رست إحدى السفن بالقرب من سفينتنا وكم عجبت لرؤية فرنسيين توجهوا إلى الهند بعد هزيمة بونديشري وهم يعملون في الوقت الراهن كجنود عند قبطان هندي. هناك العديد من أهل بلادنا الذين تفرقوا خلال الحرب الاخيرة وأجبروا على العمل بكد لكسب رزقهم لدى المسلمين وعبدة الاصنام.

إن صاحب مسقط هو أمير عربي يعيش في قصر ويدعى إمام عمان، أما سكانها فهم جميعا من المسلمين. إن القرآن هو كتاب شريعتهم ودينهم وهم ينتمون إلى المذهب الإباضي. ومع انه معروف جدا وقد حكى عنه الكتاب العرب لكن لم يذكره أحد من المسافرين الاوروبيين بسميهم السنة والشعبة باسم الخوارج وهو لقب شنع في عمان تماما كما هو اسم الارقاض بالنسبة للفرس. تكلم ابو الفرج على الخوارج واعتقد ان سال(Sales) ذكرهم أيضا وبسميهم البعض الخارجين.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٨٠

ان مبادئهم التي ذكرت بعضها في كتاب وصف شبه جزيرة العرب تتفق مع مبادئ الخوارج وهم لا يميزون أهل بيت محمد وعلى أو يفضلوهم عن أي عربي يتحدر من عائلة عريقة. لم أعرف مسلمين يعيشون بتشف شديد مثل الإباضيين فهم لا يدخنون التبغ ولا يشربون القهوة ولا الكحول، إن الأغنياء منهم يلبسون مثل ثياب الفقراء. والفرق الوحيد في الملابس يتجلى من خلال العمامة التي تكون من قماش افخر ومن خلال السيف الذي يضعه في وسطه والخنجر الذي يحمله في الجهة الامامية من جسمه. والإباضيون لا يسمحون لأنفسهم بالاتقياد وراه الشهوات وهم مهذبون مع الغرباء ويسمحون لهم بالعيش بحرية في مسقط وفقا لقوانينهم. وعلى عكس الباتيان الذين يجبرون على دفن موتاهم في اليمن، يسمح لهم أن يحرقوهم في مسقط كما ويسمح لليهود بارتداء زى العرب إذ لا يجبرون هنا كما في البلدان العربية الأخرى بارتداء ثياب تميزهم. في البلاد السنينة عندما يعثر على يهودي أو مسيحي أو باتياني بصحبة مسلمة يجبر على اعتناق الدين الإسلامي أو على دفع غرامة نقدية ضخمة، أما عند إباضي مسقط فلا يتزعج الحكيم من هذه الظاهرة شرط أن تكون المرأة من بنات الهوى اللاتي يحصلن على المال اجرا لما يفعلن علما ان هناك عددا كبيرا من النساء المتعطلات اللواتي يقمن في حي خارج المدينة.

للشرطة سلطة واسعة في هذه البلاد فنحن لا نسمع بحدوث سرقة بالرغم من أننا نرى البضائع معروضة دائما في الشارع لأسابيع متتالية. لا يتجرأ أحد على النزول إلى الشارع ليلا من دون نور ولا يسمح لأي مركب بالرسو بعد مغيب الشمس أو بالانتقال من سفينة إلى



أخرى وذلك حفاظا على رسوم الجمارك.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٨٢

يخضع للاسلام كل من الوالي، والوكيل، وهو المسؤول عن الضرائب وعن التجار والغرباء، والقاضي. يبلغ عدد الهنود الباتيان و التجار والحرفيين والخدم ١٢٠٠ وهناك أقلية من الهنود لكن وجود الاوروبيين معدوم تماما. كنت أحمل معي رسائل توصية من بومباي إلى الوكيل والى سمسار الانكليز و هو باتياني وقد تعاملنا معي بكثير من اللطف. لم أزر الوكيل الا نادرا كي لا أكون مجبرا على الإفصاح له عن سبب تجوالي داخل المدينة وخارجها. أما الثاني فقد عرفني على عرييين و على شيخ الهند فأعطوني معلومات جغرافية قيمة عن عمان تجدها في كتاب «وصف شبه جزيرة العرب» تجدون في اللوحة ١٥ خارطة مدينة مسقط. لقد خصت الطبيعة مسقط بأسوار طبيعية فعلى الصخور الموجودة من جهتي المرفأ حيث تحتمى أكبر السفن من الرياح، هناك سرايا عديدة مدمجة بالأسلحة و مزودة بالمدافع. من بين القلاع اثنتان تستحقان أن تذكرنا هما قلعة مراني و قلعة جلالي لأنهما الأكبر حجما و بسبب موقعهما على الصخور الشديدة الانحدار و المجاورة للمدينة. أما البروج فهي صغيرة. يحيط بالمدينة سور لسي شديد الحصانة مزود بشمانية بروج مسلحة بالمدافع.

الأسوار ضعيفة من الجهة الشمالية الغربية إذ يتخلل حائط المدينة دفران من الخشب لتمر منه المياه المتساقطة بغزارة من الجبال المجاورة. أما منازل السكان فهي بسيطة جدا لأنهم لا يبحثون عن الفخامة. و حتى مسجدهم صغيران و معتمنان و لا تعلوهما أية منمنمة. إن أفضل ما بني في هذه المدينة كنيستان يرتغليتان احدهما تحولت اليوم إلى منزل الوالي والثانية إلى متجر. هناك سهل خارج المدينة، مساحته لا بأس بها بالإضافة إلى بساتين يطيب الجلوس في ظلها في المواسم الحارة تحت شجر النخيل وغيره. يغيب الفن عن هذه المدينة أما البيوت المبنية خارج اسوارها أي في ضواحي مسقط فهي أكواخ فقيرة مغطاة بالحصر ترى مثلها أحيانا داخل المدينة. لقد قامت الطبيعة بتعزير كل شيء. تحيط بالسهل صخور شديدة الانحدار و للسهل ثلاثة طرق تؤدي اليه يمكن نزولها بسهولة. يؤدي أحد هذه المخارج إلى صدوف(Soddof) و آخر إلى قليبو (٦)(Kolbu) و الثالث إلى مطرح(Mattrach). إن المكانين الأولين هما قريتان حقيرتان. أما المكان الاخير فهو مدينة فيها قلعة و الكل يقع على شاطئ البحر.

إذا تقع مسقط عند طرف الخليج بين الصخور المنحدرة على رأس أو قل على شبه جزيرة على ٢٣ ٣٧ من القطب و تبعد عن بومباي ١٢ إلى الغرب وفقا لحسابات القباطنة الانكليز. يزعم هؤلاء أنه عند ما يكون القمر بدرا أو عند ولادته يسجل أعلى مستوى للمياه عند الساعة ١١ و إن ارتفاع المد يصل أحيانا إلى ١٢ أو ١٤ قدما. أما انحراف البوصلة فهو ٤ درجات أو ٥ درجات إلى الغرب. على قدم أحد الجبال (قرب ٨) هناك بئر يزود مسقط بالمياه المنعشة أثناء فترات الجفاف. يتم

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٨٣

جلب هذه المياه بكثير من الصعوبة بواسطة تور في كيس كبير من الجلد ثم تصب في خزان و تقودها الانابيب إلى القناة. يبدو أن هذه القناة هي أيضا من عمل البرتغاليين. بالقرب من (٩) هناك أنبويان من الحديد كانت تغلق في الماضي بواسطة حفيات أما اليوم فتغلق بواسطة قطعة جلد يجب انزاعها كلما أردنا الحصول على الماء. في القلعتين (١ و ٢) هناك خزانات كبيرة للمياه تكون دائما مليئة بماء البئر الآنف الذكر.

أكد بعض المسافرين انها تمطر مرة في السنة في مسقط لكن طوال اقامتي في هذه المدينة كانت السماء تمطر و ذلك ابتداء من ١٢ و حتى ١٧ كانون الثاني/ يناير. و لشدة ما كان الجو متكدرا كنت سأضطر إلى مغادرة المكان دون أن أدون أي ملاحظات قيمة تتعلق بارتفاع القطب.

أما في أيام الصيف عندما تقترب الشمس من السمتم و عندما تعكس الصخور الجرداء أشعتها تشتت الحرارة في هذه المدينة لدرجة لم أشهدها قط في أي مكان آخر في العالم.

تبدو الجبال على شاطئ عمان جرداء قاحلة. أما الوديان فهي خصبة شديدة الزرع لذا نجد الكثير من الفاكهة في مسقط. كذلك اللحوم جيدة و يكثر السمك في المواسم. إن أهم المنتجات التي تصدرها عمان هي الملح. تنطلق سفن محملة بالنور من عدة مرفاى فتتجه نحو الخليج العربي و بلاد العرب وغيرها من البقاع. و تشكل مسقط مخزنا لتغالبية البضائع التي تنقل من الخليج الفارسي إلى حضرموت و اليمن و الحجاز. و لقد تكلم أريان وغيره من الكتاب اليونانيين القدامى على مرفأ يدعى مسقا(Mosca) في هذه الانحاء و بدا يشبه مسقط إلى حد بعيد فلا شك أنه هو نفسه. فبالإضافة إلى أن الاسماء متشابهة تكثر الصخور على الشاطئين و الماء فهما شديد العمق لذا يمكننا القول إن مرفأ مسقط لم يتغير منذ العصور السالفة. لم أجد أي كتابه حول مسقط في كتاب أبو الفدا و في جداول نصير الدين.

كانت صهار حينئذ أهم مدينة تجارية في عمان. و لربما كانت حكومة مسقط في ذلك العهد تمنع التعامل الخارجي مع الغرباء، لذا لم يرد اسم مسقط في مؤلفات الكتاب السابق الذكر.

إن أحدا من الاوروبيين لم يترك مسقط ليتجول داخل البلاد إلا أن ولاية عمان تستحق أن

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٨٤

يتوغل فيها الجغرافيون و الفيزيائيون كما أن السفر فيها أكثر أمنا حتى من اليمن. لم تسمح لي حالتي الصحية بالقيام بهذه الرحلة. دائما نستج الفرصة هنا بالذهاب إلى الخليج الفارسي على متن سفينة صغيرة يسميها العرب طراد(Tarad) أو ترانكي(Tranki) و لقد وصفت تركيبتها في الجزء الأول. إلا اني قررت عدم القيام بهذه الرحلة نظرا إلى أن حالة الرياح لا تكون ثابتة في هذا الوقت من السنة و بسبب القراصنة. علما اننا لا نخشاهم قط على متن السفن الأوروبية. كنت قد تركت القبطان الذي جئت معه من بومباي إلى الخليج الفارسي لأنني كنت انتظر سفينة اوروية كانت سترتك بومباي من بعدنا بفترة وجيزة. وصلت هذه السفينة في اليوم ١٢ و خوفا من الا تستحق لي الفرصة مجددا بالذهاب إلى الخليج الفارسي، تركت رحلة التوغل داخل عمان إلى من سيأتي بعدي لعل الظروف و الطقس تسمح لهم بذلك و انطلقت من مسقط في اليوم ١٨.

في مساء اليوم ١٩ منذ الساعة الثامنة و النصف و حتى الساعة التاسعة و النصف بلغت سفينتنا سرعتها القصوى فاجتزنا في ساعة واحدة ٤/٥ الميل الألماني و كان سطح الماء على مدّ بصرنا أبيض اللون كأنه سهل مغطى باللوج. بعد العاشرة رأينا خطا أبيض يتجه من الشرق نحونا لكنه لم يصل إلى سفينتنا. أما سبب هذا البياض الظاهر فلا شك انه نفسه سبب لمعان المياه الذي رأيته مساء ١٢ كانون الأول/ ديسمبر بين بومباي و مسقط لكنني في هذا اليوم لم أر أي لمعان بل خطا أبيض و حسب.

لم يكن القمر قد بلغ الشفق بعد لكن الجو كان هادئا و السماء مليئة بالنجوم مع بعض الغيوم هنا و هناك.

من مساء اليوم العشرين رأينا رأس جسك(Jask) الواقع على الشواطئ الفارسية. بعد ظهر اليوم ٢٥ ٤٨ من القطب. كان كوه مبارك المسمى بومبارك(Bombareck) على الخرائط الأوروبية بعد ٣/٤ الميل شرقا باتجاه الشمال و يقع عند ٥١ بعد ظهر اليوم ٢٣ كان ارتفاع القطب من السفينة يبلغ ٢٦ ٨٣ و من جزيرة سلامة ٢٦ ٨٢ لكن ربما لم يكن مرصدي هنا شديد الدقة لأن رأس مستدم كان يعيق نظري إذ ان الجزيرة التي كانت عليه حجبت بعضا من خط الشفق عنى. في اليوم ٢٤ وجدت ارتفاع القطب في جزيرة طب و كان ٢٦ ١٤. حتى في هذا الوقت كان الهواء شديد التقلب فهذا أحيانا لم يكفهر الجو و تمطر

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٨٥

أحيانا و استمر هذا المناخ المتغير إلى ان اقتربنا من بوشهر(Abushahr).

منذ ٢٧ كانون الثاني/ يناير و حتى ٣١ منه، كان الطقس متكدرا و السماء تمطر و لم استطع قياس ارتفاع القطب إلا مرة واحدة. لم أكن قد شهدت قط كل هذا التغير في الهواء لفترة وجيزة جدا. فالجو يكون هادئا تارة ثم تأتي عاصفة فجأة ثم تهب الريح باتجاه معاكس تارة أخرى كنت أتوقع رؤية أعمدة الماء التي يقال إنها تكثر في الخليج لكنني لم أر شيئا منها. و لن أستفيض في ذكر المخاطر التي كانت تحف بنا في تلك الايام و هي مخاطر لطالما تعرض لها البحارة لذا فمن غير العدل أن نتذمر منها في هذه الرحلة البحرية الوجيزة.

في الاول من شباط/ فبراير تجاوزنا رأس بردستان(Berditsan). يرى البحارة الهولنديون ان هذا العمر هو الاكثر خطورة في الرحلة كلها ليس لكثرة الصخور التي تتجاح البحر أمام رأس بردستان و حسب بل و أيضا بسبب الجزيرة التي لاحظ وجودها أحد الانكليزيين و التي لم تدون بعد على الخارطة فيخشي أنه إذا ما انحرقت السفينة عن الصخور كي لا تصطدم بها، فلربما تصطدم بالجزيرة المغطاة بالماء كليا أثناء المسد، مع العلم ان الانكليزي رأها في أيام الجزر. أراد عرب بوشهر إقناعي ان هذه الجزيرة الصغيرة

تقع في الوسط بين رأس بردستان و جزيرة البحرين.

أخيرا في مساء الريع من شباط/ فبراير، وصلنا إلى مرسى بوشهر، لكن نظرا لضيق مدخل المرقا و لكبر سفينتنا، ألقينا بالمرساة على بعد ميلين ألمانيين من غرب المدينة.

بعد وصولنا بقليل تلقينا الاخبار من انكليزي يدعى سازلرند يترأس سفينة من البنغال، كنا قد التقينا به في اليوم ٢٥ من الشهر السابق قرب جزيرة صوره(Surde) ؟ أو شيخ صوره(Schech Sure) ؟ و كان قد ترك بوشهر قبل ستة أيام. و كان هو و الريبانان و رئيس البحارة أوروبيين. من بين البحارة كان هناك أسباني من مايلا. أما الباقون فكانوا من الهنود و هم معروفون بجنينهم لكنهم يضطرون إلى تنفيذ أوامر رؤسائهم.

لأن غالبية هؤلاء البحارة هم من الهنود الكاثوليك أو كما يقال من البرتغاليين، يضطر الانكليز و غيرهم إلى تعلم اللغة البرتغالية حتى يتمكنوا من إعطاء التعليمات و من الاستماع إلى البحارة.

و على كل فلا يهتم أحد بأصل البحارة أو بدينهم أو حتى باللغة التي يتخاطبون بها إذ أنهم لم يتوروا يوما ضد قبطانهم. و كان سازلرند قد فقد عدة أشخاص خلال رحلته مما اضطره إلى أخذ ١٢ بحارا عربيا مكانهم.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٨٦

اعتاد هؤلاء المسلمون على تلقي معاملة حسنة من أبناء دينهم. تنشأ دائما الحروب بين أصحاب الاراضي بالقرب من الخليج الفارسي. من هنا نرى البحارة العرب أكثر شجاعة من الهنود و هم يغارون على دينهم فيزدرون أصحاب الديانات الاخرى تماما كما تزدري نحن اليهود. و لربما كان السبب في ذلك أنهم لا يحجون الخضوع لأوامر مجموعة قليلة من النصارى أو أنهم يخشون من طريق الهند الطويلة أو أن روح القرصنة تملكهم فينبصون أنفسهم أمرى السفينة قبل خروجها حتى من الخليج الفارسي.

بعد مرور يومين على حديثنا مع القبطان سازلرند، ألقى بالمرساة قرب جزيرة قس(Kas) بسبب عاصفة هوجاء تعرض لها. ثم أرسل أحد بحارته إلى البر لجلب الماء فاستغل البحارة العرب الفرصة للقضاء على الاوروبيين. أما ربان السفينة الذي بقي على متنها فلقى حتفه بضربة واحدة على السطح. و عندما أحسن القبطان بهذه الجلبة خرج من حجرته فرموه برمح اخترقه لكنه لم يمت في الحال فظنوه عدة مرات بالخناجر. أراد رئيس البحارة أن يختبئ لكنهم أحضروه و قتلوه، و حتى القبطان الثاني لقي حتفه بطلقة رصاص في الزورق. و هكذا تحول الاثنان عشر عربيا إلى رؤساء للسفينة لأن البحارة الهنود و بعض التجار الارمن اختبأوا جميعا في أسفل السفينة و ظنوا أن الخطر بعيد عنهم، و بما أن العرب لم يكونوا يعرفون كيفية قيادة هذه السفينة الكبيرة و علما منهم انها لن تبقى لهم و لأنهم كانوا يبجئون عن السيولة و يعرفون أن سفن البنغال تحمل معها كميات كبيرة من الاموال قرروا أن يتروكا السفينة و يحملوا معهم الاموال بالإضافة إلى بضائع أخرى قيمة و صغيرة الحجم. فنادوا تاجرا أرمنيا ليديدهم على هذه البضائع لكنهم تشارجوا معه ثم قتلوه بعدئذ حملوا كل ما وجدوا أمامهم و ركبوا في مركب صغير و هربوا.

أما الاشخاص الذين كانوا قد ذهبوا لجلب الماء و الذين رأوا ربانهم يموت فقد توجهوا في مركبهم إلى قس و فور علم شيخ هذه الجزيرة بثورة على السفينة حتى أرسل سفينة مسلحة إلى البحر، فلاحقت باديء ذي بدء القراصنة الذين كانوا يتزلون من السفينة. عند ما تبه هؤلاء إلى ما يجري و علموا أن لا مفر لهم أرادوا العودة إلى السفينة لكن الاسباني أطلق عليهم قذيفة مدفع فلم يجدوا مهربا من الاستسلام. فما كان من شيخ قس الا أن استولى على كل ما كان بحوزة القراصنة بالإضافة إلى حمولة السفينة. لكن سرعانا ما طالبه سيده شيخ الشارقة(Isjarek) بحصته من الغنائم و تقاسمها مع جيرانه حاكم هرمز(Ormus) و ناصر خان حاكم لارستان(Laristan) الحالي ليتجنب نشوب حرب معها لهذا السبب. و هكذا تم تقاسم الاموال على أحسن حال و لم يحصل أصحابها الأصليون على أي شيء منها.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٨٨

#### ملاحظات في بوشهر و شيراز و برسبوليس(Perspolis)

#### اشارة

لم تكن مدينة بوشهر أو بوشير كما يسميها الانكليز معروفة من قبل الغزاة إلى أن سرت عادة القيام بفتوحات بحرية في نادر شاه. فقام الشاه بتشييد سفن حربية و اشترى غيرها من الأجانب ثم جهز أسطولاً من ٢٢ إلى ٢٥ سفينة تجتمعت في بوشهر. أدى ذلك إلى شهرة المدينة و قد أصبحت حالياً مرافقاً شيراز و تخضع أكثر من باقي المدن الموجودة على هذا الساحل إلى الوكيل أو حاكم بلاد فارس الحالي. و كما للوكيل عدة سفن كذلك لشيخ بوشهر و هو حاكم البحرين عدة سفن بحرية صغيرة و مركب كبير. يمكننا رؤية موقع بوشهر و المدن المحيطة بها في اللوحة ١٦ التي نسختها عن رسم قام به أحد الانكليز. المدينة مثلثة الشكل و تطل بجانب من جوانبها الثلاثة على البحر. يحيط بالجهة الثالثة سور سبيء و بعض الأبراج. و في أيام المد تغمر المياه المدينة تماما كما في لحية في اليمن فتبدو المدينة كما لو أنها تقع حينا في قارة و حينا في جزيرة. وفقا لملاحظاتي فإن ارتفاع القطب هنا يبلغ ٢٨ ٥٩ و تعمل إبرة البوصلة فيها ٧ ٣٠ إلى الغرب. لا يمكن قياس ارتفاع مستوى الماء و انخفاضه أثناء المد و الجزر بدقة في هذه المدينة بسبب عدد الجزر و أرضفة الرمل الكثيرة الموجودة في الجوار. يقال إن المياه ترتفع لمدة تسع ساعات. ثم تنخفض في ثلاث ساعات يقال إن نسبة المياه تكون أكثر ارتفاعا في النهار منها في الليل في فصل الصيف و العكس صحيح في الشتاء، أما الفرق بين المستوى الاعلى و الأكثر انخفاضاً فقلماً يصل إلى ستة أقدام. ترتفع الحرارة كثيرا في الصيف في هذه الأرجاء و تهطل الأمطار في الشتاء و قد ذكرت ذلك عندما تكلمت على رحلتي من مسقط إلى بوشهر. أثناء إقامتي في هذه المدينة كان الجو متلبدا في الأيام ٤ و ٥ و ٦ من شباط/ فبراير و تساقطت الأمطار، أما في اليوم ٧ فسمعنا الرعد و تساقط البرد، و تغطت الجبال التي كنا نراها على بعد ٧ أو ٨ أميال بالثلج.

قبل أن تسدهور الأوضاع في بلاد فارس كان أحد مستشاري بومباي يقيم في أصفهان بينما يقيم التجار الانكليز في كرمان(Kerman) و غمبيرون (بندر عباس) و كان هذا الأخير أحد أهم مرافق بلاد فارس. و في كافة المدن كنا نلتقي بتجار من الشركات الغربية لهولندا و فرنسا. ترك الفرنسيون بغالبيتهم بلاد فارس و لم يبق من الأوروبيين إلا تاجر انكليزي في بوشهر. عندما كنت هناك كان يقيم فيها السيد جرقس و هو رجل كان يهتم بالعلوم في شبابه و يكرس لها ساعات فراغه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٨٩

عندما ينتهي من أعمال التجارة. و لم يكن يتكلم الفارسية و حسب بل و يجيد كتابتها و قراءتها.

و كان يهوى جمع المخطوطات الفارسية. و لا شك أن العلوم مستفيد كثيرا من مكوته في بلاد فارس عندما سيعود إلى أوروبا. كان المسؤول عن هذه المطبعة ابن النحات الشهير ناظر(Natter) و هو معروف جدا في أوروبا. بالإضافة إلى هؤلاء يوجد راهبان هنا أحدهما يلقب نفسه بمطران اصفهان و أنا لم ألق بأي أوروبي في بوشهر.

يرسل الانكليز إلى هذا المرقا كميات من الانسجة الأوروبية و من البضائع الآتية من سرات و البنغال، أما عن الصادرات فهي أقمشة الحرير من يزد(Yezed) كاشان(Kashan) و الحرير الاحمر من غيلان(Ghilan) و السجاد (الأفخر نوعا هو الأصفهاني)، و الصوف الناعم و كميات كبيرة من العقاقير الطبية القادمة من بلاد فارس، بالإضافة إلى القطن. و شعر الماعز من كرمان و شتى أنواع الفاكهة الجليبية و ماء الورد و كميات كبيرة من نبيذ شيراز. إن هذه المنتجات هي جزء من تجارة السيد جرقس الخاصة الذي عين وسيطا شابا يدير أعماله في شيراز كما و تستخدم أعداد كبيرة من البغال و الخيل من بلاد فارس إلى بلاد الهند.

أما مير مهنا التي ذكرتها في 'وصف شبه جزيرة العرب' فهي في حالة حرب مفتوحة مع كريم خان حاكم بلاد فارس و بالتالي مع شيخ بوشهر المسمى مقلع الحاكم. قام مرة بمهاجمة القوافل بين بوشهر و شيراز فسبب انقطاعا في التجارة بين هاتين المدينتين. منذ فترة و جزيرة أحضر كميات كبيرة من الماشية بالقرب من بوشهر. حاليا يوجد في كور موج(Kor mudsch) جيش صغير لكريم خان يستعد للهجوم على مير مهنا في عاصمته بندر رغن(Bender Rign) و لم يكن المسافرين في هذه المناطق يخشون على أنفسهم من أي أذى لأن الاثنيين كانا يحاولان كسب وُد الانكليز كان كريم خان يريد أن يتحالف مع شيخ بوشهر للهجوم على مير مهنا من البحر في عقر

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٩٠

داره على أن تهاجمه جيوش المشاة ترا. أما مير مهنا فكان يمتني أن تتمركز الجيوش الانكليزية في بندر رغن بدلا من بوشهر إلا أنه

كان يعرف أن هذا لن يحدث إذ أن الانكليز لم يكونوا يدعون حاليا شيخ بوشهر بل كانوا يتكهنون بهرب بحرا محملا بثرواته في حال لم يستطع الوقوف في وجه جيوش كريم خان البرية. كان السيد جرفس يلعب على الحيلين لحماية تجارته الشخصية و تجارة شركة بلاد الهند. بعد وصولي بفترة وجيزة، أرسل حملة كبيرة من البضائع إلى شيراز عبر كور موح. في هذه المناسبة تجمع عدد كبير من المسافرين منهم التجار الصغار والعائلات الفقيرة وكانوا قد تركوا بلاد فارس هربا من الاضطرابات وأرادوا الآن العودة إليها. على هذا النحو تكونت قافلة لا بأس بها. ومع أنني كنت مضطرا للعودة إلى أوروبا بسرعة لم أكن أرغب بالتخلي عن فرصة الذهاب إلى شيراز ورؤية آثار برسيبوليس التي تبعد مسافة يومين وحسب عن هذه المدينة.

وهكذا اتخذت قرارا بالرحيل في ١٥ شباط/فبراير كواحد من ركاب القافلة.

أثناء رحلتي إلى برسيبوليس احتفظت باللباس الأوروبي الذي حملته معي من الهند لكن هذه الثياب القصيرة كانت تزعجني في القافلة. في هذا اليوم لم نصل أبعد من تنكشير (Tankesir).

من كافة الجهات رأينا باسيتين التخييل وكانت القرى المجاورة لها مهدمة جزئيا أو كليا والأراضي و عرة بعض الشيء. وجدت عرائش عنب في كرمشير (Karmasir) مع اني كنت أستبعد وجودها في هذه البلاد الحارة. كانت العرائش تقع في أرض مائلي بالصخور أو قل في آبار يتراوح عمقها بين ستة وعشرة أقدام. كانت الأغصان العليا تستند إلى أحجار البئر و كي لا يتأذى العنب بفعل الرطوبة، حفرت قنوات لجلب المياه إلى ساق العرائش.

لم تكن قافلتنا تحتوي على جمل واحد وكانت البضائع محملة على ظهر الحمير. وكان بعض التجار قد حتل بضائعه على الخيل أو امتلأ الخيل بنفسه بينما ركب الباقون الحمير أو مشوا على أقدامهم. من بين رفاق رحلتي كان هناك تاجر أرمني ولد في فارس لكنه عاش بعض السنوات في إيطاليا وكان يرتدي الزي الاوروي ليخاله الناس من أوروبا. لقد سررت كثيرا بصحة هذا الرجل لأنه كان يلعب دور ترجماني أمام الفارسيين. أضف إلى ذلك اني التقيت بعض الناطقين بالعربية في القافلة فكانت فرصة للتكلم معهم.

قبل وصولنا إلى تنكشير بقليل سمعنا أصوات المدافع والطبول والمزامير وصيحات الفرح. ظن البعض من أصحاب سفري ان قسما من الجيش الرابض قرب كور موح قد وصل إلى القرية وخشى البعض من الالتقاء بجيوش مير مهنا ما أنا لظم ينشغل بالي مع اني لم أكن أحمل بطاقة هوية. ادعت اني انكليزي ولم أشك قط أن هذا الاسم سينفذني. لدى وصولنا إلى تنكشير علمنا أن الخان قد قدم إلى كور موح وأرسل إلى الرئيس (أي الشيخ بالعربية) لباسا تكريميا وكان الشعب يحتفل بهذه المناسبة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٩١

خيمننا في هذا المكان بالقرب من قلعة حديثة البناء يستعملها السكان كمكان لحفظ مواشيهم في حال شُر هجوم مفاجيء عليهم من أحد الثوار. ان هذه القلعة مربعة الشكل و يبلغ كل ضلع من ضلوعها ١٦٠ خطوة مزدوجة. في كل زاوية هناك سور صغير يمثل برجاً مستديرا بالإضافة إلى وجود برجين من كل جهة والكل يتألف من الصلصال. في هذا السور هناك باب كبير وبابان صغيران للدرجة أنه لا يمكن لأحد الولوج منهما دون أن ينحني. يحيط بالقلعة خندق يبلغ عرضه ستة أقدام لكنه مطمو في عدة أماكن. بالقرب من الباب الكبير هناك مدفعان كبيران من الحديد.

لم أر أي بيت من حجر أو طين لا خارج السور ولا داخله و يعيش الرئيس و جماعته في أكواخ صغيرة مغطاة بالقش. كان يظن نفسه الأمر النهائي في أراضيه: محي، جيش كورموج كان يجير التجار المارين في أراضيه على اصطحاب مرافقيه لقاء أجر كبير من المال.

في الليلة التالية مزّ قطع من الخنازير البرية بالقرب من مخيمنا لكن أحدا من المسيحيين لم يكلف نفسه عناء قتل احدها لأنه لو فعل لما استطاع حملها إلى المخيم دون أن يحظى باحتقار المسلمين. إن الفرس يظهرون قدرا أكبر من الاحترام للأجانب مقارنة مع الأتراك والعرب. ولا شك أن سبب إطلاق اسم فرسي للشرق عليهم يعود إلى ذلك. ومع أن بعض المسافرين يقول إنهم غشاشون وإنهم لا يهتمون وعودهم إلا إلى أصران الاوروبيين من غير التجار يسعدون في سفرهم عند الفرس أكثر منه عند الأتراك والعرب. وأكثر ما يزعج لدى الفرس انهم لا يأكلون ولا يشربون مع الوثنيين أو الهندو أو عبدة النار أو المسيحيين أو اليهود أو حتى المسلمين من أصحاب المذاهب الاخرى و يعتقدون أن هؤلاء جميعا مدنسون. أما السنة فلا يزعجهم تناول الطعام مع أصحاب الديانات الاخرى شرط الا يكون هذا الطعام محرما.

في اليوم السادس عشر أجزينا على تمضية اليوم بكامله في تنكشير لأن صاحب أكبر عدد من الماشية في قافلتنا أي قروان باشي لم يكن ليغادر بوشهر قبل هذا اليوم. وهكذا سنحت لي فرصة قياس ارتفاع القطب. أضف إلى ذلك أن رحلتي هذه قد سمحت لي بوضع ملاحظات ملكية كثيرة كما لم أفعل في أي رحلة أخرى. سجلت بدقة فائقة مواقع القرى تماما كما فعلت عندما كنت في شبه جزيرة العرب لكني لا أجد ضرورة من تقديمها للقارئ. في اللوحة ١٧ رسمت خارطة بإمكانكم في نظرة واحدة اليها رؤية الطريق من بوشهر إلى برسيبوليس.

في الصباح الباكر من اليوم السابع عشر تابعنا رحلتنا ورأينا المزيد من التخييل من جميع الجهات لكن لم تر الاكواخ السنية البناء الا بالقرب من عدد ضئيل من هذه الاشجار. أما السهول التي مررنا بالقرب منها فتدعى أطة (Uta) و دستي (Dasti). و تدعى سلسلة التلال الممتدة غربى الدرب دراسي (Drasi) والجبال الشاهقة من الجهة الشرقية أهرام.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٩٢

من المعروف أن العديد من الأتراك والأكراد يجولون بقطعاتهم في بلاد فارس. في هذا اليوم التقينا براع تركي يعزف على ناي أزرق اللون يمكن رؤيته في اللوحة ٢٦ من الجزء الاول. كان الناي مصنوعا من القصب يزيد طوله عن القدمين وفيه خمسة ثقب من الجهة نفسها. وبالكاد استطاع رفيق سفري الذي ذكرته آنفا أن يفهم لغة هذا الراعي مع انه كان قد تعلم اللغة التركية في البصرة حيث تشكل العربية للغة الاساسية و التركية لغة البلاط. وهذا امر طبيعي لأن اللغة الواحدة يمكن ان تتخذ عدة لهجات.

بعد أن أرسلت خادمي لشراء علف للمحضان، كان علي أن ألعب دور الطاهي وهذا ما جعلني ألاحظ تغيّر الأرمين الذي لم أكن قد لاحظته بعد. فعندما هممت بذبح دجاجة كنت ملتفتا باتجاه الشرق لكن سرعان ما أخبرتني الارمن انه على المسيحيين الالتفات نحو الشرق عند ذبح الدجاج كما لو أنهم يريدون الصلاة. إلا أن البعض ظن انني أدرت رأسي باتجاه مكة كي يأكل خادمي المسلم من هذه الذبيحة. ثم فظنت إلى انهم يريدون معرفة صحة ديني من الطريقة التي أقطع بها رأس الدجاجة ففضلت منذ ذلك الحين عدم الخوض في أمور كهذه.

في اليوم ١٨ أمضينا خمس ساعات في سهل إلى أن بلغنا كورموج وتجاوزنا خليجا من بوشهر إلى داخل البلاد حيث يصير يشبه النهر ثم ينحرف نحو الجنوب ويصب أخيرا في الخليج الفارسي، إن جزءا كبيرا من كرمشير هو جزيرة بكل معنى الكلمة و سيصبح يوما أرضا صلبة إذا كان الخليج ضيقا و قليل العمق في أماكن عديدة كما في هذه المنطقة. إن الارض بالقرب من هذا النهر خصبة. و تنغمر أحيانا بماء البحر لكن اذا ابتعدنا قليلا تصبح الارض صالحة للزراعة مع أن القسم الاكبر منها غير مزروع بسبب قلة السكان.

تقع كورموج في منطقة جبلية وسط سهل خصب، و يسكن فيها أمير ولاية شهيرة. عندما بدأ كريم خان يستولي على الولايات الواحدة تلو الأخرى في هذه المملكة، صار يجير رؤساء القبائل الذين ارادوا اعتبار أنفسهم أميادا بالوراثة أو أميادا مستقلين على المكوث في مدينة شيراز أو على الانخراط في الجيش بحجة أنه يريدهم بجانبه لاستشارتهم عند ما تدعو الحاجة أو لساندهته في المعارك لإحلال الأمن في بلاد فارس. إلا أن نية الوكيل الحقيقية كانت وضع هؤلاء الامياد تحت رقابته كي لا تتملكهم الرغبة في الانفصال عنه. ضمن هؤلاء الامياد هناك أيضا سيد كورموج. عندما كان هذا الأخير يعيب كان يوكل عمله ليحل مكانه باعتباره أن عمه رجل ثقة إلا أن أخيه الامام جعفر سمل عيني العم و استولى على الحكم منصبيا نفسه الحاكم و أملا في أن أخيه لن يعود. في هذه الاثناء أرسل كريم خان جيشا إلى هذه المنطقة و لم يكن جعفر قد اكتفى ببقى عيني عمه بل تعدى ذلك إلى ارتكاب فظاعات أخرى و لم يكن ينتظر الخير من جيش كريم خان

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٩٣

مع أنه يقال إن الامير كتيه خان سردار أو القائد كان مكلفا بإعطائه ثياب الشرف كدليل على احتفاظه بالحكم. لكن الأمير جعفر الذي كان مقتنعا بالعكس كان يحضّر نفسه للقاء عدو. احتل مرزا ضيقا في المنطقة الجبلية حيث كان على الجيش أن يمر لكنه لم يكن يتمتع بقوة كبيرة فهرب إلى الجبال المجاورة لكن سرعان ما ألقى القبض عليه و رفاقه و اقتيدوا للمثول أمام القائد فأرسله إلى شيراز حيث حكم عليه بنقل ثلثة من المدينة إلى خارج بابها. مع تقهقر فريق الثوار هذا و تشتته و مع إخضاع مير مهنا إلى حكم كريم خان، قد يظن البعض أن قائد الجيش سبترك هذه المنطقة و سيسير مباشرة نحو بندررغ إلا أن هذا الغفول ليس من شيم الفرس أثناء

المعارك. ما إن وصل الأمير كئيبه خان إلى كورموج حتى قاد سكانها إلى القلعة وأجرهم على هدم منازلهم و حرق أكواخهم و لم ينج من ذلك إلا المسجد و قبر أحد الأئمة (و يقال إنه من الأولياء). وجدنا سكان هذه المنطقة بحالة يأس شديد. استوليت على أحد منازل الأمير جعفر و كانت مدمرة جزئيا فوجدت فيها غرفتين صالحتين للاستعمال. كنت أظن أن بلاد فارس كثيفة السكان مثل اليمن حيث نام كل ليلة تحت سقف ما. لكن قبل رحلي من بوشهر بفترة وجيزة سمعت أن احدا من المسافرين (و جميعهم من الفقراء) لا يحمل خيمة معه و بما أني لم أشأ لعب دور الغنى لأنه مكلف في هذا البلد، تركت خيمتي خلفي مما جعلني أعاني الكثير أثناء سفري إذ أمطرت كثيرا أثناء الرحلة و كنا مجبرين على النوم في الهواء الطلق في غالبية الليالي.

إن أسوار كورموج ليست أفضل من أسوار تنكشير. كنا نرى هنا و هناك حصص و حجارة داخل السور. إن جدران المنزل الذي سكنت فيه كانت مصنوعة من الصلصال الممزوج بالقرميد و الحصى. كان الخندق الذي يحيط بالقلعة جافا مثل خندق تنكشير لكنه أكثر عمقا و يبلغ وسعه عشرة أقدام و حيث تقع أكواخ الفقراء نجد حفرا عميقة كانت مزروعة قمحا قبل أن يقطعها منها القائد.

عندما عاد القائد الفارسي إلى جوار قلعة حفر خندقا حول مخيمه و بنى سورا ارتفاعه خمسة أقدام من طين و حجار و نخيل اقلعه من أرزاق السكان. و قيل إن الجيش الذي جمعه يتألف من ٤٠٠٠ فارس و ٢٠٠٠ من المشاة إلا أن أحد الجيورجيين اخبرني ان عدد الفرسان لم يتجاوز ١١٠٠ و المشاة ٥٠٠ رجل قادرين على الحرب. و كان هؤلاء بعيدين كل البعد عن النظام. نصب كل واحد خيمته أو بنى كوخه حيث أراد و ربط حصانه في المكان الذي حلاله. إن الخيل الفارسية جميلة. يحمل الفرسان قريينات و مسدسات مزودة بحلقات إطلاق. يضع كل واحد

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٩٤

مسدسين في وسطه، واحد من الامام و آخر من الورا. يحمل المشاة بنادق مزودة بفتيل مع أن الأتراك لا يسمحون للمسيحيين بأن يصبحوا انكشاريين إلا أن الفرسان لا يميزون بين مسيحي صالح و مسلم. و لقد التقيت في هذا الجيش بضيابط و جنود جيورجيين و مسيحيين. مع هذا فإن الأرمن و اليونان يكونون لثين جدا في حضور العثماني الا اني وجدت الجيورجيين على جانب كبير من الفخر و كان ذلك يليق بهم كثيرا. و كانوا يحملون أسلحة جميلة كالبنادق و المسدسات و السيوف و يرتدون ثياب المسلمين.

لا يزال الفرسان يقتربون جيشهم كما في القديم و يعطون أسماء لضباطهم وفقا لعدد الجنود الذين يرأسونهم. إلا اننا لا يمكن أن نقدر عدد جيش كريم خان من خلال عدد ضباطه إذ تعرفت على ضباط يجب أن يتراأسوا ١٠٠ نفر لكنهم لا يتراأسون إلا ٥٠ أو ٦٠ شخصا، إن الضابط الذي يتراأس عشرة عناصر يسمى داغ باشي (Dag Baschi) و الذي يتراأس ٥٠ يسمى ينشا باشي و الذي يتراأس ١٠٠ يسمى أوزباشي و ينسد باشي الذي يتراأس ٥٠٠ و مم باشي الذي يتراأس ألف عنصر. إن رئيس المم باشي هو السلطان و هو مرؤوس من قبل الخان. من المعروف أن التتر يلقون رئيسهم بالخان و الأتراك بالسلطان. يبدو أن رؤساء الفرسان الأعلان للمسمون شاه و باد شاه هم الذين يطلقون على ضباطهم الرئيسيين لقب خان و سلطان لزيادة أهميتهم في نظر أتباعهم حتى يظن الناس انهم يحكمون أعدادا كبيرة من السلاطين و الخان.

عندما كنت مارا أمام خيمة الأمير كئيبه خان ناداني أحدهم و طلب مني أن أجلس. وجدت القائد جالسا على سجاد فاخر يغطي أرض الخيمة لكنني لم أجد أي أريكة كما عند الأتراك. أمام الخيمة رأيت عددا من الخدم و جلادا و كانوا جميعا في وضعية الخضوع و قد كنفوا أيديهم أمام جسدهم و كان الضباط من خان و سلطان و أصحاب الرتب الدنيا لدى دخولهم و خروجهم ينحنون كثيرا أمامه و قد أسدلوا أيديهم حتى تشرف على ملامسة الأرض. كان الضباط المجتمعون يتكلمون الفارسية و التركية لكن احدا منهم لا يتكلم العربية. لكن بالقرب من السردار أي القائد جلس رجل دين يتكلم العربية بطلاقة و يصلح لأن يكون مترجمي. و كان الجالسون في الخيمة يعرفون مسبقا أن بحوزتي آلة أراقب فيها الشمس في النهار و النجوم في الليل. طلب مني الأمير كئيبه خان بأدب أن أطلعها عليها. ظننت انه على اطلاع بعلم الفلك كما كان الباشا جندة (الجزء الاول) لكنه لم يكن يعرف شيئا عن هذا العلم. وهكذا حملت بعد الظهر آلتى إلى المخيم لكن السردار أعفاني من مهمة تركيبها و اكتفى بأن رأى قدمها ظنا منه أن الحديد فيها هو مرقب لرصد النجوم. في هذه الاثناء قدموا لي القهوة و الفاكهة و طرح على السردار أسئلة عديدة حول الحجاز و اليمن و حالة الانكليز حاليا في بلاد الهند.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٩٥

في مساء ١٩ مات فجأة بغال من قافلتنا فصار أخوه يعرب عن حزنه من خلال بكاء حاد و صرخ و عويل. و كان احيانا يضرب رأسه أو يقرع صدره أو يضرب فخذه و لشدة ما كان حزنه صادقا حزنتم من أجله و تمنيت لو أنه مات بين أهله في المدينة كي يكووا عليه جميعا و يحضروا نساء لثديه إذ إن أحدا من جماعة القافلة لم يشاركه حزنه.

في اليوم ٢٠ انطلقنا من كورموج إلى لوار (Lauwar). بعد رحيلنا بقليل أوقف الحراس قافلتنا لأننا لم نأخذ تصريح مرور من السارادار. فتوقفتا ثم انتظرنا ساعتين و حسب إلى أن أحضر القروان باشي التصريح. في هذه الفترة تعرفت على عرب أحدهم نادر شاه بالقوة و بغداد و كانوا يعملون كجنود مرة عنده و أخرى عند خان الفرسان الثاني.

تقع قرية لوار في سهل شديد الخصوبة في منطقة جبلية و فيها قلعة و يحكمها ريس الورائة كما في تنكشير. إن والد الرئيس الحالي قد مات على يد الأمير جعفر السابق الذكر. و كان ابنه قد لجأ إلى كريم خان طالبا منه الثأر لأبيه و وعده بتزويد الجيش الذي سيأتي إلى المنطقة لهذه الغاية بالاعتناء. لكنه لم يستطع أن يلبى كافة طلبات الخان فعوقب بالجلد و الفلق في قلعة كورموج.

في اليوم ٢١ مررنا بالقرب من لوار بطاحون على الماء لم أر مثله لا في مصر و لا في شبه جزيرة العرب. تجر المياه على حافظ طولها سبعة أقدام من جبل لا يبعد كثيرا عن الطاحون، و تكون شديدة السخونة يرتفع منها البخار. ما أن ابتعدنا عنها مسافة نصف ساعة فوجئت لرؤيتي من الجهة الاخرى للجبل مياها تتحرك الطاحون. إن مياه الأمطار التي تنحدر من الجبال كانت قد تجمعت مشكلة ما يشبه النهر ثم قطعت الوريد مما أدى بها إلى الصب في النهر كما لو انها أتت من المنبع. أدى ذلك إلى تعطيل عمل الطاحون مما أجبر صاحبه على إزالة المحافظ من جهة الوادي الذي شكل النهر لجز ما يلزمه من ماء من جبل إلى آخر. إن الطريق الذي يجب سلوكه من الجبل الأخير يبلغ ربع ميل من حيث الطول و كانت المياه التي جرت من الجبل أقل سخونة من المياه قرب الطاحون. إذا لا شك أن هناك مصدرا آخر لتسخين المياه لتشبه القادمة من الجبل.

إن الجبال في هذه الابحاء مكونة من صخور هشة.

من هنا كانت طرقنا صعبة المسلك في هذا اليوم، و أنا لم أجد أسوأ منها في اليمن. و لشدة ما كانت ضيقة أحيانا كان الحمار المحمل يتجاوزها بالكاد كما و أجبرنا من ١٢ إلى ١٦ مرة على عبور جداول صغيرة. رأينا على هذه الطريق الوعرة المملأ بالحجارة هياكل عظيمة لخيل و حمير سقطت هنا. من قافلتنا وقع حمار محمل بالمتاع فكسر رقبته. فما كان من صاحبه إلا أن سلخ

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٩٦

جلده و باعه قطعاً قطعاً إلى أصدقائه الذين حولوا تلك القطعة في اليوم نفسه إلى أحذية إذ ان صناعة الأحذية كانت تقتصر على فتح تقوب في أطراف الجلد و وضع حزام فيها ثم ربطها إلى الأرجل.

وصلنا عند بعض أشجار التخليل ثم اتجهنا شرقا فبلغنا قرية تدعى سهو (Sehu) دترها لوار منذ بعض الوقت. في مكان أكثر علوا رأينا أن أمير كورموج قد دمق لوار و أن جيش كريم خان قد دمر كورموج أيضا.

لا تزال أحوال الفرسان مضطربة إلى اليوم و رغم ذلك كله يقال إن كريم خان قد أعاد إلى حد كبير الأمان إلى هذه المملكة. و مع ان كريم خان ليس لديه أعداء إلا أن كل سيد قرية هنا يمكن أن يطالب باستقلاليتيه. الجار القوي يسيطر على أرض جاره الاضعف و لا يتدخل و كبل بلاد فارس بهذه النزاعات الصغيرة إلا أن يحصل أحد ما على ثروات طائلة أو يرفض دفع الجزية حينئذ يرسل الوكيل جيشا يتابع هدم ما تبقى من القرى أو المدن التي يصادفها في طريقه و التي نجت من المعارك الاولى. لقد استمرت هذه الاضطرابات أوعاما كثيرة في بلاد فارس، و لم تعد تعجب من أن مملكة كثيفة السكان كما كانت بلاد فارس قد أصبحت اليوم قبلة العدد.

ليس الحكم التركي أفضل من الحكم الفارسي فأهل الحكم الكبار يؤجرون للباشاوات ولايات كبيرة كانت تشكل في الماضي ممالك قوية يؤجر الباشاوات بدورهم مقاطعات صغيرة للأغاوات و كل واحد يفتش عن مصلحته فالجار القوي يستولى على أملاك جاره الضعيف دون أن يتدخل السلطان أو الباشا و كل ما يهم هو دفع الايجار السنوي. لكن في حال تأخر الايجار يحاسب الباشا الاغاوات و يحاسب السلطان الباشاوات و لا يكتفون بمعاينة الجاني بل و يسلبون الأرياء أرزاقهم. عند ما يستجيب على هؤلاء المساكين بعد ذلك كسب قوتهم من العمل أو من صناعاتهم الصغيرة، يحاولون جاهدين الانخراط في جيش الحكام و العيش على

حساب غيرهم من المواطنين و في حال لم ينجحوا يتجمعون في فرق كبيرة و يسرقون التوافل. و لعل هذه الأوضاع هي وراه وجود هذا العدد الكبير من الجنود و قطاع الطرق في البلدان الإسلامية.

في اليوم نفسه رأينا مجموعة أخرى من سكان هذه الأنحاء و كانت تتألف من كميات هائلة من الجراد لكنه جراد مختلف لا يشبه الذي نراه في شبه جزيرة العرب و الذي يؤكل . كان رأسه أخضر اللوان و جسمه مكسو ببقع سوداء و كان ضخما لدرجة تعيق طيرانه.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٩٧

في اليوم ٢٢ كانت الطريق و عرة كذلك. مررنا بقرية قاربندر التي لم يبق منها إلا شجر النخيل، من كل الجهات كانا نرى مدافن كبيرة و قنوات ماء مهدهمة و جبال واسعة بدأ أنها كانت مزروعة منذ سنوات قليلة. في هذا اليوم نصبتنا خيامنا على بعد ٣/١٢ الميل من المكان الذي كنا قد خيمنا فيه الليلة الماضية في منطقة غير مزروعة تدعى سارمسيك أو سريشه. و هنا أيضا دوت ارتفاع القطب.

في اليوم ٢٣ مشينا ثلاثة أميال ألمانية نحو الشمال الغربي بدلا من الشرق. نصبتنا خيامنا قرب قرية مدمرة تدعى تسانير (Tsenir) تنتمي إلى منطقة بوسغون (Busgun) التي كان رئيسها يجبر المسافرين المارين بها على دفع ضريبة مرور، أما اليوم و قد تمرر جيش بالقرب من القرية فلم يعد يتجزأ على ذلك. و كنا كلما نزلنا صعودا باتجاه الجبال كلما وجدنا الجو باردا. نحو الشمال الشرقي رأينا جبالا مغطاة بالثلج.

في اليوم ٢٤ مررنا بجبل عال يدعى صندل (Sandel) و خيمنا بالقرب من أويس (Auis) الواقعة بجانب سلسلة من الجبال الشاهقة نجد هنا عدة بنايع مياه ساخنة و هناك واحدة نجد بالقرب منها غرفة يستعملها كل من يرغب بالاستحمام في هذه المياه. على الطريق نرى هنا و هناك صفوفا من الحجارة كما لو أنها أساسات متينة ربما تكون بقايا القنوات التي أهملت مع مرور الزمن. منذ أشهر معدودة كانت أويس قرية معتبرة لكن مير مهنا سلبها و هدمها فما كان من أهلها إلا أن هجروها. و يقال أيضا إن فراش بند و هي قرية أخرى قريبة قد أصبحت تحوى ربع سكانها و حسب.

من قارب بندر إلى هنا سمعت الكثير عن أتراك يعيشون بالجرار لذا عدت لأدراجي قليلا للمرور بخيامهم. إن نطج خيامهم يشبه نطج حياة العرب المتجولين و خيامهم منصوبة على الطريقة العربية و قد ذكرتها في «وصف شبه الجزيرة العربية». أما ثروتهم فتألف من الجمال و الخيل و الحمير و البقر و الماعز. و هم لا يربون الماعز لحاجتهم اليها و حسب بل لأن الفرس أيضا يحتاجونها إذ إن هؤلاء لا يعتمرون قيعات و حسب بل و يرتدون فروات من جلد الماعز و كلما كان الجلد شديد التجاعيد كلما دفعوا لقاءه مالا أكثر، يقتل التركمان الماعز للحصول على جلدها فقط و يذبحون معها الحملان حتى قبل أن تولد. و مع أن الفرس و الأتراك و العرب في المدن يخفون نساءهم عن عيون الغرباء إلا أن نساء التركمان لا يخجلن من إبراز وجوهن تماما كالبدويات. و من المعروف انهن نساء كادحات و يقال إنهن وراء صناعة السجاد الصغير الذي تصدّرته بلاد فارس كميات كبيرة كل عام.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٩٨

و مع أن صناعة هذا السجاد تعتبر أدنى نوعية من الصناعات المماثلة في المدينة إلا انك تعجب من أن هؤلاء البسطاء يجيدون صباغة الصوف و حياكة السجاد. تكلمت مع راع ينتمي إلى إحدى هذه العائلات المتجولة في بغداد و يعمل عند تركماني من هذه الانحاء و كان يتكلم العربية فأخبرني أن سيده يعطيه كل عام ١٢ حملا و هكذا علمت أن الشعوب المتجولة في بلاد الشرق لا تزال إلى اليوم تعطي رعاة الغنم جزءا من قطيعها كما في العهود السالفة.

في اليوم ٢٥ نصبتنا خيامنا من الجهة الأخرى لقرية خانياك الواقعة في سهل كبير و كنا قد رأينا عددا من المستقعات و الجداول على طريقنا و كانت مياهها سنية. بالقرب من هذه القرية رأينا قلعة سنية المظهر بنيت بعد موت تادر شاه و كانت هي و القرية خاليتين من السكان الذين هربوا إلى قرية مجاورة تدعى نودجون (Naudjun) . يقول ديودور (Diodore) إن سيميراس التي كانت في بلاد فارس جعلت قومها يحملون عددا من التلال قبل أن تنصب عليها خيمتها بغية رؤية المنجم بكامله من أعلى. نرى بالقرب من خانياك تلة مرتفعة لها شكل الوتد المقصوص. إلا أنها لا تبدو قديمة العهد إذ نرى كثيرا في تركيا الأوروبية تلالا حملها الجيش التركي لينصب عليها خيمة السلطان و هي بالتالي حديثة العهد و من الممكن أن يكون شاه بلاد فارس قد وضع هذه التلة قرب خانياك للغاية نفسها.

في المنطقة نفسها رأيت عائلة من الأكراد المتجولين. لم تكف هذه الأمة بالانتشار في بلاد فارس بل و أيضا في سوريا و بلاد ما بين النهرين و قد حافظت في كل هذه الانحاء على لغتها المتعددة اللهجات و التي تحتوى كلمات فارسية و تركية و عربية. كانت قائلتنا تتألف من السنة و الشيعة و الأرمن و الجورجين أو اليونانيين أو كاثوليكى واحد و بعض اليهود. كان السنة و الشيعة يصومون منذ بداية شهر رمضان. في هذا الشهر لا يأكلون إلا أثناء الليل و يفرطون في الأكل لكن منذ طلوع الشمس و حتى غروبها لا يجزؤون على تناول شيء و لا حتى التدخين. إذا فصيأهم متعب. في هذا اليوم نفسه بدأ شهر الصوم عند المسيحيين الشرقيين و لا يتجزأ هؤلاء على تناول اللحم أو السمك أو الحليب أو الزبدة طيلة هذه الفترة. إن الأرمن دقيقون جدا في الصوم و يجربون أولادهم الصغار على الالتزام به. و لشدة ما تعب طفل منهم يبلغ من العمر ثلاث سنوات أعطته بنفسى بعض الحليب. لم يكن رفيق الأرضى الإيطالي قد تناول اللحم منذ ثمانية أيام و كنت أنا و اليهود تصوم معه معظم الأيام إذ نادرا ما كنا نحصل على اللحم. و هكذا يمكن القول إن القافلة بكاملها كانت تصوم.

في اليوم ٢٦ لم نمش أكثر من ميلين ألمانيين و تابعنا السير إلى قرع (Cara) و هي قرية حديثة العهد قرب جدول صغير يصب في جدول أكبر. بالقرب منها نجد على جزيرتين قلعتين اثنتين

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٩٩

حالتهمما مثل حالة قلاع كورموج. لا نرى من قلعة قرية قرع القديمة إلا بعض الآثار علما انها كانت تشكل في الماضي مكان إقامة بيغ (Beg lerbeg) .

في هذه المنطقة رأينا الكثير من الأراضي المزروعة و من القنوات المحفورة تحت الأرض و التي كانت تستعمل لجز الماء إلى الأراضي المفلوحة بغية ترطيبها. في العصور الغابرة كانت الزراعة متقدمة جدا بفضل هذه القنوات.

و قد حافظ المسلمون عليها لكن منذ أن صار الحكم جائرا و بالتحديد في أيام الاضطرابات الداخلية، أصبحت المنطقة فقيرة و خالية من السكان فلم تعد هناك إمكانية للاستمرار بهذا النشاط.

على بعد ثمانية فراسخ من قرية قرع هناك مدينة تدعى كازرون. و بين هذين الموقعين يقع جبل قمريش (Kammeritsch) و قد هزم أسد خان يوما بالقرب منه على يد كريم خان.

في اليوم ٢٧ مررنا بجبل شديد الارتفاع لكنه لم يكن أكثر ارتفاعا و ترجا من جبل سمارة أو معوس (M'harras) في اليمن. نصبتنا خيامنا في الجهة الثانية بالقرب من نهر. إن أسماء الجبال و الأنهار في اليمن معروفة كأسماء المدن و القرى. هنا لم يعرف الناس اسم هذا الجبل العالى و هذا النهر مع انه كان كبيرا. قال لى البعض انه يدعى مسغون (Mosgun) و ربما كان هذا الاسم يطلق على قرية في هذه الأنحاء. رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٩٩

مع أن الجبال المجاورة كانت كلها مغطاة بالثلج في هذا اليوم إلا ان الثلج زال بكامله في اليوم الثاني بعد هطول وابل من الأمطار. في ٢٨ شباط/ فبراير سررنا فوق تلال مكسوة بشجر اللوز البرى و السنديان. كانت رحلتنا معتبرة بعض الشيء بسبب الأمطار و البرد. فبعد أن سيرا ميلا و نصف الميل نصبتنا خيامنا لمدة ثلاث ساعات و نصف. توجهت نحو قرية رمشون المجاورة فاستأجرت فيها بيتا أنقى فيه الطقس الردىء و أحضرت الخشب و رجوت بعض الأرمن مقاسمتى سبل الراحة هذه. ثم جاءت بعض النساء الأرمنيات مع أولادهن و كن مسعدات بالمكان الذي أعطيتن إياه قرب الباب لكنى خرجت قليلا. فاستبدلت مكانهم مع الرجال ولدى عودتى وجدت أن الحريم قد أصبحن أمام موقدى.

كانت النساء جميعهن قد أخفين وجوههن أثناء الرحلة و ابتعدن عن صحبة الرجال الغرباء. لذا وجدت أنه من غير الأدب أن أجلس إلى جانبهن أو أن أطردهن من قرب الموقد.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٠٠

كنت أود إشعال النار في جهة أخرى من المنزل لكن الرجال كانوا يدخلون فيها بكثرة و لم أكن أحمثل المكوث في جو كهذا كما لم أستطع استئجار منزل آخر. و هكذا لم يبق لى إلا أن أنظر بصبر أن تحف ثياب رفاق رحلتى قبل أن أقرب من التلال كما اضطرت إلى التنازل عن أفضل مكان في منزلى لتنام فيه النساء و أولادهن. كانت العاصفة هوجاء و مصحوبة بالمطر و البرد و الثلج. و لأن

التوافذ لم تكن مزودة بمصارع و لأن السقف كان شديد الرداءة، صار المطر يتسرب إلينا. فأجبرت على نقل فراشي من مكان إلى مكان دون أن أجد مكانا جافا أفضى ليلى فيه. في الليل طرأت حادثة أخرى: تستند منازل هذه القرية إلى جبل منحرف. كان بيتي في الطابق الثاني و كان حصاني في اسطبل لا يبعد عنى كثيرا إلا أن أرض الاسطبل هببت و وقع الحصان من المنزل إلى منزل مضيئى تحتى. في صباح اليوم التالي علمنا انه لكثرة ما ازداد مستوى المياه في نهر كنا نستنحر فيه استحلال علينا متابعه سفرنا من خلاله لكنى بالرغم من ذلك سعدت لإمكانية بقائي ٢٤ ساعة أخرى في القرية بسبب كميات المطر و البرد المتدفقة.

كانت الجبال المجاورة لا تزال مكسوة بالثلج. يقال إنه بالقرب من رمشون هناك جبل يستخرج منه الملح الصخرى.

في ٢ آذار/ مارس مررنا بنهر يلتقي بعدة أنهار أخرى ثم يتجه نحو قرية فرغ قبل أن يصب في الخليج الفارسي بين بوشهر و بندر ربغ. بعد ذلك مررنا بآخر أكبر حجما يدعى رضبونو(Radbune) و وضعنا الرجال عند شرفه. يقال إن هذا النهر يتابع طريقه نحو

و دســـــــلب

أخرى.

في ليل ٢-٣ آذار/ مارس تساقط البرد بغزارة و صارت طبقة الجليد فوق الماء بسماكة ظهر سكن. في هذا اليوم مشينا ٣ أميال و نصف الألمانية و خيطنا قرب تشينبار رضار حيث يدفع المكس في منزل عند النهر. على الطريق بين بوشهر و شيراز هناك ستة مراكز لجنى المكوس. يقول البعض إن الأوروبيين غير مجبرين على دفع أى ضريبة إلا أن موظفى الجمارك في بلاد فارس يحون الحصول على بعض المال. و يستحسن في هذه الحالات ألا نحاول التمسك بحقونا. إن مدينة شيراز التى وصلنا إليها في ٤ آذار/ مارس لا تبعد عن تشينبار رضار إلا ميلا و نصف باتجاه الشرق.

لقد صرفنا إذا ١٨ يوما للذهاب من بوشهر إلى شيراز مع أن أى كان يمكن أن يقوم به في ستة أيام. و لم يكن سبب تأخرنا يكمن وراء رداءة القطف و التحول عن الطريق عبر كورموج و حسب بل و أيضا لأن غالبية بضاعتنا كانت محملة على حسيه سبب يصعب عليها القيام برحلات طويلة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٠١

في شيراز نزلت عند السيد هر كول و هو تاجر انكليزى ينحدر من عائلة عريقة و يهتم بأعمال السيد جرقس في هذه المنطقة. و لقد عاملنى السيد هر كول بكثير من اللباقة و التهذيب تماما كما فعل السيد جرقس في بوشهر.

و كان يعيش في هذا المكان بعيدا عن العالم لأنه كان الأوروبي الوحيد في شيراز و لأن علاقة الصداقة الحميمة لا يمكن أن تنشأ بين مسيحي و فارسى. فالفرس كالتشيعه تماما يعتبرون أبناء الديانات الاخرى مدسسين و ذلك بالرغم من أنهم شديد و التهذيب في التعامل . من بين عدد الأرمن القليل هنا، هناك ضابط في المدفعية في جيش كريم خان يمكن أن يزوره السيد هر كول.

تعلم هذا الضابط اللغة الانكليزية عندما كان يمارس التجارة في البنغال و كان حاليا مترجم السيد هر كول. و كانت إقامة هذا الأخير في شيراز مزعجة لأنه كان عليه احترام أسياد المدينة و تجارها الكبار كان يتكلم بطريقة معينة و ألا يظهر إلا على ظهر الخيل في الشارع و أن يصحب معه دائما عددا كبيرا من الخدم.

في مدن أخرى كنت أرتدى دائما ثيابى الغربية من دون أن ينته الناس إلى شخصى لم يكن بهمنى ما إذا كانوا يعتبرونى أوروبيا أو مسيحيا من الشرق أم شخصية بارزة أو أحد الفقهاء إذ لم أكن أكثرث إلا بمتابعة ملاحظاتي. في شيراز كنت أقدم نفسى على أنى أوروبى فحزمنى ذلك من التجول في كافة الأنحاء بسبب مضيئى. إلا إنى تعرفت هنا على شخصيات فارسية بارزة كانت تأتى لزيارة السيد هر كول و قد سعدت بمعرفتها. من بين هؤلاء هناك تاجر كبير يتكلم العربية بطلاقة. لقد أطلعتى على معلومات هامة تتعلق خاصة بالثورات الرئيسية التى حصلت في هذه المملكة منذ موت نادر شاه إلى اليوم حيث لا يزال التاريخ مصبوغا بقصة هذا البطل أو ربما هذا الطاغية .

تقع مدينة شيراز في سهل شديد الخصوبة، تحيط بها الأسوار و الخنادق، إلا أن السور مصنوع من الصلصال و الطين مثل باقى الأسوار الفارسية الحديثة العهد. من الداخل تلت المدينة فيه أبنية أما المساحة الباقية فهي إما مهدمة أو مزروعة قحما.

و يبدو أن كريم خان الذى ذاع صيته بسبب شجاعته و بأسه و وقاه الشعب له لا يألو جهدا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٠٢

للنهبوض بهذه المدينة و جعلها تستعيد عزها الماضى. فقد بنى لنفسه فيها قصرا و زرع حوله حديقة رائعة الجمال و أجر عددا من الشخصيات البارزة من مختلف المناطق الفارسية على الإقامة في شيراز نتيجة لذلك تجملت المدينة و صار هؤلاء ينفقون أموالهم فيها فاستعادت التجارة نشاطها. في المدن الشرقية عادة، قلما يهتم السكان بالداخلين و الخارجين إليها، أما في شيراز فيستطع من شاء أن يدخل إلى المدينة، لكن إذا أراد شخص غير معروف أن يخرج منها فإن عليه أن يبرز تصريححا بالمرور للحرس. و لا يسمح لأى امرأة بالخروج من المدينة خوفا من أن يكن مساجين تنكروا بزى النساء للفرار. و هكذا كان على نساء الأرمنيات اللواتى أتين في قافلتنا أن يقيبن بالقرب من باب المدينة.

في الخامس من آذار/ مارس، قدمنى السيد هر كول إلى بكلربك فرستان المقيم في هذه المدينة. امتلينا أنا و السيد هر كول و المترجم الخيل بينما مشى الخدم الأرمن الأربعة أمامنا و قد أمسكوا عصيهم بأيديهم. قلما يذهب أى فضل أوروبى لمضور الاجتماع العام الذى يعقده باشا القاهرة دون أن يسمع النشائم من عامة الشعب و هذا بالرغم من أن بعض الاكتشاريين يمتطون خيولهم و يسيرون أمامه، أما في شيراز فلم نسمع أى كلمة خارجة عن حدود الأدب. عندما مررنا بشارع السوق حيث تبلغ الرجمة ذروتها من جهنى الطريق لم يخش الأرمن من تخويف المسلمين بعصيهم إذا لم يفسحوا الطريق أمامنا. بنى قصر البكلربك منذ فترة غير طويلة و يقع في ساحة كبيرة مزروعة. المبنى الخارجى لا يختلف عن منزل أى بورجوازى و وراءه هناك السكن الأساسى و الساحة حيث يوجد خزان كبير للمياه و بعض التوافير. افتادونا إلى صالة كبيرة تكسو أرضها سجادة كبيرة رائعة الجمال لكن بدلا من الكنبات التى تراها دائما مستودة إلى الجدران في غرف الأثراك لم أر إلا سجادا من اللبد أقل جمالا من السجاد الفارسى العادى كما و لم أر أية أرائك مستودة إلى الحائط مما يدلنا أن الفرس لا يتوقون مثل الأثراك إلى الحصول على سبل الراحة. استقبلنا رئيس التشرiftات أنا و السيد هر كول أمام باب هذه الصالة و قادنا إلى البكلربك.

أثناء حضورى الجلسة العامة أنا و أصدقاء رحلتى عند باشا القاهرة، قلنا جميعا طرف توبه. في جدة اتحنينا أمامه كثيرا. أما في صنعاء فقد قلنا ظهر يد الإمام و باطنها و توبه و ركبتة. و في كل هذه الأماكن لم يطلب منا أحد أن نجلس. هنا في شيراز وجدنا كرسيين في وسط القاعة جلسنا عليهما بعد أن اتحنينا كثيرا لإلقاء التحية. كان البكلربك يدعى صادق خان و كان الأخ الأكبر

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٠٣

للوكيل كريم خان و مع ان هذا الأخير لم يتوصل إلى حمل لقب حاكم بلاد فارس كذلك أخوه لم يكن سعيد الحظ كثيرا لكن يقال إنه يتعلم منذ فترة هو و أبناء القراءة و الكتابة فهو إذا أكثر ثقافة من أخيه الوكيل. هناك أشخاص متخصصون بيديرون الأعمال الهامة في هذه الولاية أما البكلربك فيهتم بأمر الشرطة خاصة تماما كسلطان القسطنطينية.

قبل وصولى إلى هذه المدينة بيومين أمر باعتقال لحامين يبيعان لحوما فاسدة فعلقهما بمسمار من آذانهما إلى عمود و تركهما فترة بعد الظهور كلها على هذه الحال. في هذه المناسبة عمم على الجميع أن كل لحام يفترف هذه الجثة سوف يقطع إلى قسمين. و هو يتكلم وجدته و قورا جدا.

و قد أكد انه سيقطع رأس كل من سيتعرض لى بالأذى خلال رحلتى.

كان رئيس التشرiftات يمسك غصن أسل بيده و يقف بيننا و بين البكلربك تماما كما كان يقف الفقيه أحمد بيننا و بين الامام في صنعاء. تكلم السيد هر كول بالانكليزية مع مترجمه الذى خاطب رئيس التشرiftات بالفارسية و هى اللغة التى يفهمها البكلربك إلا أن رئيس التشرiftات عاد و كرر الكلام على مسمعه. (لست أذكر ما إذا كان هذا الاخير يتقن اللغة التركية لأن دوى الحسب و النسب من الفرس يتكلمونها). و لاحظت أن رئيس التشرiftات لا يكفنى بالانحاء عندما يخاطب البكلربك بل و يترك عصاه مستطه منه فوجدت في الأمر الكثير من الغرابة.

بعد الجلسة قادنا أحد أصدقاء السيد هر كول المقربين من بكلربك في جولة داخل القصر و أرانى بعض الأجنحة. في جناح منها مجاور لقاعة الجلسات كانت الجدران مغطاة بالمرمر الجميل و الأرض بالسجاد الفاخر.

على طول الجدران رأيت مرابا أوروبية الصنع و وجدت أكثر من عشر لوحات تصور أشخاصا و هذا لم أكن أتوقع رؤيته بي تب



مسلم. إلا أن الشيعة لا يخشون كالسنة من عرض صور الأشخاص خوفا من اتهامهم بالوثنية. إن رسوم الفرس سبكت لينة ألوانهم رائعة الجمال. كانت غالبية الصور تظهر أزياء فارسية، إحداها تبرز امرأة نصفها مكشوف وأخرى تبرز امرأة شبه عارية تستحج.

بعد ذلك زرنا حريم النساء و لم يكن قد جهز بعد و بالتالي كان خاليا من النساء. كانت غرفة صغيرة جدا. في إحدى هذه الغرف رأيت عامودين مستطيلي الشكل ملبسين بالمرابا و فوق المرابا أعمال نحت جميلة تغطي المفاسل: رأيت مرابا بشكل نجوم في السقف و في غرفة أخرى كان السقف و الجدران مزينة كلها بالمرابا التي بلغ طول بعضها أكثر من قدمين. أما في الغرف الأخرى فكانت المرأة الأكثر ارتفاعا لا تتجاوز القدم الواحدة. و جدير بالذكر ان المرابا و زجاج النوافذ

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ١٠٤

الأبيض و الملون كانت من صنع شيراز. كان البكرليك ينام في قلعة مستديرة بناها خلف المنزل و كانت الحراسة حولها و فيها مشددة.

لم أجد في شيراز بستانا يستحق الذكر سوى البستان الذي أمر كريم خان بزعه. و من غير المجدي البحث عن نباتات نادرة هنا أو في أي مكان في البساتين الشرقية إلا أننا نرى هنا عدا من الاشجار الشمرة. في وسط البستان هناك مبنى مستطيلاً مرتفعا سقفه صيني و له جناحان. إن البهو في المبنى الأساسي مستطيل الشكل هو أيضا و يمز بالطابقين. في الأعلى هناك رواق و في الزوايا حجرات صغيرة. أما زجاج النوافذ فضغير الحجم و كله ملون. في الأسفل كانت الجدران مغطاة بالمرمر. أما ما تبقى فكان مغطى بزينة من الأزهار المكسوة باللون الذهبي و بألوان مشرقة أخرى. و حتى خارج المبنى الرئيسي رأيت لوحات تمثل الأشخاص و كانت ملونة. داخل البهو الكبير و أمامه هناك نوافير ماء في كلا الجناحين و في الطابق الثاني رأيت بهوا كبيرا مفتوحا من جهته. و باختصار لم أجد في تركيا كلها و مصر و شبه الجزيرة العربية منزلا مشتبها بهذا الذوق الرفيع كما المنزل هذا. كان أحد أطراف أحد الجناحين يستند إلى جدار الحديقة و كانت فيه ساحة مربعة محاطة بجدار لا بأس به فيها مساكن صغيرة تشبه الكشكات و تستعمل عندما ينزل الوكيل هناك لبعض الوقت. من الجهة الأخرى من الساحة هناك مبنى مرتفع و ضيق المساحة يقال إن الموسيقيين يقفون تحته كالمؤذنين على الطبل. و الناخبين في الزمار لأن الموسيقى العسكرية الفارسية سبكت كموسيقى الأتراك. كما و يستعملون في غرفهم آلات و تربة و آلات أخرى عذبة الصوت و تكون هذه الموسيقى أقل بشاعة من موسيقى العرب و الأتراك.

إن الزجاج الذي يصنع في شيراز يكون أبيض اللون بعض الشيء و نوعيته جيدة. و إنني لم أر قط زجاجا أسود اللون إذ حتى الزجاجات التي يبعأ فيها النبيذ كانت مصنوعة من زجاج أبيض أمّس يغطي كليا بالسوحر.

تشتهر آلات التبغ بجودتها لأن الطلب عليها كثير و يعني ذلك ان المصنعين يبذلون الجهود في إتقانها شرط أن يدفع لهم جيدا. لهذه الآلات شكل غليون كريم خان المعدني الذي ذكرته في المجلد الأول و المرسوم في اللوحة ١٥ أما قهرا فهو مغطى بزهرات زجاجية ملونة ليست مرسومة من الداخل بل ترتكز عموديا على الساق مما يعطي تأثيرا جميلا.

في أحد الأيام رأيت هنا المدافع بالقرب من الترسانة كانت تقف كلها على عربات رديئة لها ثلاثة دواليب و بين المدافع رأيت مدفعي هاون يرتكان على عربات مماثلة. إن المسؤول عن هذه المدافع هو جيورجي كان يخدم في الجيش الفارسي في الماضي ثم اعتنق دين محمد (الدين الإسلامي) و أصبح اليوم خانا يخدم عند الوكيل. و من المعروف انه من أهم عناصر المدفعية في

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ١٠٥

بلاد فارس. يقال إن نادر شاه لطالما أراد أن يقطع هذه المدافع أجزاء صغيرة ليتمكن من نقلها على ظهر الجمال و البغال لكن ذلك يجبره على تذويها أمام المدينة التي يريد مهاجمتها مما يكلفه الكثير من المال و الوقت، لذلك عدل عن تنفيذ فكرته هذه. و يقال إن الخان الذي تكلمت عليه آنفا ذوب عدة مدافع هنا مؤلفة من قطع صغيرة يمكن نقلها على ظهور البغال .

و قد وصفوا لي شكل أحد هذه المدافع الذي يقذف ٩٠ ليرة من النحاس . يتألف هذا المدفع من ٢٠ قطعة يحملها عشرون بغلا لكل من هذه القطع أو الحلقات ثمانية نقوب حول الدائرة تمرّ فيها ثمانية قضبان من الحديد عند تجهيز المدفع. يقال إن هذه المدافع من الباب الأول من حيث الصناعة و الاستعمال و هي أفضل من مدفع آخر جمع الخان قطعه بواسطة البراهي.

في ما تبقى فإن القطع الفنية الصغيرة هذه ليس لها قيمة خاصة. لا يزال مدغويو بلاد فارس لا يجيدون استعمال القذائف و علمت في الشارقة أن الأمير كتيه خان كان لديه مدفع قرب بندر رغن لكن القذيفة التي كان يفترض بالضابط أن يرميها على المدينة قتلت عناصر من جماعته.

إن الفرس لا يرتابون أبدا إذا عرفوا أن أجنبيا يريد رؤية آثار بلادهم و لو اني ذهبت إلى برسيبوليس دون أن أوبح بأي تفصيل لما ارتاب احد في أمري. لكن بما أن جابي الضراب في القرى المجاورة للآثار يسكن في شيراز طلبت عنوانه من السيد هرول و رجوته إعطائي رسالة توصية أعطيها لرئيس القرية. و لم يكتف هذا السيد الفارسي بمنحى الرسالة التي أردت بل أرسل أحد خدمه لمرافقتي في رحلتي. انطلقنا في اليوم ١٢ من شيراز. بعد أن تجاوزنا باب المدينة قطعنا جسرا طويلا عاليا بنى على نهر يجري من الشمال إلى الجنوب. على بعد ربع ميل ألماني من المدينة وصلنا إلى باب ضخّم و رائع الجمال مصنوع من الحجر المنقوش.

لم يبق من المباني العديدة التي كانت تقع خارج باب المدينة و قرب الجبال المجاورة إلا أطلال حزينه و لم يبق من الضاحية التي كانت تقع بين هذه المنطقه و شيراز إلا مسجدين. وصلنا إلى زركان بعد خمس ساعات و نصف بعد أن مشينا في طرقات جبلية و صخرية. لقد أصبحت السهول الأكثر خصوبة جرداء قاحلة و حتى الأشجار بدت و كأنها تشككي من الحروب الداخلية التي انتهت و التي تركت آثارا كبيرة في المنطقه. فالجداول و قنوات الماء التي كانت تسقى جلدورها قد تحول مجراها أو هدمت كليا. و لم أر أي أثر لقرية كانت مبنية في الجوار. على

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ١٠٧

الطريق نفسها أروني آثار منزل واقع بالقرب من شجرة دائمة الخضبت اضطر حاكم من حكام شيراز أن يرتدى بزّة الشرف بقربها و أن يذهب على ظهر الخيل في مسيرة إلى المدينة لأن الشاه كلّفه بذلك.

يشبه شكل قرية زركان شكل الهلال و تقع على جبل عال. في طرفها الأسفل هناك سور ضعيف ارتفاعه سبعة أقدام. في جوار هذا المكان نشبت معركة مند عند سنوات بين خاتين قما من الرابع، إلا أن سجن كافة السكان و هدم منازلهم لذلك لا نجد إلا بقعة صغيرة من جهة الجبل مأهولة بالسكان. كانت جدران منازل المزارعين تتألف من الطين أو القرميد المجفف بأشعة الشمس كما في سائر القرى الفارسية التي رأيتها أما السقوف فكانت منجنية و مغطاة بالقش. كنا في شهر رمضان شهر الصوم عند المسلمين فلم يكونوا يأكلون و يشربون طيلة النهار. و كان دليلي يأكل في المساء و بعد ثلاث وجبات ما بين غروب الشمس و شروقها. في إحدى الأمسيات أرسلوا إلى دجاجة عظامها سوداء و لست أدري إذا ما كانت دجاجة من جنس خاص أم أن العظام تصبغ سوداء بسبب العلف الذي يطعمونها إياه إلا أن هذا الصنف رائع في بلاد فارس و يعتبر أفضل نوعية من الدجاج ذات العظام البيض. في اليوم ١٣ من شهر آذار/ مارس صرفنا ساعتين إلى أن وصلنا إلى نهر بند أمير(Bend Emir) و هو الأراكسس(Araxes) الذي ذكره الكتاب اليونانيون. على امتداد هذه الطريق لم أر قرية واحدة. إن النهر السابق الذكر سريع جدا و يبلغ طول الجسر الميني فوقه من القرميد ٢٠٠ قدم.

منذ شيراز و حتى الجسر كنا نملك طريق اصفهان فتركناه هنا و اتجهنا نحو الشرق مباشرة نحو آثار برسيبوليس و مع ان كنت متأكدا من عدم وجود أي قرية مجاورة أحطّ فيها رحالي إلا اني كوّنت أفكارا مسبقة عن روعة هذه الآثار وفقا لقراءته و سمعته عنها و لم أستطع التخلي عن فكرة عدم رؤيتها. قادمي دليلي عند المساء إلى مردست(Merdast) و هي قرية تعية تقع على بعد فرسخ جنوبي الآثار. هنا تودّدت إلى القلطار أو رئيس القرية الذي رجب بي و استقبلني بأدب ثم دلّني إلى غرفة في منزل صغير كانت تعتبر مسكنا للمسافرين.

#### وصف انقاض برسيبوليس

لم تعد انقاض مدينة هليوبوليس، عاصمة مصر قديما، و انقاض مدينة ممفيس، الواقعة في منطقة سهلية خصبة، في مكانها الأساسي، فبعد تهديمها، نقلت حجارة الاصرحة إلى العواصم الجديدة، بينما دفن ما تبقى منها تحت التراب، كما و استعملت اراضيها لزراعة القمح. أما أهم بقايا مدينة برسيبوليس، التي لا تزال تثير إعجابنا، فهي بقايا معبد أو قصر ملكي، يتميز بعظمة حجارتها، و موقعه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ١١٠

الجميل، وارضه المغطاة بالرخام، شأنه شأن الأهرام، في جوار القاهرة. يسمى الفارسيون هذه الآثار تحت جمشيد أى مقر جمشيد فلما منهم ان هذا الأخير هو أحد ملوكهم القدامى، قد وضع حجرها الأساسى. ويعرفها البعض باسم تشيل- منار أو الأربعين عامودا، و لعلمهم المطلقا عليها هذا الاسم لأن المسلمين وجدوا فيها عامودا منتصبا عند وصولهم إلى بلاد فارس. أما اليوم فنشاهد داخل الأسوار ١٩ عامودا، واحد في الركن الجنوبي- الغربى، وآخر على بعد ميلين ونصف، و اثنان في إصطخر **Istakr**. يبلغ طول الطريق الممتد من شيراز إلى تشيل- منار سبعة أميال، و تقع شيراز على ارتفاع ٣٦، ٢٩، ح، من القطب و بالتالى تشيل- منار على ارتفاع ٣٠.

ادعى بعض الرحالة ان تشيل منار كانت قديما معبدا بينما يدعى بعضهم الآخر انها كانت قصر زعيم علمانى. أما أنا فأقول انها أقرب إلى المعبد منها إلى القصر، فبدلا من أن نجد عند المدخل سفينكسا كبير، كما في المعابد المصرية الأخرى، نشاهد فيها حيوانات ضخمة للغاية. أما الصورة التي نشاهدها عند مقدم الضريح، أمام المذبح، علاوة عن تلك التي تراها في اللوحة **XXV**، فهي صورة بعض الكهنة، لعل الزعيم الفارسى كان اميرا علمانيا و رجل دين في آن معا و ان هذا المعبد كان بالتعاقب مقرا للخلفاء أو للبابا (ان كان يوسعى ان اطلق على زعيم الديانة الفارسية القديمة هذا اللقب)، و لعل هذا المعبد تحول إلى مقر الزعيم العلماني بعد ارتداده عن دينه. و أحال انه القصر نفسه الذي حرقه الاسكندر دون روية.

و في سبيل اعطاء القارى فكرة واضحة، عن حالة بقايا هذا القصر أو هذا المعبد، و عن موقعه، رسمت الخارطة **XVIII** و أنشئت فيها إلى أقسامه الأساسية، غير انني لم ارسم منظرا عاما له، لأن شاردين رسمه مرتين و بدا لي كذلك الأمر و لما كنت قد رسمت صورة لنفس المكان، ارتأيت ان انقلها على اللوحة **XIX**، خاصة و ان القراء لا يملكون كتب هذين المسافرين. تقع هذه الانقاض على سفح جبل شاهق و تحدها من جهاتها الثلاث، اسوار محصنة، في الجهة الشمالية الغربية، نلاحظ ان حجارة السور قد انتزعت بمعظمها و استعملت في تشييد ابنية أخرى.

تشير الأدلة إلى أن بناء هذا المكان لم يتم دفعة واحدة، فمن الجهة الشمالية، و على مقربة من الجبال، وسع السور عمدا لتوسيع مساحة البناء فنلاحظ بالتالى ان الزوايا لا تتلام مع خارطة البناء الجميل. على القارى مراجعة الخارطة، خلال مراجعته هذا المؤلف.

تتألف هذه الأسوار من حجارة مرمرية رمادية، صلبة، تتحول إلى اللون الأسود بعد صقلها. أظن أن جبل رحمة و هضابه تتألف من هذا النوع من الحجارة. مما يعنى ان المقاول عثر على الحجارة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١١١

في المكان نفسه. لم يستعمل المهندسون الفرس الطين لبناء الأسوار أو الصروح، صحيح ان الحجارة قد بُنيت بواسطة مخالب حديدية، إلا انها صدأت مع مرور الزمن، دون أن تؤدي إلى تدهم الحجارة أو تداعيبها بعبارة أخرى من الصعب ان نشاهد في اوروا سورا من المرمر يضاهى سور تشيل منار اتقاناً.

إن سطح الهضبة التي وجدنا عليها هذه البقايا ليست مسطحة، مما يعنى ان علو السور الخارجى ليس سويا. فقد فتت الارتفاع في عدة اماكن. كما اشرفت على الخارطة و وجدت انه يتراوح بين ١٤ قدما و نصف و ١٨ قدما في الجهة الجنوبية، و بين ٣٢ و ٤١ قدما في الجهة الغربية، و بين ١٦ و ٢٧ قدما في الجهة الشمالية، يعتبر الصرح (ط) الأكثر ارتفاعا (٥٠ قدما فوق الأفق) و الأكثر قدما، اما الصرح (ح) فهو الأكثر انخفاضاً. يقع الصرح (ز) على الارتفاع نفسه من الصرح (ح) و لكن الأرض التي تفصل بينهما هي أكثر انخفاضاً، و هذا ما تبيته الصور الظاهرة على السور، و التي يغطيها التراب الذي تحمله الرياح القوية. ان صف الأعمدة (ب)، و (ج) و (د) و (هـ) هو أكثر انخفاضاً من الشارع (ز) و أكثر ارتفاعاً من الصروح (ح) و (هـ) و (أ). إن الانخفاض (س) و (د) هي أكثر انخفاضاً من المنطقة (أ) و (هـ) و الجدير ذكره ان الصرح (ك) هو الأكثر انخفاضاً، لذلك دفنت بقاياها تحت التراب. أما قرب مجموعة الأعمدة (ح) و (ط)، و على مقربة من ب. ج. د. هـ. فلا نشاهد ارضا غبارا فحسب، بل حجارة مرمرية في غاية الجمال.

تهدم السور الخارجى بمعظمه. و نقلت حجارته إلى إصطخر و شيراز و غيرها من المدن. من الجهتين الشمالية و الجنوبية، تعرض السور للتلف بفعل مرور الزمن. و للوصول إلى هذه الانقاض نجد سلما مزدوجا مصنوعا من المرمر الصلب الذي يكثر في هذه المنطقة. أما الحجارة فهي كبيرة الحجم، و رغم مرور ألفى سنة على تدهم القصر، يمكننا تسلق الدرج على الحصان.

نشاهد عند اعلى السلم تقريبا في الحجارة، كانت قديما مفاصل للأبواب، مما يعنى انه كان للقصر ثلاثة أبواب. و أن السور المحاذى للدرج كان أكثر ارتفاعا منه اليوم.

نجد أمام الدرج سورين من الحجارة الصلبة، كانا قديما بابين، رغم ان عرضهما لا يتعدى ١٣ قدما أما الأرض مغطاة بالمرمر المصقول المخصص للمشاة. يبلغ ارتفاع الأسوار ٣٠ قدما، و هي خالية من النوافذ. نشاهد على ارتفاع ٤ أقدام و ٨ بوصات من السور صورة حيوان (كما في اللوحة **XX**، الصورة أ)، من السهل تحديد كبره و المسافة التي تفصل بين الحافرين الأماميين و الخلفيين، و التي توازي ١٨ قدما. و الملاحظ ان جسم هذا الحيوان منحوت بشكل بارز، بينما رأسه و حافراه الاماميان تتجاوز حدود السور، حتى تبقى حرة تماما و يبدو جليا ان هذه الحيوانات تجسد القاران الاسطوري، الذي تردد صورته في كافة أنحاء هذه البقايا. نشاهد في الجهة الشرقية

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١١٢

سورين مماثلين، رسمت على كل واحد منهما صورة الحيوان الذي نقلته في الصورة ب من اللوحة **XX**، و هي تقع على علو ٤ أقدام و ٨ بوصات من الأرض، و تبلغ المسافة بين الحافرين الاماميين و الحافرين الخلفيين ١٧ قدما و ٦ بوصات. و يبدو جليا انهم حاولوا نقل رأس هذا السفينكس من بلاد فارس إلا أنهم هشموا أنفه دون ان يتمكنوا من انتزاعه. نشاهد فوق الرسومات الأربع، ثلاثة نقوش، تتألف حروفها من خطوط مستقيمة. و الجدير ذكره ان الصور على السور (أ)، تجسد الحيوانات و هي متجهة برؤوسها صوب الغرب بينما تلك التي على السور (هـ)، رؤوسها تنجه شرقا.

في هذه المناسبة، سأتي على ذكر حجارة العتيق اللتين رسمتهما في الصورتين آ و ج، و اللتين حصلت عليهما في البصرة و حلب. مما لا شك فيه ان الرسم (ب) هو صورة مكبرة للرسم (ب) غير ان عمل الحفار اسوأ من عمل النحات، في الصورة (د) فمخالب الحيوان و رأسه بارزة مما يدل على أنه ليس القاران المزعوم. و لكن هذه الصورة تثير فضول علماء اللغة نظرا للأحرف التي تحيط بها، و أظنها من النوع نفسه الذي نجده على العملات ١٧، ١٨، ١٩، ٢٠، ٢١، في اللوحة **XI**، في كتاب وصف شبه الجزيرة العربية. كما و انها حفرت بعد تدهم القصر .

مما يعنى ان عالما باللغة الفارسية القديمة يحسن فك رموزها بسهولة. و لا أحال ان الأحرف التي نشاهدها على العملات الفارسية تختلف عن تلك المحفورة على هذه الحجارة.

نجد بين المدخلين (أ) و (هـ) الذين ائت على ذكرهما آنفا. عامودين منتصبين و آثارا أخرى منهزمة. أما المنتصب منها، فلا يتعدى الأسوار ارتفاعا مما يعنى انها كانت كلها مستقيمة. و نجد ايضا ركائز صروح صغيرة و حجارة مبثرة هنا و هناك، غير أن الرحالة لا يعبرها اهتمامه لأنها لا توازي الآثار الأخرى جمالا. على مقربة من هذه البقعة نشاهد حوضا طوله ثلاثة أقدام و نصف مزدوجة و عرضه ثلاثة أقدام و ارتفاعه قديمين عن الأرض. و نشاهد ايضا صوب الجنوب، صف اعمدة (ب، ج، د)، يزيد طولها عن ٨ أقدام مقارنة بالأسطرة التي وصفناها آنفا. و يمكننا الوصول إليها عبر ادراج يزيد عدد درجات كل منها عن الثلاثين علما ان علو الدرجة لا يزيد عن ثلاث بوصات.

تداعت وجهة الأدراج جزئيا، و لكننا نرى عليها بقايا صور حراب و دروع تكثر بين الانقاض، و صور اشجار الصور، و صور الأسد الذي يهاجم القاران الأسطوري و تغطي رسومات الاشخاص السور مشيرة بالتالى فضول هواة الآثار القديمة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١١٤

اذا لا يتجاوز ارتفاعها الثمانية اقدم، شأنها في ذلك شأن السلالم، غير انه كان لها درابزين، تهدم مع مرور الزمن، هذا ما نلاحظه في صف الصور العلوى، الذى لم يتبق منه إلا نصفه. و يحده الدرج من الجهتين، صفان من الصور يبلغ ارتفاع كل واحد منهما قديمين و نصف. أما الرسوم التي تراها شرقي الدرج فقد نقلتها على اللوحة **XXI**، غير اني حذفت من كل صف ٢٧ صورة، لأنها تشبه كلها الصورة الأولى من حيث ارتداه الفرد فيها الثوب الطويل، و حمله الحية بيديه الاثنتين.

و اشير إلى أن الصف السفلى كان مغطى بالتراب، و اضطرت لمسحه، حتى انقل الصورة، و لهذا السبب بالذات، لم يرسمها شاردين أو براين.



لقت نظري تشابه هذه الصور إلى حد بعيد، رغم اننا نجد فيها نوعين من الملابس، مختلفين تماما، يشهنا ملابس الفرس التي تحدث عنها هيرودوتس وكويت كورس، واكزوفنون. ونجد ايضا قبعات عالية، شبيهة بقاوونKauk الأتراك، باستثناء ان هؤلاء الآخرين يلفون حولها قماشا قطنيا. والملفت للنظر ان من يعتمر هذه القبعات، يرتدى تحتها ثوبا فضفاضا ومن يحمل الحربة، يلف حبالا حول رأسه. أما الباقون، فيعتمرون قبة صغيرة، غير مطرزة، أو قنسوة لها شريط كبير من الخلف، ويرتدون، ثوبا طويلا، ضيق الكمين. والملاحظ ان لحاهم مرخية، وشعرهم كث، ويضعون عقودا حول رقابهم، وخواتم في اصابعهم، وحلقا في آذانهم. كما وانهم يضعون احزمة حول خصورهم ويحملون قوسا، أو سلاحا آخر. غير ان خناجرهم ليست متشابهة، فمن يرتدى منهم الأتواب الطويلة يضعه في حزامه، أما من يرتدى الثوب القصير، فيتركه متدليا على ردفه.

من الصعب تحديد المعنى الحقيقي لهذه الصور، ولعلها تمثل مجموعة من الحراس، علما انهم مزودون جميعا بالأسلحة، و ما لا شك في انها تدل على اشخاص كريمي النسب، يعملون في خدمة حاكم هذا المكان، أو لدى رجل دين ذي منصب مرموق، أو أمير مقيم في المنطقة، غير أن الأشخاص الذين يرتدون الأتواب الطويلة والفضفاضة، يمثلون القادة، لأنهم يتصدرون الجمع، كما وانه توكل اليهم مهمة حراسة مدخل الصرح، علما انهم يقفون دوما عند عتبة الأواب، حاملين الحراب في ايديهم.

في الصف العلوي، حيث لا يبلغ عدد الصور نصف العدد الموجود في الصف السفلي، نشاهد قرب السلم (ب) ٤٣٢ (ب) رجلا، يرتدون الأتواب الطويلة ويحملون الحراب؛ يليهم خمسة رجال، في ملابس مختلفة، وثلاثة أحصنة، وعربتان تجرهما الخيل. واظن ان ترتيب هذا الصف له صلة بالترتيب الوارد في اللوحة التالية.

تغطي السور (d)، من الجهة الأخرى للدرج (b)، صورا مختلفة، ولا أظن ان الآثار الأخرى تعرضت للتلف، بقدر آثار هذه البقعة، فقد فقدت معظم الصور رأسها، رغم أن بترها.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١١٧  
اقتضى عناه كبيرا. لأننا نشاهد اليوم، بقايا قليلة منها، علاوة عن صور القبعات التي كانوا يعتمونها، كما هو ظاهر في اللوحين XXIII وXXII، و ما لا شك فيه ان هذه اللوحة تمثل استعداد الأفراد لاستقبال العيد، غير انني اترك للأخريين عناه الاختيار بين القول انهم يحملون الهدايا أو الغرامات لملكهم، أو انهم يحملون القرابين لأحد المعابد.

يتألف كل صف من عدة أقسام، تفصل في ما بينها أشجار السرو. يرتدى الأفراد في القسم الاول من الصف السفلي، الأتواب الطويلة، نفسها التي تحدثنا عنها في اللوحة السابقة. ويحمل كل منهم جعبة على ظهره وقوسا في اليسرى، وحربة في اليمنى، مما يعني انهم يمثلون فرقة من الحرس. نجد في هذا المكان (كما على الجهة الأخرى من الدرج) صورة على كل درجة، أي ٢٨ أو ٣٠ صورة، غير انني لم أرسم إلا ٦ منها. أما في القسمين الآخرين، فلا نشاهد إلا ضابطا واحدا من الضابطيين اللذين تراهما غالبا في اللوحة XXI. و في اختصار، سأطلق على الضابط الذي يرتدى الثوب الطويل، لقب الاول، وعلى ذاك الذي يرتدى الثوب القصير، لقب الثاني.

في القسم الثاني، يقود الاول مجموعة من ٦ أجناب، حاملا عصا في يده (مثل رئيس التشريفات في شيراز- (ص ٩٤) وممسكا أحد الأجناب بيده الأخرى، وخال ان هذا الأخير هو ممثل المجموعة أو القبيلة أو الأمة. يحمل فردان من المجموعة، مزهرتين في يديها، بينما يضع الآخر خاتما مستطيلا، حفر عليه راسا أفعى. تتبع هذه المجموعة عربة خيل، حفرت جيدا على الصخر، حتى ان مسامير العجلة بارزة للغاية، ويشه سرج الخيل ذاك الذي شاهدته في القاهرة، في طاحونة تحركها الخيل، و في زبد، على ظهر ثور. يستعمل في استخراج المياه من أحد الآبار.

والملفت للنظر في هذا القسم، انه يتدلى من الأذن اليسرى لأفراد المجموعة، حجر مرجاني، معلق بخيط رفيع. في القسم الثالث من الصف السفلي، يقود الثاني ٦ أجناب إلى الاجتماع، والجدير ذكره انه لا يحمل خنجر أو يرتدى سترة بسيطة، أو كما يسميها الأتراك إنتاري (Entari)، و لما كان هذا الذي يدل على مكانة صاحبه المرموقة أمكننا الاستنتاج ان هذه السترة مصنوعة من جلد الحيوان، كما اعتاد الفرس القدامى، الارتداء.

تبدو ملابس الآخرين أكثر بدائية، فأتوابهم شبيهة بتلك التي نراها في اللوحة السابقة وتعرف بالبليش، كما وان جواربهم مصنوعة من مواد خشنة (B).

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١١٩  
في القسم الرابع، نشاهد الأجناب عراة الرأس مجمعدى الشعر، يرتدون جلد الخراف ويتعلون احذية نصفية. في القسم الخامس، يظهر الثاني في المقدمة، و يلف الاشخاص الذين يرافقونه حبالا طويلا حول خصورهم، ويضعون عمامة على رؤوسهم. و يقود الأخير منهم سناما، علقا في عنقه جرسا صغيرا (تعلق اليوم هذه الاجراس. على الجمال والحمر و خاصة في القوافل). في القسم السادس يقود الاول ستة أشخاص من عامة الشعب، خمسة منهم شبه عراة. يلفون حول الردفين قطعة قماش عريضة، وأخرى حول الخصر. شأنهم شأن عامة الشعب في البلدان الحارة.

يضع الاول، الذي يمثل الشيخ أو النائب، قماشا قطنيا حول كتفيه، بينما يسير الباقون شبه عفاة، ويتعلون في ارجلهم نعالا خفيفة، مختلفة عن تلك التي تتعلمها العرب اليوم.

في القسم السابع (راجعوا الصف العلوي من اللوحة XXII) يقود الأول صديقه، وتتبعهما شخصيات مرتدية البليش، غير ان رؤوسهم تعرضت للتلف، ولن اعرف ابدا ان كانوا يعتمرون القبعات ام لا.

في القسم الثامن، يقود الثاني ٦ أجناب، لقاوا أجسادهم بقماش قطنى ابيض، شأنهم في ذلك شأن البدو، في بعض المناطق من شبه الجزيرة العربية، أما الثور الذي يجرونه فله حذبة على الظهر، شبيهة بحذبة دواب شبه الجزيرة العربية، والهند وبلاد فارس في القسم التاسع، يقود الاول مجموعة من الرعاة، يرتدون ثوبا ضيقا، قصير الكمين، أما قصبة شعرهم فهي شبيهة بقصبة شعر سائقي الجمال. غير انني لاحظت ان احد الرعاة يرتدى جلدي خروف مديونغين. يكتر في بلاد الشرق هذا النوع من الحراف الذي نراه مرسوما هنا، فهي مغطاة بالصوف شأنها شأن خرافا، غير ان النحات لم يحسن نقله، كما انه لم يحسن نقل و ير الأسد الكث.

في القسم العاشر، نرى ان الثاني هو القائد و المجموعة التي تتبعه، ترتدى الملابس التي ترتديها مجموعة القسم السابع، غير ان قبعاتهم مختلفة، و زعيمهم يضع قوسا في حزامه.

أما سائقو الثيران في القسم ١١، (اللوحة XXII) فيرتدون ثيابا شبيهة، ثياب سائقي البغال في القسم السادس، باستثناء انهم يرتدون فوقها ثوبا طويلا، فضلا عن ان ثلاثة منهم يحملون حرابا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٢٠  
يقود الثاني مجموعة القسم ١٢، التي يرتدى افرادها سراويل طويلة (شبيهة بتياب الأتراك) و يعقدون تحت ذقونهم قماشا قطنيا. يتدلى من حزام خمسة افراد من هذه المجموعة، عمدا للأقواس، ويحمل واحد منهم خنجرًا و اثنان آخران مطارق حديدية، مما جعلني اظن انها حدادان.

في الصف العلوي، نجد ٧ أقسام، أتى شاردين على ذكر هذا الصف في اللوحة ٥٨، رغم انه لم ينتقلها بحذافيرها. يلعب الضابطان اللذان أشرت اليهما سابقا، دور رئيسي التشريفات، نشاهد في القسم الاول حصانا، و في القسم الثاني لوبه، و في الثالث، أيلاملقى أرضا؛ يرتدى الأجناب سترات قصيرة، و سراويل طويلة، بينما يضع واحد منهم على كتفيه، جلد أسد. يتدلى ذيله خلفه، نشاهد في القسم الرابع أيلان، و جلد اسد ايضا، و في القسم الخامس ثورا، أما بقايا صور القسم السادس فتشبه بصور القسمين الثالث والرابع؛ ترى في القسم السابع، جوادا. يلفت نظرا، خلف صفوف الصور هذه، النقوش (A)، المنقولة في اللوحة XXIV. علاوة عن رسم صراع القاران والأسد نقل كامبير و براين هذه النقوش، بصورة غير واضحة، رغم ان الأحرف بارزة جدا على اللوحة الأصلية.

تهدم السور، في اللوحة XVIII جزئيا، و انتقلت الرسومات التي كانت تغطيها، غير اننا نجد هنا أيضا، أقساما مختلفة تفصل في ما بينها اشجار السور، و نشاهد في كل قسم الضابطيين المذكورين آنفا، اللذين يترأسان مجموعات الاجانب. أما الحيوانات التي تكثر صورها هنا، فهي الجمال و الجياد، و الثيران و الثيوس.

علاوة عن ذلك، نشاهد هنا عربة الجياد، التي اشرت اليها آنفا. و تلفت نظرا رسومات الأرجل العارية، التي لم تتعرض حتى اظافرها للتلف؛ أما السور فهو متداع أكثر من السور، و لا يعير المسافر انتباهها لرسوماته، رغم انها تثير الفضول. قبالة السور، نشاهد صخورا ضخمة برسومات افراد يرتدون الأزياء الطويلة و يحملون الحراب في ايديهم، و لعلها بقايا صرح منفصل. قضى الدهر على القسم الباقى منه.

يقودنا الدرج إلى مجموعة الأعمدة (ب. ج. د. هـ): التي لم يتبق منها منتصبا إلا ١٧، وقد وضعت دائرة على الخارطة، للإشارة إلى موقعها. يعلو الأعمدة قرب الموقع (ج) تاج شبيه بذلك الذي نراه في الصور (أ) من اللوحة XXV. غير أن معظمها تعرض للتلف مع مرور الزمن. رسمت قاعدة العمودين. د. هـ. في اللوحة XXV، ولاحظت ان العمود هـ، يعلوه حيوانان، أو الاجزاء الأمامية لحيوان ماء، اظنه القارن الاسطوري، الذي نشاهد رسوماته. في كافة أنحاء المكان؛ مما يعني انه كان يجسد رمزا اساسيا للفرس القدامى.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٢١

استنادا للقياسات التي اخذتها يبلغ ارتفاع ركائز الأعمدة (ج) ٤٠ قدما، والاعمدة (هـ) ٥٢ قدما .

لا نستطيع مقارنة هذه الأعمدة بعمود بومبي في الاسكندرية أو بركاثر الغرائيت في قصر القاهرة، من جهة وزنها أو عظمتها، غير انها توازيها جمالا، خاصة من حيث حجارتها المرمرية، وطريقة وصلها بعضها ببعض، والجدير ذكره ان الجزء العلوي من احدى ركائز الرسم (هـ) ناتئ بشكل بارز، وقد يقع ان حصلت هزة أرضية .

تضم صفوف الأعمدة هذه المقاضا كثيرة، ففي بعض الأماكن، نرى الأرض مغطاة بالتراب، بينما هي مغطاة بالمرمر الجميل في أماكن اخرى. و نشاهد ايضا بقايا قنوات محفورة في الصخر.

بين صف الأعمدة ب و ج. فضلا عن أربعة أسوار، كانت قديما مداخل للمكان، يظن بعض الرحالة ان هذه الأعمدة لم تكن مسقوفة يوما، غير انني اظن ان المصطبة التي كانت تعلو الأعمدة ب. ج. د، والتي لم يعد لها أثر، قد نقلت إلى برسيبوليس، الذي كان يعرف باسم إصطخر Istakr، بعد أن دمر الاسكندر هذا القصر.

نشاهد من الجهة الجنوبية لهذا الصف من الأعمدة، صرحا قديما لم يتبق منه الا بعض الحجارة المربعة، التي كانت تعد لوضع الأعمدة عليها.

يزيد ارتفاع الصرح (ز) في اللوحة XVII ثمانية أقدام عن صف الأعمدة، والنسبة إلى عظمتها مقارنة بالآبئة الأخرى، يبدو انه الأكثر حصانة و اسواره و نوافذه هي المصقولة بشكل أفضل. ولما كانت الرياح تعصف قرب صفوف الأعمدة هذه، نلاحظ ان هذا الصرح محاط بالتراب، كما وان ارتفاع الكيزه ح (١) من الجهة الجنوبية للصرح، لا يزيد عن قدمين ونصف. ونشاهد هنا أيضا رسوما و نقوشا مغطاة بالغبار، و لو كنت أحمل معي مؤلفي شاردن و براين، لأدرت ان الرحالة السابقون لم يتلقوا، و لتزعت عنها الغبار و رسمتها بنفسى، غير انني اوكل هذه المهمة للرحالة اللاحقين. نشاهد في الركن ح (١)، درجا تعلوه صور لا يزيد ارتفاعها عن قدمين؛ و يظهر فيها الأفراد و هم يتسلقون الدرج و يحملون في أيديهم حملا أو شماما أو غيرها من الفاكهة. أما

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٢٢

ملابسهم فهي شبيهة بتلك التي يرتديها ضباط الصف الثاني.

من الجهة الغربية للصرح تشهد الدرج و(F)، و على قمته عمودين مغطين برسومات كبيرة لأفراد يرتدون الثوب الطويل و يحملون الحراب، كما في رسومات السلم ب(B). خارج الباب (ز) Z، نشاهد عمودين آخرين يبلغ ارتفاع الواحد منهما ٧ أقدام ونصف. و لعل الصورة الظاهرة عليها تعود لرجل دين مرموق، يرتدى ملابس شبيهة بتلك التي نشاهدها في اللوحة XXI، و في أماكن مختلفة بين هذه البقايا، و أخاله يجسد العلمانيين. غير ان قبعة مخططة، و عنقه محاطة بحلقة كبيرة، كانت قديما مغطاة بمعدان ثمينة؛ و نشاهد على الكف، و الصدر و اليدين، نقوبا التزعت منها حلقات معدنية. يرتدى الخدم ملابس شبيهة بملابس اسبادهم، و يصغون حلقات صغيرة في أذانهم. شأنهم شأن جميع الذين يرتدون الأتواب الطويلة، و لكنهم لا يرخون لحاهم أو يعتمرون القبعات العالية، أو يلقون اعناقهم بأطواق. نرى على الأركان الأخرى الصور الثلاث نفسها. علما ان الشخصية الاساسية تحمل مزهريه في يدها اليسرى (الصور و) من اللوحة XXV، و في اليمنى قدرا معدنيا (الصورة ز) من اللوحة نفسها، و في وسط الصرح الامامي، قرب الصورة (س) ٤) نشاهد ابوابا كبيرة، و على الاركان (س)، نشاهد الصور (ج) من اللوحة XXV، و على اركان الباب (ع) نشاهد الصورة (د)، و التي تمثل شخصا حاملا شيلا بين يديه، و يبلغ ارتفاعها هذه ٧ أقدام ونصف.

يتألف هذا الصرح من ٣ أقسام يضم احدها غرفتين (الصورة ٨ من اللوحة XVIII) تتراوح سماكة هذه الاموار بين ٤ أقدام و ٩ بوصات و ٥ أقدام و بوصة. غير أنه لم يتبق منها إلا بعض المدخل و النوافذ، التي لم يتمكن الفرس من نقل اجزائها بسبب ضخامتها، خاصة و ان أركان الباب تتألف من قطعة واحدة فحسب. و نشاهد قرب اركان الباب (ب) اللوحة (ج) (من اللوحة XXV) التي تمثل خادمين أحدهم يحمل مظلة و الآخر مذبة.

تعلو هذه الصور، التي ترتفع ١٢ قدما عن الأرض، النقوش (ب) (ج) (د) من اللوحة XXIV، المنحوتة بشكل مرتب. و الملفت للنظر، هو أن كل واحدة منها تضم أجيديه مختلفة، تردد في الركنين الاخرين فينتضح لنا بالتالي ان الفرس بذلوا جهدهم ليخلدوا انفسهم من خلال نقوشهم، شأنهم في ذلك شأن المصريين القدامى، الذين نقشوا الأحرف الهيروغليفية على نصب العمودية.

و مما لا شك فيه ان هاتين الأمتين عمدتا إلى نقل أجيديتيهما لنا، رغم جهلنا لرموز الأحرف الهيروغليفية المصرية و لأجيديه الفرس القديمة، فلو تمكن العلماء من فك رموزها، لاضطر باني هذه الصروح إلى حفرها مرتين. علما ان معظمها تضرر و تلف بمرور الزمن.

كان للنوافذ قديما مصاريع، تستعمل في الطقس السيء، لرد الأمطار و البرد و الرياح، و تعلوها

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٢٣

كلها نقوش قديمة. دفعت بالحالة للاعتقاد ان الفرس القدامى يكتبون من أعلى إلى أسفل شأنهم شأن الصينيين.

لكن ان عاينا عن كتب، النقوش التي نقلها بعض الرحالة، و قارناها بتلك التي نقلتها بنفسى، لوجدنا ان الخطوط المستقيمة، مائلة من الطرف، مما يعني ان عدد الأحرف ليس كبيرا، كما تدل عليه نسخ الرحالة السابقين جمعت في اللوحة XXIII، أحرف احدى الابدديات، و هي لا تزيد عن ٤٢ حرفا. و نقلت قرب الأعمدة أ، ب، ج، د، هـ. في اللوحة XXVII، بعض النقوش الكوفية العربية و الفارسية، المحفورة جيدا في الصخر. أعطاني المدعو جان فرانسوا روسو المولود في اصفهان، و امين سر السفير الفرنسي في البصرة الترجمة التالية، للنقوش ب، ج، د، فنقلتها لكم حرفيا.

#### ترجمة النقوش ب

الله هو الحى الباقى و على أمير المؤمنين، كرم الله وجهه ابن هم أولئك الملوك، الذين طغوا و تجروا و امهلم القدر حتى هلكوا. كم من مدينة رائعة ازدهرت و توسعت فكان مصيرها الدمار و مصير اهلها الموت كتب هذا على ابن السلطان خليل، ابن السلطان حسان العام ٨٦٩ (١٤٦٤)

«هذه كتابات اصغر الخلق، ابن حسين المسكين، عبد خليفة ملك الكون، ميرزا على عام ٨٨١ (١٢٧٦)

ابن هم الأمراء و الفاتحون القدامى

جمعوا كنوزا لا تحصى فكان مصيرها الفناء

و مصير اصحابها الهلاك

كتب هذا ابراهيم سلطان، ابن شاروك عام ٨٢٦ (١٤٢٢)

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٢٤

#### ترجمة النقوش ج

اعلم يا انسان، ان الله هو وحده الحى السائد إلى آبد الأبدين.

و لعلنا نشتهي جميعا ثروات هذا العالم

غير ان مصيرها الزوال لا محالة فلو منحت مملكة سليمان لمن طلبها.

صحيح ان المملكة بقيت على حالها و لكن اين سليمان؟

هذه الدعوة، و هذه العظمة و هذه الكنوز التي لا تحصى

ما الذى اخذه معه سليمان؟

تحولت كلها رمادا

فأى فائدة نتجها من الرماد؟

فكل طبقة منه تمثل وجه انسان حر و كل قدم تظاً ذرية ملك فاكثفوا بفعل الخير  
لأن اعمالكم وحدها تشفع لكم  
فمن كانت الفضيلة من شيمه ما التمس سواها  
كتب هذا على ابن السلطان خليل، ابن السلطان حسن، اعزه الله، سنة ٨٨١ (١٤٧٦)  
انها لنعمة من الله ان اتمكن من الكتابة على هذه الحجاره.

#### ترجمة النقوش ه

في شهر شوال من العام ٨٢٦ (١٤٢٢)، وفي ظل الأحكام العادلة والمنزلة، التي فرضها خليفة الأرض، و ملكها، أكثر أباطرة بلاد فارس و طوران عدلا، حامى الحقيقة والدين، صاحب البطولات والانتصارات، السلطان ابراهيم، بارك الله بولاده، و مملكته، تحول هذا المكان إلى أرض مقدسة، اذ نصبت فيه الخيام الحاملة لراية المملكة.  
نال كمال الدين عناق، اصغر مخلوقات الله، حظوة لدى الملك، بعد أن كتب هذا الكلام، علما انه كان عبدا عنه.  
كان يسمي ان يلقي هذا الوصف رواجاً،  
و ان يتضرع البعض للأولياء، ليتالوا الرحمة و الشفقة.

نجد في السور الشمالي لهذه الغرفة، ثلاث نوافذ و باين، أما الرسومات على الأبواب فهي شبيهة بتلك التي نراها في اللوحة XXV، الصورة ج (٢) و هي تضم خادمين، يحمل واحد منهما، مذبة، و قطعة قماش قطنى. من الجهة الغربية، نشاهد نافذتين و باين، تمثل رسوماتها صراع بطل فارسى قديم مع حيوان اسطورى، يبلغ طول هذا البطل ٧ أقدام و ٤ بوصات. أما من الجهة الشرقية، فنشاهد على الباب، صورة البطل نفسه في صراع مع أسد. و في الركن الجنوبي-الغربي  
رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٢٧  
للمصرح، نشاهد حجرا كبيرا، طوله ٢٠ قدما، تعله ٤ نقوش برسيبوليسية، علاوة عن نقوش أخرى، نقلتها في اللوحة XXVII، الصورة (د)

و الجدير ذكره انه لم يبق من السور الجنوبي و الغربي إلا نافذة متداعية، و باب (ك)، تغطيه صورتا شخصين يرتديان الأتواب الطويلة و يحملان الحراب. كما و انه لم يبق من السور الشرقي إلا جزء من حجر الراوية. و أظن ان معظم حجاره هذا الصرح قد نقلت من هنا، إلى هضبة مجاورة لشيراز.

إليك ترجمة السيد روسو لنقوش الصورة (د) من اللوحة XXVII.

«لوطيقت قوانين أفريديون زهاق(Zehak) و وكام(Wakam) في الامبراطورية و المملكة الفارسية لما تعرض عرشها للخطر و أضغفته الثورات.

غير انه لا سبيل لمقارنتها بعرض سليمان، اعزه الله. و الذي لم يبق منه إلا الرمد فطوبى لمن احسن إلى غيره قبل رحيله.

فتعلموا ان تزرعوا شجرة الرأفة حتى تحصدوا السعادة و الخير.

كتب هذا السلطان ابراهيم بن شاروك العام ٨٢٦ (١٤٢٤).

لم يبق من الصرح (ج) في اللوحة XVIII، إلا آثار صخور، بنيت عليها الأعمدة قديما. نجد في الصورة ق (٩) درجا مغطى بالتراب، و سورا حصينا، غنيا بالرسومات و النقوش، التي يظهر فيها الأفراد حاملين الحراب، و الأقواس، و العجب، و نجد أيضا بين الصرحين ح، و ط. ممرا ضيقا، جدرانته مغطاة أيضا بالرسومات.

نشاهد في اللوحة XXVIII منظرا عاما لبقايا الصرح (ط)، و إن قازناها مع بقايا الصرح (ز) في اللوحة XXVI، نجد أنفسنا أمام خيارين، إما أن الحجارة سينت، أو ان الصرح أكثر قدما، و لعله البناء الأول، الذي شيد في هذا المعبود أو القصر. فارتفاعة يزيد بضع أقدام عن ارتفاع الصرح (ز).

كما و انه يقع على علو ٣١ قدما عن السطح (ص)، و بالتالي ٥٠ قدما عن الأفق، شأنه شأن السور الأساسى، المبني على صخرة. يتألف السوران (ث) (و ح) من حجارة هذه الصخرة نفسها، ترك المهندس قرب السور (ت) سلما من حجارة الصخرة المذكورة، يتألف من ٥٢٩، لا يزيد ارتفاع الواحدة منها عن ١٠ بوصات، مما يعنى ان هذا السلم ليس مرجحا كالسلم الأخرى التي عثرنا عليها بين هذه الأنقاض. و يبدو ان السلم الذي كان مبني قرب السور (ح) قد نقلت حجراته كلها.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٢٩

تغطى أرض الغرفة الأساسية في هذا الصرح، صخور خام، لا يزيد ارتفاعها عن البوصتين و قطرها عن ٣ أقدام، خاصة في الأماكن التي توضع فيها الأعمدة، مما يعنى ان هذه الغرفة كانت تجرى ٣٦ عامودا، نقل معظمها إلى المدن المجاورة.

نشاهد وسط صف الأعمدة هذا، قاعة للمياه محفورة في الصخر. كانت هذه الغرفة مسقوفة قديما، غير ان سقفها تهدم جزئيا.

للسور الشمالي بابان، لم تصبهما أضرار السنين، تبلغ سماكة ركاظها ٣ أقدام و ٣ بوصات، و عرضها ٧ أقدام و بوصتين، أما طول المدخل فيتعدى ١٤ قدما و نصف. و نشاهد هنا أيضا الصورة (ج) (٢) من اللوحة XXV التي تصادفها غالبا داخل الصرح (ز) (Z) فضلا عن النقوش (هـ) (و) (ز) من اللوحة XXIV و نجد من هذه الناحية، خمس نوافذ، ثلاث منها بين البابين، و واحدة من الجهة الشرقية، أما النافذة الغربية فتغطيتها الرسوم من الجهتين لم يبق شيء تقريبا بين السور و الجهة الشرقية، باستثناء ركاظ احد الأبواب، أما الرسومات و النقوش الموجودة عليها، فهي شبيهة بتلك التي ذكرناها آنفا .

كان لباب السور الجنوبي ثلاث نوافذ من الجهتين، تضم الواقعة منها على الجهة الشرقية، ثلاثة سومات، على كل ركيزة من ركاظها، واحدة تجسد امرأة حاملة مزهرية (صورة ح) من اللوحة XXV، و أخرى تجسد رجلا حاملا مزهرية، و ثالثة، تمثل امرأة حاملة كمكة حلوى بين يديها.

لم يبق من نوافذ الجهة الغربية، سوى ركيزة واحدة، نشاهد عليها الرسومات نفسها التي أشرت إليها اعلاه. و نجد وسط السور الغربي، بابا لم يبق منه إلا ركيزة واحدة، تظهر عليها الرسومات نفسها التي تحدثت عنها سابقا، غير ان النقوش مختلفة عن سواها. و من بين النوافذ الثلاث الواقعة من الجهتين، لم أجد سوى ثلاث ركاظ مغطاة بالرسومات نفسها، التي وصفتها آنفا.

شاهدنا شمالا غرفة كبيرة، توازي الرواق كله طولاً، و يضم احد جدرانها، بابا كبيرا، تحده من الجهتين صورتا رجلين يحملان حرابا. و نجد هنا أيضا ركيزة نافذة، عليها ثلاث صور، فضلا عن حجارة ارتفاعها ٢٢ قدما، مغطاة بنقوش شبيهة بتلك التي رأيناها في الصرح (ز)، انها تعرضت لأضرار الزمن. يحده الرواق الكبير من الجهتين عدد وافر من الغرف، تتألف الغرفان الجنوبيتان من ثلاثة أقسام متساوية؛ فلو كان هذا الصرح معبدا، لقلنا انها غرف الكهنة. و نشاهد على ركاظ النوافذ فيها، صورة امرأة، و خلفها صورة رجل يسك بقرنى نجمة. أما في الغرف الوسطى فنجد آثار أربع أعمدة، علاوة على صور شبيهة بتلك التي نقلتها في اللوحة XXV الرسم ج (٢)، غير ان معظمها تعرض للتآكل مع مرور الزمن.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٣٢

لم يبق الكثير من الجدران الخارجية للغرف الشمالية، باستثناء السلم (N)، و آثار أربع أعمدة، و لعل هذا السلم يشكل جزءا من الصرح ط (T)، لأن المهندس بنى ادراجا جميلة تؤدي إلى الصرحين (ز) و (ح)، و لا أظنه نسى ان يفعل مثل ذلك بالنسبة إلى الصرح ط (T).

بنيت الأبراج (N) بطريقة مشابهة للأدراج الأساسية أو الأدراج الكبرى، اي انه زودها في الوسط، بمكان يستريح فيه من يتسلفه، أما الدرج الواقع بين الصرحين ط و ز، فهو مغطى تماما بالتراب؛ بينما الآخر مكشوف تماما، و يتألف من ٢٦ درجة، و هو يضم صورا مختلفة و نقوشا غريبة.

غير ان معظمها تعرض للتآكل مع مرور الزمن. حفر بين هذين السلمين رواق طويل، شبيه بقناة المياه. بنى قديما قرب منطقة (م) صرح كبير لم يبق منه اليوم إلا ركاظ ٣ أبواب أو لعلها جدران ٣ مداخل، تفوق جدران الصرح (ل) عظمة. نشاهد على الجدران ث الصورة نفسها التي نقلتها في اللوحين XXIX و XXX. و هي تجسد فتاة جالسة على مقعد، حاملة كأسا في يدها، و عصا في اليد الأخرى؛ و نشاهد في الأسفل صور فتيات رافعات يديهن صوب الأعلى. أما على الركاظ الثلاث الأخرى فنشاهد الرسوم ج (٢) من اللوحة XXV. غير أنه لم يبق الكثير من هذا الصرح (الذي كان ذا شأن عظيم نظرا لمداخله)، سوى جدران اساسية، و قاعدتي عمودين كبيرين، أما

الأجزاء الباقية فهي إما مغطاة بالتراب، أو منقولة إلى مكان آخر.

يضم الصرح كك، غرفتين فحسب، أما الجنوبية منها فلها أربعة أبواب، وشاهد على ركيزة الباب الغربي صورة البطل الذي يصارع مع الأسد، علاوة على ثلاث نوافذ صغيرة، تهدم معظمها مع مرور الزمن. وشاهد على ركيزة الباب الجنوبي صورة رجل حامل الكأس في يد والعصا في اليد الأخرى؛ بينما يحمل خادما من خدمه مذبة في يد ومنشفة في الأخرى، أما صورة الخادم الآخر مغطاة كليا بالتراب. تغطي ركائز الباب الداخلي الصور (ج) (٢) من اللوحة XXV كما وللغرفة الثانية بابان أيضا تغطي ركائزها صور رجال يحملون الحرب.

يعد الصرح (ل) كله الأكثر اتساعا بينها؛ كله؛ فلو كان صف الأعمدة ب. ج. د. ه. يشكل بناء واحدا، وشاهدنا في كل من الجهات الأربع مدخلين، يمتاز الواقع منها قرب الصورة (ت ث) و (خ ع) بعظمته وروعته، وتبلغ سماكة السور في الصورة (ث ث). ٦ أقدام ونصف، وهي توازي عرض الأبواب التي نشاهدنا في هذا المكان.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٣٣

غير أن هذا السور لا يتألف من جزء واحد؛ فركائز الأبواب (ذ. ص. أ) و (أ. ب) و (ب)، تتألف من أجزاء كبيرة مختلفة، وضعت الواحدة منها فوق الأخرى بشكل أفقي. تغطي ركائز الأبواب الأربع، في الصرح (ت) الصور التي نقلتها على اللوحة XXIX. ويبدو أن الملك أو الزعيم الروحي، يقم مجلسا هنا، أو يعقد المحاكمات، ويستعمل كرسي عاليا، و مرقاة تحت رجليه. وهو يضع في يديه اساور ذهبية، بينما قبعة أو تاجه مغطى بالمعدن. أما صورة الشخص الذي يقف خلفه حاملا مذبة، فأظنها تجسد إحدى النسوة، لأنها تضع على رأسها وشاحا أو حجابا شبيها بذلك الذي تستعمله النساء الشرقيات. بينما يرتدي الخصيان ثيابا شبيها بتلك التي يرتديها الرجال في البلاد الشرقية. أما صور الرجال المسلحين الذين تحاكي أزيائهم تلك التي نراها في اللوحة XXI، فلا بد أنهم يمثلون الحرس الملكي.

نقلت في اللوحة XXX صورة إحدى ركائز البوابة ش. خ. XX، والتي يبلغ عرضها ٩ أقدام؛ والجدير ذكره هو أن مقياسها كلها متوازنة. أما أزياء الصور السفلية، للأفراد الذين يحملون عرش سيدهم، فهي مختلفة بعض الشيء، ولذلك جمعيتها في اللوحة الملتصقة. انه لغريب حقا أن نشاهد هنا صور أشخاص يرتدون أثوابا طويلة تدل على مكانتهم المرموقة في بلاد فارس وأفريقيا، كما وانا نستطيع التعرف عليهم بسهولة علما ان شعرهم كث وشفاهم غليظة.

ونشاهد في القسم العلوي، للمدخلين ت و (خ) صورا صغيرة تمايل في الهواء. ويمكنكم مراجعتها في مؤلف شاردين علما انني لم أشتر اليها في لوحاتي. نشاهد على ركائز البوابة (ذ) البطل ج (٢) من اللوحة XXV، غير أن منقار الحيوان الذي يصارعه معه ملوي، و البطل يمسكه بأذنه. على البوابة (ض) نشاهد البطل نفسه في صراع مع أسد، وعلى البوابة (أ) مع قارن منجنج، وعلى البوابة ب ب مع القارن الأسطوري الذي نشاهد صورته محفورة على ادراج هذه البقايا كلها.

في السور الشمالي نجد بابين، و تسع نوافذ، حسبها أحد الرحالة أبوابا صغيرة، ويبدو انه لم يلحظ ان علو الأرض زاد زدهم على الأقل بسبب التراب الذي نقلته الرياح إلى هنا من الجهات الغربية، والجنوبية والشرقية، نشاهد أيضا نوافذ موهمة، أي ان حجارتها لم يبق إلا نصفها، ويبدو ان هذا الصرح كان أيضا مسقوفا، ولعل النوافذ الفعلية قد هدمت ونقلت إلى مكان آخر. نشاهد امام الصرح سورين كبيرين (ج ج) مغطيين بالحيوان الضخم نفسه الذي نشاهده على الأسوار (أ) من اللوحة XX، ونجد على ابواب هذا السور (كما على المداخل الأساسية للأضرحة الأخرى) صور رجال حاملين الحرب، أحبالهم يمثلون الحرس.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٣٥

انه لغريب حقا ان لا نرى في الصورة (ج) (٢) من اللوحة XXV (التي تكثر في الصروح الأخرى) إلا صورة الرجل الجالس على كرسية. ولعله، كانت تقام في هذا الصرح محاكم غير دينية، أو مجالس للفرهاء، نجد في هذا الصرح أجزاء اعمدة مبهمة هنا وهناك.

وقرب الصورة س من اللوحة XVIII، نشاهد حجارة باب، يوازي باب أ، و أ، ه عظيمة. علاوة على بقايا أعمدة مصقولة، و جزء من حيوان ضخم، كان يستعمل حتما كتاج لها. و نرى صوب الغرب، مداخل واسعة، محاذية لسلم طويل، انه لشعور رائع ان يقاد الأجنبي إلى الصرح (ل) عبر هذا الطريق، بين اعمدة وأسوار من المرمر الجميل، كانت قديما مزدانة بالرسومات و مصقولة جيدا.

هذه هي بقايا قصر برسيبوليس الأساسية، الذي هدم منذ أكثر من ٢٠٠٠ سنة. أما الأجزاء التي يمكن استعمالها في البناء، فقد نقلت من هنا منذ زمن طويل.

مما لا شك فيه ان ما تبقى منها يثير إعجاب الجميع. فقد نقل الفرس عن اليونانيين هندستهم المعمارية، من حيث ترتيب الصروح و تقسيمها، فهي مكندسة، بعضها فوق بعض كما و أن تعدد زوايا سورها الأساسي شوه دائرته كلها. غير أننا لا نعرف كم من الوقت اقام فيه اصحابه، قبل ان يدمره الاسكندر الكبير؛ و سواء أكان معيدا أم قسرا، لا شك ان عدة مهندسين معماريين ساهموا في بنائه، لأن اصحابه من كهنة أو علمانيين، كانوا يزيدون عدد الصروح، كلما زادوا قسرا، وازدادت حاجتهم للخدم.

يقدر لوبراين، ان عدد الرسومات، التي نجدها اليوم بين هذه الآثار بحوالي ١٣ ألفا و رغم انني لم أتأكد عندها، لا أظن ان هذا الكاتب قد بالغ في العدد، و لا داعي ابدا لنقلها كلها، نظرا لتشابهها الكبير. تجدون في لوحاتي، صور الأزياء التي شاهدتها هنا، أما صور الحيوانات الأسطورية، فهي متوفرة في مؤلفي شاردين و لوبراين. و لا أشكال أن العلماء قد يجتاحون لرسومات أخرى عن برسيبوليس. و لكنني أرجو من الأوروبيين الذين قد يزورون هذا المكان لاحقا، ان

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٣٦

ينقلوا النقوش القديمة الموجودة، و بشكل واضح تماما، حتى نستطيع تمييز الأحرف كلها كما في الصورة الأساسية. فهذا ما لم يفعله كامفر و شاردين و لوبراين، و لهذا السبب بالذات لم يسع اى عالم لتفسير هذه النقوش. سأضيف على اللوحة XXXI أربعة نقوش، ط ج، ك، ل، و جدهتها وسط السور الجنوبي الأساسي، يبلغ طول الحجارة المنقوشة عليها ٢٦ قدما، و ارتفاعها ٦ أقدام، مما يعنى ان الأحرف واضحة تماما، رغم انها تضم ثلاث أبعاديات مختلفة.

خلف الصرح (ل)، و على ارتفاع جبل راشمد قرب الصرح ع من اللوحة XVIII، نجد صرحا آخر، رائع الجمال، لم يتعرض لأضرار السنين، و هو يتميز بواجهته الساحرة التي تضم صورا.

و أعمدة و غيرها من الأشكال الهندسية الجميلة، كما و تكثر فيه الحجارة المنقوشة التي تدل على أن هذا المكان كان يتألف من صروح متعددة، نقلت اعمدها إلى مكان آخر، أو انها كانت تستعمل كسلم للوصول إلى الصروح المذكورة. كانت عنيان قد أنهكتنا من جوار انكبابي على رسم انقاض هذا القصر، و من نقل النقوش كلها، خاصة المحفور منها في الأجزاء العليا، و التي لا تقرا بسهولة، حتى انني لم أجرؤ على رسم هذه الواجهة الكبيرة، و اظن انني تكيدت ذلك العناء سدى، علما ان هذه الرسومات متوفرة في عدة مؤلفات أخرى. و الملاحظ ان الصور التي نشاهدنا هنا، تتشابه مع تلك الموجودة في القصر، مما يدفعنا للاستنتاج بأن السيد الذي بنى هذه الواجهة يعتقد الديانة نفسها التي يعتنقها باقي العصر أو المعبد. لكن ان كانت تلك الديانة تعرف بالزرادشتية أو ديانة عابدي النار، فهذا يثير الشك؛ ففي معابد المجوس، التي نشاهد العديد منها في بلاد فارس و الهند، يقف الكاهن أمام النار المقدسة، ليؤدي واجباته الدينية، واضعا قطعة قماش امام فمه، حتى لا يندس النار بلهائه. أما في الصرح الذي يعلو هذه الواجهة، يقف الكاهن امام المذبح، حيث النار مشتعلة، ووجهه مكشوف كليا، و يحمل في يده شيئا، يحرك فيه النار؛ نشاهد في الصورة المحفورة هنا قوسا في يد الكاهن، علما انه لا يستطيع استعماله لتلك الغاية. كانت الشقق المبنية خلف هذه الواجهة، تستعمل لاقامة مراسم الجنائز، و قد بقيت معلقة من الخارج، لمدة طويلة، إلا انه تم خلعها، غير ان مجوس اليوم لا يدفون أمواتهم، بل يترون عصافير الصلح لتلهمها.

ولكن هذه الأبنية الأثرية، هي أكثر قدما من عادة الفرس، الذين نقلوها عن المجوس؛ و حتى ملوك بلاد فارس، الذين كانوا من عبدة النار، كانوا يسعون للحصول على الإذن بدفنها بعد موتهم. كما و اننا نجد في الهند، طبقات اجتماعية مختلفة، يعتقد اهلها الديانة نفسها، فالبيض يحرق جثث أمواتهم، و البعض يدفنها، و البعض الآخر يرميها في المياه؛ و لعل مصير جثث ملوك بلاد فارس و اسيادها كان مختلفا عن مصير جثث افراد الطبقات السفلى. و تجسد هذه الصورة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٣٩

الموجودة هنا، اميرا علمانيا، يقف بعيدا عن المذبح حتى لا يؤثر لهائه على هذا المنصر.

قرب الصورة ف من اللوحة XVIII، نشاهد خزانا (أو ينبوعا أو سواه) محفورا في الصخر، يبلغ ارتفاعه ١٢ قدما مربعه، و عمقه ١٣ قدما، يبدو ان فتحه العليا كانت مغطاة كليا، كما و ان الثقب التي نشاهدنا في الصخر، تدل على انها كانت قديما أبوابا تؤدي إلى

صرح ما. و نجد هنا أيضا قوات للمياه محفورة في الصخر.

نشاهد نحو الجنوب، واجهة مكان آخر تزام فيه الجنازات شبيهة إلى حد بعيد بالواجهة الأخرى، رغم تعرضها لأضرار السنين. دخلت إلى هذا المكان بسهولة فائقة، غير انني دهشت لرؤية غرفة مستطيلة، كانت تحوي ماء؛ مما لا شك فيه ان بناء هذه الغرفة الصغيرة يتطلب عناء و مالا. علما انها محفورة عاموديا في الصخر، و مزودة بالتماثيل. و لكن لماذا بنى المصريون الأهرام؟

لم نجد فيها سوى عددا بسيطا من الغرف، لا أظن ان صرحا بهذه العظمة بنى من اجلها، علما ان تكاليفها باهظة و بناءه صعب على بعد ربع فرسخ جنوبا حفر الصخر بشكل عامودي؛ و بنى عليه منحدر. فنقلت الحجارة من هنا لتوضع على اعلى الواجهة و نقتت على الصخر نفسه هذه الرسومات. غير ان احدا لم يعر هذه الاعمال اهتماما. و نلت نظرا صورة جسم مستدير يلوح في الهواء، أظن انه يجسد الشمس و صورة شخص يرتدي ثوبا طويلا- و يقف امام المذبح كليا؛ و لعل قوسا في يده، لم يتم اتمامها كليا، و لعل المقاول توفي قبل اتمامها أو ادخلت إلى بلاد فارس ديانة جديدة. في هذه الأثناء، انتزعت الحجارة من الصخر، دون ان تنقل كليا.

نشاهد في الوادي، في الجهة الجنوبية- الغربية من القصر، بقايا صرح مهدم، يتوسطها عمود منتصب، ترون صورته في اللوحة XIX؛ و أظن انه العمود المشهور المنتصب بين هذه الأبناس كليا. أما صوب الشمال؛ فنجد ركائز ابواب، متقنة البناء، لتلك التي أشرت اليها اعلاه. و تكثر عند اسفل الجبل، الحجارة المقطعة من الصخر، و التي تستعمل لبناء القوات المحفورة في الصخر. في منتصف الطريق الذي يفصل بين هذا القصر و بقايا «إصطخر» Istakr، نجد غرفة محفورة في الصخرة، لا سقف لها و لا جدار أمامي؛ أما الجدران الثلاثة الأخرى فمغطاة برسومات كبيرة، تختلف من حيث اسلوبها عن رسومات تشيل - منار. و تشاهدون في الصورة (أ) من اللوحة XXXII، الرسومات المحفورة على السور الشمالي؛ و الملفت للنظر ان رأس الصورة الاساسية التي اسمها قاضي البلدة رجب Rodsgab، فضلا عن رأس الجواد، قد شوته بعنف؛ أما الرسم المنحوت خلف الجواد فيبلغ ارتفاعه 8 أقدام و نصف. نجد

على هذا السور، السطور الأربع (و)، من اللوحة XXVII، أما (ز) و (ح) فهي مرسومة على الجواد نفسه، و لا أظن ان رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٤٠

المعلم الذي حفر هذه الصور، قد رسم هذه السطور أيضا لأنها حديثة .

إن السطور السفلية من الأحرف اليونانية، هي أيضا حديثة، و لكنها تالفة تماما. نقلت رسومات السور الشرقي، قرب الصورة (ب) من اللوحة XXXII، رغم انها تعرضت لأضرار السنين. و نشاهد هنا شخصين يتقاتلان حول حلقة، يتدلى منها شريط أحمر، و يقف بينهما طفلان صغيران فضلا عن ثلاثة أشخاص يمثلون النساء. أما على السور الجنوبي، فنشاهد صورة شخصين على الحصان، يتقاتلان أيضا من أجل حلقة. لم أحاول نقلها نظرا لتعرضها للتآكل، غير انني اظنها مشابهة لتلك التي أشرت اليها في الصورة (ج) من اللوحة XXXIII.

على بعد ميل و نصف من تشيل - منار أو من قصر برسيبوليس؛ اى على بعد ٣/٤ الميل شمالا و ٣/٤ الميل شرقا، نجد بقايا «إصطخر» (أى مدينة برسيبوليس)، و هي تجسد بقايا القصر الذي ظلت الملكة خومي Homi بناه في هذه المدينة؛ علما ان طرازها شبيه بطراز تشيل - منار و لا تبعد هذه البقايا كثيرا عن مقبرتي نقشي رستم اللتان تعلمان علامتين مميزتين في هذا القصر.

نشاهد في هذا المكان عاموديين منتصبين، يشبه تاج احداهما ذاك الذي تراه، في الصورة (أ) من اللوحة XXV بينما يعلو الثاني جزء من حيوان مقترس. تحيط بهذين العاموديين؛ بقايا اعمدة مهدمه، و بعض القواعد، التي لم تنقل من مكانها. و جددت في سور صرح مجاور لهذين العاموديين.

حجارة يبلغ طولها و عرضها ٩ أقدام و سماكتها ٤ أقدام. تتألف هذه الأبنية كلها من المرمر الاسود الصلب، الذي يكثر بين بقايا تشيل - منار أيضا. نجد عند اسفل الجبل ركائز اصرة متعاقبة، و بعض الحجارة المتكدسة فوق بعضها البعض، و كانها كانت قديما بابا.

تقع بقايا قصر الملكة خومي في واد ضيق و خصب، بين جبلين شاهقين، و بمحاذاة نهر صغير، يطلق عليه الفرس اسم (Polwar) بلور، يصب في الأراكس. يبلغ طول هذا النهر ٣/٤ الميل، امتدادا من هنا إلى الوادي الكبير، حيث يقع تشيل - منار، و اظن بالتالي ان مدينة «إصطخر» أو برسيبوليس تقع بين هذين القصرين.

تقاد مياه النهر، عبر القنوات الصغيرة، إلى الأرياف الخصبة المجاورة. لم تهدم برسيبوليس دفعة واحدة، مثل قصر برسيبوليس؛ ففي عهد الخلفاء كانت «إصطخر» مقر حكامهم. و ان اخذنا بعين الاعتبار موقع برسيبوليس، بين الجبال و في سهل خصب، و افتقار السكان إلى الذوق الرفيع، في الهندسة المعمارية، و إقدامهم بالتالي على تدمير قصور اجدادهم، و بناء منازل متواضعة مكانها، لن

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٤١

نتفاجا ابداء، ان لم يتبق من صروح هذه المدينة الأربعة، سوى بعض الركائز، و الحجارة الكبيرة، التي تعذر نقلها إلى مكان آخر. نشاهد شمالي نهر بلور (على مقربة من برسيبوليس أو «إصطخر» مدافن الملوك المزعومين.

و الملفت للنظر ان طبيعة الصخرة الملساء ساهمت في جعلها واجهة لهذه المقابر دون بذل عناء كبير. غير ان هذه الأضرحة لا تضاهي تلك التي قرب القصر المذكور جمالا و روعة، رغم انها كلها متشابهة من الخارج؛ تتميز مداخيلها بعلوها و ارتفاعها عن الأرض، إلى حد اننا لا نستطيع الوصول اليها دون الاستعانة بسلم، و لكن لي الفرصة لاأخذ هذه التدابير كليا. بيد انني علمت في السنة التالية ان السيد هيرفيل، زار برسيبوليس ثانية، و كتب لي تفصيلا عما عثر عليه داخل احد الأضرحة. و وجد غرفة طولها ٤٠ قدما و عرضها ٢٠، و في جدارها الداخلي ثلاث كوات، و وضع في كل منها صندوق ارتفاعه ٤ أقدام، و طوله ٩، و عرضها ٨، معظمها بحجر كبير مسطح. و لما كنا نعتبر هذه الغرف مقابر، خطر للسيد هيرفيل انه قد يعثر في داخلها على توابيت المومياة؛ فأخذ معه مطرقة و منقبا لفتح التوابيت، غير انه اكتشف ان تعبه ذهب سدي، خاصة و ان الرحالة السابقين، تقبوا العطاء، ليمرروا عبره ايديهم، حاملين المصابيح؛ و بعد ان حذا السيد هيرفيل حذوهم، لم يجد في الداخل سوى التراب.

يمكننا بالتالي الاستنتاج ان هذه التوابيت لم تحو جثنا أبدا؛ فمن خلال وصف السيد هيرفيل، يتضح لنا أن نقوب العطاء صغيرة للغاية، و لا يمكن اخراج الجثث عبرها و نقلها إلى مكان آخر؛ كما و ان عرض هذه الصناديق لا يتناسب مع طولها، شأنها شأن التوابيت الحجرية التي نجدها في مصر، و أرض المعابد و تاتولي، و اليونان، و يبدو لنا جليا ان هذه الصناديق لم تصنع لتبقى فارغة، بل كانت للاحتفاظ بالاشياء الثمينة فيها، و خاصة تلك التي تنقل بسهولة. غير ان هذه الغرف المنحوتة في الصخر، كانت مخصصة لسفن الجثث، و خاصة جثث الملوك، حفاظا على ذكراهم، شأنهم شأن ملوك مصر، الذين دفنوا في تلك الأهرام الضخمة. و رغم اننا لا نجد اليوم بقايا اجساد ميتة، لا نستطيع القول، ان هذه الصناديق لم تحو جثنا أبدا. فلعل هذه الغرف قد فتحت منذ زمن بعيد، و سرق القرويون المقيمون في هذه المنطقة الجثث التي لم تهترى بعد.

تكثر قرب هذه القبور الجميلة، الرسومات الكبيرة المحفورة على الصخر، و التي تمثل مآثر بطل بلاد فارس القديم، المدعو رستم؛ و هي تسمى نقشي (أى صورة) رستم، و أظن ان واجهات

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٤٢

المقابر هي أكثر قدما، لأن اسلوب الرسومات يحاكي اسلوب رسومات تشيل - منار أو قصر جمشيد. تجدون في اللوحة XXXIII صورتين للمدعو رستم؛ ففي الصورة (ح)، نشاهد صراعا فريدا من نوعه، بين البطلين اللذين تراهما واقفين في الصورة (ب) من اللوحة XXXII، من حول حلقة.

يسمى سكان قرية تشول Tchul القريبة من هنا، رستم سال، حامل العصا في اليد اليسرى، و رستم كلداس، خصمه الواقف أمامه؛ يرتدي كلاهما سراويل طويلة تصل إلى اسفل أقدامهما لا يملك الفرس القدامى ركابا، و يكتفون باستعمال سرج عادي. و لكنني لم استطع ان احزر سبب تدلي تلك الكرات من اعناق الجياد، رغم انها كانت تعيق سيرها. يتميز اللجام بالحزام الجلدي المعلق فيها، الذي يمر فوق فم الجواد. أما الشخصان المستلقيان ارضا، فلا نشاهد إلا الجزء العلوي منهما، بينما يفرق الجزء السفلي تحت الصخرة. في الصورة (د) يرتدي الشخص الذي يقف أمام الجواد ثوبا ضيقا له كمين طويلين، شبيه بذلك الذي يرتديه الهنود فعند وصولهم، يتزلون أكمامهم و يغطون بها ايديهم، ليجيدوا رفعها عند اتمامها. أما ما تمثله هذه الصورة كليا، فاترك للباقيين عناء تحديد ذلك.

نشاهد على هذه الصخرة، صورا أخرى للمدعو رستم، غير انني لم أنقلها كليا، لأنها تالفة بعض الشيء، كما و انني كنت أتلهف للعودة إلى شيراز، خاصة و ان خادمي اصيب بمرض عضال ادى إلى وفاته.

خلف صورة الجواد (د) في اللوحة XXXIII، نشاهد لوحة كبيرة، حفرت عليها نقوش غريبة، تعرض معظمها للتآكل، و نقلت جزءا منها (ثلاث العرش، و نصف الارتفاع، أى سدس اللوحة المنقوشة) في اللوحة XXXIV؛ و هي عبارة عن سطور متقطعة. لا نستطيع فهم

فحواها؛ غير أن العلماء يستطيعون، بواسطة هذه الصورة، أخذ فكرة عن الإجدية التي كان يستعملها الفرس يوم حفرت هذه الصور. ورغم أن النقوش الأخرى التي مشاهدتها في نقشي رستم تعرضت للتلف، نقلت بعضها منها في اللوحة XXVII.

إن معنا النظر في النقوش التي نقلتها من منطقة برسيبوليس، في تشيل-منار وفي نقشي-رستم، لا أظن أنه قد يتوفر هذا العدد من الأحرف المختلفة، في منطقة أخرى من العالم. مما لا شك فيه أن الأحرف التي نشاهدها في اللوحين XXIV، XXXI حتى أكثر قدما من تلك التي نقلتها من قصر جمشيد (تشيل-منار)؛ فهي تكثر بين الرسومات، في أماكن خاصة. اعتبر العلماء هذه الكتابات هيروغليفيّة، استنادا إلى رسومات الرحالة السابقين؛ بيد أنني لاحظت أنها تتألف من ثلاث أبجديات مختلفة كلياً، جمعها كلها في اللوحة XXIII، في الصور أ. ب. ز. ح، ط، أما النقوش ج، هـ، ك، د) و (و) فهي مكونة بأحرف أكثر تعقيداً.. وتبعاً لدرجة قدمها، تأتي أولاً.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٤٥

أحرف اللوحة XXXIV، وتليها خطوط الصورة (و) الأربع، والنقوش ط، في اللوحة XXVII.

وتتبعها المسطور الأربعة (ز)، وبعض سطور النقوش ط. من اللوحة XXVII.

والجدير ذكره أنني كنت اجعل كلها الأحرف التي تحدثت عنها حتى الآن، كما و أنني لم أقم مرة واحدة على أحرف الأجدية د و هـ من اللوحة II، والتي أخذتها عن أسلاف الفرس القدامى، الذين استقروا في الهند. يقال إن الأجدية الأخيرة قديمة؛ غير أن تلك التي عثرنا عليها في برسيبوليس هي أكثر قدماً، حتى أن الفرس غيروا أحرفها مرات عدة. أراد اليونانيون أن يخلطوا أسماءهم هنا أيضاً، غير أنهم لم يتفقا معهم جيداً، وحفروا نقوشهم على الأحصنة، علماً أنها تعرضت للتآكل مع مرور الزمن. تلى هذه النقوش، الكوفية والعربية والفارسية؛ حتى أننا نعتز في نقشي رستم على أحرف عبرية (اللوحة XXVII، السطر الأخير)، واطن أنني رأيت أحرفاً مماثلة بين انقاض تشيل-منار. ولكنني لا أستطيع أن أدرج هذه الأحرف، وأسماء بعض الأوروبيين في عداد النقوش، فقد عثرت في تشيل-منار على اسم لوبراين مكتوباً بالبطشور الأحمر.

أمام الجبل الذي يضم مقابر الملوك، وصور مآثر البطل رستم، نشاهد صرحاً صغيراً من الحجارة البيضاء (وليس من المرمر الأسود الجميل الذي استعمل في بناء القصور)؛ تغطي هذا الصرح حجرتان كبيرتان، ساهمتا إلى حد بعيد في الحفاظ عليه، فلا أحد يستطيع نقل الحجارة السفلية، دون أن يتعرض لخطر وقوع الحجارة العلوية عليه. أما البوابة، فليست مرتفعة كثيراً عن الأرض، ويمكن الدخول منها بسهولة، لأنها لم تتعرض للتآكل.

ولا نجد فيه سوى غرفة صغيرة مساحتها ١٠ أقدام مربعة، وبعض الثقوب في الحجارة، كانت مخصصة لفضلات الأبواب. كما وأنه خال من النوافذ، ولا يدخل إليه النور إلا عبر فوهة فتحة الباب، المجاور للصحرة. أما القسم السفلي من هذا الصرح، فليس ممسماً إلى عدة غرف، بل يبدو وكأنه ردم منذ البداية؛ ولا أخال أن هذا الصرح كان مخصصاً للسكن بل هو عبارة عن مقبرة، أو كنيسة صغيرة، توضع فيها جثث الأموات، قبل نقلها إلى الصروح الكبيرة.

قرأت في الكتب الأخرى، التي تحدثت عن سير الرحلات، عن عمود صغير على قمة الجبل، ولكنني لم أشاهده إلا من بعيد. يقول هيرودوتس في كتابه الأول، أن الفرس اعتادوا تسلق أعالي الجبال، لتقديم الضحايا للشمس والقمر والأرض والنار والمياه، والرياح؛ ولعل سكان برسيبوليس كانوا يرتفون هذه الصحرة، للغاية نفسها، علماً أنها تظل على منظر جميل للوادي الواقع في الأسفل.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٤٦

نشاهد، على طريق قرية تشول Tchul صرحين منحوتين في الصخر، ولعلهما ضريحين وليين مسلمين.

على بعد ثلاثة أو أربعة أميال غرباً، نشاهد ثلاثة قصور، تعرف بقلمة إصطخر، وقلمة شيفاستي و ...

و يزعم أن الأول يقع في الأسفل، والثاني في الوسط والثالث في أعلى الجبل الوعر. ولما كنت قد أهملت زيارة هذه المنطقة، لا أستطيع القول إن كان الفرس القدامى قد بنوها، أو المسلمون، غير أنها الأكثر عظمة وتتضح أن يزورها الأوروبي.

إن ارتفاع القطب في مدينتي برسيبوليس ومفيس متساو تقريباً، غير أن عاصمة بلاد فارس كانت تفوق عاصمة مصر ارتفاعاً عن سطح البحر، مما أدى إلى بروز اختلاف كبير بين مناخيه البلديتين؛ خلال إقامتي في برسيبوليس، هطلت الأمطار في ١٧ آذار/مارس، و ٨ و ٥ نيسان/أبريل، ورغم أن الجليد عم المكان في ٢ نيسان/أبريل، إلا أنه ذاب عند الساعة ٨ أو ٩ صباحاً، بعد شروق الشمس. نشاهد على أعالي الجبال، الواقعة غربي الوادي، بعض الثلج بين الحين والآخر؛ في المقابل، لا تمطر السماء إلا لماماً في ممفيس، كما وأن سكانها لا يعرفون الثلج أبداً.

وفي نهاية المطاف، أود التحدث قليلاً عن سكان هذه المنطقة الحاليين، وعن إقامتي بينهم.

كنت أقم في قرية مردفت Merdadt، التي تقع على بعد ساعة تقريباً، جنوبي تشيل-منار، أما منزلي، فكان شبيهاً بمنازل القرويين، وهو يعرف هنا بخان القوافل، حيث ينزل بعض الرحالة الذين ينقلون من قرية إلى أخرى، حاملين معهم البضائع، وطالين عملاً. كان سكان مردفت، وغيرها من القرى المجاورة. يأتون غالباً لزيارتي، وفي أيام الأعياد، كنت استقبل النساء والفتيات، اللواتي يشعرن بفضول كبير لرؤية رجل أوروبي.

والجدير ذكره، أن هؤلاء السكان في غاية الإخلاص والوفاء، وكنت أشعر بالارتياح بينهم، كما لو أنني مقيم في إحدى القرى الأوروبية، وكنت أقضي نهاري كله، من الثامنة صباحاً إلى الخامسة مساءً في انقاض تشيل-منار.

في ١٩ آذار/مارس، وبينما كنت أرسم في منزلي، حسب القرويين أنني احتفل بعيد النيروز Naurus. فطلب قاضي القرية مني أن اعلمه بموعد حلول عيد النيروز، أو اعتدال الربيع، الذي أخذه السكان عن أجدادهم. فأكدت له أن الليل والنهار سيتساويان في اليوم التالي، فقرر حينها

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٤٨

الاحتفال بعيد النيروز في هذه القرية، في ٢٠ آذار/مارس دون الاستعلام عن تاريخ الاحتفال به في القرى المجاورة، وهذا يعني أن الفرس لا يستطيعون تحديد موعد ثابت لأعيادهم شأنهم في ذلك شأن العرب والمصريين .

في ٢٠ آذار/مارس ارتدى القرويون أبهى حلة، وأخذوا اجازة من عملهم. ولما كان رمضان لم يشرف بعد على نهايته، لم يتجرأوا على الأكل والشرب في النهار، صحيح أنهم يعرضون عن ذلك في الليل، إلا أنهم يفعلون ذلك دون أي اعتراض. في ٢٢ منه، ظهر القمر، فاحتفلوا في اليوم التالي بعيد الفطر.

تقع تشيل-منار في الصحراء. خلال إقامتي فيها، وصلت ١٠ عائلات من الأتراك والأكراد الرحل الذين يقصدون مع ماشيتهم، الأرياف المجاورة. وكانوا يقربون مني، حين يشاهدون رجلاً في ثياب أوروبية، قرب الانقاض، ويندهشون من قيامي بهذه الرحلة الطويلة، للرسم والكتابة غير أن أحداً منهم لم يوجه لي كلمة فظة؛ علماً أنني لم أصطحب معي سوى خادمي. وكان هذا الأخير، يسر بقدمهم، ليأخذ منهم الحليب، دون أن يتكبد عناء حمل زوادته معه من مردفت. في عيد البيرم (الفطر)، وصل عدد من الفلاحين ومن بينهم نساء وفتيات، من القرى المجاورة بعضهم يمتطي الحمير، والبعض الآخر ينقل سيراً على الأقدام؛ لعلهم كانوا يرغبون بزيارة الانقاض، أو برؤية الأجنبي الذي وصل إلى المنطقة. وما لفت انتباهي هو ارتداء بعض هؤلاء النساء، وأولئك اللواتي يرافقن الأكراد والأتراك الثياب على وجوههن. لما كان الفرس شديدى النظير، فإن معظمهم يحمل حجاباً ملففاً برقعة جلدية. أو غيرها من التعاويد. كانت إحدى القرويات تعلق على صدرها قطعة نقدية، عليها أحرف عبرية تومن، أنها لن تفقد أصدقائها طالما أنها تحمل هذه القطعة. في هذا السياق، علمت أن المسلمين لا يكتنون لدين الشخص الذي يكتب هذه الأحجية، المهم أن يتمتع بالمعرفة والتزاهة. وغالباً ما كانوا يطلبون مني أن اكتب بطاقات مماثلة؛ في حالات المرض المستعصي، والحوادث المؤلمة.

زارني عربي من سوريا، يدعى أنه من البحرين، ليكسب احترام الآخرين له، علماً أن الشيعة يستقبلون أشهر علمائهم من هذه الجزيرة؛ وكان يوسعي التحدث معي دون أن ألجأ للترجمان. فقد كان يعيش في بلاد فارس منذ ٣٠ سنة، و يجني أموالاً طائلة من بلدة كمارا، و يعيش عيشة رضية؛ وهو يفخر كثيراً بأصله و يطلق على نفسه لقب شيخ، علماً أن قاضي القرية الذي يحسن الكتابة والقراءة أيضاً لم يحظ إلا بلقب ملاً.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٤٩

لما كان هذا الشيخ يدعى العلم، و يزور غالباً تشيل-منار على حصانه، للتمتع بهذه الآثار الرائعة الجمال، كنت اتمنى أن يزودني بمعلومات حول آراء الكتاب العرب والفرس في هذا المجال؛ غير أنه لم يقرأ أي كتاب يأتي ذكر هذه الآثار باستثناء «كتاب



مروج الذهب للمسعودي». الذي يؤكد فيه الكاتب، ان سليمان ادى صلاة الفجر في اورشليم، و صلاة الظهر في بعلبك، و صلاة العشاء في تدمر و صلاة المساء في تشيل- مناره، و اظن ان هذه المعلومات تفيد المسلمين أكثر من العلماء الاوروبيين.

قمت بجولة بين الانقاض برفقة الشيخ المذكور، و قدته إلى النقوش الكوفية، علّه يحسن قرأتها و يتفلقا إلى العربية. غير انه لم يجد من داع للقيام بذلك. و بعد فترة وجيزة، قام بزيارتي برفقة ابنه، الذي لم يتجاوز الرابعة عشرة من عمره، و وطننا صدقتنا من جديد، علما انه رفض التحدث عن تلك النقوش. و استقبلت ايضا بعض اعيان الفرس الذين علموا خلال رحلتهم من أصفهان إلى شيراز، أن رجلا اوروبيا يقضى نهاره بين هذه الانقاض، فغفروا وجهة سيرهم ليشاهدوا هذه الظاهرة الفريدة من نوعها.

في ٣ نيسان/ أبريل، نقلت متاعى من مردفت إلى بلدة تشول، قرب نقشى رستم، حتى ابقي على مقربة من تلك الآثار، التي قد تشغلتني عدة أيام. بعد مرور ساعات قليلة على وصولي إلى ذلك المكان، ارسل السيد هيرفيل رسولا يعلمنى انه في تشيل- منار، فأسرعت في العودة إلى ذلك المكان، في الليلة نفسها، و امضيت نهارين برفقة صديقى، قرب تلك الانقاض، حيث قضيت معظم الوقت بمقارنة رسوماتي باللوحات الأصلية، بغية اتقانها أكثر. في الخامس من آذار/ مارس، رافقتى السير هيرفيل إلى تشيل، على ظهر حصانه. في شيراز، طردت الخادم المسلم، الذي رافقتى من بوشهر، و استخدمت بدلا منه خادما أرمنيا، غير ان هذا الاخير اصيب بالمرض في مردفت. كنا نتناول الدجاج و الارز و الزبدة بكثرة فكل يوم يعدون لي طبق اليبلاف (الأرز المغفلق أو المبخّر)، و غيره من الاطعمة، التي لا تتوفر إلا نادرا في القرى الفقيرة. غير ان خادمي اضطر للامتناع عن الطعام، تبعا لتعليمات كنيسته، أو بناء على إرشادات الهه، و لما كان اتباع الكنيسة الشرقية يمتنعون في زمن الصوم عن تناول اللحمة، و السمك و الزبدة و الحليب و البيض، اضطر خادمي الأرمنى للإسماك عن تناول الطعام، وسط القرويين المسلمين، الذين لا يحسنون تحضير الأطعمة التي تتاسب صيام الأرمنى. في الفترة الاولى من الصيام هزل جسده، و توقعت صحته في الفترة الثانية منه عند وصولنا إلى تشول، و لهذا السبب تركته في البلدة، عند ذهابي لملاقة السيد هيرفيل. في ذلك النهار قررنا ترحيله إلى شيراز في السادس منه، غير انه توفي قبل انطلاقه. وسط هذه الأحداث، سررت كثيرا بقدم السيد

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ١٥٠

هيرفيل، و لما كان خدامه من الارمن ايضا، و يكون صداقة عميقة للمرحوم اهتموا بدفته، لأن الشيعة كانوا يرفضون دفن مسيحي حتى لا يدنسوا انفسهم.

لو بقى خادمي حيا لقضيت وقتا أطول قرب هذه الانقاض. غير ان عيني أصيبتا بالارهاق، و خارت قواي، و لم أجد اجزؤ على المجازفة أكثر. فاعتبرت موت خادمي، انذارا لي، و عدت في ٧ نيسان/ أبريل إلى شيراز برفقة السيد هيرفيل. فسرنا أربع ساعات من تشول أو نقشى رستم لنصل إلى جسر بولوخان، على نهر بندامير، الذي اتيت على ذكره آنفا، و كنا نشاهد قرى مبعثرة هنا و هناك، علما ان معظمها مهدم، فضلا عن قنوات للمياه يغطيها التراب. و اربابا قاحلة؛ نجد في هذه المنطقة الجزء الرابع من السكان، الذين كانوا يقطنون فيها في عهد نادر شاه؛ و لا يمكننا مقارنة هذا الشعب بذلك الذي استقر فيها زمن المسلمين، و الذي كان يعتبر الزراعة، سرا الهيا و من الضروري اتقانها.

قطعتا من الجسر المذكور فرسخين لنصل إلى زرکان؛ و رغم ان الطريق خال من التدرجات إلا أنه يصبح موحلا بعد هطول الأمطار الغزيرة.

في ٨ نيسان/ أبريل، عدنا إلى شيراز؛ تحد الجبال الشاهقة الطريق المؤدية من زرکان إلى شيراز، و الجدير ذكره ان نقشى رستم تبعد ثمانية أميال عن شيراز.

بعد عودتي إلى شيراز، بذلت جهدى لأشفي من السعال الحاد و التهاب الحنجرتين اللذين اصبت بهما في بريسيوليس. كانت الطريق من بوشهر إلى شيراز محفوفة بالمخاطر بسبب الحرب القائمة بين كريم خان و مير مهنا، مما دعنى للانتظار طويلا قرب احدى القوافل، فاستغليت هذه الفرصة لاستعادة عافيتي و مشاهدة آثار منطقة شيراز.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ١٥١

##### الملاحظات التي فوتتها في شيراز

على بعد نصف فرسخ شمالي شيراز، و أمام جبل شاهق، نجد صخرة عالية تظل على المدينة و على الوادي الخصب و على الجبال العالية البعيدة. يحاكي موقع هذه الصخرة مع تلك التي بنى عليها قصر بريسيوليس؛ شيد احد المسلمين قسرا عليها، غير انه كان هشا للغاية، و لم يتبق منه إلا عمود صغير؛ و يقال انه نقله من تشيل- منار، خاصة و انه مصنوع من المرمر الأسود نفسه، الذي نشاهد في انقاض بريسيوليس، علما ان صخرة شيراز؛ يضاء ليّنه دعمت طلعم هذا الصرح بسورين حتى يتمكن المسلم من الصعود على حصانه علما ان مقاول قصر بريسيوليس لم يفكر بهذا الأمر ابدا. تحت المهندس تحت الصرح الاساسي، الصخرة بشكل درجات و ساق الهيا مياه جارية، ليحولها إلى شلال جميل، غير أن النهر استعاد مجراه الأساسى، و لم يعد للشلال أى فائدة. نشاهد على مقربة من هنا، خزانا كبيرا، و آثار مجار للمياه. بعبارة أخرى، كان هذا القصر جميلا جدا، استنادا لآراء المسلمين، أما اليوم، فلم يعد يستحق عناية زيارته.

نشاهد عند أسفل الصخرة، حجيرات عميقة، كانت قديما اسطبلات للخياد، و غرفا للخدم. أما عند أعلى الجبل، فرى ضريح الولي باب كى، الذي يزوره المسلمون غالبا.

في الجهة الشرقية- الجنوبية و على بعد ميل من شيراز، نشاهد على احدى التلال، بقايا صرح، يسميه كامفير جبر **Sjubosar**، على اسم احدى القرى المجاورة، و شاردين و لوبراين، جامع والده سليمان، و هو يضم ثلاثة أبواب من المرمر، مزينة بصور شبيهة بتلك التي نراها بكثرة في تشيل- منار، ولكنها وضعت بطريقة سيئة للغاية، شأنها في ذلك شأن أعمدة قدامى المصريين الموضوعة في المباني الجديدة.

كان ضريح الشاعر الفارسي الشهير الحاج حافظ، (حافظ الشيرازي) موجود قديما في ضواحي شيراز، أما اليوم، فهو على بعد ربع فرسخ من بوابة المدينة، و لا تصادف على هذه الطريق إلا صرحا واحدا، و جامع الشامير مير حمزة الكبير المشار اليه على اللوحةXXXVI و بعض المنازل الحفيرة. تكثر في هذه المنطقة الأرياف الخصبية، و تحيط بالفريح المذكور مراع جميلة. لم يفقد الصرح رونقه، و هو يتألف من عدة أجزاء، يؤدي إليها سلم ضيق. نشاهد في هذا البناء ضريح العالم المذكور، و غيره من مشاهير بلاد فارس، و لما كانت الديانة الإسلامية توصى بتظهر اتباعها، نجد على مقربة من هذا المصلى، جدولا صغيرا، يستمد مياهه من خزان كبير، ليتشعب بعدها في

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ١٥٤

الأرياف المجاورة، و من أشجار السرو العالية، التي كانت تكثر قديما في هذا المكان، لم يبق من اضرار الستين إلا القليل منها.

نشاهد صوب الجنوب، ضريح عالم فارسي آخر، هو الشيخ سعد، و الجدير ذكره ان هذا الصرح كان مهديما كليا قبل أن يتبرع احد المسلمين الأترياء بترميمه، فلاحظت هنا طريقة حفر الفرس المعاصرين النقوش التي تكثر على أسوار الجوامع، فالأحرف مصنوعة من الصلصال المطلى باللون الأخضر أو الأصفر أو سواء من الألوان. علما انها وقعت في بعض الأماكن، و تناثرت أرضا.

لفت نظرى في هذا المكان، بثر مثنى الشكل، قليل العمق، تجرى تحته مياه عذبة و صافية، مليئة بالاسماك، علما اننى لم أشاهد هذا العدد الهائل منها في اى مكان آخر، و لكن الأسماك تعيش هنا في رعاية الشيخ سعد، و لا أحد يتجرأ على أخذ واحد منها. و بعد أن تنزل سلما طويلا- نبع المياه، التي احيطت بأماكن مخصصة للجلوس و الاستراحة عليها، و نشاهد على جهتي اليرث المثنى قساء محفورة تحت الارض، و بمحاذاتها مقعدا من الحجارة المنحوتة. بعبارة أخرى، هذا المكان رائع الجمال خاصة في الفصل الحار. تتابع هذه المياه طريقها وسط حديقة تضم شلالات جميلة و خزانات للمياه. غير ان الفوضى تعم هذه الحديقة في الوقت الحالى، فضلا عن ان الخزانات و القنوات تنداعى مع مرور الزمن. يدفع سكان بلاد فارس اموالا طائلة لحفر قنوات المياه، و لم تدره تلك التي تروى الأرياف خاصة و لكن الزراعة لم تدره لدى المسلمين، فقد تواروا عن العناية بهذه القنوات، و تسببوا بجناف هذه البلاد، و بهجرة سكانها منها.

لما كنت ارتدى ملابس اوروبية، في بلاد فارس، تعذر على التنقل في كافة انحاء شيراز، كما كنت افعل في مدن الشرق الاخرى، و لم استطع بالتالى وضع خارطة صحيحة لها. غير ان القارىء يستطيع ان يكون فكره واضحة عن مساحتها و موقعها. استنادا إلى

اللوحةXXXV، التي اشترت فيها إلى اسماء الأبواب، قرب الصورة أ، نجد بابا رائعا لبلدة طانجي الأكبر، (ص ٩٧) و قرب الصور ب، نجد ضريح الحاج حافظ، أما سارباش، فهي تضم مصنعا للالكليز، و نشاهد في الموقع أ، ب، ت(a. b. c)، انقاض مصانع الفرنسين و الهولنديين و البرتغاليين، و نجد بالتالي بعض الجوامع في الصورة، علما اننا نشاهدها بشكل اوضح في اللوحةXXXVI التي رسمتها في الصرح المجاور لضريح الحاج حافظ. و اليكم ما تشير اليه هذه اللوحة (١) شاه مير حمزه (٢) شاه شرا (٣) مدرسة (٤) زيد الحسين (٥) شتن جمعة (٦) باب دوشير، و هي تجسد كلها جوامع كبيرة، بقيت على حالها، رغم تعرض المدينة للهلب عدة مرات. و الملفت للنظر اننا لا نشاهد اى منارة عليها، و يقال ان هذا النوع من الأبراج غير مستعمل في بلاد فارس، علما أن المؤذن، أو من يدعو الناس إلى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٥٥

الصلاة، يقف أمام الجامع أو فوقه (٧). منزل بكاربك (٨) متجر الاسلحة (٩) باب سعدة (١٠) باب اصفهان (١١) كريم اباد ، و هي عبارة عن قرية صغيرة بناها الوكيل الحالي منذ فترة وجيزة.

تتماز منازل البلدة بقرميدها المشوى و جدرانها المبيضة أو المطلية بالكلس، اما البازار أو السوق فهو مسقوف جزئيا، و طرقاته مرصوفة و نظيفة.

يحاكي مناخ شيراز، مناخ برسيبوليس، علما انه يختلف كلياً عن مناخ الخليج الفارسي. في بداية شهر اذار/ مارس تساقطت الامطار بغزارة، كما و أن الطقس البارد استمر حتى شهري نيسان/ أبريل و ايار/ مايو مصحوبا برياح قوية، و عواصف رعدية. و في ٢٥ نيسان/ أبريل، شاهدنا على قمة جبل شاهق وناه طبقة رقيقة من الثلج، ذاب نصفها تقريبا، بعد مرور شهر تقريبا في الساعة الثامنة صباحا من ٢٣ نيسان/ أبريل، وقعت هزة أرضية قوية، ادت إلى تزعزع البناء القديم الذي أقيم فيه، إلى حد انى كنت أخشى من انهياره. كانت تكثر في هذا الشهر من السنة، الاشجار المثمرة، التي ينمو بعضها في اوروبا و بعضها الاخر في بلاد الهند. فقد تعرفت هنا على ٢٠ نوعا من العنب، يجفف بعضها و يحول إلى زبيب، و هو عبارة عن فاكهة صغيرة الحجم و بدورها طرية، و تؤكل بسهولة .

أما العنب الأسكاري، فهو من النوع نفسه، غير ان بذوره اقسى، بينما يستخرج من الكرتشيش النبيذ الأحمر، و من الأفغوراني نبيذ شديد الحمرة. يضاف إلى نبيذ الكرتشيش ليضفى عليه لونا جميلا- و تصدر هذه المدينة ايضا ماء الورد، و زيت الورد اللتين، بكميات وافرة.

يصنع الأرمين نبيذ شيراز الذي يحفظ في برميل أو أوعية كبيرة، و ينقل بعضها في زجاجات محفوظة إلى بوشهر و منها إلى البصرة و الهند. و رغم جودة هذا النبيذ، إلا اننى اجد النبيذ الذى يعده اليهود في صنعاء أكثر جودة، غير ان هؤلاء الآخرين، لم يستطيعوا الحصول على الإذن بالمتاجرة علنا أو بتصديره إلى الخارج، علما انه تنقصهم الأواني اللازمة لحفظه. يقيم يهود شيراز، شأنهم شأن يهود المدن الشرقية الأخرى، في شارع مستقل، و يعاونون من الفقر الشديد. لم أقابل في هذه المدينة سوى ٢٠ بائنايا، غير ان الحكومة أرادت بناء خان للوقايل، حتى تشجع هؤلاء التجار الهنود على العودة إلى هنا مرة أخرى.

إن عدد الأرمين الذين استقروا حديثا في شيراز، ليس كبيرا جدا ، و هم يملكون في سرباش،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٥٦

حيث اقام السيد هيرفيل، كنيسة صغيرة، يجتمعون فيها كل يوم لتلاوة الصلاة، و التزيم؛ حضرت نهار السبت ١٣ نيسان/ أبريل، قداسيمه، و كنت أنتمل محافل المسيحيين الاولين، لأن الكاهن الاول في هذه المجموعة، كان حانكا، و يساعده في القداس، صباحا أحد خدام السيد هيرفيل، إسكافيا و نجارا.

كانت الكنيسة جميلة للغاية، وضع على المذبح صليب كبير، و كأس، و كتاب مزين بالفضة، و شمعدانات، أما خدام القداس، فكانوا يرتدون معاطف، خيط عليها صليب صغير. اعتاد الأرمين ان يخلقوا شعرهم، بشفرة حلاقة و ان يرتدوا لقلنسوة، شأنهم شأن الشرقيين كافة، تعلقوا قبة كبيرة، شأنهم شأن الفرس. و كانوا يخلعون هذه الأخيرة في الكنيسة. بينما ينقى العرب عماداتهم أو قبعاتهم على رؤوسهم في جوامعهم، أما الكاهن، فيضع على رأسه شيئا شبيها بقبعات الرحالة الأوروبيين. يقال ان الأرمين يسجدون أرضا خلال الصلاة، كما يفعل المسلمون، و ان شعارهم الدينية تقتصر بمعظمها على الترانيم .

لم اتوقع ان أسع أحدهم يعط خلال القداس، فالكاهن يحمل الكتاب الكبير الموضوع على المذبح، و يقرأ منه بعض فصول الكتاب المقدس. و بعد أن قرأ، هذا المقطع (انجيل لوقا ١٦، الفصل ٦) حين يقول الملاك، لمريم المجديلة، و مريم أم يعقوب «لا تجزعا، فأنتما تبحتان عن يسوع الناصرى الذى صلب، و لكنه قام من بين الأموات و لم يعد ههنا؛ صقق له الحشد. و حين قرأ المقطع الذى يدعو فيه يسوع المسيح تلاميذه إلى السلام، قبل كل واحد منهم جاز على الخدين، عندئذ وضع الكاهن قطعة قماش على كتفيه، و حمه بيديه الاثنتين، و دعا الجميع لتقبيله.

كان يقف خلفه رجل يحمل عصا طويلة، تعلقها دوائر رقيقة، تمثل وجود الملاك جبرائيل بينهم.

أما باقي الكهنة فكانوا يحملون الشمعدانات في أيديهم. و عند الانتهاء من هذا الطقس، تناول الجميع كيارا و صغارا، قطعة من الخبز، مليلة بالنبيذ. عند المساء، جاء الكاهن لزيارة السيد هيرفيل، برفقة اثنين من خدمة القداس، يحمل كل واحد منه شمعدانا في يده، فقد كان يريد ان يقدم لنا البيض الملون، و يرم بعض الاناشيد، و يمتحننا برتحة.

و في اليوم التالي، تلقينا زيارة مماثلة أيضا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٥٨

يملك الفرس منازل عامة تعرف سرخانتهSurshone (منازل قوة)، يحق لكل فرد منهم الدخول اليها، لعرض قوته. يوم زرت هذا السرخون لأول مرة، شعرت بأن الهواء فيه ملوث، و ارتأيت أن لا أدخل اليه ثانية. غير اننى عدت اليه مرة ثانية، و مكنت فيه فترة أطول، لأعطى قرأني فكرة واضحة عن التمارين الجسدية التي تقام فيه، يتألف البناء من ٤ جدران عالية، مبنية من الحجارة الصلبة، و حفرت في كل واحد منها حجرة مفتوحة، و خصصت الباحة الوسطى، للذين يرغبون بعرض مهارتهم أو القيام بتمارين رياضية. يتميز هذا المكان بصغر بوابته و انخفاضها، فضلا عن خلوه من التوافد، غير اننا نشاهد في أعلى القبة، تقيا يدخل منه الضوء، علما ان المكان مزود بقناديل و مصابيح. بعبارة أخرى عند بناء هذا المكان، بذل المقاول جهده لمنع تسرب الهواء اليه، و اظن ان هذه المسألة ضرورية، مع أنه كان يستطيع ان يضيف تقريبا أخرى إلى القبة، لتثقيت المكان من الروائح النتنة التي ترجع الناس و تضر بصحتهم.

جلست برفقة بعض المشاهدين في الحجرة. يجلس اعيان المدينة و تجارها، الذين يقصدون المكان للقيام بالتمارين، في حجيرات أخرى، و يدخون العليون، كما في الصورة (أ) من اللوحةXXXVII، و نشاهد في الصورة نفسها، مكانا لتناول القهوة، و ٣ موسيقيين في الحجرة الرابعة، واحد منهم يعزف على العتبار و ثان على الطبل، الذى يستعمله الشرقيون دوما في الغناء و الرقص، و ثالث يغنى أغان فارسية. بعد أن ينتهى الهواء من ارتشاف القهوة و التدخين، يخلعون ثيابهم، و يتزلون شبه عراة إلى الباحة الوسطى، و يربطون حول خصورهم سراويل جلدية قصيرة، فيقفون اولاً على ايديهم، و يرفعون أرجلهم في الهواء، كما في الصورة ب(B) و يسجدون لاحقا، لتلاوة الصلاة، و وجوههم نحو مكة، إذ يزعم المسلمون، أنهم يصلون قبل القيام بأى شىء،، و لا ينسوا تأدية هذا الفرض حتى عند ممارستهم هذه الالاعاب. و يتلو بعضهم صلاته، و رأسه في الأرض، كما في الصورة ج(G) .

نقلت في الصورتين (D) و (E) ه (E) التمرين الاول الذى يقومون به. يقف الهواة قرب بعضهم البعض، على ايديهم و أرجلهم، أما من نزل حديثا إلى الباحة، فقد اتخذ الوضعية (D)، باسطة يديه و رجله، إلى ابعد حد ممكن، على أن لا يلمس بطنه الأرض. (الصورة ه (E)). و بعد اتخاذ هذه الوضعية، يرسمون دائرة برأسهم دون أن يحرکوا ايديهم أو أرجلهم، و كلما اعادوا هذا التمرين، كلما زادت خيرتهم في هذا الفن، و قيل لى ان بعضهم يعيدونه ٦٠ مرة. و يمسك البعض بقطعة كبيرة من الخشب، و يضعها على كتفه (الصورة و(F))، و يحاول ان يلويها من الامام إلى الورا. و بعد ان ينتهى من ذلك، يقفز على لوح خشبي موضوع قرب الجدار. الصورة (Z) )، أما من كان يفوق سواه مهارة، فيرفع رجله أكثر (الصورة ح H)، كما و أن الخبير في هذا الفن، يقف على رجله كما في الصورة ب(B) .

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٥٩

و مما لا شك فيه ان من يمارس هذه التمارين العنيفة، يتصبب عرقا، و من يجلس في الحجرة، يدفع مالا للخدم، حتى يفركوا له جسمه، (الصورة ط (U)) و بعد الانتهاء من ذلك يبدأ الجميع بالرقص، و بالقفز، (ك K) إما على الجدار (E)، و إما على رجل واحدة، بغية تحريك الجسم قدر المستطاع. كان البعض يستلقى ارضا على ظهره، و يضع و سادات تحت رأسه و ذراعيه، (م م) لرفع قطنتين من الخشب الثقيل و السميك، و الجدير ذكره ان عدد الذين يمارسون هذه التمارين قليل. نظرا لما يتطلبه من قوة. و كان



المعلم يقف بقرهيم، وبحسب عدد المرات التي يرفع فيها كل تلميذ الخشب عاليا، مما يعنى ان من يأتي لاحقا، يبذل قصارى جهده ليسيق من اتى قبله.

عند ذلك، يقفون جميعا في الصف، و يتلو عليهم المعلم خطابا أو صلاة طويلة، حيث يأتي غالبا على ذكر على أو الحسن أو الحسين، ارضاء للمصارعين.

كان من الصعب على ان أرسم أو أصف وضعيات الجسد المختلفة، التي شاهدتها خلال التمرين.

و لم اشر إلا إلى واحدة منها (N٨) لا تدوم طويلا، يقف الفرد على رجليه، و يحرك جسده تارة إلى أعلى، و طورا إلى أسفل، و مرة إلى الأمام و أخرى إلى الوراء. و يبدأ بعدها اثنان منهم بالتقاتل دون ان يلقيا التحية بعضهم على بعض، و شاهدت اثنان منهما، و قد ضما يديهما، و صنعا اشارة الصليب على جبينهما. كما في الصورة (س٠O)، و كأنها طريقة جديدة في إلقاء التحية، و جلسا بعدها ارضا، قبالة بعضهما البعض، و راحا يتحيانا الفرص لبدء الصراع. و بعد ان يهزم أحدهما الآخر، يقبل المهزوم يد المنتصر، باحترام فاتق. و الجدير ذكره انهما لا يتبادلان الضربات شأنهم شأن الانكليز، رغم ان بعضهم يجسّ ذراعه و رجله عند مغادرته المكان و كأن اعضاضه تحتاج للراحة.

و لاحظت ان أحد المصارعين، كان يرعى ارضا كل من يحاول مبارزته، حتى أنه استدعى في نهاية المطاف المشاهدين لمواجهته. ان استطاع احدهم ان يثبت أنه أعلن في احدى المدن الاسلامية الأساسية، مثل أصفهان، و القسطنطينية، و دلهى انه يرغب بمقاتلة الاقوى، في الموعد الفلاني، دون ان يتمكن احد من صرعه، يحتق له ان يضع على قبره اسدا منحوتا في الصخر. شاهدت في شيراز ضريحين مماثلين، واحد قرب حديقة كريم خان الحديثة، و الثاني قرب جامع شاه شيراز، ظننت في البدء انهما ضريحا شخصين من اعيان البلاد، اظهرا جدارة فائقة، إما في الحروب أو في صيد الاسود، غير اننى علمت لاحقا انهما اكتسبا هذه الجدارة في المصارعة، و يمكننا بالتالى ان نفهم الأخطاء الكثيرة التي يرتكبها العلماء، في محاولتهم تفسير هذه الآثار. في كتاب «وادي الزهور الفارسية». للشاه سعد، نجد افاصيل كثيرة حول المصارعين، سهلة الفهم بالنسبة للأوروبيين.

نجد في شيراز ثلاث سرخانات يجتمع فيها افراد الطبقتين الوسطى و الفقيرة، علاوة عن الضباط، و أصحاب المناصب العليا، بغية ممارسة هذه التمارين، و تلبين أجسامهم. يخصص بعض

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٦٠

الاعيان غرفة في منزلهم يمترون فيها و يتصارعون مع اصداقائهم و معارفهم، أما أثرياء بلاد فارس فيمارسون هذه التمارين عند الصباح، و يركبون الخيل بعد الظهر.

تختلف أزياء الفرس عن أزياء العرب و الأتراك. يرتدى الضابط الرقيع المستوى، قبة مربعة، لها شريط طويل علما ان معظم الناس يمترون قبعات من جلد الخراف، و يلقون حولها شريطا معقودا، و الملقف للنظر ان للفرس كلهم شاربان، قصيران، بينما يستعملون المقص للتخلص من شعر الذقن و الخدين. و هم يرتدون أثوابا طويلة، شبيهة بتلك التي شاهدتها عدة مرات بين اقراض برسبوليس (للوحه XXI)، و لها كمان طويلان مزوران حول المعصمين، أما على الردفين فيضعون نطاقا عريضا على غرار الشرفين عامة.

في مخيم فرمدش، يضع الضباط و معاونيهم و جنودهم الجعب في الذراع اليسر، و قمع البارود في الذراع الايمن، أما سيفهم، فيتدلى على الردف الأيسر، و تم يرتدون سراويل مقلمة من النسيج أو من الحرير طويلة و فضفاضة، و لكن مختلفة عن خشيش الأتراك. و يرتدى كبار الضباط أحذية سوداء تصل إلى الركبتين و لكن كعبها عال و مقرون جدا، حتى انه من الصعب استعمالها في المشى، فعند تزلجهم عن الحصان، يحضر لهم الخادم الخفين. يرتدى اعيان الأتراك أحذية قصيرة، صفراء، أو حمراء، و ليس لها كعب حتى الخفان لهما كعب عال و نعل مزين بالزهور. غالبا ما يصنع الخف من الجلد الاخضر، علما ان خف الأتراك اصفر اللون. لا يختلف زى النبيل كثيرا عن سواه، باستثناء انه يرتدى في الشتاء عباءة مبطنة بفرو، أو بنيش باللغة التركية. يحتمر التاجر عادة قبة من جلد الحيوان، و عباءة قصيرة مبطنة بالفرو، دون أكمام، و خفين عاليين، و جوارب قصيرة. يعتبر عامة الشعب من الفرس، قبة عالية، لها قرنان من كل جهة (الصورة ع٠P) و الجدير ذكره ان الفرس نادرا ما يغيرون ملابسهم الداخلية، و يرتدون عادة قمصانا من النسيج المقلّم.

أما نساء الطبقة الوسطى (الأنثى لم اقابل نساء كريمات الأصل) فيعدن الأقمشة القطنية حول أرجلهن، مما يجعلهن سمينات و ثقيلات، و هن يرتدن رأسهن بخرقه رثة يتدلى منها قماش قطني أبيض، فضلا عن قماش ابيض آخر أمام الوجه. بعبارة أخرى، لا أظن أن أزياء النساء الفارسيات، أو أحذية اعيان تستحق التقليد. أما الأزياء المتبقية فهي افضل من تلك التي يعتمدها الاتراك، كما و أنها تحاكي ازياء البولونيين.

#### العودة إلى بوشهر

كنت انتظر بفارغ الصبر انطلاق قافلة من شيراز إلى بوشهر، و لكن التبادل التجارى بين المدينتين كان منقطعاً، فكان على بالتالى الانتظار حتى ١٤ أيار/ مايو، حتى يجتمع عدد كبير من

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٦١

الرحالة و تمكن من السفر دون ان تتعرض للمخاطر، كنا نسير بيده شديد لأن أصحاب الدواب، كانوا يهتمون بتأمين العلف للبعال و الجياد و الحمير. و قلما يأبهون للوقت الذي قد نقضيه على الطريق.

في اليوم الاول، قطعنا نصف ميل، و في ١٥ أيار/ مايو سرنا فرسخين و نصف لتبلغ (تشييسما صفر (الوحه XVII)، و في ١٦ منه، ٤ فراسخ وصولا إلى وادي نبدوء تقع هذه القرية شرقي الجبل، و تحيط بها بساتين العنب، و اللوز و الدراق، و التين و غيرها من الاشجار المثمرة. في ١٧ أيار/ مايو اجتزنا طرقا و عرة عبر الجبال و الهضاب، لتتصب خيمنتا على مسافة ساعتين من المشى.

في ذلك النهار صادفنا قافلة، تضم ٣٠ أو ٤٠ عربيا من البحرين يقصدون جميعا مشهد لزيارة ضريح على ابن الرضى، أحد أئمة الشيعة الاثنى عشر، و نجد ايضا بينهم بعض النساء العربيات.

يفرض على كل شيعى يتمتع بصحة جيدة، و يملك ثروة صغيرة، ان يزور مكة مرة واحدة على الأقل. و لما كانت هذه الرحلة، مكلفة و محفوفة بالمخاطر، و مزعجة خاصة و ان السنة يعاملون الحجاج بازدراء، معتبرين اياهم ملحدون، يكفئ اهل الشيعة بزيارة أضرحة أئمتهم. و ان كان احدهم يملك الوسائل اللازمة للسفر إلى مكة أو لزيارة أضرحة الأئمة، يقتطع جزء من ميراثه بعد موته، حتى يسافر شخص آخر بدلا عنه، و لهذا السبب يحترف الكثيرون مهنة الحج، و يقومون بهذه الرحلة مقابل مبلغ زهيد.

كانت قافلتنا تضم ثلاثة من هؤلاء الشيعة الساعين من البحرين. قام واحد منهم بتسع رحلات مماثلة عن نفس تسعة أموات مختلفين، فالرحالة القادمون من البحرين هم بمعظمهم حجاج بالأجرة و الجدير ذكره ان معظمهم كان ينتقل سيرا على الأقدام، بينما يسافر عدد قليل منهم على الحمير. و كانت ثيابهم رثة، و يحملون امتعتهم على ظهورهم. و هي عبارة عن رزمة من الخبز و البلع المجفف، و ابريق نحاسى يستعملونه للاختسال. سررت كثيرا بمقابلة هؤلاء العرب في بلد غريب عنى تماما، كانوا يتبادلون القبل، على الخدين و على اليدين و يستفرون بعضهم عن صحة بعض.

و كانوا يسألون العرب المرافقين لنا، عن الطريق المؤدية إلى مشهد، بينما هؤلاء الآخرين يستعملون عن طريق بوشهر، و أكد الفريقان أن بلاد فارس هي الأكثر أمانا بين بلدان العالم أجمع، في الواقع، لا أظنهم كانوا يخشون اللصوص، علما أنهم لا يحملون معهم اى شىء يذكر. و سألوا أيضا عن ليرة الخبز و الرز، و الزبدة في المناطق التي اتوا منها. و أظن ان الفريقين يتشبان إلى مناطق قريبة جدا و يحسبون أنفسهم ذاهبين إلى الجنة، لذلك قبلوا بكل طيبة خاطر السفر كحجاج مرتزة. و بعد تبادل الأخبار، تنتهى المقابلة بالسلامات الحارة و التمنيات الصادقة. و المحزن في بلاد فارس هو ان معظم الأشخاص الذين صادفناهم لاحقا (بعد مرور ١٨ سنة على وفاة نادر شاه). فقدوا عينيا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٦٢

بسبب سحق هذا الطاغية عليهم، و الجدير ذكره، أن بعض عرب البحرين، كان نصيبهم مماثلا ايضا. حتى في سورات و مسقط و البصرة و بغداد، عثرت على أدلة تثبت وحشيته، و خاصة بين التجار الأرمن و المسلمين، الذين هاجروا بعدها إلى أوطانهم.

في ١٨ أيار/ مايو، سبقت القافلة برفقة عدد من المسافرين إلى مرحة، في ٢٠ منه، وصلنا إلى Grابا و في ٢١ إلى خاتين، و في ٢٢ إلى عويس. و لما اقترنا من الخليج الفارسي، ارتفعت حرارة الطقس؛ لم أشاهد يوما نجوما كبيرة إلى هذا الحد إلا في عويس و

مرحلة، و لاحظت انها تضيئى نورا مضئينا على مرحلة و خاتيق. منذ فترة ليست بعيدة، أرسل كريم خان فضيلة من الجند إلى قرية في اقليم كاسفرون، لتقع مجموعة من المتمردين عصوا اوامرهم، و لم يدفعاوا ما طلبه منهم.

غير ان رئيس المجموعة فر برفقة عائلته إلى قرية مجاورة لعويس، بينما كان الجند يهينون قرينته و يدمرونها. صادقا هنا ٢٠٠ قروي، اجتمعوا بناء على أوامر الخان، في هذا المكان منذ أربعة أيام ليذهبوا بعدها للبحث عن المتمرذ، غير انهم عادوا عند المساء و اعلموا الخان، انه فر إلى بندريغ.

هذه هي الحرب في بلاد فارس، فمعظم الأعيان غير راضين عن حكم عائلة الأكراد. و حين يرسل هؤلاء الآخرون للبحث عن مواطنيهم المتمردين، يعلمونهم مسبقا بضرورة الفرار.

و علمنا عند المساء، ان قرويا مسافرا من غرا إلى عويس (على ظهر حمارة) تعرض للنهب على الطريق. غير ان الشاه و جنوده لم يعيروا هذه الحادثة اهتماما على خلاف انكشارى قابلته في مصر، و كان شديد الفخر بنفسه، لأن اللصوص لم يتجرأوا بعد على الدنو منه أو من اصدقائه (الذين يتولون حراسة القرية) رغم انهم نهبوا جيرانهم.

سافرا ليلان من عويس، نظرا لشدة الحر في النهار. و اجتزنا جبل صندل لتصل صباح ٢٣ أيار/ مايو إلى قرية يري. في الليلة التالية مرزنا ، بلغنا جدولنا صغيرا قرية قرية قطفCatfet ،

شاوى. حيث تكثر اشجار البليح، و التى التهمها مؤخرا الجراد. ففى ٢٧ منه اجتزنا قريتي احرام و كرسيير.

و الجدير ذكره ان الاعشاب المحيطة بقرية قطف كانت تلتهمها الثيران عند وصولنا، فخشيت ان تشتعل امتحنى ايضا، غير اننا بذلنا جهدنا لإخمادها بواسطة الاغطية و الحفانج، حتى لا تنكبد خسائر كثيرة. و علمنا لاحقا، ان الناس يضرمون النار في العشب، ليحرقوا الأرض لاحقا و يزرعوها، لأن الرماد يشكل زبلا مفيدا.

غادر الأمير كنجح خان الذى التقيت به في شباط/ فبراير، في كرمدش البلدة هذا الصباح متجها إلى احرام، بغية محاصرة بندريغ، و لما تعذر عليه جمع الضرابن من قروى احرام و القرى المجاورة، ترك فضيلة من الجند، في البلدة من أجل هذه الغاية فحسب.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٦٣

غادرت القافلة في احرام برفقة بعض الاشخاص على الأخصنة، و وصلت إلى بوشهر متعبا و لكن سعيدا للغاية.

نزلت عند السيد جبرئيل، الذى احسن ضيافتى إلى حد بعيد. غير ان الحر الشديد انهكنى، خاصة اننى وصلت حديثا من شيراز المعروفة بطقسها البارد، فاضطرت إلى تأجيل رحلتى المقبلة.

عند وصولى، علمت ان احدى السفن الانكليزية تستعد للابحار إلى الخرج و البصرة، غير اننى كنت مجبرا على انتظار وصول امتحنى مع القالة، في ٢٩ منه. و لما كانت السفينة المذكورة قد اقلعت، لم أخطر على مركب آخر يقلنى إلى الخرج خاصة و ان البحارة يخشون قراصنة مير مهنا.

في ٣٠ منه وصل مركب صغير من الخرج، و لما كان الهولنديون على علاقة طيبة بعبير مهنا و بشيخ بوشهر على حد سواء، استأجرت هذا المركب الصغير و وصلت في ٣١ أيار/ مايو إلى تلك الجزيرة. غير ان السفينة الانكليزية كانت قد اقلعت منها، قبل بضع ساعات من وصولى، فاضطرت لقضاء بعض الوقت في الخرج خاصة و ان الهولنديين استقبلونى بالترحاب، كما و اننى شهدت حربا لم تعرف لها مثيلا في اوروبا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٦٥

#### ملاحظات حول الخرج

#### إشارة

أشرت في كتاب وصف شبه الجزيرة العربية، في اللوحةXIX إلى موقع جزيرة الخرج، و تحدثت في الكتاب نفسه عن حكومة هذه الجزيرة، التى كانت خاضعة للبعثة الهولندية في الهند الشرقية، و أسس البارون دو كينيوسن، هذه المستعمرة، فقد كان يعمل سابقا، مديرا للمصنع الهولندى في البصرة، غير ان بعض الاوروبيين، حرضوا الاثراك ضده، فزجوه في السجن، و ارغموه على دفع مبلغ كبير من المال و مغادرة البصرة. في الوقت نفسه، اعتبر السيد فان دير هولست عميلا ايضا، و أجير على مغادرة بوشهر برفقة موظفى المصنع الهولندى الآخرين. و بينما كان موظفو البصرة يأملون ان يصل تاجر قوى، يستطيع الانتقام لهم، كان التجار الاوروبيون يحسبون ان الهولنديين سينفون من الخليج الفارسى كله. و لكن السيد دو كينيوسن، عقد اتفاقا مع والى بندريغ، يقضى بالسماح للهولنديين ببناء مصنع لهم في جزيرة الخرج، عندئذ غادر إلى بتافيا، ليعود في السنة التالية، و يعزز التجارة في الخرج، و مرعفا اترك البصرة، على إعادة كل ما أخذوه إما منه أو من ضباط البعثة الهولندية. و بعد رحيل البارون دو كينيوسن، تسلم السيد فان دير هولست دفة الحكم في الخرج، غير انه ما لبث ان اقبل، علما انه لم يزل حظوة لدى والى بتافيا، و عين السيد بوشمان خلفا له.

كان السيدان دو كينيوسن، وفان دير هولست، على خلاف مع عرب الخليج الفارسى، و خاصة سكان بندريغ، فسعى السيد بوشمان إلى معالجة هذا الوضع. فإرسل مير مهنا الضابط المرافق له على رأس سرية من الجنود، لوضع حد لمسألة عاقلة، و لعل هذا الضابط أراد أن يفاجئء الهولنديين، فأعطى الأمر لجنوده بالالتحاق بمراكزهم و للبحارة، بسفنهم الحربية، و لم يسمح لأحد بدخول القصر باستثناء السفير و عددا صغيرا من جنوده، و استقبالهم في الرواق برفقة امين سره و مستشاريه، بينما بقى الخدم مختبئين على جانبي الرواق حاملين السيوف بأيديهم. و بعد انتهاء المقابلة، اصطحب السفير إلى اسوار القصر ليريه المدافع التى نصبت عليها، استعدادا لصد أى اعتداء كان، و كان يتحدث اليه بكل ثقة بالنفس، و بجسارة اعتاد العرب عليها، حتى أن السفير الذى لم ير حصنا مماثلا من قبل، ربت على كتف السيد بوشمان، و قال له بصدق واضح، «ان سمحت لأحد باختلال هذا الحصن، فلتسجديرا بأن تعين حاكما عليه.

و عند ذلك، غادر المكان، و نصح مير مهنا بقبول شروط السيد بوشمان،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٦٦

الذى اقترح ان يمارس الهولنديون التجارة بحرية كاملة مع بلاد فارس و البصرة.

كان السيد بوشمان ابن وزير هولندى وقور. حمله رسائل توصية كثيرة إلى بتافيا، خاصة و انه شديد الذكاء. يقال إنه قبل مغادرته امستردام، ذهب برفقة اصدقائه في السفر، لمقابلة احد العرافين الذى تنبأ له بأحداث مهمة. و الجدير ذكره ان معظم تنبؤاته قد صدقت حتى الآن، و كان يتوقع بالتالى ان يلقى حتفه في الاربعين من عمره، كما قال له العراف. و كانت هذه الفكرة تقض عليه مضجعه، و تحته على الأدمان على الخمر ليساها. غير ان تصرفه هذا اثار عداوة الكثيرين له. حتى من بين مواطنيه. و قصدت ان اذكر لكم هذا المثال، كى احذر الناس من جهم للكشف عن ما يخبئه لهم القدر في هذه الحياة. كان هذا الرجل مثالا للتصدق و الوفاء و شديد التهذيب في تعامله مع الأجانب، و يكره للغاية المنلق و المديح. فمن يقبل دعوته، و يتزل بضيافته، يشعر بالراحة التامة كما لو كان في منزله. و لكن ان تردد في قبول خدماته، غضب منه اشد الغضب. شاهدته مرة يطرد من قصره ضابطين فرنسيين و ربان مركب انكليزى، ترددوا في قبول دعوته للمسيب عنده. فإن طالت المجادلات اكثر مما ينبغى استدعى الحرس ليفتحوا الباب، و يخرجوا الناس من القصر. اما الأجانب الذين لا يحسنون الهولندية، فيحسبون ان الحرس سيزجونهم في السجن، و يفضلون الفرار بأسرع ما يمكن، و بينما يصرخ السيد بوشمان قائلا لهم تصبحون على خير تراهم يسرعون لفتح الباب، و يخرجون منه بسرعة البرق. فلا يتوقفوا عن الركض حتى يصلوا إلى زورقهم.

طالب كريم خان، حاكم بلاد فارس، الهولنديين، بدفع جزية له، عدة مرات وجوبه بالرفض.

غير انه في السنوات الاخيرة نسى امرهم، خاصة و انه على خلاف مع شيوخ الساحل، و منهم مير مهنا والى بندريغ، و سليمان شيخ قبيلة كعب العربية. و الذى اصبح شيئا فشيئا والى جزر شط العرب كلها، و اقليم فارسى شاسع. فحين كان يقول لهم انه سيأتى على رأس جيش كبير، لإرغامهم على دفع الجزيات، كانوا يجيبونه، انهم يؤمنون بقدرته على طردهم من البلاد، و لكن، ان حاول ان يفعل ذلك، اختاروا في مراكزهم حيث لا يستطيع ان يبلح لهم.

في تلك السنة، سار كريم خان على رأس جيش كبير، لمواجهة الشيخ سليمان، و أرسل سرية أخرى على رأس الأمير كنجح خان للتصدى للعبير مهنا. ففضى القائد ثلاثة أشهر في كرمدش.

(كما أشرت آنفا)، باحثا عن حلفاء يملكون اسطولا صغيرا، فقد كان شيوخ المنطقة، الممتدة من رأسى بودستانم إلى خرמוש، يحدون حدو مير مهنا و يرفضون دفع الجزيات. أما سكان، بلدة كتنك المجاورة لكرمدش، فكانوا ينامون كل ليلة على متن سفنهم،

Tale و مصــــــــــــــــباح

حتى يتمكنوا من الرحيل ان فاجأهم الفرس. لم يجد كريم خان من يعتمد عليه سوى الشيخ ناصر، والى بوشهر، لأنه كان يستفيد كثيرا من التبادلات التجارية القائمة بين مدينته ومدينة شيراز، و لا يستطيع معارضة الخان،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ١٦٧

فضلا عن ذلك، كان على خلاف مع مهنا، وقواته البحرية ضعيفة للغاية، و لا يقوى وحده على السيطرة على العدو. فالتجأ الركيل إلى هولنديي خارج، الذين رفضوا التورط في هذه الحرب رفضا باتا. لم يشأ الانكليز ايضا التدخل في هذه القضية ايضا، ولكن وقاحة مير مهنا معهم، حث السيد جيرفيس، على قبول مساعدة الشيخ ناصر، و ارسل المركب الطراد (و هي سفينة حربية انكليزية في بومباي).

فكان من المفترض ان يهاجم الامير كنيح العدو ارضا، بينما تهاجمه مراكب الشيخ ناصر و الطراد الانكليزية بحرا.

خلال هذا الوقت، استطاع مير مهنا ان يتحصن جيدا، فزود بندريغ بالمؤن، بينما نزع معظم السكان إلى خارج. و لما خشي الهولنديون ان يعانوا من نقص في المواد الغذائية مع تزايد عدد السكان، خاصة و ان كريم خان و الشيخ ناصر يحظرون عليهم التبادل التجاري مع بلاد فارس، بحجة انهم ياوون المتمردين، فضلا عن ان اللاجئين قد يحاولون جذب مير مهنا إلى هذه الجزيرة، طردوهم كلهم منها. حينئذ ارسل مير مهنا عائلته و سكان بندريغ إلى جزيرة خويزي الثانية، التي تبعد ٤/٣ الميال عن الخرج، و رغم ان الجميع ظنوا ان الشيخ ناصر قد يبذل جهده، لمنع العدو من التمرکز في هذه الجزيرة، إلا انه لم يحرک ساكنا. فقد كان يخال ان مير مهنا لن يتمكن من مقاومة قوى البر، و انه لن يسر ابدا بوقوعه بين براثن الفرس في بندريغ. و خلال هذا الوقت، كان يأمل ان يضعفوا العدو، حتى يتمكن بعدها من وضع يده على ثروات خويزي كلها، بمساعدة الانكليز له. غير ان هذه الجزيرة تحولت إلى مكان مكنت بالسكان، خلال فترة وجيزة.

في أواخر شهر أيار/ مايو، و بعد ان تمركز مير مهنا في خويزي، وصل الامير كنيح خان إلى بندريغ، حيث انضم إليه الجند، الذين ارسلهم كريم خان، المتمركز في غوبان. و لكن اسطول بوشهر لم يكن مستعدا للانطلاق، مما يعني ان مير مهنا لم يكن يخشى بعد الهجومات البحرية.

غير ان عددا من جنوده، فضلو التخلي عنه، و الالتحاق بالفريق الاقوى؛ دفعه هذا الأمر إلى اليأس؛ فقتل الماشية و اخطى المنازل من السكان، و في الاول من حزيران/ يونيو وصل ١٧ مركبا إلى خويزي، و من بينها ٥ سفن حربية كبيرة .

تشكل جزيرة خويزي الخصبة، منطفة نفوذ مير مهنا الحالية، علما انه كان والى اقليم فارسي شاسع. و رغم انه احضر الكثير من المؤن لرجاله، إلا انه كان ينقصه العلف، و لم ينقذه من هذه الورطة إلا طلب أحد الهولنديين منه ارسال التمتع إلى الخرج. و لما كانت الجزيرة تتألف من تلال

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ١٦٨

رميلة، قليلة الارتفاع؛ لم تق الاكواخ الحفيرة الناس من الحرارة الشديدة التي تسببت بهلاك معظمهم. و كان المير مهنا مصابا بالتهاب في العين، و محبطا من تطور الاحداث، فعهده إلى ضباطه تسلّم زمام الأمور، علما انه قطع أذن البعض، لرفضهم الاذعان لأوامره، أو لاحسانهم الكحول حتى التماثلة. خلال هذا الوقت، علمنا ان كريم خان طرد الشيخ سليمان من بلاده و انه انسحب إلى شط العرب. في ٤ حزيران/ يونيو، خرج اسطول بوشهر العظيم، الذي سيلعب دورا كبيرا في هزيمة مير مهنا. يتألف هذا الاسطول من طراد الانكليز، بقيادة الكابتن برايس، و من سفينة الشيخ ناصر، و ثلاث سفن حربية كبيرة، و اثنتين صغيرتين. كان السيد ناصر، امين سر الانكليز في بوشهر، الذي سافر في صباه مرات عديدة بحرا. يقود السفينة الحربية الكبيرة، و يثبت جدارته كأفضل ضابط حربي بين العرب. و كان ابن الشيخ يقود سفينة والده، و يسعى لاكتساب لقب اميرال بين مواطنيه، غير ان نذالته، شكلت عائقا كبيرا امام الانكليز.

ألقى الاسطول المرعاة قرب الخرج، عند اقتراب المساء. كان مير مهنا قد اعاد خمس سفن كبيرة و أخرى صغيرة إلى المياه بعد أن سحب اسطوله كله. صباح الخامس من حزيران/ يونيو، كانت قد اقلعت كلها باتجاه فارس. لما كان العود قد قدم الوضع، اقتفت سفن الاسطول مراكب مير مهنا. و تبادل الفريقان اطلاق النار، على بعد مسافة كبيرة جدا، حتى ان احدا منهما لم يتضرر، و لو لم تكن واثقين تماما انهما اسطولا متخاصمان، لقلنا انهما يتبادلان اطلاق النار كتمبير عن صدقاتهما. عند غروب الشمس، كانت السفن كلها تتجه جنوبا- شرقا. و في صباح السادس منه، كانت سفن مير مهنا الحربية تنتقل بين الخرج و خويزي، بينما الطراد الانكليزية تفت قرب بندريغ، و مركب الشيخ ناصر على مقربة من مرقا بوشهر. ظن الشيخ الشاب انه سيتمكن من اخضاع العدو من اليوم الاول، و لما أدرك خطأه، عاد ليل على متن احدى السفن الحربية، لإعلام والده بما تره، مؤكدا لمناصره، انه كان قادرا على القضاء على الاسطول المعادي، لو أن الانكليز اخذوا بنصائحهم.

كما و انه أراد ان يأخذ معه سفينة حربية ثالثة، و لكن السيد ناتر، اعترض على ذلك.

كان يقود أحد الريابنة سفينة بوشهر، التي أبحرت نحو الساحل الشرقي لجزيرة الخرج و عادت مساء. و جدهما الكابتن برايس و السيد ناتر، تابعا سيرهما باتجاه العدو، بعد أن تخلى حلفاؤهم عنهم، آمليين لقاء القبض عليه، و لكن هذا الاخير ألقى المرعاة، و راح يطلق صواريخ مدافعه تارة باتجاه الجزيرة و طورا باتجاه السفن الحربية، فارتأى الانكليز العودة ادراجهم. و بعد ظهر ذلك اليوم، القوا المرعاة قرب الخرج، حيث قضا بضعة أيام. و كانت السفينة العربية تنتقل بين بوشهر و الخرج، دون ان تتمكن من الوصول إلى هذه الجزيرة حتى ١٥ حزيران/ يونيو، حيث رست قرب سفن الانكليز.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ١٦٩

لم يكن لمير مهنا مرفأ على جزيرة خويزي. في العاشر منه، هبت عاصفة قوية في المناطق الشمالية- الشرقية، أدت إلى إلحاق اضرار فادحة بالسفن الحربية و توقفها عن العمل. خلال هذا الوقت، لاحظنا في ١٥ منه، ان ثلاث سفن حربية كبيرة و واحدة صغيرة قد غادرت جزيرة خويزي. و أبلغ الكابتن برايس ان سفن بوشهر الحربية قد خطلت و ان مير مهنا ارسل سفنه لمراقبتها.

و في ذلك المساء، كان الوالي الهولندي سعيدا للغاية. فبعد تناوله العشاء، خطر له أن يثير شكوك الفريقين المتقاتلين. فأطلق نيران مدافعه عند منتصف الليل، عندئذ قصد اوربيو خارج القصر، علما ان بعضهم ظن ان مير مهنا أو عرب بوشهر يهاجمون الجزيرة. غير انهم ما لبثوا ان ادركوا ان السيد بوشمان يريد التأكد فحسب من أن الجميع مستعد لتلبية نداء العون عند الحاجة.

كما و انه أطلق النار باتجاه السفن الحربية المليئة بالبارود و منطقة خويزي فكان تصرفه هذا مؤات جدا للاجانب إذ أبحر مركب الانكليز و مركب بوشهر عند الفجر، و بلغا عرض البحر مع شروق الشمس. فحسب مير مهنا انه اثار ثورة أو أن الانكليز قد اختلفوا مع حلفائهم، أو أن الطرفين يبغيان احتلال القصر.

في ١٦ حزيران/ يونيو، اقتربت أربع سفن حربية تابعة لمير مهنا، من سفن الشيخ ناصر الحربية، حتى خطر لنا أن المعركة البحرية بانت محتدمة. و في تلك اللحظة وصل مركب تجارى انكليزي الخرج لنقل الريان و متابعة سيره إلى البصرة. و بعد أن توقف بين السفن المتعادية، وجدت هذه الاخيرة الفرصة مؤاتية للتراجع و الانسحاب.

بعد أن أدرك الكابتن بيرس انه لن يتمكن من هزيمة عرب بوشهر، اقترح على الفرس وضع عدد من الرجال في خدمته حتى يتزو خويزي. فوعده الامير كنيح خان بتحقيق مراده، علما انه وزع رجاله على معسكرات بندريغ. و لكن السيد جيرفيس ارتأى اقتاع الهولنديين بالمشاركة في الموضوع.

و عاد أسطول بوشهر ترافقه سفن ابن الشيخ، الذي انسحب في الليلة الاولى، إلى الخرج، لتحقيق هذه الغاية. غير أن السيد بوشمان رفض مرة أخرى التورط في هذه الحرب رفضا قاطعا.

في ٢٠ حزيران/ يونيو، أبلغ ابن الشيخ ان زورقا صيد، تابعان لمير مهنا، وصلا إلى خارج.

فأعطى الشيخ الشاب الامر بمراقبة الزورقين إلى سفينته، غير ان السفن الحربية الهولندية منعتهم من الابتعاد عن اليابسة. و لما رفضوا الاشتال لهذا الامر، و حاولوا رفع المرعاة، اطلق الهولنديون نيران بنادقهم عليهم. و لكن دون جدوى، فأبلقوا الرالي بالأمر ليعطى الاوامر بإطلاق نيران المدافع عليهم، و بعد ان انفجرت القنبلة الاولى أمامهم، ارتأى ريان المركب الاول أن يعود ادراجه. بينما تابع الثاني طريقه باتجاه سفينة الشيخ.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ١٧٠

في هذه الاثناء، خرج بعض العرب إلى الشاطيء ليروا كيف سيتصرف الهولنديون مع عرب بوشهر. و بعد ان شاهدوا مسلمو الخرج الصيادين المساكين مقتولين في زوارقهم، لغنوا مرتكبي هذا العمل الشنيع و شنوا عرب بوشهر، فأعلن هؤلاء الآخرون الحرب، و حمل عرب الخرج الخناجر و تزودوا بالحجارة (علما انهم ليسوا من الجنود و لا يحملون السيوف)، و شهدنا بالتالي مناوشات في غابة

الغرابية، إلى ان تدخل البحارة الهولنديون، و اطلقوا بنادقهم عشوائيا غير آبهين بإصابة حلفائهم. فوقع عدد كبير من الجرحى، بينما خسر عرب بوشهر سيوفهم و مسدساتهم.

فأعيدت الأموال التي نهب من الصيادين، كما و أن القاتل أعدم ضريبا بالسيف. و أصدر السيد بوشمان الامر باعتقال البحارة الذين حاولوا الفرار بالزوارق. إلى أن سلم الشيخ الشاب الباقين و اعترف عما حصل.

خلال هذا الوقت، وصل إلى الخرج يخت الوكيل الانكليزي في البصرة. و كان الكابتن براسي، الذي ابحر في ٢٢ منه برفقة اسطول الشيخ ناصر، أخذ هذا المركب معه، لنقل الجيوش الفارسية من بندرغ، و مهاجمة خويرى. و عند اقترابهم من هذه الجزيرة، فتحو تيران مدافعهم، فأجابهم مير مهنا بإطلاق قنبلة واحدة فحسب، معتبرا ذلك خشية خلاصه. فانتان من سنهته الحربية كانتا معطلتين بينما اخفت السفن الثلاث الاخرى منذ بضعة أيام، و ظن البعض انه أرسلها في مهمة عاجلة دون ان يعرفوا وجهتها.

صباح ٢٣ منه عاد الاسطول إلى بندرغ. في البداية، عمد الشيخ الشاب إلى الابتعاد عنا و إلقاء مرساته بعيدا عن الجزيرة، غير انه لم يتمكن لاحقا من الابحار عكس الريح. في صباح اليوم التالي، رست السفن كلها امام الخرج. غير ان الجيوش لم تكن في انتظارهم، كان الامير كنج خان قد أكد للكابتن برايس انه سيضع خمسة آلاف رجل في خدمته، بعد انتهاء عيد الحسين (عاشوراء) الذي يمتد من ١٠ إلى ٢٩ حزيران/ يونيو. و أظن انه كان حريا بالانكليز ان لا يضعوا قنهم في هذا القائد الفارسي. إذ كان يفترخ بمآثره العظيمة، التي تقتصر على احتلاله مدينة بندرغ، التي هجرها سكانها و جندوها على حد سواء. في الواقع، كان يترك للانكليز و لشيخ بوشهر عناء معالجة هذا الوضع، رغم ان سفن هذا الاخير كانت تبتمد إلى عرض البحر، عند اقتراب الكابتن برايس من العدو، مما يعنى ان الجمع كان يعتمد على الانكليز الذين وافقوا على مساعدتهم تحت تأثير الوعود. و لكن الكابتن برايس كان يجد ان الحل يتوقف على الهجوم الذي اقترحه، إذ كان يسعى لقطع المؤن عن مير مهنا. فالسفن الحربية تجول بشكل مستمر حول خويرى، و ترافق المراكب التي تعبر من هنا. علاوة عن ذلك، كانت تطلق النار بشكل دائم على الجزيرة. و لكن مير مهنا لم يحاول ابدا ان يرد بالمثل، بينما كان رعاياه يأملون ان يطلق العدو

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ١٧١

تيران مدافعه بغازة، إذ كانوا يحصلون على فلورين مقابل كل قنبلة يعثرون عليها على الشاطئ.

و الجدير ذكره انه ثبت على الجزيرة متاريس رملية يختبئ خلفها السكان احتما من القنابل التي تطلق من البحر. كما و ان مير مهنا بنى متاريس مماثلة أمام السفينتين الحربيين المعطلتين حتى يتمكن التجارون من اصلاحها في أمان. و لما كان قد سمع عن الهجوم المدكور، اقام مرائب للمدفعية في الاسكن التي قد يحاولون مهاجمته منها. و في هذه الاثناء احتفل السكان بالعاشوراء، بحماسة كبيرة، و زادت هذه الجزيرة حيوية، فكان اهل الشيعية يركضون هنا و هناك حاملين الخناجر أو السيوف في ايديهم، سامعين لتمثيل معركة كربلاء، حيث خسر إمامهم الكبير حياته، أما بعضهم الآخر فكان يندق صدره و يبكي موت الحسين و يندبه، حتى حسب الانكليز ان الجزيرة تشهد مآس عظيمة، و لكنهم علموا لاحقا انهم يحتفلون بالعيد بهذه الطريقة.

في ٢٧ منه، علمنا ان سفن مير مهنا البحرية، التي اخفت منذ بعض الوقت، هاجمت سفنا حربية آتية من البحرين و متجهة إلى بوشهر و على متنها اموال و جواهر ثمينة. و وصلت اثنتان منها إلى الخرج لإعلامنا ان السفينة الحربية الكبيرة قد هوجمت من قبل العدو، بينما تمكنتا من النجاة.

في ٢٩ منه، كان اسطول مير مهنا الصغير يبحر باتجاه خويرى برفقة السفينة الحربية التي استولوا عليها.

كان الكابتن برايس و الشيخ الشاب قد ألقيا المرساة في الجهة الشمالية- الشرقية للجزيرة، بينما جال البخت و السفن الحربية الاخرى التي سيسلكها الاسطول العدو، فحسبنا هذه المرة ان المعركة حتمية لكن عندما ادرك بحارة سفينة بوشهر ان احدى السفن التابعة لأسطولهم وقعت في براثن العدو، راحوا يتديون أهلهم و اصداقاهم الذين قتلوا أو أخذوا رهينة على متن هذا المركب، و بدلا من أن يحنهم هذا الامر على مهاجمة العدو، عادوا جميعا إلى السفينة الكبيرة. و لم يحاول رجال مير مهنا اقتفاء أثرهم بل فضلوا التوجه شمالي الجزيرة للتردد بالمؤن، ليعودوا بعدها و يتابعوا هجماتهم. استاء الكابتن برايس من رفض السفن الحربية مواجهة العدو مباشرة. فأرسلها في بداية الامر لإطلاق النار على اليابسة. و لكن مير مهنا كان قد ترك على الشاطئ السفينة الحربية المتضررة، بينما زود سفنه بالمؤن اللازمة لتبحر إلى عرض البحر. و بعد أن حاول اسطول بوشهر للالحاق بها سرا عاد في الليلة نفسها إلى الجزيرة حيث ألقى المرساة.

في ذلك النهار، كان الانكليز على استعداد لتدمير سفن مير مهنا الحربية الثلاث لو لم يتخل عنهم العرب. و لكن الاشفاقا بدأت تظهر بينهم. فقد اعطى الكابتن برايس الأمر لجميع السفن، بعدم الابحار إلا لملاحقة العدو، و العودة فور اتمام المهمة. غير ان العرب ضربوا هذه الأوامر بعرض الحائط، إذ ان كيرباء الشيخ الشاب لا تسمح له بالخضوع لأوامر الأوروبيين. و عندما كان

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ١٧٢

الانكليز يهاجمون العدو، كان يتبع عن اسطولهم مدعيا ان قوة الريح تمنعه من الدنو منه. في اليوم نفسه اصيب مركب الكابتن برايس بقنبلة مصدرها اليابسة، بينما كانت سفن الشيخ في عرض البحر.

و نظرا لهذه الخلافات القائمة بين العرب و الانكليز، جمع السيد نادر الأوروبيين الموزعين على السفن كافة، و غادر برفقتهم المنطقة على يخت البصرة، و على طرادة الكابتن برايس.

في ٢ تموز/ يوليو، خسر الشيخ مركبين، واحد منهما تكسر على الصخور و آخر تم الاستيلاء عليه. في ٩ منه، وصل مركب انكليزي كبير من البنغال متجها إلى البصرة. فعرض عليه الريان ان يقبلى على متن مركبه. غير انه كان يريد الابحار في غضون ساعة، دون ان يترك لى الفرصة لحزم امتعته، كما و اننى افضل السفر على متن مركب صغير، برفقة ريان عربى يعرف جيدا مصاب نهر شط العرب و قراه. و وصل يخت صغير من البصرة، يعلمنا أن عرب قبيلة كعب لا يضرمون الشر للانكليز، غير انه كان يخشى العودة لوحده، بسبب سفن مير مهنا الحربية. فرافقه مركب كبير، و لحقت بهما إلى شط العرب سفن الشيخ سليمان الحربية.

لو رحلت برفقته، لفقدت معداتي كلها و اوراقى، ففى ١٠ منه، شاهدنا على مقربة من الساحل الفارسي عشر سفن حربية، بعضها تابع لمير مهنا، و بعضها الاخر للشيخ سليمان الكمبي. فقد وحّد عددا كريمة خان قواهما البحرية. و بعد ان واجه الكابتن برايس مشاكل جمّة مع الشيخ الشاب، اعلن في ١١ تموز/ يوليو انه يريد العودة في الليلة التالية. و لما كانت المؤن قد نفذت من الشيخ قرر العودة إلى دياره، واضعا بذلك حدا للحرب.

بعد مرور بضعة أشهر، طرد مير مهنا الهولنديين من الخرج، علما انه كان على و شك ان يهزم، لو لم يتخلّ عرب بوشهر عن الكابتن برايس و السيد نادر. وضع الهولنديون منه رجل لحمايتهم، فضلا عن خمسين بحارا على متن سفنهم الحربية. و لكن كان ينقصهم ضباط ماهرون، فالضباط الوحيد الذي كان يرافقهم، مات منذ فترة طويلة. عند عودة السيد بوشمان إلى بتافا، حل محله السيد هوتينغ، الذي احضر معه ضابطا جديدا، لم يتخرط في السلوك العسكري من قبل، و لم يلق حظوة لدى الجنود. و كان من المفترض ان يعاون الوالى الجديد امين سر يدعى السيد تيم و لكنه قتل قبل بضعة ايام من وصول السيد هوتينغ، و لما كان هذا الاخير، يجهل لغة البلاد و عادات عرب الخليج الفارسي، لم يحسن ادارة هذا المنصب الموكل اليه، علما انه لم يحط باشخاص حكما، يستطيع الاعتماد على نصائحهم. لاحظ مير مهنا ذلك، و علم ان السيد بوشمان اقبل من منصبه و ان الكابتن برايس عاد إلى الهنّد، فبدأ يقيم اعمال الهولنديين التجارية. فتحالف هؤلاء الاخرون مع شيخ بوشهر، و عطلوا سفن العدو الحربية، و انزلوا رجالهم في خويرى، في تشرين الاول/ أكتوبر. و لما انفصل الهولنديون عن حلفائهم، فاجاهم مير مهنا بشن هجوم معاكس عليهم.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ١٧٣

فأنزل رجاله في الخرج و استولى على القصر، و بالتالى على الجزيرة كلها و على كمية من البضائع القادمة حديثا من بتافا. فانسحجت الجيوش الفارسية من بندرغ، ليستولى عليها لاحقا مير مهنا.

لمعنى اطلت الحديث عن حرب الخليج العربي، التي شهدت بها بأعينى، و لكننى أردت أن أعلم قرائى، أن الأورويي لا يستطيع الاعتماد على تحالفه مع مسلم ضد مسلم آخر. في هذه المناسبة، كان شيخ بوشهر يتبنى هزيمة مير مهنا، و لكنه لم يعط اوامر صريحة لربانية سفنه. و كان ضباطه يتحاشون دوما المعارك إما خوفا على حياتهم، أو أن أحدهم حاول ان يرشيهم. و في هذه الاثناء، وجد الانكليز، و من بعدهم الهولنديون، أنفسهم لوحدهم.

كان الهولنديون يفخرون كل الفخر بتوليهم الحكم في هذه الجزيرة، و استيلائهم على حصن في الخليج الفارسي، حتى أنهم لن يتقبلوا بسهولة مسألة خسارة الخرج .

تقع مدينة الخرج، التي بناها الهولنديون منذ بضع سنوات، شمالي- شرقي الجزيرة. على ارتفاع ٢٩، ١٥ من القطب. وقد أشرت إلى موقعها ومساحتها في اللوحة XXVIII. تشير الصورة (A) إلى الحصن الذي بناه البارون كينوسن، كان مقر الحاكم، يقع قديماً في هذه البقعة. أما غرفة الضايظ البحري، فتقع خلف الباب المقابل. علاوة على ذلك، تكثر الشقق الفاخرة التي خصصها الحاكم لضيوفه. في الجهتين الشمالية والجنوبية نشاهد متجرين كبيرين، غير انهما لا يتسعان لحمولة المركبين اللذين يصلان سوتيا من بتانفا، لذلك بقيت متاجر أخرى في المدينة. نشاهد في الصورة (B)، حديقة جميلة، بنى عند طرفها، المطبخ أما في الصورة (C)، فجد خاناً للقوافل. كان موظفو البعثة الهولندية في الهند الشرقية، من أرمن و بانياتين يقطنون في الصروح الحجرية الأخرى، أما تجار الخردوات والصيادون، والحرفيون، من عرب و فرس، فيقيمون في أكواخ حفرية، خلف تلك الصروح، و هي تطل على البازار أو سوق التجار. واتخذ البروتستانت والكاثوليك أماكن خاصة بهم، ليمارسوا فيها شعائزهم، دون ان يسمح لهم بتعيين كاهن لهذه الغاية، غير انه غالباً ما كان يحضر راهب كرملي من بوشهر لترؤس قدايسهم. يملك الأرمن خارج البلدة قرب الصورة (D) كنيسة صغيرة، يعلواها جرس، و هذا أمر نادر في هذا البلد؛ احتفظ شعب كافر الأفريقي، الذي كان افراده يباعون كعبيد في الخارج، بديانته الأصلية. فينوا منزلاً لهم قرب الصورة (C) تكريماً لنبينهم العظيم الشيخ فرح. تقضى شعائزهم الدينية بالرقص على وقع الطبول، وغيرها من الآلات الموسيقية الصاخبة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ١٧٤

علاوة عن ذلك، كانوا يعلقون سلسلة من بزور فاكهة المانغا الهندية، حول أرجلهم حتى يضربوها أرضاً، محدثين بذلك ضجة كبيرة، تدل على قوة إيمانهم وهم يقيمون هذه الاحتفالات عند موت احدهم أو سفره، أو زواجه، أو ولادة طفل له ...

ينقسم مسلم هذه الجزيرة إلى سنة و شيعة، و هم يزورون جميعاً مسجد الامير المدفون هنا .

و يقال ان مركبا كان ينقل تجاراً كفاراً، تحطم على الصخور و قضى كل من فيه، بعد أن ابتهل هذا القديس إلى الله، راجياً منه ان يفعل ذلك. و يزعم ايضا، أن الكلاب كانت تخشى الاقتراب من هذه الجزيرة بسببه، و لكن منذ ان استقر الهولنديون فيها، راحت تنتقل فيها على هواها.

ان الفرق الاساسي بين أهل الشيعة و اهل السنة، هو أن هؤلاء الآخرين قلما يكترون لمسألة تسلم عائلة نبيهم الحكيم، و احتفاظها به. فحسب اعتقادهم، شاء الله ان يعين المسلمون أياً بكر و عمر و عثمان خلفاء، و انهم وصلوا إلى الحكم قبل صهر محمد و اولاده من بعده. و لكن أهل الشيعة يكرهون هؤلاء الخلفاء الثلاثة لأنهم استلموا دفة الحكم قبل علي، و لكن الحسين قتل في إحدى المعارك، على يد جيوش «يزيد»، أحد الخلفاء اللاحقين، لأنه رفض الخضوع للحكام، مطالباً بالخلافة لنفسه. و لهذا السبب يحتفلون كل سنة بعيد الحسين لمدة ١٠ أيام احياء لهذه الحادثة. أما في بلاد فارس حيث المذهب الشيعي هو السائد، فترام يتدمجون في هذه المسألة إلى حد بعيد، فيسعون إلى قتل الحسين، أو المسلم، الذي يستحق الخلافة؛ لهذا السبب، يفضل على اتباع المذاهب الأخرى، لزوم منازلهم خلال الاحتفال بهذا العيد. في الخرج، يسمح لهم بممارسة شعائزهم الدينية، دون الاسترسال في حماسهم، فعقد اهل السنة يفوق عددهم، كما و أن حاكمهم هولندي. يحظر الحاكم عليهم البكاء و النحيب بصوت مرتفع في المدينة خلال العيد، حتى لا يزعجوا اتباع الديانات الأخرى. فكانوا يمارسون عاداتهم، خلال الايام التسع الأولى خارج المدينة. و لما كنت اجعل هذه الامور، سمحوا لهم بدخول المدينة في اليوم العاشر (٢٩ تموز/ يوليو)، ليتملوا مآساتهم في الساحة العامة، فقصدهم مسلم الخرج كلهم المكان للفرح عليهم.

فكان من السهل التعرف على أهل السنة و على اهل الشيعة من خلال هيتهم الخارجية، اذ بدا واضحا ان بعض اهل السنة تأثروا بهذه التمثيلية حول ابن نبيهم المسكين، رغم انهم حافظوا على رباطة جأشهم بينما كان أهل الشيعة يضربون صدورهم أو يعبرون عن ألمهم بطريقة أو بأخرى، حتى أن بعضهم كان يبكي بمرارة، و دموعهم تسيل على خدودهم، و هم يصرخون حسين! حسين! اما من يلعب بينهم دور اتباع الخليفة يزيد، تحت امره القائد شمر، فكانوا يركضون شمالاً و يميناً،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ١٧٥

حاملين سيوفهم، و كأنهم يبحثون عن العدو. عندئذ وصل الحسين برفقة عدد من أصدقائه، حيث هوجموا بصورة و حشية قدياً على وجوههم الرأس، و قد صمموا على عدم التضحية بحياتهم بسهولة، فراحوا يدافعون عن انفسهم بسايلة. أما المدعو القاسم بينهم، فقد طرح أرضاً عدة مرات، و كلما حاول ان يمتطي حصانه ثانية، توصلت اليه بناته ان لا يفعل و هنّ يذرفن دموعاً حارة.

و لعب احدهم ايضاً دور العباس، أخو الحسين، الذي تروا له يديه، بينما كان يشرب من النع، و كانت بعض الشخصيات تمتطي الأحصنة، و بعضها الآخر يلعب دوره سيراً على الأقدام؛ اذ لا تتوفر الجياد و الجمال بكثرة في هذه الجزيرة، لأن المجتمع يتألف من طبقة من الفقراء، يرتدون ثياباً رثة. أما الموسيقي التي كانت تصدح في المكان، فكانت تصدح عن أوعية معدنية، تطرق بعضها البعض. أرغم جيش الحسين الصغير العدو على التراجع عدة مرات، إلى أن صرع بعدها الضياظ، الواحد تلو الآخر، أرضاً، و من بينهم الحسين، و أخذوا رهينة، و علقوا بعدها قطعاً خشبية كبيرة يعق اطفال الحسين، و طلبوا من جلاد يرتدي ثياباً مربعة أن يقودهم للمثول أمام العدو الأعظم؛ و احتفظ البعض منهم بكبريائه و شموخه امام الغزاة. عندها، أصدر الامر بقتلهم، و لكن الجلاد كان قد فعل ذلك مسبقاً، مما آثار غضب القائد فأمر بقتله ايضاً.

من المعروف ان الحسين قد قتل في ساحة كربلاء، المجاورة لمدينة بابل القديمة. و كان الخليفة يزيد يقيم فيها في دمشق. و جسد ههنا، جالسا على كرسي اوروبي الطراز، حاملاً سوطاً في يده. استناداً إلى تاريخ المسلمين، راقف سفير الامبراطور اليوناني، افراد عائلة الحسين، الذين بقوا على قيد الحياة للمثول امام يزيد، و قد بدا هنا مرتدياً ملابس اوروبية، و معتمراً قبعة مطرزة بخيوط ذهبية، غير انني لا اظن ان اليونانيين قد اعتمروا يوماً هذا الزي، و لعل أهل الشيعة، كانوا يحاولون مجاملتنا، من خلال هذا التصرف، بغية اثبات الصداقة الوطيدة التي كانت تربط الحسين بالمسيحيين.

فعدنما اقتيد علي بن الحسين، الذي لقب لاحقاً بزین العابدين للمثول امام الخليفة، اقترح عليه هذا الاخير الخضوع له. أو كما يدعى الشيعة، الارتداد عن دينه، فأجابته بالرفض بشموخ و كبرياء فتدخل السفير مرتين ليعده عنه عقوبة الاعدام. و لما اتقيد للمرة الثالثة امام الخليفة، و اتى السفير عليه، امر الخليفة بقتل الاثنين معا . و الجدير ذكره انهم لعبوا ادوار شخصيات متعددة، لم أحفظ أسماءها، أو قصة حياتها.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ١٧٦

سأتلو عليكم في ما يلي مثالا عن تطير سكان هذه المدينة: لسنوات خلت، قتل جندي الضايظ المسؤول عنه بطلق ناري من بندقيته، فأمر الحاكم بقطع يده و يشنقه لاحقاً. و بعد ان برت يده تجمعت حوله بعض النسوة، لجمع دمه المهدود، فرحّ بتنازع حول الرمال التي تمرغت بدمه. و بعد ان قطع رأسه، و فقتّ جميعاً تحت المشنقة ظناً منهّن ان ذلك قد يساعدهنّ على الحمل.

تقع جزيرة الخرج على بعد أربعة أو خمسة أميال من المحيط، و لما كانت قديماً مغطاة كلياً بالمياه، تألفت الجبال و الهضاب الواقعة وسط الجزيرة من الحجارة المرجانية و الصدف. و تكثر هنا بقايا اعمال السكان القدامى التي لا توازي بقايا نقشي رستم أهمية رغم أنها منحوتة في الصخر.

و يقال ان قصة رستم قد حفرت على أحد الجدران. رغم تعرضها للتلف بفعل مرور الزمن، و محاولة بعض السنة المتعصبين تشويهها. و أكثر ما بلغت انتباهنا، بين هذه البقايا، هي قناة للمياه، تنقل غيرها مياه احد الناييع، لرى البساتين المجاورة. تعلو هذه القناة تقرب محفورة في الصخر، شبيهة بالمواقد، و بقتوات المياه في فارس. و الجدير ذكره ان مياه هذه الجزيرة صالحة للاستعمال، مما يعني ان السفن المارة من هنا، تتزود بكمية وافرة منها.

لا تضم هذه الجزيرة الاقرية واحدة. قبل وصول الهولنديين، كان سكان القرية يشتمون بحماية والي بندرغ لهم. و لما راح يسعى كل سيد، في الخليج الفارسي إلى نيل استقلاله، و اعلان الحرب على جاره، عانى سكان الخرج الفقراء الامرين من قراصنة هذه المنطقة، و ارتأوا الهجرة من الجزيرة. فأدى ذلك إلى تحول تلك الاراضى الخصبة إلى مناطق قاحلة، اذ كانت تكثر فيها دوالي العنب، و اشجار التين و البلح و غيرها من الفواكه المثمرة. و رغم ان الألكى ء تتوفر في هذه الجزيرة، إلا إنها تكثر في قاع البحار، و استخراجها يتطلب اموالاً طائلة. و الجدير ذكره انني ارسلت شجيرة مماثلة إلى كونهانغن، فهي خالية من الأوراق، و تغطي الاصداف، حيث تردد الألكى، أغصانها.

عندما فتحت الصدفة الاولى، وجدت لؤلؤة متوسطة الحجم، غير انني لم أستطع فتح الأصداف الأخرى، لأن ذلك يقضي انتزاعها عن

الأغصان.

ترتفع درجات الحرارة في الخرج في فصل الصيف، غير ان الحر ليس شديدا على السواحل المقابلة. ففي شهري حزيران/ يونيو و تموز/ يوليو، هبت الرياح الشمالية- الغربية، المنعشة والجافة ومصدرها الصحراء، وهي تحول الاجسام الصلبة كالزجاج والحديد والخشب، إلى كتل ملتصقة، حتى وإن وضعت في الظل، بينما تزيد برودة المياه خاصة ان وضعت في أوعية فخارية في الهواء الطلق. لكن ان هبت الرياح الجنوبية الشرقية، الآتية من البحر ارتفعت نسبة الرطوبة، خاصة عند رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٧٧

المساء، ويقال ان هذا الندى ليس مضرا ابدا بالصحة، علما اننا كنا ننام في العراء. والجدير ذكره انني اصبت بداء العيون، السائد في هذه المنطقة.

بنى الهولنديون تحت منازلهم، غرفا صيفية، شأنهم في ذلك شأن اعيان بلاد فارس، و بغداد و البصرة. وجدت تحت المنزل الذي اعده لي السيد بوشمان غرفة مجهزة بمروحة لتلطيف الهواء، غير انني نادرا ما كنت استعمل هذا المكان، حتى ابقي معادا على الجو الحار، ولا اظن ان المروحة تخلف كثيرا عن المدفأة، إلا بكونها مفتوحة من احدى الجهتين، ليدخل منها الهواء في الفصل الحار.

#### الرحلة من الخرج إلى البصرة

في ٣١ تموز/ يوليو، غادرت الخرج عند المساء، وبلغت مصب شط العرب بين الاول والثاني من آب/ أغسطس. يطلق العرب هذا الاسم على النهر الكبير الممتد من القرنة، حيث يندمج الفرات، و دجلة إلى الخليج الفارسي. ولا يزال العرب يطلقون على المنطقة الواقعة فوق القرنة، اسم الفرات الاول و الجبل الاخير، المسكورين في الكتاب المقدس. يتقسم شط العرب، قرب البصرة، إلى عدة روافد .

و الملاحظ ان الجزر المحيطة بهذا النهر، تقع على مستوى منخفض جدا. مما يتعدر بالتالي على الأشخاص القادمين بحرا رؤية مصبات الشط، شأنها في ذلك شأن مصبات النيل، وحده الرافد الغربي المعروف بشور حالته، يستعمل احيانا للملاحة، فعاليما ما تجد امام المصب رصيفا عاليا، يتعدر على السفن الكبيرة اجتيازها، خلال ارتفاع نسبة المياه أو عند اكتمال القمر تحدد النهر من الجهتين بساتين النخيل و القرى الصغيرة و المنازل المتناثرة هنا و هناك، أما أكثر القرى تميزا فهي قرية حسان ابن الحنفية، حيث دفن المدعو حسان، شقيق الامير محمد، الذي اتيت على ذكره في سياق حديثي عن الخرج، ويقال انهما ابنا علي و حفيدا محمد. و اظن ان المكان الذي دفن فيه حسان، كان مغطى بالمياه قبل ١١٠٠ عام تقريبا، فالشامطي منخفض جدا في بعض الاماكن، إلى حد ان السكان اضطروا لبناء السدود كي يحوموا بساتينهم من الفيضانات. و نشاهد

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٧٨

في كافة الانحاء، قنوات مخفورة في الأرض تنقل بواسطتها المياه إلى بساتين النخيل، حاملة معها كمية كبيرة من التراب. دمرت قرى جزيرة محزرى منذ بضعة سنوات، حين استولى عليها سليمان، شيخ قبيلة كعب، و نشاهد بالتالي انقراض قرية تعرف بسرأي غير ان أحد التجار الاوروبيين في البصرة أكد لي انها انقراض البصرة، التي بناها الخليفة عمر. و الجدير ذكره ان بعض الرحالة يسمون في مؤلفاتهم البصرة القديمة سراي و لكن مدينة البصرة التي بنيت في عهد الخليفة عمر تقع في مكان آخر. تتألف انقراض محزرى من اسوار من الضلصال مما يثبت انها ليست بقديمة.

لم أستطع ان ادون على خارطة اللوحة XI أسماء كل القرى الواقعة على ضفاف شط العرب، من الخليج الفارسي إلى البصرة، فمعظمها صغير للغاية و لا يستحق ان يوليه عالم الجغرافيا اهتماما.

في مطلق الاحوال، سأتلو عليكم فيما يلي أسماء القرى كلها، رغم ان بعضها قد يبدو للقارىء غريبا بعض الشيء، و الجدير ذكره ان هذه القرى تخضع لحكومة البصرة. رغم انها لا تقع كلها بمحاذاة النهر.

نجد في الجهة الغربية لشط العرب، اقليم دولسر، الذي يضم جوييده و جابده، و كوة ابن خلف، و كوة خليفة، و كوة غانم، و تليها قرى سيحان و زين و قاووس، و كليسيا، و شمرة، و مطووع صغيرة، و مطووع كبيرة، و سلم علي، و حسينات، و بلد جان، و عايمه، و ابو بئع و عبادة، و باب كئكي، و باب العريضة، و باب الطويل، و باب الدباغ و ابو الخصب، و غيبة، و نهر خور، و ابو مغيرة و سليلات، و نهر حياه، و البلد، و يهودي، و حنجة و كوة ابن فايز و علي احمد ابن كوة، و كوه ابن الكومرلي، جزيرة علي، و بلد ابن سبيح، و باب التجدي، و بلد و بوسفان، و حمدان و كربة و بلد السيد، و بلد محزرم، و بلد ياس، و مهيتران، و فجة مصلح و ابو سلال و عويسان، و صراجي، و ميتان، و براصغية، و أم النعاج، و مناوى.

و نجد على جزيرة محزرى، قرى منوحي، خضر ابادان و بارده، و كوب بن اسماعيل، و صوبنج الكبير، و صوبنج الصغير، و حويش، و كوة ابن بليول، و راس الخددة، و مجيلاه، و محزرى و نهر الشيخ و كوة عامر، و كوة المفتي، و كوة عيسى و كوة الملا. و جزيرة المحلة.

تقع القرى التالية على الضفة الشرقية للنهر و تخضع لحكومة البصرة، عبد، سابلة، حفار، قلعة المحزرى، قلعة الحفار، كوة شيخ يعقوب، معمورية، درين، ابو جذيع، خيني، ثمار، حمرانات، دعجي، كوة الزناد، جزيرة البارين، كوة الجوع، تومة، شريعة، كردلان، و كوب الجلابية، و نهر يوسف، و جياسي، و كوت انجانة، و ريان، و حوطه، و شتيان، و نجاجي، و حمامله، و مغارة، و حلاف، و ام الزبط و شلهة، و مصظفاوية، و رميلية، و وام التوت، و كوة الدرجة، و خلط، و سوبج، و مرفا حفيظة، و شاملي.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٧٩

#### ملاحظات حول بوملة الشرفين

#### اشارة

أكد لنا الرحالة الآخرون ان العرب لا يستعملون اسما آخر للبوملة، غير ان العرب، الذين لم يشاهدوا هذه الآلة إلا صدفة على احدى السفن، لا يعرفونها جيدا. علما ان علماءهم لا يستطيعون الاستغناء عنها ابدا، فخلال الصلاة يدبرون وجههم صوب الكعبة، مما يقتضى عليهم ان يتأكدوا من موقع مكة، قبل بناء المساجد، لتحديد المكان الذي يجب ان تبنى فيه القبلة. كان أحد علماء القاهرة يستعمل لهذه الغاية، ابرة مغنطة تعرف بالمغناطيس، غير ان الشيخ المذكور لم يسمع قط، بمسألة انحراف الابرة أو تبدل وجهتها سنويا، فضلا عن ذلك، سمعت العرب يسمون البوملة، ديرة أو بيت الابر. بينما سكان الخليج الفارسي يسومونها قبله نما، أو راش نعمة. ففي هذه البلاد يسمى السكان اقطار العالم استنادا إلى ظهور بعض النجوم أو غروبها، الشمال، «يا الجنوب «زبل» الشرق «متلا الغرب مررب الشمالي شمالي شرقي متلا حسن. الشمالي شمالي غربي مررب حسن، الشمالي شرقي متلا- نعش، الشمالي - غربي- نعش مررب نعش، الشرقي - شمالي - شرقي متلا شمالي، الغربي - شمالي - غربي، مررب سماك، الشرقي جنوبي شرقي متلا عقرب، الجنوبي غربي، مررب عقرب . رغم التسميات التي تستعملها الامم الاخرى لخطوط البوملة لا تثير اهتمام القراء كلها، إلا انني سأتلو عليكم تلك التي يستعملها الهنود و الازراك و سكان ماليزيا، و السياميين.

يطلق الأتراك على الجهة الشمالية اسم بلدز و الجنوبية قبلة، و الشرقية كوندوغروسى و الغربية باطى، و الشمالية-، شرقية فوريان. و الجنوبية- غربية كشملة، و الجنوبية شرقية لودوس و الشمالية غربية قاريل.

يطلق الهنود على البوملة اسم هوك Hokke و يقسمونها إلى ٣٢ خط أو شان Chan ، قطر الواحد منها ١١ ٥٢/٢ ، و لها ١٧ اسما علما ان خطوط الجهة الغربية من خط الطول الاساسي تحمل الاسماء نفسها كخطوط الجهة الشرقية منه.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٨٠

#### من الجهة الشرقية

الشمال درود

الشمالي / الشرقي دورام

الشمالي / شمالي شرقي ساتيفارا

الشمالي / شرقي اوتيني  
الشمالي / شرقي يو- ايس  
الشمالي / شرقي غوسغير  
الشرقي شمالي شرقي شترا  
الشرقي شمالي كاتيسار  
الشرقي سارا اون  
الشرقي جنوبي حاران  
الشرقي جنوبي شرقي لودا  
الجنوبي شرقي شرقي دوجيت هول  
الجنوبي شرقي كاغرا  
الجنوبي شرقي جنوبي توران  
الجنوبي الجنوبي شرقي تشوكي  
الجنوبي شرقي اغاس  
الجنوب تام

#### من الجهة الغربية

الشمال دورو  
الشمال غربي دورام  
الشمالي الشمالي غربي ساتيسار  
الشمالي غربي شمالي اوتيني  
الشمالي غربي يو ايس  
الشمالي غربي غوسغير  
الغربي شمالي غربي شترا  
الغربي شمالي كاتيفارا  
الغربي سارا اون  
الغربي جنوبي حاران  
الغربي جنوبي غربي لودا  
الجنوبي غربي غربي دجيت هول  
الجنوبي غربي كاغرا  
الجنوبي غربي جنوبي توران  
الجنوبي جنوبي غربي تشوكي  
الجنوبي غربي اغاس  
الجنوبي تام

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٨١

أعطاني برتغالي في بومباي، بوضلة سكان ماليزيا و سيام، كان هذا الاخير قد عمل في خدمة الاوربيين و الهنود كريان سفن، كما و انه خدم في جيش امام عمان، بعبارة اخرى بدا لي انسانا جوالا بكل معنى الكلمة، و لكنه كان يحسن استعمال البوصله و يعرف الكثير عنها.

فاستادا لمعلوماته، وضع السياميون ثمانية خطوط على بوصلتهم. يسمونها استنادا للرياح التي تهب في هذه الاطراف، الشمال، واو، الشمال- الشرقي اوترا، الشرق، تيبا نود، الجنوب- شرقي تاب هاو، الجنوب سلانان، الجنوب- غرب، برينا، الغرب، تيان توك، الشمال- غرب، برات لوان، اما سكان ماليزيا، فلا يستعملون الا ثمانية أسماء لهذه الخطوط، الشمال اوتارا، الشمال- شرق تيمور لافاد، الشرق تيمور، الجنوب شرق سلانان دجا، الجنوب، سلانان، الجنوب غرب برادجا، الغرب باراد، و الشمال غرب بارا لافاد. غير ان بوصلتهم تضم ٣٢ خطا، يحمل كل واحد منها تسمية طويلة جدا في لغتهم، مثلا، من الشمال إلى الشرق، اوتارا دي كانان يارون بندي، من الشمال إلى الشمال شرق، اوتارا دو كانان يارون بانجان، و من الشمال شرق إلى الشمال تيمور لافاد يارون دو كوري يارون باندي ..

حاول بعض الرحالة اقناعنا ان العرب البدو يستعملون بالبوصلات خلال رحلاتهم في الصحراء غير انني لم اجد ما يثبت ذلك. فحين رأوني احملها سألوني عن سبب استعمالها له. فأجبتهم انها ساعة تحدد موقع القبلة، اي مدينة مكة، و لهذا السبب، كانوا يقصدون منزلي للاستعلام عن وجهة القبلة كلما ارادوا الصلاة، و الجدير ذكره ان هؤلاء العرب، ينتقلون دوما في الصحراء و يعرفون الطرقات جيدا، و يستعملون ليلا بالنجوم، فلهذا السبب لا يحتاجون للبوصله ابدا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٨٣

#### ملاحظات حول البصرة

##### اشارة

تقع مدينة البصرة على ارتفاع ٣٠، ٣٠ من القطب، على الجهة الغربية لشط العرب، و استنادا للخارطة التي رسمتها في اللوحة XXXIX يبلغ طول سورها حوالي الميل تقريبا، و تكثر فيها بساتين النخيل و حقول القمح، التي تزيد من نقاط التشابه بينها و بين مدينة باب القديمة.

و الجدير ذكره ان هذه المنطقة لا تضم صحورا منقوشة، إلا تلك التي نشاهدها فوق عتبة الجوامع، فمعظم الابنية مصنوعة من الخشب الثمين الذي ينقل من المناطق الاخرى، تغطي الحجارة بعض الاسوار بينما يستعمل الصلصال لبناء المنازل و سور المدينة الكبيرة؛ مما يعني ان انقاض هذه المدينة، لن توازي انقاض مدينة بابل اهمية.

يبلغ عرض الشط في هذه المنطقة، حوالي ربع فرسخ؛ تكثر في البصرة القنوات الصغيرة، المنفرعة من النهر الكبير، و التي تساعد على الحفاظ على نظافة المدينة، غير انني لم ادخل مدينة اكثر قذارة من هذه إذ يستعمل معظم الناس المياه الملونة في مطابخهم، كما و انهم ينظفون بها شوارعهم غير المرصوفة.

تضم المدينة خمسة ابواب (١) دراوزه أو باب الرباط (٢) دراوزه بغداد (٣) دراوزه الزبير (٤) دراوزه الصراحي (٥) دراوزه المجموعة تقع قرب الصورة ٦ من اللوحة، دار التقيب باشا، و قرب الصورة ٧ دار المفتي، و قرب الصورة ٨، ثكنة الاكلتيز، و قرب الصورة ٩ ثكنة الفرنسيين. و نشاهد في المدينة مسجدا له منارتين، و ثمانية آخرين لكل واحد منها منارة واحدة، و هي تعرف بالجوامع، و يقال ان هذه المدينة تضم ٤٠ مسجدا صغيرا. و لكنني اخالها اقرب إلى المصلى منها إلى الجامع.

لما كانت البصرة مدينة حديثة، سألتو عليكم في ما يلي اسماها احيائها كافة، خاصة و اننا قد لا نحظى ابدا بترجمة اقية لوصف هذه المنطقة، مع الاشارة إلى تسمياتها القديمة، مناخ، مشارق، دنانيك، ابن عيد، عبايه، ميدان العيد، الدوغ، ام البلايل، ام البرازين، شيخ يادي، شيخ قنبر، شيخ جوهر، ام الطوق، قبلة، شيخ عمر، مدبنة، نهر النبات، شيخ حبيب، جسر اللوح، مكول، معدان، محمد تختة حمام كوت، محلة القاضى، محلة العرصة، محلة سيد رمضان، محلة الافغان، حكااله، حداده، خليقية، شريباتية، محلة اليهود، محلة مرجانة، حسن داهه، كوازه، بستان قصب، كوارخين،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٨٤



عز الدين، محلة خان زكار، القطانة، سيف، حوش الباشا، جسر الغريان، المجموعة، مقبرة، صمغونية، محمد جواد، عروة، غمقة، بحازنه، جسر العبيد، بلد السياس، الدوغ، حلل، مقام، محلة الجديده، نظرآن، صبغة، معصرة، الخضر، محلة الساعي، مناوى، بديهة، عباس، حصير جيه، فرسي صيمر، خضراوية، فتالة، كوثر الكرملی، جسر الحوز، محصصه، خشابيه.

لم تعرف البصرة الأدهار إلا في عهد المدعو سياب، الذي كان نبيلاً من البلاد، استلم دفة الحكم من الأتراك، كان هذا الأخير، يشجع الأجانب على الإقامة في هذه المدينة، وتأسيس مشاريع تجارية فيها، خاصة وأن موقعها موات للغاية. استلم ابنه على باشا الحكم من بعده، ليخلفه في ما بعد حسين باشا، ابن على باشا. وكانوا جميعاً يعتبرون البصرة، والقرى التابعة لها، ملكاً لهم. فحول على «القرنة» إلى مكان يلتقي فيه الفرات ودجلة، وإلى حدود حصينة، عززها حسين ببناء سور ثان لها. ووسع هذا الأخير مدينة البصرة، إذ بلغ السور الذي بناه نهر شط العرب، رغم بعد المدينة عنه، وساهم بالتالي في رفع عدد ساكني القاهكة وحقول القمح. كما وأنه حصن قرية مناوى، واستولى على القصر وأقام فيه. علاوة على ذلك، بنى جامعاً في البصرة، ومنع المسيحيين حرية ممارسة دينهم، حتى يفرغهم بالبقاء في هذه المدينة، والمساهمة في ازدهار التبادلات التجارية فيها. فعظم شأن حسين باشا بعد أن وضع يده على قرى عديدة كانت تابعة لحاكم بغداد، وبعد أن صد الأتراك الذين حاولوا مرة اقتحام البصرة، ولما تعذر عليه إخضاع الباشوات المجاورين لنفوذه، أرسل أحد أفراد عائلته إلى القسطنطينية، حاملاً هدايا ثمينة للسلطان، فوعده بأن يدفع له سنويًا مبلغاً من المال، شرط أن يسلمه دفة الحكم، فوافق السلطان على إرسال جيش صغير لمساعدته على بسط نفوذه، علماً أنها الطريقة الأسهل لضم البصرة لاحقاً إلى امبراطوريته. وبدلاً من أن يقف سكان البصرة والقرى المجاورة إلى جانب حسين باشا، أرتأوا الالتفاف حول عدوه الجديد.

أدرك أن قواه العسكرية قد ضعفت، وجد نفسه مرغماً على الانغلاق على نفسه في مقره؛ وبعد أن تضاعفت قوة عدوه في المدينة، فضل الانسحاب إلى مناوى، ومنها إلى بلاد فارس، بعد مرور بضعة سنوات، احتل الفرس البصرة، ولكنهم ما لبثوا أن طردوا منها على يد الأتراك، ومنذ ذلك الحين والسلطان يعين باشا من باشاواته حاكماً على المدينة. ولكن حسان باشا، والد احمد باشا الشهير، استغل القبائل العربية الكبيرة لمهاجمة الباشوات الجدد في الطريق وقتلهم أو ارغامهم على العودة إلى حلب.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٨٥

وبعد أن رفض الجميع تسلّم هذه المهمة، عرض حسان باشا دفع الضريبة العادية، لضم هذه المنطقة إلى بغداد وخضوعها لنفوذه. خلال الفترة التي كان السلطان يرسل فيها الباشوات من القسطنطينية إلى البصرة، كان يعين فيها رباتا من الاعيان، على رأس ٥٠ أو ٦٠ سفينة حربية، يمنع وصول سفن القراصنة إلى الفرات ودجلة والخليج العربي برتمه. وفي سبيل اعالة هذا الاسطول خصصت له ايرادات المناطق الكبيرة في بغداد والبصرة. وبعد ان بسط باشا بغداد نفوذه، وضع يده على ايرادات المناطق المخصصة للربان، فتعجّل السلطان الباشا حريسة تسهيل الاعمال التجارية بحرا. وعين الربان موظفاً عنده، فعينه حاكماً على مناوى وأوقف سفنه الحربية على الشاطئ معطياً الأمر لقادتها بإطلاق نيران مدافعهم على الحاكم، ان مر في مركبه غير ان هذه السفن ليست صلبة البناء، علماً أنها مظلية بالزفت الذي يستورد من مدينة هيت Het الواقعة على ضفاف الفرات على بعد بضعة أيام شمالي الحلة.

ان السفن الصغيرة، التي تنتقل بين بغداد والحلة والبصرة، ليست أكثر صلابة، وان الزفت يتلام مع المياه الحلوّة، ولكن يقال انه يذوب في المياه المالحة، ولهذا السبب لُن تخاطر سفر الربان الحربية بالبحار في الخليج الفارسي. ورغم تكاثر عمليات القرصنة في الفرات ودجلة، قلّما يوليها الربان اهتماماً، غير انه يستدعي الضابط الاعلى، والدفتدار والآجال، وشيخ البشدر والقاضي، إلى الديوان، ليعالج المسائل الطارئة.

الدفتدار هو أمين الخزنة، ويخضع في المدن الاخرى لأوامر السلطان مباشرة. أما في البصرة، فهو مجرد موظف في خدمة باشا بغداد يعين سلطان القسطنطينية القاضي أو يقبله من منصبه، ليختار بديلاً عنه، ويقال ان معظم القضاة يشترن شهادتهم (أو فرمان) من غيرهم و يقبسون اسمه ايضاً. لهذا السبب لا يسعنا القول ان رجلاً زهباً شغل يوماً هذا المنصب، وفي انتظار تعيين قاضٍ جديد، يحل نائبه محله، علماً ان هذا الأخير يجيد العربية ويعرف البلاد جيداً، فالقاضي الآتي من القسطنطينية لا يحسن إلا التركية بينما سكان البصرة لا يتكلمون الا العربية.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٨٦

يعرف نبلاء البلاد بالأجلاء، أما أكثرهم اجلالاً فكان في تلك الحقبة الشيخ درويش القوسي، من سلالة عالم شهير، يدعى قوس، بنى جامعاً جميلاً في هذه المدينة.

ينتمي المفتي الحنفي إلى هذه الطبقة من النبلاء، ويقال ان هذا المنصب لا يشغله إلا العلماء.

غير ان ذلك ليس ضرورياً، إذ قد يحل محله نائباً أو وكيلاً من ناحية أخرى تخضع لسلطة نقيب الشرفاء، أو رئيس فقهاء محمد كهلهم، المقيمين في هذه المنطقة. لسنوات خلت، اختار سليمان باشا احد الاعيان، كملت شاقني، فخصه له رئيس الاجل، المدعو سعيد درويش ابن سعيد طالب، الذي كان اجدهه يرافقون قديماً القوافل إلى حلب، وهو يشغل اليوم منصب قائد القوافل.

علماً انه الأكثر شهرة بين الشيوخ. الذين تمر قوافلهم في هذه المنطقة و يدفون الجزية له.

يتمتع الاجل بامتيازات كثيرة، علاوة عن أخذ الحاكم بنصائحهم قبل اقدمه على اي عمل كان. فهم لا يدفون شيئاً من أرباح أرضهم، خلافاً للرعيا الآخرين الذين يرغمون على دفع الجزى على بساين الملح، مع العلم انها تشكل مصدر ثروتهم. ويحق لهم ايضاً معاقبة الفلاحين، رغم انهم ليسوا عبيداً عندهم. يخضع رجال الدين، ومن بينهم ناظر المدرسة والناسخ، لسلطة المفتي القضائية، كما يخضع الاسياد والشرفاء لسلطة نقيب الشرفاء القضائية، وهما يملكان سجونا خاصة بهما، يزجان فيها الرعايا الذين يخالفون القانون. عندما يبني احد الاعيان جامعاً، تحتفظ ذريته بحق ادارة هذا الجامع وصيانته، مع اعلام الحاكم بذلك. وتعين رجال الدين في الجامع، لكن ان تفتي عائلة باتي المسجد، أو يطلب احدهم بحقه في هذا الملك، حتى يتسلم المفتي الايرادات والمصاريف ويتحول بالتالي إلى متول. قال لي معلم اللغة، الذي كان ناسخاً ايضاً، ان من يقدم التقارير ومن يراجعها من بعده، يجتاز اموالاً طائلة إذ يتقاسم جزءاً من الأرباح. سمعت المتولين يشكون من هذا الامر في مدن تركية أخرى، حيث الجوامع تهدمت جزئياً، إذ من الصعب صيانة الجوامع ان لم تلق دوماً مساعدات اضافية.

يتمتع الانكشاريون في البصرة كما في المدن التركية الاخرى، بامتيازات كثيرة، منها عدم معاقبتهم أو جسيهم عند ارتكابهم الجرائم، كبار ضباطهم يلازمون القرنة برفقة قادتهم، بينما يعين صغار الضباط في فرقهم، عناصر منحلّة، ممن يمارسون اللصوصية وغيرها من الأعمال المخلة بالأمن، والتي تسمى للحاكم ولرعاياه من الطبقة الكادحة. علاوة عن ذلك، لا يتخلى المتطوع عن عمله، ويتقاضى راتباً شهرياً، ومبلغاً آخر اضافياً لسهره على الأمن العام. غير انني لا أخال الانكشاري بغالى إلى هذا الحد إلا في غياب باشا بغداد. عند وفاة سليمان باشا، لم يستطع الحاكم منع الانكشاريين، من مهاجمة منازل المسيحيين، والمسلمين الذين لم يطلبوا الحماية منهم. وغالباً ما يشتم اعضاء احدى الفرق، المسلمين أو اتباع الديانات الاخرى، الذي طلبوا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٨٧

الحماية من فرقة أخرى، وأدى ذلك إلى نشوب خلاف بين الانكشاريين، و اندلاع معارك حادة بينهم.

وغالباً ما كان يسقط في اليوم الواحد من ٨ إلى ١٢ قتيلاً، من بينهم اشخاص لا علاقة لهم باطلا بالانكشاريين. وحت هذا الامر الناس على الانخراط في فرقهم، فتأدي لوقوعهم ضحية هزلة الحائلة. ولهذا السبب، عرف مسلمو البصرة، جميعاً بالانكشاريين. ولما كان الأجل والانكشاريون يتمتعون بامتيازات كثيرة، يخيل البنا ان الحاكم لا يتمتع بصلاحيات عالية، لكن ان كان بينها استطاع الحفاظ على نفوذه.

غالباً ما يشن الاعيان الحرب على بعضهم البعض، فينهون القرى التابعة لنفوذه واحدهم الآخر، ان أراد الحاكم ان يدحر أحد معارضيه، إما علناً في الديوان أو في أي مكان آخر، يصير عليه حتى يغالي في تصرفاته. ولكن الأتراك يعظون شأن اخطاء الأترياء أكثر من الجرائم التي قد يرتكبها الفقراء. فيشتقون الفاعل ويصادرون جزءاً من أمواله.

ولا يسع ذوو المشنوق إلا التذمر سرا من طغيان الأتراك. قدم الحاج يوسف اموالاً طائلة لعلي باشا، الذي منحه في المقابل الحق في ابتزاز مبالغ كبيرة من التجار الاخرين، والادعاء انها لحساب الآخر. فأقبل عندئذ حاكم بغداد احمد كيتا وعين مكانه حاكماً آخر. ولكنه ما لبث ان أعيد إلى منصبه، حيث بذل قصارى جهده لكسب صداقة الرجل الذي تسبب في الماضي في اقالته. ولكن يوسف لم يضع فيه نفته، وفضل ان يعين مراقبتين خاصين، لإغاثنه عندما تدعو الحاجة. غير انه اضطر في أحد الأيام للتعامل مع التفكشي باشا

(او قائد فيلق من المشاة) الذي كان يكن له صداقة عميقة. فأعطاه هذا الاخير الامر الصادر بشنقه. فتم اعداده في الحال، و رمت جنه هذا التاجر الذي نال حظوة لدى الباشا، و تمتع بحماية رجال الدين له، خاصة بعد أن حجج إلى مكة، في مزبلة، و استطاع احمد باشا كخيا جمع الاثبات ضد الحاج يوسف، و تمييز تصرفاته للشعب، أما على باشا، فكان يشعر بسرور عظيم، خاصة و انه استعاد المشى الف قرش التي كان يدين بها للحج يوسف، فضلا عن استيلائه على جزء كبير من أموال هذا المسكين.

ابتز الحاكم نفسه مبلغا كبيرا من المال، من تاجر أرمني، لإقدامه على خطوة نالت اعجاب حكام أوروبا كلهم. و إليكم ما جرى: بنى الأرمني على حسابه جسرا من الجبارة، فوق إحدى القنوات المجاورة للمدينة، و رسم الطريق العام، الذي كان يتعدر سلوكه في الشتاء نظرا لإهمال

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٨٨

الحكومة له. و كان قد طلب مسبقا الأذن من الحكومة، و لما لم يتلق فرماتا، دفع ثمنا غاليا ثمن تصرفاته. ففي تركيا، غالبا ما يجبر الاشخاص الذين يشيدون اصرحة جميلة، على اقراض الحكومة مبلغا من المال، دون ان تعيده لهم لاحقا. فلا عجب إذن ان لم يظهر الاثرياء من الأتراك كرما بالغا. من جهة أخرى، يتميز جهاز الشرطة في البصرة بقعالية: فرغم ان اكوام الفصح لا تغطي بالعصائر في السوق، لم نسمع ابدا عن عملية سرقة من أي نوع كانت.

من الصعب الحصول على رقم محدد لعدد السكان في بلاد الشرق، خاصة و انهم لا يضعون فيها الواثق بالولادات و الوفيات. فان حاولنا الاستعلام عن الموضوع من السكان، اجابوا ان عددهم يبلغ الملايين. غير ان عدد السكان ليس كبيرا جدا، كما يسرى الاعتقاد في أوروبا، فتم البصرة حوالي ٧٠ محلة أو حي. بعضها يضم ٣٠٠ أو ٤٠٠ منزلا. و بعضها الآخر ١٠٠ أو ٢٠٠ منزلا أما المجال الأخرى، فتمضم بستين نخيل و مقابر كبيرة. أكد لي سكان المدينة، ان كل محلة تضم حوالي ١٠٠ منزل فان حسبنا ان كل منزل يحوى سبعة أشخاص، بلغ عدد السكان الاجمالي اكثر من ٥٠ ألفا. لكن إن حاولنا احصاء السكان لما تجاوز عددهم الاربعين الالف. يعتبر المذهب السني المذهب المهيمن في هذه المدينة. خلال الحرب الأهلية في بلاد فارس، وصل عدد كبير من اهل الشيعة إلى المدينة، و لما كان السنة يكرهون هؤلاء الاخرين شديد الكره، عرف معظم الشيعة بالسنة. و يبدو ان مسلمي هذه المنطقة لا يدققون كثيرا في مسألة الواجبات الدينية. و لا يتوانى الاثرياء عن الصلاة خمس مرات في النهار، كي لا تنتهمهم الحكومة بإهمال دينهم، ان لم تجد تهمة أخرى توجهها إليهم. و الجدير ذكره انه قلما يههما أمر ممارسة الفقير واجباته الدينية أو اهمالها لها. من بين مسيحي الشرق كلهم، تعد رعية الأرمن الأكثر عددا، علما ان معظم افرادها اتوا إلى هنا من بلاد فارس. أما عدد الصابئة فضئيل جدا، و لا أحد يعرفهم اهتماما. اعطاني احد الحدادين نسخة عن ابيديتهم (اللوحة II قرب ط) بينهم نجد في البصرة ايضا عائلات بانيانية و هندية. و من بين الامم الاوروبية كلها، يمارس الانكليز تجارة الجوخ الأوروبي، و النسيج النغالي و الالقمشة على انواعها من سورات. يقيم في هذه المدينة مستشار انكليزي من بومباي، يرافقه عدد من رجال الدين، اما المستشار الفرنسي فقد رحل عنها بعد ان توقفت حكومته عن إرسال أجر محترم له. و الجدير ذكره ان الهولنديين لم يقيموا ابدا في هذه المدينة، علما ان التجار يجلون التوابل و العقاقير من خارج نجد في البصرة عددا كبيرا من الايطاليين، الذين يمارسون الاعمال التجارية عبر حلب باتجاه البندقية و ليون. فضلا عن كاهنين كاثوليكين رومانين، بنا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٨٩

كنيسة صغيرة، شبيهة بتلك التي شيدت في ظل حكومة حسين باشا، و التي انهارت كليا.

تمتد الصحراء الكبيرة من سفح اسوار البصرة، و تمتاز تربة هذه البقعة بخصوصيتها شأنها شأن التربة التي تغطي ضفتي النهر، حيث تكثر بساتين النخيل، و حقول الأرز. و لا ينقص في هذه البقعة، سوى قنوات المياه، التي نشاهد مثلا عنها جنوبي غربي المدينة. ثلاثين أو اربعين سنة خلت، كانت تقع في هذه المنطقة قرية كبيرة، لم يتبق منها اليوم الا صرحا صغيرا يعل صريح ولي مسلم و يغطي المنطقة الممتدة إلى الزبير، الملح الذي يستعمل في الأكل، خاصة في البقع التي بنيت فيها سدود صغيرة، لجمع مياه الاطوار و تبخيرها.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٩٠

#### موقع مدينة البصرة القديمة

تقع مدينة البصرة القديمة، التي اشتهرت في ظل حكم الخلفاء الاولين، على بعد ميلين جنوبي غربي المدينة، التي تحمل اليوم هذا الاسم، و في منطقة رملية شاسعة، و نجد هنا بقايا سور من اسوار المدينة، يبلغ محيطه فرسخين، فضلا عن اسوار جامعي على اليرمكي و سفران، و أضرحة الحسن البصري الشهير، و الزبير، و ابن علوان و طلحة، و ابن عبيد، و غيرهم من الحكماء الذين دفنوا في البصرة. يكره اهل الشيعة هؤلاء العرب الشهيرين، لأنهم خرقوا عهد الوفاء مع امامهم الكبير، و حاربوه من اجل عائشة. أما اهل السنة، فيكون لهم كل احترام، لأنهم تطوعوا كضباط في جيش محمد، و ندموا كثيرا، قبل وفاتهم، لمقاومتهم على، صهر محمد، و الخلفاء الذين جاؤوا من بعده. تعلق أضرحة هؤلاء العرب منازل حجرية شبيهة بتلك التي تعلق أضرحة الأولياء الاخرين، و يقال ان الفرس دمروا هذه المنازل، زمن الهجرة (١١٥٦)، حين حاصر نادر شاه مدينة البصرة التي تعرفها اليوم.

ولكن اهل السنة اعادوا بناها بعد انسحاب العدو من المدينة. و مما لا شك فيه ان العجائب التالية، حصلت في ما بعد، استنادا للكلام رجل دين مسلم من الزبير، اضاع رجل حمارة خلال سفره من البصرة الجديدة إلى البصرة القديمة، فشكا همه لبعض العمال قرب ضريح طلحة، علما انه جاب الصحراء كلها دون ان يتمكن من العثور على حمارة. فحزنوا الأمر. وراحوا يشاركون الصلاة، و الدعاء، حتى يعيد الولي له حمارة. عندئذ، رأوه أتيا صوبهم بعجلة، و كان احدهم يلحق به حاملا سوطا في يده. انهارت القبة الجديدة، التي بنيت فوق ضريح الحسن البصري، للمرة الثانية. فظهر اثر ذلك الولي لأحدهم في الحلم و أكد له انه لا يريد قبة فوق ضريحه، بل برج صغراء، على أن يوضع رأسه قرب الجدار، حتى يتمكن الناس من الدوران حول الضريح . دفن الزبير قرب جامع جميل تعلوه مئذنة. و أكد لي امام هذا الجامع، الذي اجترى هذه القصص كلها، ان الزبير رد عليه مرة التحية. فسألت الشيوخ الاخرين، ان رد عليهم الأولياء السلام، فأجابوني بتواضع و خشوع. إنهم خطأ و لا يستحقون هذه التعمه. و رأني الامام الشجرة الذي فقد تحنها الزبير حياته، استادا لتاريخ العرب. و على مقربة من هذه المدينة القديمة نجد ضريح المدعو عبد

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٩١

الله بن عباس، الذي كان والده يواب محمد .

لما كان المسلمون يفضلون ان يدفنوا قرب اوليائهم، تنقل جثث الموتى من البصرة الجديدة إلى البصرة القديمة. كانت المدينة مهدمة كليا، إلى ان اعيد بناء بعض المنازل قرب ضريح الزبير، منذ ٣٠ أو ٤٠ سنة، و منذ ذلك الوقت عرفت البصرة القديمة بالزبير منذ ثمانى أو عشر سنوات، تركز في هذه المدينة عدد كبير من السنة، الذين طردوا من نجد على يد عبد الوهاب مؤسس إحدى الديانات الجديدة، و لهذا السبب تعد الزبير مدينة صغيرة، خاصة بعد ان بنى فيها مسجد جديد علاوة عن ذلك الذي تحدثت عنه آنفا.

لم استطع ان أعرف في الزبير متى دمرت البصرة القديمة و في أي ظرف. يقول الامام الذي تحدثت عنه اعلاه، ان عاصفة قوية اقتلعت المنازل و الجوامع، فأعاد السكان بناء البصرة الجديدة. لكن يبدو لي ان انحطاط هذه المدينة كان ثمره سوء حكم المسلمين، الذي دفع بسكان بلاد الكلدان إلى التزوج منها. نشاهد في البصرة القديمة، مجرى نهر جاف، أو قناة مجوفة، يسميها العرب جاري زاد أو حانازاد. كانت مياه هذا النهر تنبع من بلدة هيت Het، التي تقع على بعد ستة أيام شمالي الحلة، و من الفرات في الكوفة، ليصب على بعد ثلاثة أميال في خليج غورابديلا (اللوحة XL). يقول العرب ان ضفتي القناة كانتا محدبتين بالأشجار، و ان مياهها ساهمت في تحويل هذه الأرض إلى بقعة خصبة. و لكن مياه القناة جفت منذ عدة سنوات و تحول هذا البلد الخصب إلى ارض قاحلة لا يقطن فيها الا العرب البدو. فلا عجب إذن، ان يتزح اهل البصرة عنها، عندما جفت مياه النهر، كما و ان سكان القرى المجاورة انتقلوا إلى ضفاف الفرات، حيث المياه غزيرة جدا .

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ١٩٢

استنادا إلى تاريخ كربلاء، وقعت المعركة الشهيرة بين علي و عائشة، على مقربة من البصرة، و لكن السكان الذين لم يحددوا ساحة المعركة بدقة. رغم انهم يدعون انها وقعت في وادي سعيد سبان. بين البصرة و جبل سنام، حيث نجد قرية كويده، التي يسميها العرب اليوم خريبة.

تميز البصرة بتنوع اجناس النمر التي تنمو فيها. و يقسمها العرب إلى نوعين نوع بارد، مفيد للصحة و نوع حار مضر بها. و هذا يعنى ان

النوع البارد طعمه لذيق رغم ان سعوه مرتفع بعض الشيء، بينما النوع الحار، متوفر بكميات كبيرة، ويشكل غذاء الطبقة الفقيرة الاساسي. أما التمر الحنطاوي فهو الافضل بين كافة الانواع، إذ لا يضر أبدا بالمعدة، حتى وان تناولوا كمية كبيرة منه.

أما التمر الزاهدي، الذي يعد من أشد أنواع التمر في البصرة، فهو يرمى للمواشى أو يصنع منه شرابا مسكرا. وحدهم القراء الذين لا يستطيعون تأمين طعام أفضل، يتناولون هذا النوع من التمر غير ان سكان بغداد لا يحفظون هذا النوع من التمر، لأنه ينمو بكثرة في ارضهم، واذكر من أنواع التمر الأخرى التي تنمو في هذه المنطقة، الحلاوي و الاستعمران و الشكر، و الجوزي، و الدبري و الخضاب، و الخضراوي و الاشرصى و البريم، و المكنوم (بعضه أحمر و بعضه أصفر) القطار، الاواوي، تمر بنت السبع، العنزي، اصابع العروس الدقل (بعضه احمر و بعضه اصفر)، الجوزي الاشكر، الشبيص، المعضاد، المبكي، القصب، الابراهيمى. يستعمل هذا التمر لصنع الدبس، الذي يأكله العرب مع الخبز، و الجديري ذكره ان الحلاوي هو الافضل لصنع هذا الشراب المسكر. اما لب التمر فيرمى للماشية. قرأت في أحد الكتب ان عرب البصرة، يزرعون في الارض لب التمر بشكل هرمي، و لا.أظن ان احدا يلجأ اليوم إلى هذه الطريقة لزراعة الأشجار. تكثر في هذه المنطقة بساكن الفاكهة، علما انها تعانى من نقص فى الخشب.

فى الفصل الحار، ترتفع الحرارة فى هذه المنطقة ارتفاعا شديدا، حتى أن البعض يقعون ارضا فى الشارع من شدة الحر، كما و ان الهواء ليس منعشا نظرا للمستنقعات التي تحيط بالمكان، و الاقدار المتناثرة فى المدينة نفسها. خلال شهر آب/ أغسطس، هبت الرياح الجنوبية الشرقية لمدة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ١٩٣

خمسمة أو ستة أيام بينما استمرت الرياح الشمالية أو الشمالية الغربية خلال الايام الاخرى، يتأثر الجسم البشرى بالحر عند هبوب الرياح الجنوبية الشرقية. لأنه يتصبب حينها عرقا. أما فى النصف الاخير من شهر تشرين الاول/ أكتوبر، فكانت الرياح شديدة القلب، ففى السابع من تشرين الاول/ أكتوبر، ظهرت بعض الغيوم، التي تكاثرت فى ٢٧ منه، حاملة معها فصل الشتاء.

تقيم قبيلة كعب العربية، التي تحدثت عنها فى وصف شبه الجزيرة العربية شرقى شط العرب، و تولى زمام الامور فى المنطقة، و لا يقيم افرادها فى الخيم، كما يفعل عرب الصحراء بل فى مدن و قرى، شأنهم شأن عرب شرقى الخليج الفارسى، كان الشيخ سليمان، الحاكم الحالي للمنطقة، سيدا على مقاطعة صغيرة، تخضع لنفوذ بلاد فارس، لكن خلال الحرب الاهلية، استطاع ان يضع يده على مقاطعات صغيرة اخرى. و بعد ان اجتاحت منطقة البصرة، تابع تقدمه باتجاه الشط ليبلغ منطقة دواس، على الجهة الغربية للنهر؛ بعبارة اخرى، استطاع بسط نفوذه على اقليم فارسى شاسع، و على جزر و مصبات شط العرب، التي كانت خاضعة فى السابق لحكومة البصرة. ولكنه لم يدفع شيئا لكريم خان لأنه كان يقيم فى منطقة بعيدة جدا عنه. و لما طالبه هذا الاخير بدفع الجزية، ادعى انه لا يملك مالا، لأن الأتراك، يبتزونه؛ و لما طالبه باشا بغداد بالمال، تدمر ايضا من القرس: فقد كان يرشو أعيان مدينة البصرة، حتى يعضوا الطرف عن استيلائه على القرى، الواحدة تلو الاخرى. من جهته، رفض الحاكم شن الحرب على سليمان، خاصة و ان هذا يدفع له مبالغ طائلة، و لا اخاله قد يدفع قرشا واحدا للحاكم الجديد ان لم يسلم له بعض القرى أو يعلن الحرب عليه.

شن باشاوات بغداد حملة عليه، فارتأى دفع الجزى و اعلان نفسه تابعاً للأتراك أو رشوة الشيخ العرب، و إلهاء الباشا. و اتخذ قبان (مدينة صغيرة على الساحل الشرقى للشط) مقرا له، و بنى سدا عاليا على الساحل الاخر، لتحويل مياه النهر و جعلها صالحة للملاحة. العام ١٧٦٥، كان يملك عشر سفن حربية و ٧٠ مركبا صغيرا للاستيراد و التصدير. فى المقابل، كان نفوذ حاكم البصرة يتقلص من سنة إلى أخرى؛ و خلال اقامتى فى تلك المنطقة، كان عاجزا عن مواجهة هذا الشيخ الصغير.

قرر كريم خان الذهاب بنفسه لجلب جزية الشيخ سليمان، فدخل تلك السنة، على رأس جيش كبير، إلى مناطق نفوذه، دون ان يحقق أى انتصار يذكر، على غرار قائده الأمر كنج خان، خلال مواجهته مير مهنا. كان سليمان ينتقل من جزيرة إلى أخرى، على متن سفنه مخفيا وراه مدنا و قرى خالية كليا. و كان من الصعب على كريم خان الوصول إلى الجزر، و بعد ان بذل جهدا كبيرا، تمكن من الوصول إلى احداهما و لكن بعد ان هجرها سليمان. و فى نهاية المطاف انسحب إلى غربي شط العرب، فى ظل حكومة البصرة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ١٩٤

أبلغ كريم خان حكومة هذه المدينة انه من الأفضل لها مد يد العون له، و القضاء على قوات الشيخ سليمان. فوعده الحاكم بتبليغ طلبه، رغم انه كان يحنج دوما بانتظاره وصول السفن و الجيوش من بغداد. مما لا شك فيه ان سليمان نجح فى استمالة حكومة البصرة و رشواتها؛ أو لعلها كانت تفتقر للمال اللازم لشن الحرب عليه. و لما لاحظ الفرس ان الاتراك لا يسعون لمساعدته، سحبوا جيوشهم، تاركين للعرب عتاء استرجاع مناطقهم.

بعد ان أقدم كريم خان هذه السنة على طرد متبردين من مناطق نفوذهم سمح لهما بالعودة اليها. علما انها فى حالة يرثى لها، إذ نزح عنها اهلها. و توقفت الاعمال التجارية فيها. و بعد ان ترك كريم خان حامية من الجند فى مدن الشيخ سليمان، اضطر لتزويدها بالمؤن و الذخائر اللازمة لمتابعة هذه الحرب المستديرة و التي لن يجتئ منها شيئا. و لا شك ان سليمان دفع مبلغا كبيرا للفرس، حتى لا يلحقوا به ضررا لا يعوض.

#### حرب بين أهل البصرة و العرب

ادعى الأتراك انهم قادرون على استعادة الاراضى التي سلبها منهم الشيخ سليمان، و على تدمير جيوشه كلها، فشنوا عليه هجوما بالاتفاق مع كريم خان؛ و لكن عقاندهم الدينية، تفرض عليهم تقديم العون للعرب المضطهد، و ابوانه هو و جيوشه، فى ارضهم. و لكن سليمان رفض الانسحاب من اراضى البصرة، و فضل ان ينتظر حتى التمر، فأصدر باشا بغداد الامر لسكان البصرة، بإعلان الحرب على هذا العربي الخائن، و الاستيلاء على مناطق نفوذه. كان الحاكم يملك فوجا من الخدم، و فوجين من المشاة (برابولى و تافنشكى)، و لكنه ارتأى ان يجند مجموعة أخرى من الرجال، قبل بدء المعارك؛ بعبارة أخرى جمع الحاكم أربعة أو خمسة الاف رجل، ليهاجم سليمان المقيم فى دواس، الواقعة غربى شط العرب، برفقة ١٤ أو ١٨ رجلا. (يرجى مراجعة اللوحة XL).

عند خروجهم من المدينة، كان الجند يطهرون بشجاعة بالغة، و لكنهم بذلوا جهدا بالغا ليقطعوا عشرة أميال أو اثني عشر ميلا، علما ان الحاكم كان يبعد عن جيوشه حوالي الفرسخين. كان اسطول القائد باشا، يتألف من عشر سفن حربية، و مراكب صغيرة اخرى لنقل الجنود و المؤن.

و كان الأتراك يعتمدون على مركب تجارى انكليزى، اعاره لهم المستشار الحالي، و على سفينتين حربيين يقودهما ربابان انكليزيان. حطت الفرق الامامية رحالها على الضفة الغربية لشط العرب، قباله الرأس الشمالى لجزيرة محرزى، و ألق بعض سفن الاسطول مراسيها على شواطئ الجزيرة نفسها، علما ان سفن العدو الحربية كانت راسية قرب رأس الجزيرة المذكورة. كان الحاكم قد نصب خيامه على بعد فرسخين من المدينة، بينما ألقى القائد باشا المرسة على مقربة منه. لما

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ١٩٥

كان الأتراك يفتخرون بأسطولهم البحرى و فرق المشاة التابعة لهم، ناموا فى الليلة الاولى ملء جفونهم؛ و لكن عندما دقت الساعة منتصف الليلة، تسللت سفن سليمان إلى وسط اسطول القائد باشا فاستيقظ الأتراك مذعورين، و غادروا سفنهم بسرعة البرق. استنفرت قوى الحاكم فى الميخيم، دون ان تتاح لها فرصة الاستعداد للمواجهة، إذ انسحبت سفن سليمان، و أخذت معها المراكب الحربية الثلاث. فى اليوم التالي اجتازت هذه السفن الاسطول التركى، و نهبت القرى المجاورة للبصرة، و استولت على بعض المراكب الصغيرة، و لكن سليمان كان يتردد فى الذهاب بعيدا فى حربه مع البصريين، فعقد اتفاقا معهم يقضى بأن يدفع لهم مبلغا كبيرا من المال، و عادت على اثره الجيوش إلى البصرة، بعد مرور ١٨ أو ٢٠ يوما على رحيلها عنها.

استنادا إلى سياسة الوكيل الانكليزى، لن يسىء الشيخ سليمان الظن بأهل أمته، علما انه أعار البصريين احدى سفنه، و أرسل لهم عددا من رجاله ليقودوا مراكبهم الصغيرة.

و فى المقابل، يقول سليمان ان الانكليز و الاتراك هددوا سلامته و حاولوا شن هجوم عليه، و انه تصالح مع الأتراك و ليس مع الانكليز، الذين لم يأت على ذكركم فى الاتفاق الذى وقعه معهم.

ارسل الوكيل يخته الصغير من الخرج إلى الشيخ سليمان، دون ان يتعرض له رجال سليمان، و لكن فى منتصف شهر تموز/ يوليو، وصلت سفينة من مدارس إلى الشط، و شاهد الريان مراكب صغيرة كثيرة تجاز النهر و لم يخطر فى باله انها تابعة للعدو. لاحظ رجال سليمان ان الانكليز ليسوا مستعدين للمواجهة، فهجموا على السفينة و وضعوا يدهم عليها. قبل ان يتمكن الريان من مغادرة حجرته .

كانت السفينة الانكليزية، التي راقت اليخت من الخرج قد بلغت مصب النهر، وصادف رجال الشيخ سليمان، الذين ارادوا نقل السفينة إلى مرفاً قبان على الساعد الشرقي، اليخت الذي يسبق السفينة، فاستولوا عليه ايضاً. ولما شاهد الريان الثالث هذين المركبين الانكليزيين مصحوبين بالسفن الحربية، خطر له انهما وقعا في الاسر، ففضل العودة إلى الخليج الفارسي، حيث يستطيع التحكم بمركبه بصورة افضل، و لكن لسوء حظه وقع على الرصيف الذي يطل على المصب فانظر العرب فترة طويلة حتى ينخفض مستوى المياه، و ينتفضوا على السفينة، و يسجنوا البحارة، و ينقلوا الاسطول كله إلى قبان. لم يتوقع الوكيل الانكليزي ان يقدم سليمان على هذا التصرف. فأجرى مفاوضات طويلة لاستعادة هذه السفن، و في نهاية المطاف وضع نص اتفاق رفض سليمان التوقيع عليه، إلا بعد موافقة حكومة يوميا عليه. و في هذه الاثناء أرسل ربابنة السفن إلى البصرة، بعد مضي ثلاثة أسابيع على احتجازهم، أما البحارة فأطلق سراحهم لاحقاً.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ١٩٦

بروي الانكليز قصصاً عديدة تثبت جهل العرب للعادات و التقاليد الأوروبية، و منها القصة التالية:

لاحظ ضابط من ضباط سليمان ان أحد الربابنة ينظر إلى ساعته. فطلب منه أن يريه هذه الآلة الغريبة، و لما لاحظ ان شيئاً ما يتحرك في داخلها، وضعها في دلو ماء ليترق هذا الحيوان. و بعد ان ادرك ان الساعة لا تزال تعمل، رماها أرضاً. فراحت تتكك قطعها كلها، فخاف العربي منها و رماها في الماء.

بعد ظهر ٢٤ آب/ أغسطس، شاهدنا ثمانى سفن حربية تابعة للشيخ سليمان، تجاز النهر.

فوضعت المدينة في حالة تأهب. و لما كان الحاكم يخشى ان يرسي العرب السفن الحربية امام منزل القائد باشا، أو ان يتزلوا جيوشهم في المدينة، انتقل ليلاً برفقة رجاله إلى مناوى. في اليوم التالي، علمنا ان رجال سليمان نهبوا قريتين صغيرتين، تابعتين لشيخ قبيلة المنتفق، و أضرموا النار فيها؛ كان هؤلاء العرب يقيمون حالياً بين البصرة و عرجة، و هم يدعون حالياً الجزيرة لباشا بغداد، و يعيشون بسلام مع البصريين. أظهر عبد الله، شيخ القبيلة الحالي، استيائه من تصرف سليمان، و استعد للاقضاض على بلاده. فدعى الحاكم للمشاركة في حملته هذه، و قبل ان يصله رد الحكومة التركية، تمركزت جيوشه امام المدينة، و كان بعض العرب يبعرون النهر في زوارق صغيرة، برفقة نسائهم و اولادهم، بينما يمر البعض الاخر امام المدينة على ظهور الجمال، حاملين أكياساً فارغة، و متوجهين نحو بستان النخل الواقع على الطرف الجنوبي، من البصرة.

عاد سليمان برفقة سفنه الحربية إلى المدينة، بينما تراجع الحاكم، إلى مناوى، و لكن سليمان لم يكن ينوئ ازال جيوشه حيث يتوقع ان يلقي معارضة، فبدأ يجمع الثمر من القرى المجاورة، إلى ان بلغ أقصى الجنوب؛ في المقابل، كان عرب قبيلة المنتفق يجمعون الثمر من الجنوب إلى الشمال، في البصرة. في ١٠ تشرين الأول/ أكتوبر، تابع عرب قبيلة كعب الطريق، بينما عاد عرب المنتفق إلى ديارهم، فلقح بهم البصريون، ليجمعوا الثمر الذي تركه جيرانهم. فبدأ لنا وضحنا ان الشيخين عبد الله و سليمان قد اتفقا، بين بعضهما، على جمع ثمر الرعايا الأتراك، رغم ان عرب قبيلة المنتفق أرادوا ان يتبوأ صدقتهم للبصريين و كان يصل يوميا إلى المدينة اناس يتحدثون عن المناوشات التي وقعت بينهم و بين عرب كعب، لمنعهم من نهب بستان النخل، حتى ان الشيخ عبد الله ارسل إلى الحاكم رأسين كان سكان البلدة يفتخران بهما كثيراً. لم يتجرأ أهل المدينة على التعبير عن رأيهم في الحرب، فهم يعتقدون ان العرب اقتطعوا رأسى رجلين مريضين. في هذه الأثناء، كانت الحكومة التركية راضية كل الرضى عن النجاح الذي حققه لأنها كانت تخشى ان تهاجمها قبيلة المنتفق من جهة و قبيلة كعب من جهة أخرى. في نهاية الامر تقابل عربي من المنتفق مع جندي من جنود الحاكم و ارداه قتيلاً.

فأبى السكان ان يقبلوا بهذه الاهانة في عقر

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ١٩٧

دارهم، فتجمعت الفرق العسكرية كلها كافة، و تعاونت في ما بينها لطرد العرب من المدينة.

يدفع الأوروبيون الذين يمارسون التجارة في البصرة ثلاثة بالمئة من رسم المرور على البضائع التي يستوردونها من الهند، أما تجار الدول الشرقية فيدفعون ٧٠ بالمئة علاوة عن الضرائب التي يدفعونها لضباط الجمر ك على بضاعتهم. و هذا يعني ان الحكومة خسرت الكثير من المال نظراً لعدم وصول هاتين السفتين القادمتين من الهند، فبدأت قصارى جهدها لإرغام سليمان على اعادتهما لها. فقدم سيد من أعيان بغداد، قرض منذ بضعة أشهر ٦٠٠ ريال من سليمان ليتوسط له امام الباشا، ليلعب دور السفير. فوصل إلى البصرة في اواسط شهر تشرين الأول/ أكتوبر و تابع رحلته دون توقف باتجاه قبان. لكن سليمان ادعى عدم معرفته به. و لما ذكره السيد بالخدمة التي اداها له، و بالمبلغ الذي قبضه منه، رفض العبارة الثمينة التي ارسلها له الباشا، تعبيراً عن سلامته نيته. و قال ان العبارة تليق بالشيخ العربي اكثر من الخادم التركي، خاصة ان كان مرسلها شخص يعمل في خدمة السلطان. بعبارة أخرى، كان استقبال سليمان للسيد سيئاً للغاية؛ إلى حد ان هذا الاخير اضطر للعودة على الفور إلى البصرة. في ٢٦ تشرين الأول/ أكتوبر وصل سفير آخر للباشا، و يدعى عبد الله بك، و هو عربي الاصل، كريم النسب، يعمل في خدمة باشا بغداد، و يحبه العرب أجمعون.

في بداية الامر، بعث رسولاً إلى قبان ليعلم سليمان بوصوله، و في ٢٨ منه، انطلق برفقة الشيخ درويش، أحد أعيان مدينة البصرة، فاستقبلهما الشيخ سليمان بكل حفاوة، دون ان يتلأ منه أكثر من الأطراء.

لما كان الباشا قد عظم من شأن سليمان، بإرساله ضابطين كريمي النسب لمقابلته، طلب من مستشاره الخاص ان يرافقهما إلى بغداد على أمل ان يتفاوض مع سيدهم للتوصل إلى اتفاق. و اظن ان هذا الامر يعد اهانة كبيرة للباشا الذي يحكم بلدا يتقوى كافة الممالك الاوروبية مساحة، هذه هي نقاط ضعف الحكومة التركية في المقاطعات النائية.

عم الحزن البصرة هذه السنة، ففي فصل الخريف كانت تستقبل عادة حوالي ٥٠ مركبا من مرفاء عمان كافة، محملة كلها بالبن من المخا و الحديد، و أرغمت السفن الاولى على دفع رسوم مرور باهظة للشيخ سليمان، كي يسمح لها بتابعة رحلتها إلى البصرة، كما و انها أرغمت على شراء الثمر في طريق العودة. و عندما بلغ خبر الاحداث التي وقعت على شط العرب مسامح سكان مسقط، أفرغت المراكب الصغيرة البن، الذي حمل في سفينة حربية تابعة لاسطول الامام.

و رغم انها تمكنت من الوصول بسلام إلى بوشهر، لم تجرؤ على المضي في رحلتها. في السنة التالية، علمت ان السفينة المذكورة أفرغت حمولتها كلها في احد مخازن الخرج، لتقع بعدها اسيرة مير مهنا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ١٩٨

#### الطرق المؤدية من البصرة إلى حلب عبر الصحراء

ان اقصر طريق من البصرة إلى حلب تمر في الصحراء، غير اننا نصادف في الطريق قبائل عربية كثيرة، تدعى كل منها السيادة، و الحق في المطالبة بهديا من الرحالة؛ لهذا السبب لا يجتاز أحد هذه الطريق الا برفقة قافلة كبيرة. خلال اقامتي في البصرة، كانت الاعمال التجارية ضعيفة للغاية، و عدد التجار الذين يسافرون في القوافل ضئيلاً للغاية. لذلك اضطررت لسلك طريق آخر. و لما اتجيت لى فرصة التعرف على يدوى قطع عدة مرات الصحراء من البصرة إلى حلب، سأذكر لكم المناطق الواقعة على هذه الطريق، كما سمعتها منه.

يبدأ الطريق بمنطقة زبير، كويبهه شكره، الخففة، القصير (قصر متداع) وادى ابو المريس عيون صيد، و هي عبارة عن بركة يتها زوجها احد الخلفاء، الغضاري، جرتمي، القايم أو الأثلثة، رامانة، في جوار مشهد علي، الطلقانة، أو الجاضة، الحسين، الاخضر (حصن قديم تحدثت عنه سابقاً) رأس العين، تمبل، الكيسة، عقلة، حوران، تغب الجاموس، المانغي، الرنقة، البردان، رشيا، (حصن قديم على الفرات) جب غنم، الحمض، جبل بشير، العزمة، الطيبة، (دمرت القرية التي تحمل هذا الاسم منذ ٢٠ أو ٣٠ سنة)، قصر الشوان، قاع، ابو الفياض، عز الروثة، صهاريج، جبل شيبية، لحام، حفلة عين سفيرة، أو عين ذهب، حلب .

و إذا كان هذا الطريق محفوظاً بالمخاطر سلكت القوافل طريقاً مختلفاً، على ان تزود بكمية كافية من المياه، فتعبر بعد مغادرتها البصرة، الزبير، و كويبهه، و شكره، و الخففة، و الكوس، و سلمان و الأثلة، و قطري، و البذي، و حجره، و مجوز و القعر، و صواب، و الصراب، و الضخه، و بير قديم، و ابو الفياض و الحمام، و جبل الاحص و حفلة و سفيرة و حلب في طريقها من بغداد إلى حلب، تعبر القوافل في غفرقوق، و الهيس، و الفوجة، و الوحلة، و ام الروس، صبنديج، هيت، المعميرة، عين الارنب و عقلة حوران. رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ١٩٩

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ١٩٩

مما لا شك فيه ان الرحلة في الصحراء ليست مزعجة أو مخوفة بالمخاطر، خاصة ان كان السلام يسود بين القبائل العربية، أو بينها وبين الاطراك، و ان كان قائد القافلة رجلا شريفاً و ان كان المسافر يفهم لغة البلاد، و يحذ طريقة عيش الشرقيين. لاحظ القاري، في الصفحات السابقة، ان الحروب تنشب بسرعة في هذه البلاد، و تنتهي احيانا بالسرعة نفسها. فحين تغادر احدى المدن، يخطر لنا ان رحلتنا آمنة تماما، و غالبا ما تصادف في منتصف الطريق اعداء على خلاف مع الشيوخ المقيمين في الجوار أو مع الباشاوات الاطراك، و يتوجب حينها على قائد القافلة ان يتفق مع العرب بطريقة ملائمة حتى نمر بسلام. مما لا شك فيه ان أكثر الرحلات أمانا هي تلك التي نقوم بها مع عرب بني كلب، الذين ينقلون كل سنة عددا كبيرا من الجمال إلى حلب، بهدف بيعها.

كما و ان السفر برفقة قوافل التجار، التي يرأسها أحد اعيان البصرة، ليس مخوفاً بالمخاطر، فهذا الاخير سافر كثيرا في صباه، و تعرف على شيوخ القبائل كافة، مما ساعده على تأمين الحماية الكاملة للمسافرين. أما القوافل التي يقودها احد الاطراك، و خاصة تلك التي تذهب من بغداد إلى دمشق و التي مكنته فهي مكلفة و شديدة الخطورة. غالبا ما يبيع الباشا منصب قائد القافلة إلى الشخص الذي يدفع اكثره ففي تلك السنة، دفع اقدمهم ٤٠ ألف ريال لتسلم قيادة قافلة حجاج بلاد فارس، الذين يبغون السفر من بغداد إلى دمشق بعد مرور ثلاثة اسابيع، دفع شخص آخر عشرة آلاف ريال، و حظي بالمنصب المذكور. يتوجب على هذا الشخص ان يجند عددا كبيرا من الرجال، و تقديم الهدايا للقبائل العربية، التي يصادفها في طريقه، اما المسافرين، فيشاركون في هذه الاعباء، علاوة عن دفعهم مبلغا محترما لقائد القافلة. و يروي ان بعض قادة القوافل، يتفوقون مع العرب ليهاجموا القافلة و ينهبوا. و أكد لي كبار التجار ان قادة القوافل الاطراك يتسبون في معظم الاحيان بتعرض القوافل للنهب، على يد العرب، و قد اعطيت مثلا على هذه الاعمال في كتاب وصف شبه الجزيرة العربية. أخبرني شخص سافر في قافلة مماثلة، ان التجار اجبروا على دفع مبلغ كبير من المال، قبل انطلاق القافلة، و تعهد القائد في المقابل، بأن يوصلهم إلى وجهتهم بسلام.

غير انه شاهد بعض العرب من بعيد، و اسرع للقائهم مع عدد من رجاله في هذه الالثناء، كان يجدر بنا الانتظار دون ان يتجرأ احد على اطلاق النار على العرب، رغم انهم كانوا يقربون من القافلة و يهددون بنهبها. دامت المناقشات بين القائد و الشيخ وقتا طويلا، فكانا يتبادلان التهديد بحمل السلاح، و كافة انواع الشتام و في نهاية المطاف، توصلنا إلى اتفاق في ما بينهما، و اجر قائد القافلة كل مسافر على دفع مبلغ من المال لمتابعة الرحلة. و الجدير ذكره ان الرحلة في الصحراء شديدة الخطورة على اهل الشيعة، اذ تفرض عليهم ضريبة أكبر من اهل السنة، و يسى المملحدون معاملتهم إلى اقصى حد.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٠٠

أتى بعض المسافرين على ذكر مركز الحمام الذي كان يستعمل قديما في البلاد الشرقية .

و هي تكثر في مدن مختلفة، و لكن من الصعب ان تصدق اننا نستطيع ارسال الحمام إلى كافة المناطق شأنها شأن أي رسول آخر؛ و لما كانت هذه المنطقة تفتقر إلى مراكز بريد محددة. دَرَبَ التجار الحمام لإبلاغ عائلاتهم بعودتهم سالمين من سفرهم. قابلت في البصرة تاجرا من بغداد، اعتاد على استعمال مراكز الحمام هذه في رحلاته كافة. فقد ترعرع الحمام في منزله و اعتاد على تناول طعامه في مكان محدد، كما و انه كان ينتقل على حريته، من مكان إلى آخر و يتعرف على المناطق المجاورة. في رحلته الأولى، اصططحه معه إلى الحلة، و في الثانية إلى لملم، و في الثالثة إلى ارج، و اخيرا إلى البصرة، حيث ارسله إلى منزله بعد ان علم رسالة صغيرة بقوامه. و الجدير ذكره ان الحمام الذي يترك صغاره في المنزل يعود مباشرة اليه. و يزعم ان افضل نوع حمام هو البغدادى، و لكنني لا أشك ان الحمام الاوروبى اهل للتدريب على هذه المهمة. و قد قيل لي ان احد الايطاليين كان يستعملها ليعرف الأرقام التي استعمالها مواطنوه في الياضيب. و ما لا شك فيه اننا لا نحتاج مطلقا لهذا النوع من الحمام، لأننا نستطيع بعث الرسائل التي إلى بقعة في الارض، و بأقل كلفة ممكنة.

يقول الكسندر هاملتون انه تكثر في منطقة البصرة شرقي و غربي الفرات، الغرغان السوداء و البيضاء التي تتدافع و تتقاتل. و قد شاهدت بأق عيني غرغانا سوداء و رمادية على ضفتي النهر، و لكن العرب لا يعتقدون ابدا ان الغرغان السوداء و البيضاء قد اتخذت من الفرات حدا لها.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٠١

#### الرحلة من البصرة إلى لملم و مشهد علي، و مشهد الحسين، و الطلة، و بغداد

للاتقال من البصرة إلى بغداد، هناك طريقان، الاول عبر دجلة و الثاني عبر الفرات، و لا يستخدم المسافرون الطريق الاول عادة، لطول المسافة بسبب تعرجات النهر الكثيرة، في حين ان الفرات لا تعرجات فيه، فضلا عن اننا نصل على هذا النهر حتى الحلة و منها ينتقل المسافر مباشرة إلى بغداد برا، مما يجعل، الدرب أقصر، و نجد على الفرات محطات أو منازل، فحين يوز المسافر أن يروح يظهر إذن الحاكم الذي يحمله، و يمكنه أن يتفق مع أناس في محطات مختلفة ليسحبوا مركبه، بأسعار معقولة، فيصل إلى الحلة بهذه الطريقة في عشرة أيام على الأكثر.

و يجب أن يتسع المسافر بصحة جيدة ليقوم برحلة كهذه في الشتاء، و بما أن قطاع الطرق يكثرون على هذا الدرب، لا يستخدم هذه المحطات إلا رجال الحكومة الذين لا يتجرأ العرب على المسام بهم، فضلا عن أناس على عجلة من أمرهم و لا يحملون معهم حاجاتهم الضرورية. أما أنا فانتظرت وصول مركب صغير ينقل بضائع إلى الحلة و استأجرت المنصورة لنفسى و غرفة صغيرة لخادمي. حين صعدت على متن المركب، وجدت في الغرفة المذكورة، ضابطا من الانشكاريين يعاني سكرات الموت و يريد الوصول إلى الحلة، و هي رقيقة لم أكن أتناهاها في رحلتي سيما و أنى لا أعرف المرض الذي يعاني منه. لكن صاحب المركب كان قد قبض ماله سلفا، و أقتع خادمي، و هو مسلم من البصرة، بالتنازل عن مكانه و البقاء على سطح المركب، و كحي لا أكون أقل انسانية تجاه هذا البائس من المسلمين الذين كانوا ليكرهوني لو طردته، سررت لقرار خادمي و قررت أن أسلم امرى للقد.

كانت الرحلة شاقا بالنسبة لجاري المريض، و بما أنى اعتدت العيش بين العرب، لم أستأ من القرار الذي اتخذته بشأن السفر على متن هذا المركب . استغرقت الرحلة ٢١ يوما أيّ من ٢٨

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٠٢

تشرين الأول/ أكتوبر إلى ١٩ كانون الأول/ ديسمبر حيث وصلنا لملم و غادرت المركب، و هي رحلة طويلة لكنها اتاحت لي فرصة القيام بدراسات فلكية عدة، ساعدني خلالها المسافرون الاخرون اذ تحلقوا حولي بتياهم الطويلة لرد الهواء حين كنت أضع ساعتى الشمسية على الشاطئ ..

سجلت ارتفاع القطب في أماكن عدة مرت بها و هي:

في البصرة كما أوردت سابقا ٣٠ ٣٠

في الاول من كانون الأول/ ديسمبر قرب المنصورى ٥٢ ٣٠

في الثاني من كانون الثاني/ يناير في أبادا ٥٥ ٣٠

في الرابع من كانون الثاني/ يناير في كعد ٥٨ ٣٠

في السادس منه في أرجة ٥٩ ٣٠

في ١٢ كانون الثاني/ يناير في غريم ١٧ ٣١

في ١٦ كانون الثاني/ يناير قرب السماوة ١٩ ٣١

في ١٨ كانون الثاني/ يناير في منطقة أبو حروق( ٢٨) Abu Haruk

في ١٩ كانون الثاني/ يناير قرب لملم ٤٣ ٣١

ثم في الحلة ٢٨ ٣٢

و بما أن الفرات لا يجرى في هذه المنطقة مباشرة من الشمال إلى الجنوب انما من الغرب إلى الشرق، يصعب تحديد طول المسافة لا سيما حين تسافر بعكس التيار حيث يدفعنا الجزر غالبا إلى الامام، و المدّ أو الرياح المعاكسة إلى الخلف . زد على ذلك، أننا اضطررنا إلى سحب المركب لأن منسوب المياه منخفض للغاية فللمسنا القاع، فلم ير البحارة المساكن بدا من النزول إلى المياه و العمل جاهدين لتخليص المركب. و في احدى المناطق التابعة لقبيلة بني الحكيم (Hackem)، وضع السكان سدا لتحويل المياه لرى مزروعاتهم فلم نجد سوى مزمّ ضئيل للغاية يعظم فيه التيار فأضينا نصف نهار حتى تمكنا من المرور بمركبنا. و لم أتمكن من تحديد

المسافة بدقة إلا استنادا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٠٤

إلى المحطات التي نجد فيها اناسا يسبحون المراكب و هي ١٢ محطة من البصرة إلى القرنة(Korne)، و ٧ من القرنة إلى المنصورى، و ١٢ من المنصورى إلى كعد، و ٢ من كعد إلى العرجا، و ١٤ من العرجا إلى السماوة، و ١٨ من السماوة إلى لملم، و ٧ من لملم إلى الديوانية، و ١٤ من الديوانية(Diwanie) إلى الحلة، و استنادا إلى ملاحظاتي، تبعد المحطة عن الأخرى دقيقتين ونصف إلى ٣ دقائق أى حوالي ٤/٣ الميل، و انطلاقا من هذا و من تسجيلي لارتفاع القطب، وضعت خرائط خط السير على اللوحين XL و XL١ التي يمكن للقارىء أن يميز عليها مجرى الفرات من الحلة و حتى الخليج الفارسي.

نجد بين البصرة و بغداد العديد من القبائل العربية، تدفع كلها ضرائب للباشا، أما أولها فقبيلة المنتفق(Montefik) التي ذكرتها سابقا في وصفي لشبه الجزيرة العربية. و بما أن القرى و المدن الصغيرة الواقعة إلى غرب شط العرب و الفرات من البصرة و حتى العرجا ملك لها فضلا عن تلك الواقعة إلى شرق هذا النهر انطلاقا من القرنة في الشمال، تقيم القبيلة لأشهر في نهر عترة، و تهيم و الصحراء مع قطعانها قسما كبيرا من السنة، حيث تعيش في الخيام كثيرا من البدو. و غالبا ما جعلت هذه القبيلة الدرب على الفرات و في الصحراء غير آمن، حتى انها حاصرت بغداد أحيانا، لكنها تنسحب إلى عمق الصحراء حيث لا يتجرأون على ملاحظتها ما أن تعلم أن الباشا أرسل الجيش لمقاتلتها.

و لم يعاقبوا يوما و عاقبهم سليمان كخيا(Kichja) الذي أصبح في ما بعد باشا بغداد، و الذي اعتاد و عمه احمد باشا الشهير اصطياد العرب، اذا صبح النعير، أى انهما يهاجمان القبائل بغتة. لذا كانت الطرقات آمنة أثناء حكمهما. أسر أحمد باشا يوما الشيخ سعدون أخ الشيخ عبد الله، الحاكم الحالي، لكنه عاد و أطلق سراحه مع تبنيهم بوجوب دفع الضرائب و الابتعاد عن المشاكل. و بعد فترة وجيزة، ثار ثانية، فأرسل احمد عندها صهره سليمان كخيا لقتاله مع بعض الرجال، فشن هذا الأخير هجوما مفاجئا عليه و أسرته. و لا زال العرب يمدحون العتوان الذي أظهره شيخهم في هذا الموقف، اذا دفع عن نفسه طويلا برمحه ثم بسيفه و بعدها بالدبوس (سلاح يشبه المطرقة يحمله العرب في سرجهم) و اخيرا بلجام جواده و ركابه، لكن من دون جدوى. و كان سليمان قد تلقى الأمر بإعادة سعدون اسيرا إلى بغداد، و بصفته منتصرا طالب المملوك ببعض الاحترام و الخضوع، لكن العربي الاخير، المولود حرا رفض الخضوع، و أحصى سلالة اسلافه و سأل الكخيا كيف يمكن لشخص مثله لا يعرف اباه (أنه جيورجي، بيع في صباه كعبد) أن يطلب من نبيل عربي ان يبذل نفسه؟ و أغضب هذا الكلام سليمان فقطع رأس الشيخ و أرسله للباشا كدليل انتصاره، و رأى المشايخ الآخرون ان من الفطنة الخضوع له. و في يوم من الايام، قصد حوالي ١٨ شيخا من هذه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٠٥

القبيلة الباشا ظنا منهم انهم تصالحوا معه، و رأى هذا الاخير ان الفرصة لن تتكرر فأمر بقطع رؤوسهم جميعا ، و هكذا ضعف نفوذ قبيلة المنتفق و لم تجرأ حتى اليوم على العصيان. و يقال إن أحمد باشا الذي يقدر القيمة الشخصية حتى لأعدائه غضب من تصرف صهره، لكن غالبية الاتراك تعتبر حملة سليمان هذه دليلا على شجاعتهم في حين أن العرب ينظرون اليها كعمل جبان و وحش.

و تسيطر قبيلة بنو لام على دجلة، و تسبب متاعب عدة لباشاوات بغداد. حين أضحى أحمد باشا على بغداد للمرة الاولى، شن حملات عدة على هؤلاء العرب لكنه لم يتمكن من إلقاء القبض عليهم، لكثرة جواسيسهم في المدينة فما أن يعلموا بأن الجيش سيخرج حتى يتراجعوا إلى مناطق ثانية. و عندما وصل إلى الحكم للمرة الثانية، ضرب و رجاله الخيام امام المدينة، و قام بتحضيرات كثيرة كما لو أنه يستعد لدخول المدينة في أيي حلة، و بقي عرب بنى لام، الذين علموا بالأمر، آمنين، ظنا منهم أنه لن يهاجم طالما لم يسيئوا اليه أولا أو أنه سيدخل المدينة أولا، لكنه رفع الخيام في الليل و هاجمهم بسرعة حتى أنهم لم يعرفوا بمخطئه. و كسب في هذا الهجوم عدة غنائم من إبل و جياد و ابقار و خراف، و قطع رؤوس المشايخ فأضعف القبيلة التي لم تعد تفكر بالعصيان.

و يلجم الباشاوات العرب المقيمين في مناطق حكمهم بهذه الوسائل، و يمكننا أن نتصور بسهولة أن البدو في الصحراء لا يهتمون قط بحكم السلطان و الباشاوات.

و يطلق على المنتفق و بنى لام و القبائل العربية الحقيقية الاخرى اسم أهل البر(Ahli el Baar) أو البدو، و يعملون في تربية الجمال و تدربيها، و يقيمون معظم الوقت في الخيام و يتركون أمر الزراعة للفلاحين، و يأتي السادة العرب في أوقات معينة من السنة لجمع الضرائب مستخدمين العنف و القسوة احيانا. و تسمى قبيلة كعب المقيمة على مصب النهر أى على شط العرب و غيرها من القبائل التي تقيم دائما في القرى و المدن، العرب الحضر.

و تصادف عربا آخرين، يعملون في تربية الجياد و ابقار و الجواميس، فضلا عن الزراعة و ينقلون أكوامهم الحقيرة من مكان إلى آخر كما يفعل البدو مع خيامهم، و يطلق على هؤلاء اسم المعدان(Moadan). و تقيم في شرق الفرات قبيلتان من هذه القبائل، و هما بنى حاكم(Beni Hakem) و خزعل و تبعان المذهب الشيعي. أما القبيلة الاولى فصغيرة العدد و لا تسبب مشاكل للاتراك، لكن

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٠٦

قبيلة خزعل التي يقيم شيخها في لملم، فتتصرف احيانا بغفظة و تسبب المتاعب للباشاوات، و قد هزمت قوات علي باشا منذ سنوات، حين قتل الباشا نفسه أمسى أبناؤها متغظسين، فمتموا أي مركب من المرور على الفرات قبل ان يدفغ جزيرة. و قبل وصولي، لقن عمر باشا هذه القبيلة درسا حيث قطع رؤوس مشايخها، و عين شيخا جديدا حاكما لها، لكن الحاكم السابق الفار و اسمه حمود، عاد بعد انسحاب الاتراك، و بما ان الباشا لم ينشأ القيام بحملة أخرى، سلمته الحكم من جديد. و لا يتجرأ هؤلاء العرب حاليا على ايقاف المراكب، لكن الاتراك الذي يحرون على الفرات يضطرون إلى سماع الشيعة ينتعونهم بالملحدين و يعملون كرههم للخلفاء الثلاثة الاولان أي أبي بكر و عمر و عثمان.

إن ضفة الفرات منخفضة جدا في المناطق الخاضعة لقبيلة خزعل، لا سيما في المنطقة المسماة ام الخنزير حيث يكثر الاسل و بالتالي الخنازير البرية، و لا بد أن للنهر سواعد عدة اذ لا يتعدى عرضه احيانا ٤٠ إلى ٥٠ قدما .

و نجد في شمال المناطق التابعة لهذبة القبيلة، مرسى كبيرا يسمى حسكة، يحكمه آغا تابع لباشا بغداد يقيم في ديوانه، و يعتبر اكبر مرسى.

في نقطة حكم الباشا، يملك هذا الآغا فرقة كبيرة من الخيالة تساعد على السيطرة على العرب، لكننا لاحظنا آغا أن هؤلاء لا يكثرئون به احيانا.

أما أهم المناطق التي تصادفها بين البصرة و لملم فهي:

- مناوى، محل إقامة الباشا النقيب، و هي في البصرة كما ذكرت سابقا و اشرت إلى ذلك على اللوحة XXXIX. و يعتبر هذا المكان مميزا بالنسبة للمسافرين اذ يضطرون إلى دفع ضريبة للباشا.

و في الجهة الأخرى لشط العرب و قبالة مناوى، نجد قلعة مدممة كليا و تعرف باسم كردلان.

- دير، قرية كبيرة جنوب الشط، و على بعد يوم من البصرة. و نجد هنا تلالا كبيرة هي عبارة عن بقايا مدينة شيدها البرتغاليون استنادا إلى رأى رفاق رحلتي، لكن لم يبق من الابنية القديمة سوى منارة جميلة و هي الوحيدة التي تصادفها بين البصرة و الحلة (باستثناء القرنة).

- سوب، تقع إلى شمال الشط و على نهر ينبع في حوزة، و تدل الآثار الكبيرة على أن مدينة كبيرة كانت تقوم في هذا المكان في ما مضى. إن النهر الذي يصب في الشط عند نهر حاسر(Haser) هو نهر حواسيس(Chaos Pis) الذي ذكره علماء الجغرافيا القدامى.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٠٧

- القرنة، تقع عند ملتقى دجلة و الفرات، و هي مدينة سنية البناء، يحيط بها من جهة اليابسة سور مزدوج من الآجر، و هو بناء حديث، اذ علمت في البصرة ان الباشا على و الباشا حسين شيدها لصد الاتراك و الفرس.

و نجد هنا خمس فرق من الاكشاريين، أما التجارة في المدينة فمحدودة بالرغم من موقعها الجيد، لكن السفن التي تمر بها، تضطر إلى التوقف لتدفع ضريبة للاكشاريين. و لم تمكن من قياس ارتفاع القطب في هذه القلعة، اذ سلمت ضابطا رفع الشان رسالة التوصية، فأظهر الكثير من اللياقة و دعاني إلى العشاء في منزله فلم أرفض دعوته. و حين علم بأنى اريد التوجه إلى الضفة عند الثانية



عشرة لقياس ارتفاع الهاجرة، اضطرت إلى جلب ساعتى الشمسية، التى أرتبه اياها لإسعاده، لكنه لم ينفك يطلب منى ان اسمح له بالنظر عبر المنظار المقرب، و تكاثرت الطلبات فأصبح عملى من دون جدوى.

- نهر عتتر و هو محل اقامة شيخ قبيلة المنتفق كما أشرت سابقا، و تدفق له السفن ضريبة فى تحته(Tachte) حيث لا نجد سوى المنزل الذى يقيم فيه ضباط الجمارك. و منذ سنتين، كانت المراكب الصغيرة المحملة بالتمر تدفع مسلمين (نصف روبية) أما اليوم فتدفع ٥ روبيات.

- المنصورية و هى قرية كبيرة، تدفع رسوم المرور فيها لأغا انكشاربى القرنه، لكن المركب القادم من البصرة فى القرنه يكتفى بإبراز الوصل. و فى قرية كوت أو كوت معمر تدفع الرسوم للباشا النقيب فى البصرة. أما فى العرجة فتدفع لآل صالح احدى ابرز عائلات قبيلة المنتفق. و كان هناك مركز لدفع الرسوم فى غرام، لكن منذ أن فرغ المكان من سكانه، تجمع الرسوم فى السماوة لأغا الحكمة و بالتالى للاتراك، لكن شيخ قبيلة خزعل يقبض هذه الرسوم حاليا.

و صادفت فى جمارك العرجة و السماوة شيوخا و قجين، و إن جاؤوا بأنفسهم لرؤيتى، و لم يهتموا بجواز المرور الذى زودنى به متسلم البصرة كما استأثروا حين أردت اظهار فرمان السلطان الذى أحمله، فأرتأت بأى ارضيهيم بأى وسيلة كانت، فإن تشارج مسيحي مع اناس من هذا النوع، و قال كلمة ما اعتبروها إهانة لهم، يجبرونه احيانا على دفع عشرة اضعاف ما يتوجب عليه، فضلا عن أنهم يسخرون منه. و تبني المنازل فى السماوة من الطين المحجف فى الهواء الطلق و هى بالتالى سيئة البناء، لكنها تبدو قصورا مقارنة مع أكواخ الفلاحين فى هذه المنطقه. و منذ سنوات، مات معظم سكان المدينة بسبب الطاعون الذى تفشى بينهم، و تكثر النور و الاسود و بنات آوى فى الصحراء قرب هذا المكان، كما نجد فيها الكثير من الملح.

و تصادف الكثير من القرى على ضفتى شط العرب و على ضفتى الفرات، من القرنه و من العرجه، و بعيدا عن النهرو، بقيت هذه الارض الخصبة غير مزروعة لقله السكان و الأقيهه فيها، و تقوم

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٠٨

القرى بعيدا بعض الشئ عن النهرو، و هى سيئه العمران مما يدل على أن المشايخ لا يتكون للسكان ما يكفيهم، و قد بنيت المنازل و الاكواخ من الاسل، باختصار، لم أر أكواخا بحجارة تلك الموجودة فى هذه المنطقه التى اتعمت عليها الطبيعة بالخصب و التى ذاع صيتها و اكتظت بالسكان فى ما مضى. أما الأراضى الممتدة بين العرجه و السماوة فغير مزروعة أيضا، و لا تعتبر الاسماء الواردة على اللوحه XL أسماء قرى. تدعى المنطقه على ضفتى الفرات الجزيرة، و لعل السبب يعود إلى كثرة الاقبيه الموجوده و التى جعلت من البلاد فى ما مضى مجموعه من الجزر.

و يتميز سكان قرى الفرات بمهارتهم فى السياحه كسكان ضفاف النيل، كما يعرف عنهم أنهم لصوص بارعون، أما البحارة فمهملون، كما فى مصر، و لا يحرصون أثناء الليل، لذا يستغل اللصوص الفرصه، و يصعدون على متن المركب ليلا، فإن وجدوا الركاب نياما جمعوا ما يجدون على ظهر المركب و قفروا بما طالته ايديهم فى الماء.

و فى أحد الأيام، حاولوا الامر نفسه على مركبنا، لكن الانكشارى المريض فشل محاولتهم، اذ لم يكن نانما، و فى يوم آخر، جاؤوا فى قوارب خفيفه و صغيره من خلف مركبنا، و سرقوا لى حوضا للاغتسال و بعض الاشياء الاخرى التافهه، لكنى استيقظت عندها فلم يتمكنوا من سرقة اشياء اخرى اذ اطلقت عبارا ناريا ارضيهيم و جعلهم يفتزون من قواربهم إلى الماء.

و كان مستوى المياه بين العرجه و السماوة منخفضا للغاية حتى أن المركب لاسم القاع عدة مرات، و بما أن الريح و حركة المدّ و الجزر عاكستنا اضطورنا إلى سحب المركب، و أوقفنا العرب مرارا. جلست على سطح المركب مسلحا، و قد اعترمت عمامه الانكشارى المريض، و بقى بعض التجار من بغداد على مقربة منى و كأنهم ينتظرون أوامرى، و حين يسأل العرب عنى على متن المركب، اعتاد القبطان ان يجيب انه آغا من بغداد مع ستة شكدار(Tschokadars). و لا أعلم إن كان العرب قد صدقوا هذا الادعاء، لكنهم التزموا حدود الادب و لم يظفروا سوى بعض التمر الذى قدمته لهم عن طيب خاطر بصفتى آغا. و منذ ثلاثة أسابيع، تم نهب مركب محمل بالتمر فى هذه المنطقه، و قتل المسافرين الذين رفضوا اعطاء ما يحملونه. و بعد ذلك، لاسم مركب آخر القاع فأخذ العرب يتزلون حولته، عندها أصبح المركب أخف فعام و أبحر القبطان كما أمر بقتل اللذين بقيا على متن مركبه و آزادا سلمه ما تبقى. و لن يلم أى أوروبى المسافرين على فعلتهم، لكن عقليه العرب مختلفه و نظرتهم للأمووم معارفه، كانوا يعلمون أن على متن هذه المراكب أناس من القرنه و من السماوة، فطالبوا بالديه من هاتين المدينتين، و ظنا أننا بهذا الادعاء سترضيهيم. و لو انى قتلت أو جرحت عربيا خلال هذه الرحله، لطالب أخوه القبطان الذى بدوره سيطالبنى، و لكنت دفعت أكثر من المسلمين لأثنى مسيحي أراق دم مسلم. نستنتج بالتالى ان الاسلحه النارية الجيدهه ضروريه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٠٩

للمسافر الأوروبى فى هذه البلاد ليثير دعر العرب لا ليستخدمها فعليا.

فى ١٩ كانون الأول/ ديسمبر، وصلنا لمولوم، و هى قرية كبيرة يقيم فيها شيخ قبيلة خزعل، لكنه لا يعيش فى منزل أبهى من منازل رعاباه بل فى كوخ حقير من قصب. أما الضابط المريض الموجود امام غرقتى، فلم يتوقه الله، و لم تحسن صحته و كنت قد مللت رفقتى فى هذه الرحله، و علمت أن الدرب آمن نوعا ما عبر الرماحيه إلى مشهد على، و هى مدينة قررت المرور بها من الحلقه، فقررت ترك المركب. و وعدت شيخنا مسلما من بغداد بالسفر معى مجانا إلى مشهد على و مشهد الحسين، فأبدى استعدادا للمرافقتى، و نزولا عند رغبته و رغبه خادمى، و هما من أهل السنه إلى قرية بانسه على الضفئه الاخرى للنهر تدعى ماشويره(Mashwira). حضر لى الشيخ كوخا حقيرا بالكاد يتسع لثلاثة اشخاص، و لم يكن منزله افضل حالا أو أكبر لذا لم اشترك منه، لكن الجياد التى وعدنى بها لن تصل فى اليوم التالى فاضطرت للبقاء ليله أخرى عنده. و لم يعجبنى هذا الرجل لأنه ودى للغاية و لأنه تفحص كل ما احمله معى بدقة، و ساورتنى الشكوك حول، فقررنا القيام بحراسه المنزل كل بدوره، و تركنا القنديل مضاء طوال الليل، لكن خادمى لم يكن معتادا على السهر فنام، و لاحظت اللص ذلك، و فيما كان يسرق آلتى الطابعه، استيقظت و أثرت جلبه فسارع الشيخ و أظهر غضبا شديدا من تصرف كهذا فى قرنته. و ركض فى الحقول وراء اللص كما أرسل الفلاحين إلى نفاط أخرى لكن الجميع عاد خالى الوفاض، و لا أشك أبدا ان الشيخ و اللص واحد، لكن الفطنه تقتضى شكره على سعيه و تقديم هديه صغيره له، و بما أنه لم يعد يأمل أن يفاوضنا أثناء نومنا، تم تحضير الجياد للرحيل فى اليوم التالى.

و فى ٢١ اجتزنا سبعه فراسخ و نصف أو حوالى خمسة أميال و نصف نحو الشمال الغربى حتى الرماحيه. و لم أر على هذا الدرب أى مسجد لكن الكثير من القبب أو الصروح الصغيره التى تعلو قبور الاولياء المزعومين، و يحيط بها ما يبدل على أن بعض القرى كانت تقوم فى المكان. إن كافة الأراضى خصبه، لكن العديد من القنوات الصغيره التى كانت تروى المنطقه جافه حاليا و قلما تصادف قرى فيها، لكن نرى قطعانا كبيره من الغنم و الجياد. و قرب الرماحيه، هناك قناة كبيره تتلقى مياهها من الفرات بعيد عن ميل و نصف الميل، ثم تعود و تصب فيه قرب السماوة (راجع اللوحه XL)، و كانت هذه القناة صالحه للملاحة منذ سنوات، لكن المياه لا تجري فيها حاليا إلا اذا بلغ منسوب المياه فى الفرات اعلى ارتفاع له، و ألقيتها أنا جافه تماما.

بنيت مدينة الرماحيه فى سعه، و تتألف من حوالى ٤٠٠ منزل، يحيط بها سور عال لكنه شديد من الأجر غير المشوى كما فى البصره و فى القرنه، و لا يعمل احد على تصليحه و صيانته فيمكن العبور من خلاله من جهات عدة. و نجد فى المدينة مسجدا عظيما و حماما مفتوحا جميلا للغاية،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢١٠

و قد بنيت معظم المنازل من الأجر غير المشوى. يعيش السكان من الزراعه و من حدائق البلح، و يقال أنهم أثريا. مقارنة على ما أظن مع فلاحى القرى المجاوره. و يجمع شيخ قبيلة خزعل رسم مرور فى الرماحيه، فيبدو بالتالى إن الشيعه يسيطرون هنا.

أقيمت فى الرماحيه عند رجل سنّ و قد سرورنا بإقامتنا، و بقى مضيضى هو إمام المسجد و بالتالى زميل لرويتى فى غرفه مفتوحه من الامام، و لاحظت ان عادات المسلمين تختلف كليا عن عاداتنا.

كانت حماته تجلس امام المنزل، و امرأته تعمل على تحضير الطعام على مسافه منا، و اخبرته ان الأوروبى حين يزوج ابنته لا يتلقى المال من الزوج، و إن كان الاب ثريا، يعطيه مبلغا من المال يسمح له بالعيش و زوجته عيشه لائقه. و أعجبت هذه العاده مضيضى، فسأل حماته اذا ما سمعت ما قلته، و أضاف: «لم تنصرتى معى بهذه الطريقه، يا أماء، و اجرتنى على دفع المال قبل ان تعطيتى بيتك، الخ. و بعد أن استفاض الزوج على هذا المنوال، قالت الام: «آه يا بنى! كيف كنت سأعيش و ابنتى إن اعطيتك حفلى و نمرى؟» ثم



أخبرته أنه لا يسمح للرجل بأن يتزوج أكثر من امرأة واحدة، تحت طائلة التعرض لعقوبة الموت، وأن أملاكه تعود لأولاده، فانبرت المعجوز تقول:

«هل سمعت يا بني ما قاله هذا السيد؟ لا بد أن العدالة تسود في البلد الذي يتحدث عنه!» و تدخلت المرأة، التي بدت وكأنها لم تكن تسمع حديثنا، فقالت: «آه يا زوجي، كيف يمكنك ان تطلب من أمي ان تمنحك منزلها. كنت تعطيه لزوجاتك الاخريات فأنت تحبهن أكثر مني و أنا نادرا ما أراك». و تابعت المرأة و أمها حديثهما على المنوال نفسه، و أخيرا، سألت مضيبي عن عدد زوجاته، فأجابني اربع، و لكن يكلفته الكثير، إذ لكل منهما منزلها و حديثها حيث تعيش و اولادها، أما هو فلم يكن له منزل محدد، لأنه يجد عند كل منهن الطعام و المأوى و المبيت. و حين سألته إن كان يعيش بسلام أكبر مد تزوج أربع نساء. فلم يصدقني الجواب، شأنه في ذلك شأن كافة المسلمين الذين يشيدون بتعدد الزوجات.

في ٢٢ كانون الأول/ ديسمبر، قطعنا سبعة فراسخ أو حوالي خمسة أميال من الشمال الغربي نحو غرب مشهد على. و شاهدت على هذه الطريق العديد من الأتية الجافة و القيب الصغيرة، و يستخدم الفقراء هذه الاخيرة بدلا عن المصليات في غياب المساجد الجيدة، لكن نجد هنا قحولا مزروعة أكثر مما نجد في الجهة الأخرى للرماحية. أخذت مدينة مشهد على اسمها من مسجد رابع بنى كريكما لعلي، رابع خلفاء المسلمين، و يزوره الشيعة من كافة البلاد كما يزور المسلمون كلهم مكة.

و يؤد الشيعة حتى بعد وفاتهم الحج إلى هذه المدينة التي يعتبرونها مقدسة، إذ ينقل إليها الموتي من الرماحية و لموم و الحلة و بغداد و غيرها من المدن المجاورة فضلا عن بلاد فارس و حتى الهند.

سمعت في الزبير أو البصرة القديمة عن ميت دفن سنة كاملة، ثم نيش قبره و نقل إلى هذه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢١٢

المدينة. و صادفت على المدرج بين الرماحية و مشهد على أربع جناز، و من الاخيرة إلى الحلة خمس جناز، و حين سألت ان كان العدد لا يتعدى سبع جناز تنقل من مناطق اخرى إلى هنا، أجيبت ان هذا الرقم قليل للغاية، إذ يدفن هنا سنويا ما يفوق الالفي ميت غريب. و يحصل من يدفن جيدا على قبر قرب مسجد امامهم، و من يدفن اقل يدفن داخل اسوار المدينة، أما ذاك الذي يتعدر عليه الدفع فيعين له مكان خارج المدينة، و لا أظن أن الموتي يدفون داخل حرم المسجد، أو على الاقل في مساجد المسلمين الأخرى، لا نجد سوى قبر مشيد المسجد و أحيانا قبور اولاده و نساته.

و بشكل عام، لا يحب المسلمون أن تكون المدافن داخل حرم المدينة.

أكد لي علماء سنّة أن قبر علي، صهر النبي، لا يعرف مكانه، و يبدو ان عائلته حاولت ان تخفيه عن أعدائها. لكن الشيعة يؤكّدون أن علي دفن في هذا المسجد، و يقولون إنه أعطى الامر بوضع جثمانه، بعد وفاته، على ظهر ناقه، و بدفته حيث تترك بعد اخراجها من الكوفة. و يبدو هذا الامر غريبا من سيد عرف بذكائه كعلي، لكن هذا القبر المزعوم سمح ببناء مدينة، تقع هذه المدينة في منطقة جرداء قاحلة كالسويس و جدة. كما نفتقر للمياه، و تجر تلك المستعملة للغسيل في انابيب جوفية، اما المياه الصالحة للشرب فتنتقل على ظهر الحمير من مكان يقع على بعد ثلاثة فراسخ. و يكثر الكلس في احدى جهات المدينة، فيكنى بالثالي جرف بعض الرماد و الزبل الجاف لصنع كلس جيد للبناء، و بما ان سعر الخشب مرتفع، تبنى غالبية المنازل من الحجر المشوي المطلي بالكلس و بشكل مقب مما يجعلها متينة. و في الجهة الأخرى للمدينة، تطلعتنا منطقة منخفضة يكثر فيها الملح، و يطلق عليها العرب اسم الجزيرة (El Buheire) و اسم النحف، و يدعون انها بحيرة سرفة (Buheiret Sarve) التي جفت عند ولادة محمد.

و يتبع قسم من سكان المدينة المذهب السني، فيما يتبع القسم الآخر المذهب الشيعي، و يكره اتباع هذين المذهبين بعضهم البعض حتى أن السني حين يزور بلاد فارس يضطر للصلاة وفقا لعادات البلاد كي لا يسيء اليه الشعب شأنه في ذلك شأن الشيعي الذي يقصد بعض المدن التركية. أما في مشهد على و مشهد الحسين فيتعايشون قدر المستطاع، و يضطر السنة إلى الخضوع لإرادة الشيعة لأنهم يعملون عندهم، و يجب على الشيعة تجنب المشاكل و إبقاء افسحوا المجال امام الباشا ليجعل الفرس يدفعون غالبا ثمن زيارة امامهم الأول. و يقصد حوالي ٥٠٠٠ شخص قبرى علي و الحسين، و لا يحجون في أوقات معينة كالذين يقصدون مكة، لكن الشيعة يعتقدون أن صلواتهم تستجاب في شهر معينة، لذا يأتون المكان في ٢٧ رجب، و في شهر رمضان و في

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢١٣

العاشر من محرم. و نادرا ما نسمع احدا هنا يستعين باسم الله ليؤكد كلامه، إذ يقسمون كلهم باسم علي، و باسم الحسين في مشهد الحسين، و باسم الشاذلي في المخا. و نسمعهم غالبا يصرخون: «و اعلى! و اشهداه، و احسيناه و اشهداه، كرم الله ذكرا كما!» إن المنظر الخارجى لمدينة مشهد على يشبه إلى حد بعيد محيط القدس اليوم، و هي تمتد على المساحة نفسها تقريبا، و قد رسمت الخارطة على اللوحة XLII. يحيط بالمدينة سور، فيه بابان، باب المشهد قرب الرقم ١، و باب النهر قرب الرقم ٢، أما الباب الثالث الذي يحمل اسم باب الشام قرب الرقم ٣ فمستودع، و قد انهار السور من أماكن عدة حيث يمكن للمرء ان يدخل المدينة من خمسين فتحة، و نجد في المدينة ثلاثة مساجد صغيرة فضلا عن المسجد الرابع الذي يضم قبر علي قرب الرقم ٤، و تكوّنت التلال قرب الرقم ٥ من أقدار الشوارع التي تستقدم على ظهور الحمير. و جعلت المدافن المشتركة قرب الرقم ٦. أما الرقم ٧ فيدل على المنطقة التي تجر منها المياه إلى المدينة عبر اقنية تحت الأرض.

و يلتفت الاظار في المدينة، المسجد المشيد فوق قبر الخليفة و الامام علي، و قد رسمته بقدر ما سمحت لي الظروف قرب الحرف (Al على اللوحة XLII. أظن أنّ ما من صرح في العالم يعلوه سقف ثمين كمسجد الشيعة هذا، و قد دفع كلفته نادر شاه الشهير في بلاد فارس، لكن الطغاة كهذا الاخير يفعلون المستحيل ليهبوا أ نظار الشعب، إن طلاء القبة الكبيرة و سطح المذنبتين بالنحاس ليس بالأمر العجيب، لكن هذا النحاس كله مذهب، و قد استعمل لكل ٨ بوصات و نصف مرعبة طومان ذهبي أى عشرة دراهم المانية. و بشكل هذا المسجد مشهدا رائعا، لا ميثما حين تسطع عليه أشعة الشمس، و بما أن الصرح و المدينة بشكل عام مرتفعان، يمكن أن ترى القبة على بعد خمسة أو ستة أميال. و يرتفع فوق القبة، حيث ترى عادة في المساجد التركية هلال أو عصا طويلة، كفا ممدودة لا بد انها تمثل كفتّ على. و تحيط بالمسجد ساحة مفتوحة يقام فيها السوق يوميا، و نجد امامه ثريا بقتاديل عدة، و يقوم حول هذا كله مبان يقيم فيها بعض المسؤولين

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢١٥

عن خدمة المسجد، و لا يمكن ان يقيموا فيها كلهم، إذ ان عددهم يتجاوز المئة، بحسب ما أكدوا لي، و من ضمنهم العديد من الدراويش الذين يعيشون لشدة فقرهم عند مدخل المسجد و يعرضون صلواتهم على الحجاج لقاء مبالغ صغيرة، و قد صدمت حين علمت بالطريقة التي يقرأون فيها الصلوات لقاء صدقة أو على الاصح لدفع الشعب الفقير المتطير إلى التصدق عليهم. و تجرأت على الاقتراب من مكان يعتره السنة و الشيعة على حد سواء مقدسا، و لو تصرفت بتهور و دخلت المسجد، لربما اجرؤني على اعتناق الدين الإسلامى و لم أشأ ارضاء حشرتي بهذا الثمن. لكن رفيق رحلتي و العديد من الشيعة أكدوا لي أن المسجد يحوى ثروات طائلة، فالقبة مذهبة و قد كتبت عليها آيات من القرآن بأحرف من خرف، كما كتب على الجدران بأحرف ذهبية كبيرة، و نجد أيضا العديد من الشمعدانات من الفضة و الذهب المرصعة بالأحجار الكريمة.

و يكثر الحديث عن سعر خنجر، كذلك الذي يحمله الهنود في أحزمتهم، معلق على قبر على المسوّر، و يقال انه مرصع بأحجار كريمة باهظة الثمن، و أن اورنك زيب (Aureng Zeb) أهدها للخليفة الذي اغتيل منذ قرون عدة. و وصفوا لي قطعاً أخرى كثيرة في المسجد حتى أتى أكاد لا أشك بما يروى عن عربى، بهرته هذا الامور، و حين ذكروه بوجود الصلاة، أجاب حقا، إن الأشياء الفاخرة التي زينت القبر استنى ذكر الله.

و بهتم بهذا الكثر الكبير المتولى (المشرف على المسجد) و الحاكم، كما يرسل باشا بغداد سنويا مسؤولا كبيرا للتأكد من وجود كافة المحتويات. لكن بما ان هؤلاء هم من أهل السنة و من الاتراك، الذين يعرفون قيمة الذهب و الاحجار الكريمة أكثر من أن يتركونها في أماكن مماثلة حيث تلهبهم عن صلاتهم، يعتقد الشيعة انهم يعملون على ابدال القطع الحقيقية بقطع مزيفة.

و تقع مدينة الكوفة الشهيرة، على بعد خمسة أرباع الميل من مشهد على إلى الشمال الغربي، في منطقة منخفضة و خصبة، و نجد هنا مجرى كرى سعدة (Dejare Zaade) (أو بالاكورياس) لكن المياه لا تصل اليه حاليا.

خلت المدينة و محيطها من السكان، أما أبرز ما نجده فيها فهو المسجد الكبير حيث اغتيل علي، كما لم يبق منها سوى الجدران الاربعة التي رسمتها مع الخارطة على اللوحة XLII، قرب الحرف (بB) و يسمى الباب ١، باب القبل، و رسمت قرب الرقم ٢ صرحا

عميقاً في الارض وغير مرتفع، يبدو وكأنه خزان مياه و يسميه العرب السفينة. وقد ذكر الدليل، و هو من سكان

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢١٤

مشهد علي يرافق الحجاج الفرس لرؤية الآثار، و يدعى انه من أبناء الكوفة القدامى، أن سفينة نوح توقفت في هذا المكان. و يطلق على الصرح الصغير المستدير قرب الرقم ٣ اسم المسقاخانه (Sikke Khan)، و كانت المياه توزع هنا كما يدل ذلك اسمه، لكن هذا الصرح ليس بقديم إذ نلاحظ فوق الباب حجرا كتب عليه بأحرف عربية كتلك المستعملة اليوم و التي لم تكن معروفة في زمن علي. و بنى صرح صغير قرب الرقم ٤ حيث اعتاد الحسن و الحسين اداء صلاتهما، و نلاحظ في الحائط الخلفي كوة في المكان الذي يزعمون أن موسى الكاظم كان يصلي فيه.

و تدعى الاعمدة ٥، ٦، ٧، مقام سيدنا عيسى، مقام موسى و مقام ابراهيم الخليل، و يعتقد المسلمون ان المسيح و موسى و محمد صلوا في هذه الامكنة. و قرب الرقم ٨ نرى المكان الذي كان زين العابدين يصلي فيه عادة، و قرب الرقم ٩، أدى كل من علي و نوح صلاتهما، كما نجد هنا منبرا بدرجة، يبلغ ارتفاعه عشرة أقدام. و يقال إن نوح بنى اول منزل بعد خروجه من السفينة قرب الرقم ١٠، و نجد قرب الرقم ١١ قبر جعفر بن معمر و قرب الرقم ١٢ ضريح مسلم بن عقيل، و مسلم هذا هو ابن اخ الخليفة علي و قد قتل مع هاني بن عروة الذي آواه في منزله، و نجد قبر هذا الاخير قرب الرقم ١٣. و لم بين الشيعة هذين الصرحين إلا في وقت لاحق، لأنهم يعتبرون مسلما و هانئا، و كل من مات من أجل علي و اولاده شهداء. كما نجد بعض العواميد في حرم المسجد المذكور، مع أجنحة صغيرة لراحة الحجاج الذين يودون البقاء ليضعة أيام.

ووجدت في غرفة مسلم كتابية عانت قليلا من آثار الوقت، و نستنتج منها ان من محمد بن محمود الرازي و ابي المحاسن بن احمد التبريزي، أقاما هذا الصرح في العام ١٨٦ للهجرة. و تقول الكتابة:

«هذه العمارة مشهد ... مسلم بن عقيل بن أبي طالب عليه السلام في أيام الصحابين المخدومين على الحق و الدين ... و شمس الدين و الذي محمد بن محمد الجوني اعز الله انصار دولتهما بتولي ارقاب عبيدهما محمد بن محمود الرازي، و ابي المحاسن ابن احمد التبريزي عفى الله عنهما في شهور سنة احدى و ثمانين و ستمائة و صلى الله على سيدنا محمد النبي و آله.

و نلاحظ لقب لحد جعفر بن معمر الكتابة الكوفية الواردة على اللوحة XLIII قرب الحرف (A)، أما بالأحرف العربية الحديثة فهي: قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ (٤). هذا قبر جعفر بن معمر رحمه الله و غفر له، صلى الله على محمد و على آل محمد.

أما الكتابة الواردة قرب الحرف (بB) و التي وجدتها على جدار المسجد، فليست سوى الآية

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢١٨

٢٥٦ من السورة الثانية في القرآن وفقا لتقسيم ماراقيوس (Maraccius)، و بما أن السيد ريسك و ذ ان أخضر كافة الكتابات الكوفية التي نسخها من أجل الذين يودون معرفة هذه الحروف. لم اكتف بهذه الكتابة بل اضيفت كتابات أخرى صغيرة قرب الحرفين (جC) و (D). و نجد في بغداد حاليا، أمثلة عدة عن طريقة تزيين المنازل بالكتابات العربية بالأحرف الكوفية كما في هذه الكتابات الأخيرة.

أمرت عادلة خاتون (Adila Chatun)، زوجة سليمان باشا، ببناء جزء من الجدار الشمالي الغربي للمسجد و بترميم الجزء الآخر، كما أمرت بتشيد صرح صغير مع قبة تكريما لابنة نوح، و أشار الدليل إلى المكان الذي غسل فيه جثمان الخليفة علي، و الي غرفة صغيرة في هذا الصرح صنعت فيها ابنة نوح الخبز بحسب ما يزعم. و نرى صرحا صغيرا مخصصا لبنات علي الثالث، و لعلهن دفن هنا. و على بعد حوالي ربع فرسخ إلى الشمال الغربي من المسجد الكبير، أشار الدليل إلى مسجد آخر هو مسجد صاحب الزمان المهدي، و روا لي حكاية طويلة لم أفهم مغزاها. و لا تصادف حتى الكوفة إلا بعض التلال الصغيرة و المكونة من بقايا بعض الابنية، و يبدو أن المنازل كانت تبنى من الحجارة و بالتالي لا تهدم بسهولة كما في البصرة. كما نجد بين هذه البقايا، عملاق قديمة لا قيمة لها اليوم، و بما أن المسلمين لا يجمعون أمورا كهذه، و بما أن الأوروبيين لا يزورون مشهد علي (على حد علمي، لم يرها أي أوروبي)، لا يمكن للمسافر ان يتوقع شراء أي منها هنا.

و لم يثر اهتمام خادمي في الكوفة سوى بقايا عامود حمله على نفسه إلى المدينة، و هو قرب السفينة داخل المسجد الكبير، و يتميز بأنه لا يمكن لأمري، لم تكن امه وفيه لولده ان يحضنه تماما. و أراد الموجودون من عامة الشعب القيام بهذه التجربة للتأكد من هويته و الدهم الحقيقي، و سزوا جميعا بالنتيجة باستثناء سانس واحد، و اولوا ايهامه بأن العامود يتمدد بسببه، فقام الرجل المسكين بمحاولات بانسة لحضنه كليا. و ينظر العقلاء من المسلمين إلى هذه التجربة على أنها تسلية لعامة الشعب.

في ٢٥ كانون الأول/ ديسمبر، سافرت من مشهد على إلى كفيل (Kefil)، و قطعت بالشالي أربعة فراسخ و نصف نحو الشمال، ثم اجترت المسافة نفسها إلى الشمال الشرقي فوصلت إلى الحلة، نستنتج من ذلك أن المساحة بين المدينتين هي تسعة فراسخ أو سبعة أميال. و تحوي كفيل قبر حزقيال الذي يؤتمه اليهود سنويا، لكن هذا النبي لا يملك كنوزا، و لا فضة، و لا ذها، و لا أحجارا كريمة، حتى و إن أراد اليهود تقديم هدايا كهذه له، لما تركها المسلمون طويلا، لذا يكتفون بإذن الحج، و لا ترى في مصلى النبي سوى قبر مسور تحت برج صغير، أما مالكة المكان أو حارسته

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢١٩

فعايلة عربية، بنت في المكان مسجدا جميلا صغيرا، علوه منذنة. و لا تدفع هذه العائلة اية ضريبة للاتراك، حيا بالنبي و حسب، كما تكسب الكثير من المسافرين الذين يحلو لهم الاستراحة هنا.

و يحيط بقبر حزقيال، و بالمسجد و بمنازل العرب الخفيفة سور متين و عال، تبلغ مساحته ١٢٠٠ قدم، و يقال إنه بنى على حساب يهودي من الكوفة يدعى سليمان، و يبدو أن اليهود يقومون بترميمه حاليا. و في موعد صبح اليهود، يؤم البلاد عرب يأتون لفتنتهم أو على الاصح لمطالبتهم بالهدايا، و من الأفضل ان يتفقوا معهم بالحسنى، لكن اليهود جبناء و خجولون. و يخفيهم عدد قليل من المسلمين و إن كانوا هم أقوى منهم مما يجعل العرب و قحاة متعظسين، فيكتفي اليهود بالبقاء بحسين في قلعتهم الصغيرة أو حانئهم كما يستونوه. و لا تجرأ اليهود على اطلاق النار على أعدائهم، و لو لمرة واحدة، حتى و إن حملوا أسلحة نارية، لأن الدم الإسلامي الذي سيريقونه سيدفون ثمنه غالبا، و لن يتوانى العرب عن ترقب قائلهم المقبلة و مهاجمتها و سلبها. لذا يجب ان يبقى الحجاج في حانئهم حتى يتخلصهم حاكم الحلة، أو باشا بغداد، إن كان عدد العرب كثير، و يكلفهم هذا أكثر مما يطلبه العرب. و بما ان هؤلاء الاخيرين يضطرون إلى الانسحاب خالي الوفاض تقريبا، يشكل هذا تنبيها لهم بعدم التعرض مرة أخرى لليهود.

و تصادف بين كفيل و الحلة العديد من الانهار الصغيرة الجافة خلال هذه الفترة من السنة، و لا ترى ما يثير الاهتمام على هذه الدرب سوى بعض منازل الفلاحين المتفرقة و عددا من القبب فوق قبور اولياء المسلمين.

في ٢٦ استرحت في الحلة، و في اليوم الثاني توجهت إلى مشهد الحسين المبني في المكان المشهور بين المسلمين و المعروف باسم كربلاء، و هي تقع على بعد حوالي سبعة فراسخ أو خمسة أميال إلى الشمال الغربي من الحلة، و لا تصادف على طول هذه الطريق (للوحة XLI) إلا الظهاريه (Tomasie) و هي قرية كبيرة بناها الشاه عباس و نجد فيها العديد من حدائق النخل.

لم تكن منطقة كربلاء أهلة بالسكان حين قتل فيها الحسين و بعض اهله و اصحابه، لكن هذه المعركة اتاحت للمنطقة فرصة الاستفادة، فتم جز المياه اليها من الفرات و ترى فيها اليوم غاية من اشجار النخل، أما المدينة فأكثر من مشهد علي و أكثر سكانا، و قد بنيت المنازل فيها بطريقة متينة لكن معظمها من الآجر كما في البصرة و الحلة. يتخلل سور المدينة خمسة أبواب، و هو مبني من الطين و الآجر المجفف في الهواء الطلق، إنما قد انهار بأكمله.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٢٠

و يلتفت الانظار في هذا المكان مسجد كبير فيه مصلى يطلق عليه الشيعة اسم مذبح الحسين و يقال انه يقوم في المكان الذي داست فيه الخيل جسد حفيد محمد و الذي دفن فيه. لكن السنة يشكون في امكانية تحديد مكان مقتل الحسين و دقه بهذه الدقة، و إن كانوا لا يتكروون ان المعركة دارت في هذه المنطقة. و رأيت أن رسم هذا المسجد أخطر من رسم مشهد علي، حتى أني لم أجرؤ على الظهور في فناءه أثناء النهار، لكنني قصدته ليلا معتمرا عمامة تركية، يرافقني رفيق رحلتي، و بما أنه كان مضاه بسبب احتفال كبير، رسمت منظره عند عودتي على اللوحة XLII قرب الحرف (جC) مما يعطي القاري فكرة عن بناء هذا الصرح. تذكر النوافذ في الجدار الامامي، و هو أمر ملفت في بلاد لا تعرف الزجاج ابداء، و لعلها هدية من بعض الفرس الذين ارسلوها من مصنع شيراز. و نجد وراء

الصرح الاسامي، قبة عالية يقال إن الحسين دفن تحتها، وتحيط بها أربع مآذن، و نرى على مسافة قريبة منها قبة أخرى أعرض من الأولى و أقل منها ارتفاعا، فلم اتسكن من اظهارها على الرسم من هذه الجهة. و يقوم كل هذا في ساحة كبيرة تحيط بها من الجهات الاربعة منازل الشيوخ و الدراويش، و تلاحظ أمام المدخل الرئيس للمسجد وجود شمعدان كبير من النحاس كذلك الموجود في مشهد علي. و يتجيب الذهب من الخارج، و لكن يقال إن هناك أشياء ثمينة فوق قبر الحسين لكنها لا تقارن بكنوز ضريح علي.

و يشير الشيعة هنا إلى قبور العديد من أهل الحسين واصحابه الذين قتلوا في معركة كربلاء و يعتبرونهم شهداء، كما بنوا مسجدا كبيرا داخل المدينة تكريما لشقيق الحسين العباس، و قد رووا لى الكثير عن هذا الاخير لكنى لن أورد إلا ما يلي: كان الحسين يعانى من ظمأ شديد، فحفر العباس الارض في مكان يسمى حما قاع (Heima Kaa) ، سآتى على ذكره لاحقا، لكن لم يجد ماء، فقدم حوالي فرسخ إلى الشمال و ملأ قربه، و في طريق العودة، هاجمه الاعداء، و حاولوا الوصول إلى الماء، و قطعوا يده فأخذ القربة بيده الاخرى فقطعوها، عندها التقطها بأسنانه لكن احد الاعداء صوب سهمها نحو القربة و خرقها فسالت المياه منها، و عاد العباس من دون أن يتمكن من إرواء ظمأ اخيه.

و من بين الامكنة التي يقصدها الحجاج هنا، المكان الذى وقع فيه جواد الحسين و خياله، و هو خارج المدينة، على الدرب المؤدية إلى مشهد علي، و قد تم بناء مصلى صغير هنا. و قض على الدليل بالتفصيل ما قاله الامام لعائلته في هذا الموقع، و ما أمر به قاده، لكنى لم أجد داع لذكر هذه الامور هنا. و نصب الحسين خيمته للمرة الاخرية قرب حرية قاع (Heria Kaa) ، و قد تحول هذا المكان حاليا إلى حديقة كبيرة في الجهة الاخرى للمدينة. و نرى في المكان الذى لم يجد فيه العباس الماء ببرا عظيما، امتلا بالماء بفضل أعجوبة و ذلك استنادا إلى رأى الشيعة، الذين يعتبرونه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٢١

مقدسا، فيقصده اناس من بلاد فارس ليعرفوا فيه حبا بالحسين، فلما منهم أنهم سيحبون شهداء.

و نرى في الحديقة صرحا مهبطا من المكان الذى ضربت فيه خيمة الحسين، كما نرى بالقرب منه صرحا آخر منخفضا فيه قبر قاسم العريس و غيره من الشهداء. و سعدت مضيقتى، و هى أرملة عجوز و شيعية متحمسة، حين علمت انى زرت قبر القاسم. إذ إنه وليها المفضل، و روت لى و قد اغرورت عيناها بالدمع، أن هذا الفتى الشجاع كان قد عقد قرانه اى ان عقد زواجه قد تم أمام القاضى بحضور شهود، لكن ليلة زواجه الفعلى، قتل مع الحسين و غيره من الشهداء. و تحفظ هذه العجوز حرقيا ما قاله الزوجان لبعضهما قبل بدء المعركة.

و يأتي بعض السنة إلى مسجد الحسين لأداء صلاتهم بجديتهم الممهودة، في حين ان الشيعة يطلقون صرخات يرثى لها. و كنت فى المدينة عند اكتمال القمر في شهر رجب، حين يتوافد الحجاج لتمضية الليلة قرب قبر الحسين، و بما أنهم لا يملكون تقويما مطبوعا، و بالتالى لا يتأكدون تمام من أيام اعيادهم، يفضى العديد منهم ليلتين في المسجد بغية عدم تفويت اللحظة الحقيقية.

و تفاعلت حين رأيت هؤلاء الناس المطيرين يتقبلون باب الفناء بخضوع فضلا عن باب المسجد، و يقال انهم يكفون بتقبل البلاط داخل المسجد، بل إن بعضهم يضرب رأسه بالجدار و القضبان الحديدية تألما على مقتل الحسين. كما يرى أن بعضهم بلغ تأثره الذرورة فأقدم على قتل نفسه قرب قبر امامهم الكبير فلما منهم أنهم سيحبون شهداء و أنهم سيدخلون الجنة لأنهم ضحوا بأنفسهم حبا بالحسين. و اعترف انى لم أسمع شيئا بكآبة ما يقوم به الشيعة في مسجدهم، إذ يصرخون و يبكون و يتأثرون كما لو كان الحسين أباهم أو أنه توفي لثوه، و لم يكن هذا يدور بلبوعه أو حزن يدعونه كما تفعل الباقيات فى المآتم اللواتى يبكين مقابل بعض المال، بل تشعر أن الحزن حقيقى و صادق، فتراهم محمرى العيون عند خروجهم من المسجد، و أظن بشكل عام أن الشيعة أكثر اخلاصا و تشددا فى هذه المدينة منهم فى مشهد علي، و لو أن الحكم لهم فى هذه المدينة، لما رأيت سنيا واحدا فيها، و تمنحهم الحكومة التركية حرية اداء واجباتهم الدينية على طريقتهم فى كافة الاماكن التى يعتبرونها مقدسة لأنها تنجى فوائدهم من ذلك. و لا يتقاضهم السنة العقلاء حين يستون الحسين اماما و شهداء، لكنهم لا يتجرأون هنا على لعن الخلفاء الثلاثة الاوائل، و هو أمر قاس بالنسبة لشيعى متطرف سيما فى هذين المكانين المقدسين.

و ينبغى أن يتنبه المسافرون عامة، و الشيعة خاصة من المجموعة من الانكشاريين المتشردين التى طردت من بغداد بسبب سوء تصرفها، و التى تحاول التعرف على الفرس الغائبين. يروى الانكشاريون للفرس اخبارا فظيعة عن الحكومة التركية و عن السنة بشكل عام، و ما إن يباد لهم الغرب اطراف الحديث حتى يتشاجرون معه، و يتهمونه بأنه اساء إلى الحكومة أو الدين، و يجدون

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٢٢

اولا شهودا على حديثه، و اذا اراد الفارسى تجنب الوقوع فى يد العدالة اضطر إلى دفع المال بسخاء. و أراد أحدهم، و كان يبدو أتيق المظهر، التعرف إلى فى أحد المقاهى، فلما منه انى تاجر ارمنى، و حين علم انى اوروبى سز أكثر، و أخذ يمدح الخدمات الجلالات التى قدمها له اوروبيون فى حلب و القسطنطينية، و سئى بعض الاوروبيين الذين يعرفهم بأسمائهم، و أعلمنى باستعداده لتقديم اى خدمة لى فى بلاد أنا غريب عنها كليا، و لا يهتم سكانها بالاوروبيين و بالمسيحيين الشرقيين.

و غالبا ما سمعت اطراءات كهذه فى بلاد فارس، و هى لا تعنى شيئا لكننى لم أعتد تلقى عروضات كهذه من عرب أو أتراك، فالتزمت الحذر و حين علمت هوية محدثى تجنبت الرفقة بشكل عام.

تجدد الاشارة إلى أن الكعبة ليست المكان الوحيد الذى يعتبر ملجأ للحمام عند المسلمين، فلا يظردونها من الجامعين فوق قبرى على و الحسين، و الجامع الرئيس فى الحلة و فى مدن أخرى.

و بما أنى تحدثت غالبا عن الشيعة، سأذكر هنا نقاط التباين بينهم و بين السنة : يعتبر كلا الطرفين القرآن كتاب شريعتهما و نظامهم، و يؤمنون ان لا اله الا الله و أن محمدا نبيه. و يقال إن الشيعة يطهرون اجسادهم. و يصلون خمس مرات يوميا، و يمنحون الكثير من الحسنات، و يصومون شهر رمضان، و يحجون إلى مكة مرة على الاقل، لكنهم يفسرون فقرات عدة من القرآن بطريقة مغايرة لتفسير السنة. و بما انهم انفصلوا عن السنة لأن عائلة نبيهم لم تحصل على الخلافة، جعلوا من هذا الامر فعل ايمان يرفضه السنة، و أهمه أنهم يكرهون الخلفاء الثلاثة الاوائل أى ابا بكر و عمر و عثمان، و قد جعل هذا الامر الكراهية تستشري بين الطائفتين. و يجب ان يؤمن الشيعة بالاثني عشر اماما الذين كان ينبغي ان يحكموا برأيهم، الواحد تلو الاخر، لكنهم تعرضوا للاضطهاد عن قبل الخلفاء. و الامام الاول هو على، صهر محمد الذى ذكرته سابقا، و اضاف الشيعة إلى شهادتهم ما يلى: «لا اله الا الله، و محمد رسوله، و على ولي الله»، و يؤكد بعض الكتاب الاوروبيين أنهم يفضلون على على محمد، لكن هذا الكلام غير صحيح و إن كان لذكرى على احترام و اجلال بينهم. أما الامام الثانى فهو الحسن، الابن البكر لعلى و فاطمة، و قد دفن فى مكة. و الامام الثالث هو الحسين (الذى ذكرته سابقا) أخو الحسن، و الرابع يدعى على، و الخامس محمد و يلقب بالباقر، و السادس هو جعفر الصادق و قد دفن هؤلاء الثلاثة فى المدينة. و امام الشيعة السابع هو موسى الكاظم الذى سآتى على ذكر قبره عند الحديث

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٢٣

عن بغداد، و الثامن هو على الرضا المدفون فى مشهد فى خراسان، و قد دفن محمد الجواد و هو الامام التاسع قرب جده موسى فى مسجد فى مدينة بغداد القديمة. و يعتبر على الهادى و الحسن العسكري الامامين العاشر و الحادى عشر، و نرى ضريحهما فى سامراء، و هى مدينة على نهر دجلة شمال بغداد. و يحمل الامام الثانى عشر اسم محمد، و قد تعرض للاضطهاد من قبل الخليفة فلم يعد يظهر علنا، و يقال إنه عاش لفترة طويلة فى كهف فى سامراء، و نجد هناك قبره. و يعتقد الشيعة ان الله أخفاه عن الارض و انه سيعود يوم القيامة تحت اسم المهدي و سيدعو الناس إلى مذهب الشيعة. إن المسجد قرب الكوفة الذى ذكرته سابقا و الذى يحمل اسم صاحب الزمان المهدي، قد بنى تكريما لهذا الامام.

و يزر الشيعة قبور الامام الاول و الثالث و السابع و الثامن و التاسع لأنها الاقرب اليهم، و يحج بعض منهم إلى سامراء، لكن لا ينال احد لقب حج ما لم يزر الكعبة فى مكة و لو لمرة واحدة. و لا يقصدون قبور الشهداء من اصحاب محمد إلا فى المناسبات، و قلما نجد قرية شيعية أو سنية تنفتقر إلى قبر ولى ما، لكن الغرياء من المسلمين لا يهتمون بها و يكفون بصلاة قصيرة فيها من دون الاكترت حتى لاسم هذا الولى.

و يصلى السنة عامة فى الاوقات المحددة للصلاة، اى إنهم يؤدون صلاة الظهر ما بين الساعة الثانية عشرة و الثالثة بعد الظهر، و صلاة العصر بين الثالثة بعد الظهر و المغرب، الخ ... و إن تقاعسوا عن الصلاة فى الوقت المحدد، لا يعتقدون أن الله يقلل من الالسان ان يصلح خطاه بأداء هذه الصلاة فى وقت لاحق. و يجعل بعض الشيعة (لعلمهم من الجعفرين) الذين سافرت معهم فى بلاد فارس

صلاتهم اسهل اذ يكتفون بالصلاة عند المساء عن النهار بأكملها، ولا يؤدي هؤلاء صلاتهم بخشوع كالسنة، فقد لاحظت ان بعضهم يتوقف أثناء صلاته للاستماع للاحاديث و يشارك فيها احيانا. لكنهم يغسلون قبل الصلاة، ويفرشون سجادة أو عبادة كى لا يتسخوا اثناء سجودهم.

و يضعون قرصا من الارض التي قتل عليها الحسين والتي يعتبرونها مقدسة في المكان الذي يلمس فيه جبينهم الارض لأنهم يظنون أن صلاتهم مستحبر كما لو أنهم أذوها قرب قبر امامهم. عند انتهائهم من الصلاة، يحملون سبحة مصنوعة من التربة ذاتها، ويكروون بعض الكلمات حتى انتهاء الجبات، ثم يسرحون لحامهم.

وتصنع السجدة والسجدة اللتان ذكرتهما في مصنع في مشهد الحسين تملكه منذ سنوات عائلة تدعى تجدرها من محمد أي إنها من السادة (السياد)، وتتبع المذهب الشيعي، لكنها تدفع سنويا مبلغا كبيرا لياشا بغداد لقاء هذا الامتياز. وتباع هذه الاغراض في مبنى صغير قرب مسجد الامام، و طلبت من الشيخ شراء بعضها، ورسمت اشكالها واحجامها المختلفة على اللوحة XLII قرب

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٢٤

الحرفين (D) و (K)، فاستنتج منها أنها محفورة بشكل جميل. كما اشترت مدرجا يبلغ طوله سنة أقدام و ثلاث بوصات، و عرضه ثمانية أقدام، عليه صور للكعبة و قبر محمد و قبور الائمة الاولين و أمور أخرى يزورها الحجاج، لكن الرسم سييء للغاية و مليء بالالوان فضلا عن الذهب و الفضة. و رسم على هذه الورقة البراق الذي امتناه محمد في رحلته إلى السماء، و جعل يحمل الوشاح الثمين الذي يرسل سنويا من القاهرة إلى مكة، و اسد (ربما يمثل علي)، و جواد على الميرقش الشهير لدلدل، و عبده الوفي قنبر، و حسامه الذائع الصيت ذو الفقار، و اخيرا الختم النبوي الذي يقال إن محمدا يحمله على ظهره. و لن يروق لقارئ أن احفر هذه الصور بحجم متوسط، لكن بما أن ذكر ذو الفقار يرد غالبا في قصص العرب، رسمته قرب الحرف (F)، و هي صورة فريدة و كبيرة للغاية، لكن لا بد أن رجلا شهيرا كعلي و قويا مثله، اعتاد أن يحمل حساما فريدا و عظيما. و يبلغ حجم السيف المرسوم على هذه الورقة سنة أقدام و نصف مقارنة مع حجم الصور الأخرى. و سيجد الأوروبيون هذه الصورة غريبة للغاية، لكن إذا اعتبرنا ان المسلمين يجعلون سيف على ذا حدتين، و أنهم حاليا لا يعرفون سوى الحسام، لا يمكننا أن نلوم الرسامين الشرقيين الذين يتبعون مذهبهم و يرسمون ذا الفقار بحيثين. ألا يرسم الأوروبيون أشياء من الشرق لم يروها بأنفسهم بطريقة غريبة أيضا؟

و نرى على اللوحة نفسها قرب الحرف (G)، أثر ختم الرسالة الذي يحمله محمد، و قد كتب عليه بالعربية، لكن أكد لي أحد رجال الدين السنة أن العلماء غير متفقين حول طبيعة هذا الختم، و يدعي ان لمحمد عيناان خلفيتان في هذا الختم يرى من خلالها ما يدور خلفه. و رسم البراق على الورقة على شكل جواد مسرّح، له رأس امرأة بشعرها الطويل، و جناحين صغيرين و ذنب عريض.

تعرض المذهب الشيعي المسيطر في بلاد فارس منذ أكثر من مئتي عام، و الذي انتشر خارج حدود هذه المملكة، منذ سنوات عدّة، لخطر الإبادة على يد نادر شاه. و حاول هذا الأخير ذلك إما غطرسة و إما تفاخرا، كى يدعى انه أسس مذهبا جديدا، و لعله اعتقد أن سلالة لن تضاهيه و ظن أن المذهب الجديد سيقبها على عرش بلاد فارس. و قد نجح الشاه اسماعيل في عمل كهذا في ما مضى، لكن نادر لم يكن مطالعا على القرآن و تفسيراته المختلفة، و إن أظهر قيمة عظيمة و خبرة كبيرة حتى أنه لم يكتف بإخضاع بلاد فارس كلها و الهند أيضا، لكنه افتقر إلى الميزات الاساسية التي تجعل منه مؤسس مذهب جديد، لذا اساء إلى الدين بالتغييرات التي ادخلها، و قبل ان أخوض

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٢٥

في الحديث عن محاولة هذا البطل الفارسي الكبير، سأتى على ذكر بعض الامور المتعلقة به كاصله و شخصيته.

يتحدر نادر شاه من عائلة كيركلو (Kirklou) و هي من قبيلة أشار (Aschares)، من سلالة التركمان التي أقامت في تركستان سابقا، لكنها عادت و سكنت بلاد فارس كيعض قبائل التركمان و الاكراد و العرب الأخرى.

إذا، هو نبيل تركماني وولد في بلاد فارس، و ليس هولنديا كما شاع في أوروبا، و يمكن مقارنته من حيث ولادته بشيخ عربي صغير وضعت عائلته نفسها تحت حماية قبيلة كبيرة، لكنه تمكن من الاستفادة من المشاكل القائمة آنذاك في بلاد فارس. و نارت معظم المملكة ضد الشاه، لا سيما بعض الامراء في اقليم خراسان البعيد الذين اخذوا يستقلون عندما حاول نادر شاه مع بعض الرجال ان يصبح حامى بعض القرى، و ازدادت امواله بسبب المساهمات و الجزى و أخذ يجمع الرجال حوله و يطردهم الذين اخذوا حقوه. و ان صادف جار أقوى منه سعى إلى كسب صداقته و وعده بمساعدته في مواجهة جار آخر، و إن غلب هذا الأخير، عرف نادر شاه كيف يتخلص من الآخر إما بالحيلة و إما بالقوة، و كيف يستميل معظم رجاله الذين يبحثون عن قائد يسهل لهم عمليات النهب و السلب، و هكذا، امسى قائدا لآلاف من الرجال، و سيّد اقليم كبير فيه حصون عدة صغيرة. خلال هذه الحروب الداخلية في بلاد فارس، يبرز العديد من هؤلاء الجورين، و أصبحوا اسياة مستغلين لمناطق شاسعة، حتى أن كريم خان الذي يسيطر على قسم كبير من المملكة الفارسية لا يتحدر من نسب أفضل من نسب نادر، إنما هو كردى من عائلة سند (Sand) البدوية التي تعيش من نتاج الاغنام. وضع نادر أسس العظمة التي وصل إليها، حين عرف كيف يسدى الخدمات الضرورية لظهماز شاه (Thamas)، الذي خسر مملكته بسبب الاغتان و المتمردين أمثال نادر نفسه، اذ قدّم للملك الاقليم الذي سلبه منه و خدماته لمواجهة متمرد قوي، فال عفوه حين استقدم جيشا صغيرا.

كان ظهماز شاه سيدا ضعيفا، غير قادر على قيادة الجيش القليل العدد الذي تركه له المتمردين، و اتكل في هذا على قائده، و هو رجل شريف لكنه ليس بالجندى الماهر و الماكر أو على الاصح لم يكن خبيرا بقيادة الرجال كنادر. و كان بإمكان هذا الأخير ان يواجه جيش الشاه الصغير و يهزمه، لكنه فضل تسليم الحصن الذي سلبه من صاحبه الشرعى و لم يطلب من ملكه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٢٦

سوى شرف مساعدته، مع رجاله، و تحت إمرة القائد المذكور أتقا على طرد المتمردين. و خضع نادر في بادئ الامر لأوامر هذا القائد، و تغلبوا على جاره و عدوه الذي لم يتمكن من مقاومته وحده. أحب الفرس ملكهم، و لم يتخلوا عنه إلا لأنه غير قادر على قيادة جيش بنفسه و لا يملك ضابطا كفوا يمكنهم من مواجهة المتمردين.

اشتهر نادر في خراسان، و ازدادت قوة جيش الملك يوما بعد اليوم، و خضعت المنطقة كلها له، لكن البطل الشاب لم يكتف بذلك، و مع إخضاع المتمردين و طردهم، شرع يتقرب من الشاه، و أقره باعدام قائد جيشه المعجوز و الوفي. و هكذا، أصبح نادر قائدا لجيوش سيده، و كثرت الاشاعات حول القائد القديم و اتهم بالخيانة، في حين أن نادر الذي خضع للملك بارادته، و الذي سعى إلى نيل سمعة من لم يحاول الحصول على السلطة لنفسه بل مكن سيده من السيطرة على خراسان، اعتبر خادما و فيا. و التحقت أعداد هائلة بجيش الملك الشرعى الذي يرأسه قائد شجاع و حذر، و اخذت المناطق تخضع له الواحدة تلو الأخرى، و خشي نادر ان يتمكن أحدهم من التقرب من سيده فيدفعه إلى التخلص منه كما فعل هو بالذات سيفا. و للحوؤول دون ذلك، أخذ يجعل من الملك أضحوكة الضابط الهمين، و عمل على طعنه في جلسة عامة، و تم تعيين أحد الامراء، و هو ولد مريض، شاها و أصبح نادر بالتالي حاكما للمملكة. بعد وفاة نادر شاه، أتبع المتمردين السياسة نفسها، فحاول العديد منهم إيجاد احد افراد العائلة المالكة (أى متحدر من احدى الايعرات. لأن الامراء كلهم قتلوا) بحجة اإصاله إلى العرش، و حصل هؤلاء على عون أكثر من المتمردين الذي صرحوا عن رغبتهم في الوصول إلى سدة الحكم. كما وصل كريم خان إلى مبتغاه بهذه الطريقة أيضا، اذ استقدم فى اسمه اسماعيل هو ابن السيد مصطفى و ابنه الشاه حسين، و اطلق عليه اسم اسماعيل شاه و عامله معاملة الملوك، و أعلن انه لا يسعى للحصول على الحكم لنفسه إنما لأحد افراد العائلة المالكة القديمة، لكنه لم يعد يخشى المتمردين، فترك اسماعيل شاه في احدى القلاع يتمتع بأيجاد الملك التي تقدم له، في حين لا يحمل هو سوى لقب و وكيل أو حاكم، و يحكم فعليا كطاغية.

حكّم نادر كوكيل للمملكة حتى وفاة الملك الشاب، فدعا إلى اجتماع الفرس فى سهل موغان (Mogan)، و أخذ يعدد الخدمات التي أداها للمملكة، و ترك لكبار الامة حرية تقرير ما اذا كانوا يفضلون اعادة ظهماز شاه (الذي لا يزال حيا) إلى العرش. أو اختيار ملك آخر، و رافقه إلى الاجتماع جيش يتألف من مئة ألف رجل مخلصين له لأنهم انتصروا تحت امرته و جمعوا غنائم

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٢٧

عدة. عندئذ، قام احد حلفائه، و هو رجل واسع النفوذ و بليغ، و أعلن أن ما من احد يستحق حكم هذه المملكة أكثر من القائد الذي خلصها من الأعداء، و أتيد الجيش هذا الاقتراح، فلم يتجرأ أحد الاعيان على الاعتراض. يقال إن نادر شاه لم يكن يأبه ان عين شاه، حتى انه أراد ان يفكر الفرس مليا بهذا الأمر العظيم كى يخشاروا أكثر الناس كفاءة كملك عليهم. كما أنه اعترض قائلا انه لا ينمى

حاليا، بعد أن استتب الأمن في بلاد فارس، سوى أن يستريح في إحدى مناطق خراسان التي سيحتفظ بها لنفسه.

أعاد نادر للمملكة معظم الأراضي التي اقتطعتها الدول المجاورة و سلبها المتمردون، وبالتالي قدم خدمات جسام للبلاد. فإن استلم العرش، تحافظ بلاد فارس على عظمتها، لكن إن أعيد الحكم للشاه الشرعي أو تم اختيار أحد الخانات الذين يخضعون لنادر، قد لا يعجب الأمر الجيش و يتفرق فيتقاسم القادة الذين يتقودون قبائلهم الخاصة و جندهم المقاطعات في ما بينهم، فاضطر الفرس إلى تسليم العرش لنادر. و بما أنه لم يكن يأبه لخيارهم، تمنى الفرس ان تعب من الحرب، و أن يبحث عن السلم بصفته شاهًا، حيا برعاياه، و بانتظار أن يتخذ نادر قراره حول قبول الحكم أو رفضه عاش الجيش و الجموع في قلق.

و لم يكن نادر و وحده من اتباع المذهب السنّي، بل القسم الأكبر من جيشه الذي يضم العديد من الافغان و التركمان و الاكراد و العرب، و يقال ان القائد كان يفضل هؤلاء على ابناء البلد من الشيعة.

و كان هذا الأمر يستحق الانتباه عند اختيار ملكك من مذهب مختلف، يحيط به العديد من ابناء دينة في جيشه يرأسهم قادتهم الخاصين، لكن هؤلاء لم يهتموا يوما بالدين، و ظن الناس ان نادر يفضلهم لأنهم اعتادوا على العيش في الغيام منذ نعومة أظفارهم وبالتالي هم جنود الشجع و أفضل من الفرس الذين يفضلون العمل بالزراعة و التجارة، و العيش في ترف و رفاه. و لم يظهر نادر حتى ذلك اليوم، أيّ تعلّق بالدين أو أي تطرف، و جل ما فعله هو اقتلاع كراهية الدين من جيشه و ترسيخ الوحدة بين أفرادهم، و أمل الفرس ان يبقى متسامحا و هو شاه كما كان و هو قائد للجيش. و أخطأ الفرس في اعتقادهم هذا، إذ إن نادر، و بعد أن جعلهم ينظرون قراره جمع كبار المملكة و أظهر لهم نتائج فرقة الدين الوخيمة، و ذكرهم بالحرب الدامية التي دارت بين الأتراك و الفرس بسبب هذا الأمر، و بوجود العديد من التركمان الشجعان و الاكراد و العرب السنّة في الجيش الذي اخضع المتمردين، و أشار إلى انه لا يجوز ان يحترف محرورو مملكة الفرس و ان يعتبروا كفارا، و أن يسمعوا الاهانات و اللعنات

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٢٨

التي يطلقها الشيعة على الخلفاء الثلاثة الأوائل ابي بكر، و عمر و عثمان، و قال إن السنّة لا يعبدونهم إنما و يحلّونهم و يحترمونهم لأنهم من صحابة محمد و لأن الله اختارهم ليكونوا خلفاء و ذلك على يد المسلمين الذين لم يكونوا سنة أو شيعة، فضلا عن أنهم لن يسيئوا إلى انسان بعد مرور أكثر من الف عام على وفاتهم. و لن يصحح على و هو الخليفة الرابع، الخليفة الاول أو الثاني أو الثالث، و بالتالي فإنّ لعن الخلفاء الأوائل و صحابة الرسول ضرب من الجنون و التطير، و إذا ما اجتمع الشيعة السنّة يسمعون صفك الدماء و يخضعون لإرادة الله الذي أمر المسلمين الذي يؤمنون باله واحد أحد و بنيه بالعيش سوية كالأخوة. اتبع الأتراك مذهب ابي حنيفة، و المصريون مذهب الشافعي، و الافارقة مذهب مالك، و غيرهم مذهب ابن حنبل، لكنهم جميعا من أهل السنّة و يعتبرون بعضهم بعضا مؤمنين و أخوة. و أضاف إن المذهب الشيعي جديد، حين انفصل عن السنّة جز على الامة الكثير من الاجزاء، فإن كنتم مسلمين اصحاء، عليكم اعادة اللحمة بين فرقاء دين نبيكم، لكنكم لستم مضطرون لاتباع أحد مذاهب السنّة الاربعه، فأنتم تجلّون جعفر الصادق، و تتبرون أحد أكبر أئمتكم، و تقبلون بتفسيره للقرآن بالرغم من أنه أقدم من مذهب الشيعة! اكنفوا بذلك، و احملوا اسم الجعفرين، خامس مذاهب السنّة. و إن رفضتم ذلك، و التزمت مذهب الشيعة، و استمرتم في كره غيركم من المسلمين، فلا اريد حكم بلاد فارس. بعد هذا الاقتراح حول تغيير الدين، انسحب نادر ليترك للجموع الوقت الكافي للاتفاق حول الخطوة التي ينبغي اتخاذها، و هل يضعون على العرش، علما ان جيشه المؤلف من مئة الف رجل كان جاهزا.

و كثر البلاغ الذين أشادوا بالقائد و بالخدمات التي أسداها للأمة، فضلا عن ثقاه و حماسته للدين، و وجدوا أفكاره حول الذين هم من غير دينه عادلة للغاية، و تصرفاته عادلة، و اعتقدوا بضرورة التنازل و تنفيذ ما طلبه هذا القائد الجور و النصف الذي لا يمهه سوى راحة الانسانية، لكن بعض الحضور الذي يعرف مكان نفس نادر، اقترح التروى في أمر بهذه الاهمية، و طلب رأى شيخ الاسلام (المفتي) فأشاد هذا الاخير بإنجازات القائد، و اعلن ان ما من احد يمكنه اقرار السلم و الامن في البلاد أكثر من نادر شاه الذي اخضع الاقاليم كافة. أما في ما يتعلق بتغيير الدين، فرجا الشاه الجديد أنّ يتسرع في ذلك و أن يسلم هذا الموضوع المهم لرجال الدين كي يدرسوه لاحقا.

عندها، علت أصوات تندد بوقاحة رجال الدين و ابراهيم لمصالحهم الخاصة، فهم يثيرون التزاعات بين المسلمين و يمارسون الاضطهادات كافة الخ، و قتل هذا الرجل العجوز على يد الرجل الهادي، الذي كان يتحدث منذ لحظات بإنسانية و محبة عن أبناء الديانات الاخرى، عندئذ، لم يعارض أحد تغيير الديانة و أعلن نادر شاهًا، فحرق عقدا يعلن فيه أنه يقبل بحكم بلاد فارس بناء على طلب الفرس أنفسهم و لأنهم أعربوا بعلء ارادتهم عن استعدادهم للاتحاد مع السنّة، ثم أرسل فرمانا إلى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٢٩

كافة الاقاليم يمنع فيه السكان من لعن الخلفاء الثلاثة الأوائل و يلزمهم بذكرهم باحترام، كما يمنهم من الاحتفال بذكرى الحسين، باختصار لن يقولوا شيعة إنما سيشكلون المذهب الخامس للسنّة تحت اسم الجعفرين.

و هكذا، أعلم نادر شاه الفرس، منذ بدء حكمه، ما ينبغي أن يتوقعونه منه، و وجد العديد من رجال الدين أفكار الزعيم الجديد حول الدين ممتازة، فنولوا مناصب رفيعة، و كثر الحديث عن التسامح و المحبة ازاء الديانات الاخرى فضلا عن القضاء على التطير الخ. و وصف الشيعة بالخبثاء الجاهلين، الذين يسيئون تفسير القرآن و يمارسون شعائر غريبة، و يظنون أنهم يتقربون من الله بكنائهم و نحييم على موت الحسين. لكن مهما حاول الجعفريون السخرية من أتباع المذهب القديم، انتشرت ديانتهم ببطء شديد، لأنهم لم يتمكنوا من نشرها بالطباعة، و لم يؤمّنوا وظائف لأتباعها لأن عائلة مؤسس أي مسجد، تمنح المهمات فيه. و حاولوا جاهدين، دعوة الشيعة لعدم لعن الخلفاء الثلاثة الأوائل، و عدم الكباء على الحسين، لكن هؤلاء اعتادوا منذ سنوات سبّ ابي بكر و عمر و عثمان، فيستحيل عليهم حاليا اعتبارهم اناس شرفاء، و بما أنهم وجدوا العزاء في الكباء على حفيد نبيهم رفضوا ترك هذه العادة. و تبين بعد مراقبة تصرفات الجعفرين أنهم غيروا دينهم و لم يبدلوا طباعهم، و اذا ما اتهم رجال الدين الشيعة بالطموح، تبين أن الجعفرين يبيحون عن المكاسب و يسعون وراء الثفوذ، و ان اتهم رجال الدين بالتطير، اتهم الجعفرين بالتشكيك اذ لوحظ أن رجال الدين لا يقصدون المسجد إلا لقاء أجر و أن العلمانيين لا يكثرثون بالدين ظنا منهم أنهم يتعدون بذلك عن التطير، و يتهم الشيعة بأنهم اعداء لغريم من المسلمين، و يدان الجعفرين بالتهمة نفسها، اذ يظهرون الاحترام و الرفق في تعاملهم مع غيرهم من المسلمين علما أنهم يكتون لأنواع مذهب أجدادهم و هذا لا يتناسب و مبادئهم. و وصف نادر شاه بالمشكك و الكافر و مضطهد عائلة ملكهم الشرعي الذي كان على الدين الصحيح. و قيل إنه وصل إلى العرش بالخداع و بقوة السلاح، فثار الرعايا عليه كلما اتحت لهم الفرصة. و من جهة أخرى، استغرب نادر الذي يعتبر نفسه مخلص الفرس من نير الظلعة (و لا يحسب وحده بينهم) من افغان و أتراك و روس، و الذي اراد أن يكسب صيت من لم يقبل بالسلطة إلا بناء على رغبة الفرس أنفسهم، نكرانهم للجميل، فأخذ يعاقب المتمردين، و بالرغم من ذلك، استمرت الثورات و استمر في قمعها، فأمسى طاغية متجيزا. لو لم يعمل نادر شاه على تغيير الديانة، لأحبه شعبه، و لتمكن من خلع السلطان التركي و نهب القسطنطينية، كما فعل بالمغولي و بمدنيّة دلهي، لكن حياته كلها غدت حربا متواصلة اذ توجب عليه مقاومة اعدائه الخارجيين و قمع رعاياه الشائرين، و اخيرا، و بعد أن أتعب البلاد و قتل الكثير من سكانها، و بالرغم من انتصاراته، اغتيل في خيمته.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٣٠

و لم يكن نادر شاه يهتم بالدين بحد ذاته، و لم يكن يتبع سوى اهواته أي عجرفته، و طموحه و بخله. و يدعون إلى نادر ارساء اسس ديانة عالمية مستوحاة من ديانة المسلمين و المسيحيين و اليهود، لذا أمر رهايا كاتوليكيّا بترجمة الانجيل إلى اللغة الفارسية، و اليهود بترجمة التوراة، و كلف علماء مسلمين بوضع أسس ديانة جديدة من هذه الكتب و من القرآن. و لا يمكنني أن أرف عن مدى صحة هذا الأمر، لكنه عمل جديا على توحيد السنّة و الشيعة، و قد أعطى محمد مهدي خان معلومات واسعة حول هذا الموضوع. و عند وصوله إلى العرش، و لثقته بأن السلطان لن يعارض قيام مذهب سنّي خامس، لأن جعفر و آبا حنيفة و غيرهم من أصحاب المدارس، عاشوا قبل مذهب الشيعة، أرسل إلى القسطنطينية رسولا يحمل التعليمات التالية :

١) و بما أننا نخلّينا عن رأينا القديم و اتبعنا مذهب أهل السنّة، و بما أننا نعرف بمقام جعفر الصادق السامي (سلام الله عليه)، نرجو أن يؤكد علماء الأتراك تحوّلنا و ان يعتبرونا المذهب السنّي الخامس.

٢) و بما أنّ في الكعبة، أربعة مساجد للمذاهب الاربعه، ليين مسجد آخر باسم جعفر.

٣) و حين يرسل ستويا أمير حاج، أو قائد لحجاج بلاد فارس، يرافقه امراء من مصر و سوريا للدفاع عن الحجاج الفرس، لينضم أمير

الباب اليهم للهدف نفسه .

٤) ليطلق سراح السجناء من المملكتين، و لتقام تجارة حرة بين الامتين.

٥) ليرسل حاكما للمملكتين سفراء، كل إلى بلاط الآخر، ليتموا بشؤونهما، ويعزوا السلام بين الامتين.

وقبل السلطان أولا- بالمادتين الاخيرتين، لكنه اعتذر عن القبول بالافتراح الاول حول المذهب الجديد و بالافتراح الثاني حول بناء مسجد جديد في مكة. أما بالنسبة للحجاج، فاقترح الا يمروا عبر سوريا بل أن يسافروا مباشرة عبر مشهد على و الصحراء إلى مكة، و يؤمن باشا بغداد حمايتهم أي أنه يوفر لهم قائدا للناقلات. سمعت في بغداد أن الأتراك خشوا أن يطول لنادر شاه أو أحد خلفائه على عرش بلاد فارس، أن يحج و جيشه فيتهب بهذه المناسبة الحجاج السنة و الكعبة و قبر محمد و يسئروا على سوريا، و كان لخوفهم هذا اساسا من الصحة. و ارسل العديد من السفراء

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٣١

الفرس إلى القسطنطينية، و سفراء اترك إلى بلاد فارس للبحث في هذين الامرين، كما كتب نادر للسلطان: «انه قرر التوجه شخصيا إلى تركيا، تدفعه إلى ذلك مشاعر الصداقة و الاحوة. لأنه يرجو أن ينهي هذه المسألة بما يرضى الطرفين خلال لقاء واحد، لكن الامور بقيت على حالها، انما ارسل قائد قافلة تركي مباشرة من بغداد إلى مكة فراققه الحجاج الفرس.

و بما أن الأتراك رفضوا اعتبار مذهب الجعفريين من بين مذاهب المؤمنين السنة الصحيحة، حج شخصيا (في العام ١٧٤٣) إلى مشهد على، و جمع هناك علماء الفرس، و هم من الشيعة أصلا، فضلا عن علماء الافغان و البلقان و بخاري، و هم من أهل السنة، و كلّفهم بجمع الاسباب التي تدفعه إلى اعادة المذهب الشيعي، فضلا عن مناقشاته مع السلطان و باضافة مبادئ الدين الجديد .

فكتب العلماء الموجودون كل ذلك، و وضعت نسخة في المسجد فيما نشرت النسخ الاخرى علنا في بلاد فارس، لكن بالرغم من محاولات نادر شاه بقي الفرس و سكان مشهد على و مشهد الحسين على المذهب الشيعي، و هم حاليا أسوأ مما كانوا عليه من قبل. بعد هذا الاستطراد حول نادر شاه و طريقته في تعريب دين رعاياه، أعود إلى وصف رحلتي الخاصة. عدت في ٣٠ كانون الأول/ ديسمبر برفقة حوالي ٢٠٠ حاج من مشهد حسين أو كربلاء إلى الحلة، و سافر حاليا العديد من الذين لم يتمكنوا من الوصول إلى مشهد على قبل اكتمال القمر، و توجه آخرون مباشرة من كربلاء إلى بغداد. و يبعد مشهد الحسين عن مشهد على سبعة فراسخ أو خمسة أميال. و لا ترى على مسافة ميل من المدينة التي ذكرتها أولا سوى بلع، ثم يصبح الدرب رمليا، و لا نجد مبان سوى خان كترج(Knesa) الذي لا يبعد كثيرا عن الكفل، و هذا الدرب غير آمن لمن يسافر وحيدا. حين كنت في البلاد، تعرض بعض الناس للتهب في طريق عودتهم من مشهد الحسين، و في اليوم التالي، تعرض غيرهم للسلب ايضا على يد خيالة الباشا أنفسهم المكلفين السهر على أمن الطريق، و قد أعطى المسافرون ما يملكونه فضلا عن اسلحتهم فتركهم يمشون بسلام.

تبعد كربلاء عن بغداد ستة عشر فرسخا أي انها تبعد خمسة فراسخ عن مسيب(Museib) و هي قرية على الفرات، و اربعة فراسخ عن خان يدعي بيرالانس، و منه إلى الحلة التي تبعد سبعة فراسخ عن بغداد.

تقع مدينة الحلة على ارتفاع القطب ٢٣ ٢٨ ٣٠ من الجهة الغربية للفرات، و هي مدينة كبيرة، تكثر فيها بساكن النخل، و قلما نجد فيها منازل مبنية من الآجر المشوي اذ ان معظمها

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٣٢

مبنى من الآجر المجفف في الشمس. و تقع داخل المدينة على مسجد واحد تعلوه منذنة، أما خارجها فيقوم مسجدا أحدهما سعى مسجد الشمس و هو شهر بين الشيعة، و يقال إن عليا لم يتمكن يوما من أن يؤدي صلاة الصباح، فأشرفت الشمس متأخرة لتمكنه من ذلك، كما يقال إن عليا صلى في المكان الذي يقوم فيه مسجد الشمس. و يزعمون أن أي شيعي مؤمن للغاية، يوجه دعاه إلى علي، تتحرك منذنة هذا المسجد لتشير إلى أن عليا يتقبل الدعاء. هذا ما أكدته لي العديديون، و حين سألتهم عنّا اذا قاموا بهذه التجربة بأنفسهم، أظهروا تواضعا و حشمة حين أجاوبوا أنهم غير جديرين بذلك و لا يتجرأون على الحلم بتحريك المنذنة استجابة لدعائهم. و يتبع حاكم هذه المدينة باشا بغداد، و يكلف هذا الاخير موظفا بإدارة مراكز دفع الرسوم، و هو يجني الكثير هنا لأن تجار البصرة و بغداد يفضلون ارسال بضائعهم برا من مدينة إلى اخرى على أن يرسلوها عبر دجلة. و يبدو أن مهمة القاضي وراثة، لأن من يشغل المنصب حاليا استلمه منذ سنوات عدة و هو ابن القاضي السابق. يبلغ عرض الفرات في هذه المدينة حوالي ٤٠٠ قدم، يقطعه جسر سبي، و ربط فيه ٣٢ مركبا صغيرا، أما مستوى المياه فيه فمتخفّف، لكن اعتبارا من اواخر كانون الأول/ ديسمبر اخذت منسوب المياه يرتفع.

و لا شك أن بابل كانت تقوم في منطقة الحلة لأن السكان يستون البلاد اليوم أرض بابل كما نجد بقايا مدينة قديمة لا يمكن أن تكون سوى بابل، و استنادا إلى هذه الآثار، يبدو أن الحلة تقوم في حرم سور مدينة بابل، لكن عند الحديث عن الآثار الباقية، لا ينبغي ان يتوقع المرء رؤية صروح رائعة كتلك الموجودة في مصر أو في بلاد فارس. نجد في برسيبوليس أجمل رزام قرب المدينة و على التلة التي شيد عليها القصر الشهير. و تكثر الاحجار الكلسية التي بنيت منها الاهرام الكبيرة، قرب القاهرة، كما ترى في الجنوب، و قرب النيل، جبلا من الاحجار الكلسية، و ترى في القسم الجنوبي من مصر قرب النهر جبلا من الغرانيت، في حين أننا لا نجد على ضفاف دجلة و الفرات سوى أراض منخفضة عن الخليج الفارسي حتى الحلة و بغداد و أبعد من ذلك نحو الشمال. و اذا اراد أهالي بابل بناء منازلهم و صروحهم من الحجارة المصقولة لاضطروا إلى البحث عنها بعيدا، مما يجعل كلفتها عالية، لذا بنوا منازلهم من الآجر بسمكة ما نستخدمه نحن بأفضل طريقة رأيتها يوما. و لو بنوا أسوارهم من هذا الآجر مع الكلس لوجدنا اليوم المزيد من الآثار، لكنهم استخدموا مادة لا تلصق جيدا، لذا انهارت هذه المنازل القديمة تدريجيا لتبني منازل جديدة في المدن المجاورة و القرى الواقعة على الفرات، حتى أن الخان الجميل الذي أقمست فيه في الحلة بنى منذ سنوات قليلة من هذه البقايا.

أما في ما يتعلق بالقلعة و بالحدائق المعلقة الشهيرة الواقعة قرب الفرات وفقا لما ذكره سترايون

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٣٣

و غيره من الكتاب اليونانيين، فتجد بقايا منها على بعد ثلاثة أرباع الميل إلى الشمال الغربي من الحلة قرب الضفة الشرقية للنهر، و لا تعدى هذه البقايا كونها تلالا كبيرة محفّرة.

ان الجدران التي ترتفع فوق الارض قد استخدمت منذ زمن، لكن الركائز موجودة، و رأيت بنفسي اناسا يعملون على نيش هذه الاحجار لتلقها إلى الحلة و في حين لا نجد في المنطقة الممتدة من الخليج الفارسي و حتى كربلاء سوى اشجار البلح، تصادف بين التلال اشجارا متفرقة تبدو معترة. كما ترى في هذه المنطقة، و على ضفتي الفرات، تلالا صغيرة محفّرة مليئة بكموات الآجر.

نجد على بعد ميل و ربع إلى الجنوب الغربي من الحلة، و بالتالي إلى الغرب من الفرات بقايا أخرى لمدينة بابل القديمة، و منها تلة كاملة من هذه الحجارة الجميلة التي ذكرتها، يعلوها برج مليء بهذه الاحجار، لكن الخارجية منها ضاعت مع الوقت في هذا الجدار العريض أو على الاصح في كومة الاحجار الكبيرة هذه. و تظهر هنا و هناك فتحات صغيرة من جهة إلى أخرى، تسبح بلا شك بمرور الهواء و تمنع بالتالي الرطوبة التي تفسد بالمبنى. و في زمن ازدهار بابل، حيث كانت المنطقة مليئة بالمنازل، لا بد أن موقع هذا البرج كان رائعا اذ نشاهد عند اقدامه مشهد على و هو مسجد يبعد عنه حوالي ثمانية فراسخ. و قد رأيت هذا البرج خلال رحلتي الاولى إلى الحلة و ظننت مرقبا، و أطلق عليه الدليل الذي يرافقني اسم برس أو نمرو، و روى لي أن ملكا يحمل الاسم نفسه بنى هذا المكان قصرا رائعا و كبيرا. و قد اعتاد هذا الملك عند اشتداد الرعد أن يطلق السهام في الهواء معنا الحرب على الله، و نتيج يوما بأنه جرحه و أظهر سهما سقطت من الاعلى مضرجا بالدماء، فعاقبه الله و ارسل عليه حشرات، لم يأمن منها حتى في قصره فلاحته حتى قتله، الخ، الخ.

و لم أتمكن من التعرف هنا على علماء مسلمين، باستثناء القاضي الذي لا يعرف عن برس و القصر سوى الحكاية التي أوردتها أنفا، لكن، بعد أن قرأت ما أوردته هيروdotس في كتابه الاول صفحة ١٧٠ حول بلوس(Belus) و برجه، بدا لي أنني وجدت بقاياهما، لذا أرجو أن يقوم من سيأتي بعدي إلى هذه البلاد بأبحاث دقيقة و يعطينا وصفا لها. قمت بهذه الرحلة وحدي مع الدليل، لكن ما إن وصلت إلى المكان و تفحصت بعض الحجارة حتى رأيت فرسانا عربا يقربى، فاعتقدت أن من الحكمة أن أعود إلى المدينة. و لو علمت أن هذا البرج هو برج بابل لخاطرت قليلا، لكن لجهلي الامر، لم أجد داعيا للتعرض للتهب و الخطر بسبب كومة حجارة كما لم أر ضرورة القيام برحلة أخرى إلى المكان.

و تقع في محيط هذا البرج على قنيتين بنيتا منذ حوالي ٤٠٠ عام، لكنهما انهارتا جزئيا، و نجد



رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٢٣٤

كتابات صغيرة مثيرة للاهتمام. نعلم أن البابليين نقلوا إلى الاجيال اللاحقة دراساتهم الفلكية على الأجر، فاستنتج العلماء الاوروبيون أنهم لم يهتموا بالعلوم، لكن إن استخدموا الوسائل المذكورة أعلاه، فأربى مخالفت تماما لرأى علمائنا. ففي بغداد وفي مدن أخرى من هذه المنطقة حيث الاحجار المصقولة نادرة للغاية ومكلفة، وحتى في بلاد فارس حيث نجد الرخام بأسعار رخيصة، نجد كذلك كتابات على الأجر، ولا يمكننا أن ندعي أن العرب والفرس لم يعرفوا وسائل أخرى للكتابة وأنهم لم يكونوا ضليعين بالعلوم، بل يمكننا أن نستنتج أن البابليين قطعوا شوطا بعيدا في فن الكتابة وفي العلوم. إذ إن أمة يمكنها تقطيع الحروف وتشكيلها وشوئها بهذا الشكل الجيد، ووضع الحرف قرب الآخر في الجدران (كما يصف صاحب المطبعة الاحرف) حتى انه يمكننا قراءتها بشكل واضح بعد مرور ٦٠٠ إلى ٧٠٠ عام عليها (وجدت كتابات بهذا القدم كتبت بهذه الطريقة) لا تعتبر أمة جاهلة في فن الكتابة. وإن تسجيل البابليون لملاحظاتهم حول الظواهر الطبيعية المهمة بهذه الطريقة، يتطلب علما وبراعة أكثر من الكتابات التي تهدف إلى اعلام الخلف بهوية مشيد هذا الصرح أو ذاك. ولعل نوعية المواد العادية المستخدمة للكتابة ليست جيدة في بابل وبالتالي لا تدوم طويلا، ولعل علماء الفلك عندهم لاحظوا، واستادا إلى تجربة طويلة، أن دراسات هامة ضاعت أو تغيرت بسبب النسخ المتكررة، فأروا أن من الحكمة وضعها على الجدران، لأن كتابات كهذه، إن تعرضت للهواء لا تحتاج إلى التجديد، إذ كل ٥٠٠ أو ٦٠٠ عام، وإن تم الاعتناء بها في صرح ما لما احتاجت للتجديد إلا بعد ألف عام أو أكثر.

بنى مسلم في هذه المنطقة قبة صغيرة، تكريما للبي ايليا، ويظن عامة الشعب ان هذا النبي دفن في هذا المكان، لكن هذا غير مؤكد، كما يقال إن أيوب أقام هنا، قرب نبع على بعد نصف فرسخ إلى الجنوب من الحلة، ولا يزور اليهود القبة القائمة فوق القبر المزعوم للنبي ايليا، كما لا يزورون نبع النبي أيوب.

في ٥ كانون الثاني/ يناير ١٧٦٦، غادرت الحلة وتوجهت مباشرة نحو الشمال نحو بغداد (اللوحةXLI)، أي اني قطعت أربعة فراسخ حتى مهافيه (M'havie) ومنها أربعة فراسخ حتى اسكندرية(Scandrie)، ثم اجتزت ثلاثة فراسخ لأصل بيريالانس ومنه إلى خان اسعد على بعد ثلاثة فراسخ ثم سرت أربعة فراسخ حتى بغداد. ونجد في كل من هذه الامكنة خانا كبيرا بناه تاجر ثرى منذ سنوات، فضلا عن جسر قرب بغداد.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٢٣٥

إن رجلا كهذا يحرم في أوروبا بسبب الخدمات التي قدمها للراحة العامة، اما سليمان باشا فقد أجبره على تسليمه مبالغ طائلة لم يردھا يوما. ويقوم قرب كل خان عدد قليل من الاكواخ، وتصادف شرق مهافيه، قرية تحمل الاسم نفسه، ونجد بين بيريالانس و خان اسعد قرية المحمدى التي اسست منذ سنوات قليلة على يد عائلة خاتون، زوجة سليمان باشا. وتبقى المساحات الأخرى غير مزروعة علما ان التربة خصبة للغاية ويمكن ربيها بسهولة من دجلة والفرات لو لم تنفقر البلاد للسكان والقلة التي تقيم في المنطقة لا تملك الامكانيات الكافية لذلك. ويقتر النهران من بعضهما البعض في هذه المنطقة، وقد أكدوا لي انهما لا يبعدان عن بعضهما سوى ستة فراسخ وذلك على بعد اميال إلى الشمال من بغداد.

يمكن للمسافر ان يقطع الاربعة عشر ميلا. التي تفصل الحلة عن بغداد خلال يومى سفر في الصيف وثلاثة ايام في الشتاء، لكن تساقطت الامطار بغزارة ولم أكن على عجلة من امرى فاستغرقت رحلتى اربعة ايام. ولم يرافقنى خلال هذه الرحلة سوى بعض المكاريين الذين ينقلون البضائع إلى بغداد. ويتلفظ هؤلاء بكلمات بذيئة للغاية لم اسمعها من مسلم من قبل خلال رحلتى. وفي حين أن غيرهم من العرب لا يذكرون نساءهم و بناتهم، يتمنى هؤلاء لبعضهم البعض ان تختصب نساءهم، ويطلقون على الام و الجدة والسلف اسماء مقزرة وذلك على سبيل المزاح.

وهؤلاء المكاريون هم من الحلة أو من بابل القديمة حيث العادات منحلّة منذ غير الزمان، لذا يمكن أن نستنتج أنهم لم يتركوا عادات اسلافهم، لكنى لم أجد سكان الحلة مختلفين عن غيرهم من المسلمين، ولا يمكن أن نحكم على اخلاق مدينة بأكملها استنادا إلى اخلاق المكاريين الذين يعتبرون من ادنى طبقات المجتمع.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٢٣٧

#### ملاحظات وضعها في بغداد

تقع مدينة بغداد في ولاية خالص على ارتفاع ٣٣ ٢٠ من القطب على الضفة الغربية لنهر دجلة وتشكل مكان اقامة باشا من الدرجة الاولى يحيط بها سور من القرميد. إن جزءا من الاراضى داخل السور خال من السكان وغير مزروع. إلا ان القسم المسكون فيه الكثير من المباني خاصة من جهة النهر وسراى الباشا حيث نجد الجزء الاكبر من المحال التجارية أو البازار. وبالتالي فان بغداد كثيفة السكان بالمقارنة مع باقي المدن الشرقية حيث تكثر البساتين. إلا ان شوارعها ضيقة والأسواق الرئيسية فيها مسقوفة. نجد فيها كما في القاهرة شوارع تتلفق كل مساء.

تتألف غالبية المنازل من القرميد و هي عادة شديدة الارتفاع. لا ترى فيها نوافذ من جهة الشارع وذلك وفقا للهندسة المعمارية الإسلامية. في الداخل هناك باحة مربعة الشكل تطل عليها الغرف الاكثر اهمية. إن طريقة البناء الشرقية هي في نظرى السبب الكامن وراء الحر الذي يتدفق منه السكان. فعندما ترتفع الشمس تصعب هذه الباحات المربعة بمثابة افران ترتفع فيها الحرارة كثيرا لأن الهواء لا يدخل اليها. لهذا السبب يملك السكان المميزون سردابا في منزلهم أى جناحا مسقوفا ومرتفعا سقفه يقع في القيو وفيه ما يشبه المروحة أو قل الموقد، فيه فتحة من أعلى من الجهة الشمالية لأن الهواء هنا تماما كما في القاهرة والشارقة يأتي في فصل الحر من الشمال.

في فصل الشتاء لا يتساقط البرد كثيرا في بغداد كما في بلادنا لكننا رأينا بعضا منه في بداية شهر شباط/ فبراير و كان ارتفاعه يبلغ نصف اصبع. كان السكان يقولون في هذا الطقس انه شديد البرد و يزعمون ان عشرين شخصا تجمدوا في الليلة هذه. الا ان هذا الكلام ليس مغلوفا بكامله اذ ان القراء في هذه المدينة يشمون شبه عراة و بنام جزء منهم في الشارع.

لإعطاء القارىء فكرة واضحة عن وضع هذه المدينة وكبرها، أحيله إلى الخريطة المرسومة في اللوحةXLIV. لهذه المدينة ثلاثة أبواب من جهة البلد، بالقرب من الرقم ١ هناك باب المومظ (Moaddem) وقد أخذ اسمه عن أبى حنيفة الذى يطلق عليه أهل السنة اسم آدم و الذى يعبد قبره عن هذا الباب مسافة نصف ساعة. هناك أيضا الباب الوسطانى أى باب الوسط بالقرب من الرقم ٢، و بالقرب من الرقم ٣ نجد القلعة الكبيرة المسماة بالطليسم (El Talism) و كان لها باب لكن بعد ان انتزع السلطان مراد بغداد من أيدي الفرس و دخل من هذا الباب إلى المدينة قام بإبصاده نهائيا و لم

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٢٣٨

يفتح منذ ذلك الوقت. تقع قارولوغ كابي (Karolog Capi) بالقرب من الرقم ٤ و بالقرب من الرقم ٥ أمام الجسر هناك باب آخر هو باب الجسر. على كل من البروج العشرة التي نجدها في سور المدينة تقف ستة إلى سبعة مدافع لكن نصفها ليس لديه ركاتز. إن حجم هذه البروج صغير جدا لتقف عليها المدافع. لا ترى أى مدافع على قارولوغ كابي و طلسم و الباب الوسطانى وربما هذا هو السبب الذى جعل احمد باشا يضع سرتين مدفعية بالقرب من الرقم (٦). من بين هذه البروج الكبيرة هناك أخرى صغيرة لا يمكن حمايتها الا بواسطة أسلحة صغيرة. في السور نفسه هناك من الجهة الداخلية عدد من القناطر الموزعة في صفيين، الواحدة فوق الأخرى و هناك ايضا كوات رمى لحماية الخندق بواسطة أسلحة نارية. إن السور شديد الضعف والخندق جاف و لا نجد أى تعزيزات في الخارج. وبالتالي يمكن لأى عدو أوروبى أن يسيطر على المدينة بسهولة تامة. لكن في هذا البلد تعتبر بغداد مدينة قوية جدا إذ إن نادر شاه حاول دائما الاستيلاء عليها دون أن ينجح.

في الزاوية الشرقية من المدينة هناك قلعة صغيرة تدعى اتر كالا (Yts Kalla) تستخدم كمتجر لبيع البارود لكنها ليست ذات فائدة كبيرة. و لا يسكن هذه القلعة الا الإنكشاريون. في أوروبا لا يسمح للأجانب بالدخول بسهولة إلى قلعة كهذه. هنا دخلت إليها لكن أحدا لم يستوفئنى لـ في الدخول و لـ في الخروج و لا حتى عند أبواب المدينة حيث يقف عدد من الانكشاريين لحراستها لأن الجنود الاتراك يبالغون في تسهيل واجباتهم. فهم لا يقدمون السلاح لأحد و لا يأخذون أسماء الداخلين إلى المدينة أو الخارجين منها. وإذا كان الطقس سيئا يمكنهم في مراكز حراستهم أو أمام الباب فيدخلون أو يلعون الشرطنج. باختصار فهم لا يظهون بشئ شرط أن يقفوا في مراكزهم للجهوز في حال حدث أى شغب في الشارع. تقع السرايا أو قصر الباشا أمام القلعة و تطل على نهر دجلة بالقرب من



رقم ٧. هي كبيرة جدا تألفت من عدة مبان غالبيتها رديئة الصنع. تقع مدرسة المستنصرية(Madrasse el Mostanserrie) التي كتب العرب عنها الكثير بالقرب من الرقم ٨ الا ان هذا المبنى لم يعد للعلماء. تحول مطبخ هذا المبنى إلى غرفة لدفع الضرائب اما الغرف الباقية فنحلت إلى قروان سراي(Karwanseray) يسمى اوتمداني خان(Otmedani chan) أو همدت. على

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٣٩

امتداد المبنى من جهة النهر ترى كتابة طويلة يظهر من خلالها أن الخليفة المستنصر بناها سنة ٦٣٠ هـ (١٢٣٢ م). ولأن نقل هذه الكتابة استحال على سبب مرور جماهير غفيرة على الجسر، طلبت من المأنا أن ينقلها لي. فارت كتابته بالكتابة الاصلية و أرفقتها بهذه الوثيقة

بعد ثلاث سنوات بنى المستنصر مسجدا رائع الجمال في حي سوق الغاسل(Suk el Gassel) قرب الرقم ٩ لكن لم يتبق منه إلا المنذنة والجدار الخارجي ومدخلين جميلين بنيت عليهما قهوة قيحة المظهر. فوق هذا المدخل ترى الكتابة التي أرفقها لكم و قد وضعها باني المسجد. أما المدرسة التي تعتبر رئيسية. اليوم في بغداد فقد شيدت عام ٧٥٨ هـ على يدى المدعو مرجان و هي لأصحاب المذهبين الحنفى و الشافعى.

بالاضافة إلى ذلك بنى مرجان مسجدا و مبان عامة أخرى و كان يقال إنه يوسع أبحاثه في علم الخيمياء، أى علم صناعة الذهب. و قد حكم بغداد لسنوات عديدة في غياب حاكمها الاصلى و بما أنه قام بتشييد كل هذه المباني فلا بد أن يكون قد جمع ثروة كبيرة. إن الكتابة التي جعلت الملا ينقلها موجودة في المدرسة السابقة الذكر. لكنى لم أستطع مقارنتها مع الاصلية بسبب الناس الذين يجتمعون دائما في هذا المكان اذ خفت الا يعجبهم ما أنعل . في أحد المآنات المسسى زغال(Dsjejal) و الشئيد عام ٩٩٩ هـ، (أو ١٥٩٠ م). في عهد السلطان مراد و من أموال سنناباشا، وجدت كتابة طويلة باللغة التركية، و تحتها سطرين باللغة العربية. فتمت بنسخها و أرفقتها طبا .

نجد في بغداد ما يعرف بالتيكية(Takkie) و هي أديرة لمختلف مذاهب الدراويش كالفادرية

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٤٠

و النقشبندية و الرفاعية و القلندرية ... إن تكيئة القلندرية هي بمثابة نزل يقصده الهنود المسلمون الفقراء بغرض الحج. إن مؤسس المذهب القادري هو الشيخ عبد القادر الكيلاني المولود عام ٥٦٠ هـ و الذى عاش ٩١ عاما و دفن في بغداد في المنطقة ١٠ (خريطة اللوحةXLIV) تحت قبة كبيرة.

ولشدة ما تكبر عائلات مقامه يعاش منه ٣٠٠ شخص و بنام فيه بعضهم مجانا. إن هذه التكيئة بعيدة عن النهر لذا لديها قاعة خاصة بها تجر إليها مياه دجلة. عندما كنت أتأمل القبة الكبيرة على المسجد و ضريح عبد القادر الذى لم يبد لي أكبر حجما من قصر العين على النيل قرب القاهرة أتى درويش و دعائى بنهذيب فائق للدخول إلى منزله ثم حكى لي عن إحدى معجزات شيخه.

بينما كان عبد القادر يخطب يوما من منبره أمام عدد كبير من الناس توقف فجأة و حمل قبقابه الخشبي (راجع الصور أ، ب، ت. من اللوحةII من كتاب وصف شبه الجزيرة العربية) و رماه على الحائط فاخفى القبقاب. بعد دقائق رمى قبقابه الثانى الذى اخفى بدوره. لم يفهم الحضور ماذا يجرى و لا كيف اخفى القبقابان. و إليكم تفسير ما حدث. كان بعض التجار في طريقهم إلى بغداد لإيجاز بعض الاعمال و لزيارة الشيخ عبد القادر عندما اعترضتهم مجموعة من اللصوص العرب فما كان منهم إلا أن استنجدوا بالشيخ في صلواتهم فألقى ببقابه الذى اصاب رأس أحد رؤساء العصابة. ظن اللصوص في بادىء الامر انه قبقاب أحد التجار فصاروا يعاملونهم بمزيد من العنف و القسوة لكن ما إن رأوا القبقاب الثانى يطير نحو رأس عربى آخر حتى اقتنعوا بوجود أحد الأولياء العظام الذى يحمى المسافرين فأعادوا إليهم أموالهم و أغراضهم و تركوهم يكملون طريقهم بسلام. بعد أربعة أسابيع وصل التجار إلى بغداد فأعادوا إلى الولى قبقابه و شكروه على نجدهم و نشروا خبر المعجزة حينما ذهبوا.

يبلغ عرض نهر دجلة بالقرب من هذه المدينة من ٦٠٠ إلى ٦٢٠ قدما. هناك جسر يصفط تحته ٣٤ مركبا صغيرا ربط الواحد منها إلى الآخر بواسطة ثلاث سلاسل ضخمة. عندما يكون الطقس جيدا و النهر قليل الهيجان يصلح الجسر للاستخدام لكن عندما يهب الهواء بعكس اتجاه المياه يصبح الجسر غير آمن على الاطلاق. و عندما يرتفع مستوى الماء في النهر فجأة دون أن نضك السلسلة على الشاطيء كثيرا ما تحطم هذه الأخيرة. رأيت مثلا على ذلك في كانون الثانى/ يناير ١٧٦٦ عندما هبت ربح هوجاء من الجنوب الشرقى. في بداية هذا الشهر كان الجو هادئا فذابت الثلوج على الجبال و انحدرت المياه لتصب في دجلة فارتفع مستوى المياه في النهر في منتصف شهر كانون الثانى/ يناير و تحطمت السلاسل و جرف التيار السفن الصغيرة و الجسر. كما نفقت بعض المواشى أما البشر فروا أنفسهم داخل السفن حفاظا على حياتهم. و لشدة ما صارت نسبة المياه في النهر ترتفع خرجت عن حدودها و طافت المدينة يكاملها في الايام ١٩ و ٢٠ و ٢١.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٤١

في اليوم ٢٠ بدأت الأمطار بالهطول لكن منسوب المياه لم يرتفع كثيرا و ذلك إلى شهر آذار/ مارس حين بدأت الطلوج بالذوبان و صار النهر يفيض شيئا فشيئا في الموصل و بالتالى في بغداد. يقال إن الفرق بين المستويين الأعلى و الأدنى لنياه نهر دجلة يعادل ٢٠ قدما تقريبا.

لم أستطع تحديد مكان الضاحية من الجهة الشرقية لدجلة بسبب انخفاض مستوى اليابسة و فيضان الماء عليها عندما كنت هناك. هناك عدد كبير من البساتين في هذه الضاحية لكن عدد سكانه أقل من عدد سكان المدينة. يقع طرفها الشمالى على جزء من بغداد القديمة التي كانت تمتد من هنا إلى موسى الكاظم. إذ لا تزال ترى هنا آثار مبان و مسجد و قبور مسلمين ذاتى الصيت ماتوا في المدينة. بالقرب من الرقم ١١ على الخارطة (اللوحةXLIV) نجد تكيئة البكتاشيين، و هي قديمة البناء و شديدة الارتفاع. فوق المدخل هناك كتابة تأدت كثيرا بفعل الزمن ربما لكن يمكن أن نقرأ ما جاء تحتها . أما باني التكيئة فهو قلع ارسلان ابن الملك مسعود من طائفة سلجوق عام ٥٨٤ هـ (١١٨٨ م). حول هذا المبنى من الاعلى نجد آيات من القرآن بأحرف كوفية من الفخار. إن الجزء الأكبر منها قد أتلف بفعل الزمن، كيف لا و قد مرّت عليها ٦٠٠ سنة لكن لأعطاء القارىء فكرة عن هذه الكتابة و عن الرينة الموجودة فوقها نقلت بدايتها لأنها أقل تأذ من غيرها و هي موجودة في اللوحةXLIIIقرب الحرف (E) (ب.ب).

إن هذه الأحرف قريبة جدا من الأحرف الموجودة في اللوحةIX من وصف شبه الجزيرة العربية و التي نقلتها في اليمن. فمن هنا يمكننا ان نعرف ان العرب عملوا على تزيين ابجديتهم عندما كانت العلوم مزدهرة عندهم. و لو انهم تابعوا على هذا النحو لتكبد علماء اوروبا الكثير من المشقة لفك رموز كتابتهم. إن النقش على غطاء آتية من فخار وجدته بالقرب من تحت كسرى و ترى صورة له في كتاب أسفار إيف(Ives) هو من الصنف نفسه. و لقد أكد الناس للمسافر الذى وجدها انها كتابة فارسية.

بالقرب من الرقم ١٢ هناك قلعة صغيرة دفنت تحتها السيدة زبيدة الشهيرة عند العرب و هي زوجة الخليفة هارون الرشيد التي توفيت عام ٢١٦ هـ (٨٣١ م). عام ١١٢١ هـ (١٧١٨ م) دفن حسن باشا زوجته عائشة ابنة مصطفى باشا بالقرب من زبيدة السابقة الذكر و وضع على ضريحها شاهدا نقتش عليه كتابة لاحقا كما و حسن البناء و شيد أبنية أخرى للمسافرين. على مقربة من هذا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٤٢

المكان (بالقرب من الرقم ١٣) نجد قبر يهلول ضناه و هو من أقارب هارون الرشيد و أحد مهرجه.

ترك هذا المهرج كتابا فيه نكات لا يزال بعض الشيوخ يرددونها في المقاهى. في الكتابة التي أرفقها لاحقا و التي نقتش على قبره بعد موته بكثير عام (٥٠١) يلقب بسلطان المجاذيب لكن وفقا للأخبار التي تحكى عنه يبدو انه لم يكن ساذجا، و إليكم إحدى هذه الحكايات: في عهده قامت مراهنة بين شخصين، فتعهد احدهم بدفع مبلغ من المال للآخر إذا استطاع أن يعبر دجلة سباحة. لحسن الحظ استطاع الرجل ان يعبر النهر لكن امه كانت قد اعادت له نارا من الجهة الاخرى كي يجفف ثيابه و جسده بواسطتها فتشا الخلاف بين الاثنين لأن الاول اعتبر ان الشروط لم تتضمن مساعدة أم الثاني له و رفض القاضي إعطاء رايح الرهان ماله. لم يعجب هذا الحكم يهلول ضناه فوضع في بستان القاضي صحنا فيه لحم و رفعه إلى أعلى شجرة النخيل ثم أضرم نارا على الارض. سخر القاضي من فكرة يهلول ضناه الذى سأله كيف لا يمكن شواء هذه اللحمة و يمكن أن تجفف الام ولدها الذى قطع النهر سباحة؟ عند ما استعلم الخليفة عن هذه القصة امر الطرفين بالمثل أمامه و طلب من خاسر الرهان ان يدفع لرابحه المبلغ المتفق عليه. بالقرب من يهلول ضناه يمكننا رؤية مبنى صغير (قرب الرقم ١٤) مع قبر يهودى يقصده اليهود للزيارة.

ففى هذه المنطقة غير المزروعة نجد مسجدا صغيرا مع برج صغير دفن تحته ولى مسلم شهير يدعى معروف الكرخى أبو ضاهر. بنى

البرج الصغير عام ٦١٢ هـ (١٢١٥ م) وذلك وفقا لقوله الكتابية.

يقول المسلمون ان معروف هذا ولد من ابوين مسيحين و إنه لم يقبل ابدا تلاوة «باسم الاب والابن والروح القدس» بل إنه قال عوضا عن ذلك بسم الله الرحمن الرحيم. و يزعم البعض ان امه حبسته في قيو مظلم بسبب ذلك و لم تعطه طوال أربعة أيام إلا الماء و الخبز. بعد هذه الفترة رأَت حول ولدها هالة فريدة من نوعها ثم بحثت داخل القبر و وجدت كافة الطعام الذي زودته به في سجنه. بعد ذلك رأَت الام ان روحا شريرة تسكن ولدها فطرده من المنزل إلا انه توجه إلى موسى الكاظم ثم اعتنق دين المسلمين و أصبح عالما شهيرا ثم جعل عائلته تعتنق الاسلام.

ما بين ضريحي زبيدة و الشيخ معروف هناك مكان يجتمع فيه كبار القوم في بغداد مرة في

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٤٣

الاسبوع و يتدربون على رماية القوس. قام مرتضى باشا الذي كان سليدارا (أى يحمل السيف) عند السلطان ببناء عمودين صغيرين كتب عليهما بالتركية ليسجل المسافة التي بلغها قوسه.

بالتقرب من العمودين هناك قبتان لكنهما حديثتا العهد. لو كان صحيحا ان الباشا رمى القوس من عمود إلى آخر لكان يتمتع بقوى خارقة لأن المسافة تبلغ ٦٠٠ خطوة مزدوجة أى ٢٧٠٠ قدم.

إلا ان مرتضى كان من باشاوات بغداد و يمكن ان يكون قد أبعد العمودين عن بعضهما عمدا حتى يتباهى بقواه الخارقة. نجد قرب حلب مكانا مماثلا فيه عمودين مشابهيين. في حلب ايضا طلبت من خادمي قياس المسافة و كانت ٣٢٥ خطوة مزدوجة. نجد الكثير من هذه العمود على آق ميدان(Okmeidan). و هي تلة تقع خلف ترسانة القسطنطينية. و لقد ذكرت في الجزء الاول من هذا الكتاب ان سكان القاهرة المهمين يتدربون ايضا على رمى القوس.

تقع قرية الكاظم الكبيرة شمالي بغداد و غربي دجلة. في القرية هناك المسجد الكبير (ح) الموجود في اللوحة XLIII و ضريحي إمامين هما موسى الكاظم و حفيده محمد الجواد الذي ذكرته آتفا. يبدو أن هذا المزار الإسلامي كان رائع الجمال في السابق لأن القبتين و المئذنة كانت مغطاة بحجارة مطلية على الطريقة الفارسية لكن هذه الاحجار تتساقط شيئا فشيئا. إن موقع هذا المسجد يذكر بموقع مشهد علي و مشهد الحسين إلا ان هناك منازل من الجهتين. أعدم موسى الكاظم عام ١٨٥ هـ بأمر من الخليفة الذي كان يشك في أن عددا كبيرا من متاصري أهل بيت علي يجتمع في منزله. يقول الشيعة إنه شهيد بسبب ذلك و لا يزالون يذهبون لزيارة قبره. إن غالبية سكان هذه القرية من الشيعة و بما أن شيعة بغداد لا يستطيعون ممارسة شعائر دينهم بحرية في بغداد فهم يتوجهون إلى هذا المسجد كل يوم. كما و أن غالبية الشيعة من سكان هذه الانحاء الذين لا يريدون أو لا يستطيعون دفن موتاهم في مشهد علي يدفنونهم بالقرب من موسى الكاظم. إن هذا كله يعود على القرية بالكثير من الاموال.

إن بغداد هذه التي بناها الخليفة المنصور كانت تقع غربي دجلة في الجزء الشمالي من الضاحية الحالية و من قبر موسى الكاظم. عند شرق النهر كان هناك برج لكن لم يبق منه شيء و لا نجد اليوم الا قرية المعظم(Maadem) المقابلة لموسى الكاظم و التي تبعد مسافة نصف فرسخ عن بغداد الحالية. إن ضاحية بغداد العتيقة هذه مدينة ببقائها لأبي حنيفة المدفون هنا. كان أبو حنيفة عالما مؤمنا يجله أبناء دينة لكن بالرغم من ذلك زجه الخلفاء في السجن لأن سميحه الحي لم يسمح له بتولي مهام القضاء. بعد وفاته ازدادت محبة الناس له و لقبوه بالأعظم(El Azem). إن أهل السنة من أصحاب المذهب الحنفي و الذين يشكل الاتراك غالبيتهم يتبعون أبي حنيفة و قد بنوا مسجدا جميلا مع مئذنة على ضريحه و أحاطوه بحصن و بست قلاع و بحدائق واحد. و أهل الشيعة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٤٤

يكرهون أبي حنيفة كرها شديدا تماما كباقي مؤسسي المذاهب السنية الاخرى و هم لا يكتفون بإهمال قبره بل و يعتبرونه مدنسا و ذلك بالتحديد عندما كان الفرس يحكمون بغداد. و قد كان هذا هو السبب الذي جعل السلطان مراد يشن هجوما على بغداد عام ١٦٣٨ ليتزعج المدينة من أيدي الفرس. في هذا الاطار إليكم الحكاية التالية: في أحد المساجد الاساسية و في حضرة السلطان و بما ان أحدا لم يكن يرتاب في أمره، أعطى له الأذن بسهولة. حينئذ عرض وضع المسلمين الحقيقيين المؤسف في بغداد و نذد بأفعال الارفاض أو الكفار الذين يملأون مقام الامام الاعظم بالأقذار و قال إنه من العيب على سلطان يدعى انه من بيت عثمان و على مذهب أبي حنيفة الا يتأثر لما يحصل و يظهر بغداد من نير الكفار.

كان ضريح أحمد بن حنبل احد الائمة الاساسيين عند أهل السنة يقع بين الكاظم و المعظم(Moaddem) لكن ميلة دجلة جرفته. تقع عرقوف على بعد فرسخين و نصف غربي بغداد و هي قلعة على اتصال متين بقلعة هالة(Helle) التي ذكرتها آتفا إلا انها ليست مبنية من الترميد بل من الصلصال المجفف تحت أشعة الشمس. و بعد كل ثماني طبقات من الصلصال هناك طبقة من الاسل سماكتها إصبعين. في هذا المبنى نجد تقريبا صغيرة سدت حاليا. إن ارتفاع الجدران يبلغ سبعين قدما.

الجهة الشمالية عمودية تقريبا و يبدو انه كان لها مدخل لكنه عال جدا و يصعب الدخول منه من دون سلم. في الجهات الاخرى حيث جفت أشعة الشمس الأرض نرى قطعاً من هذا البناء حملها الهواء عنه كما نرى الاسل لأنه أطول عمرا من الصلصال و أخف وزنا. ظن الكثير من المسافرين ان عرقوف هي برج بابل مع العلم ان هذه الاخيرة قريبة من الفرات بينما عرقوف قريبة من دجلة لا يمكننا ان نتحدد اليوم الغاية التي شيد هذا البناء من اجلها. ربما كان احد خلفاء بغداد الاولين قد بنى منزله الصيفي على قطعة الأرض نفسها لينعم بالهواء البارد و النقي. في الجوار نجد تلالا عديدة عليها آثار منازل و بساتين و ربما آثار مدينة صغيرة أو حتى من آثار بغداد القديمة.

كانت المدائن في الماضي مدينة رائعة الجمال و بقيت بعد وفاة النبي محمد بسنوات مكان إقامة الملوك الفرس. و هي تبعد مسافة اربعة فراسخ جنوبي شرقي بغداد و تقع قرب دجلة. لم يبق اليوم من هذه المدينة الا بقايا قصر كبير يدعى تحت كسرى. يتألف هذا القصر من الترميد و الكلس و لا نقرأ عليه اى كتابة. و ربما أتى لم استطع الذهاب لرؤيته لن أضيف على هذه المعلومات شيء. آخر إلا ان أحد التجار أكد لي ان الذي قاس مدخل القصر قدر عرضه ب ٨٨ قدما و ارتفاعه ب ١١٠ أقدام. إذا فالباء و لا ريب كبير جدا .

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٤٥

في هذه المدينة التي اصبحت مهجورة اليوم دفن بعض أصحاب النبي محمّد. إن أكثر هؤلاء شهرة هنا سلمان باك المعروف في التاريخ العربي و الذي يسمى في بلده سلمان الفارسى. يقال إن أهله كانوا من ذوى الشأن و إنه كان من عبدة النار لكنه أراد أن يصبح مسيحيا عندما كان في سوريا لو لا ان احد الكهنة نصحه بالتوجه إلى شبه جزيرة العرب لسلافة النبي الذي يبشر من جديد بدين ابراهيم. و لكي يجتبه هذا الكاهن الوقوع في أيدي الدجالين قال له إن للرسول علامة فارقة في ظهوره.

و لربما رأى سلمان هذه العلامة الرسولية علما ان محمد لم يخبر شيئا عن هذا الموضوع و لا تزال آراء العلماء المسلمين إلى اليوم متضاربة حول طبيعة هذه العلامة. كما و تختلف آراء مسلمي بغداد حول سلمان فيقول البعض إنه مات حاكما بينما يقول آخرون إنه مات بصفته قاضى المدائن. إلا أنه معروف بطلّق محمّد و هو لا يزال إلى اليوم شفيح الحلاقين المسلمين. و إلى اليوم يزور قبره أهل بغداد كل عام و يحملون معهم الهدايا و يضيئون الشموع. و بهذه المناسبة نفسها يزورون قبر كل من الجماني و عبد الله بن سلام و هما و لا شك من الرجال الكرام عند المسلمين.

هناك أكثر من عشرين جامعا مع مآذن في بغداد، هذا إذا لم نأخذ بعين الاعتبار المساجد الصغيرة. و نجد في المدينة نفسها اليوم أو بالاحرى في ضواحيها ٢٢ مسجدا و أربعة خانات. أما ما تبقى فيعتبر صغير الحجم. كما و هناك عدد كبير من الحمامات العامة بالإضافة إلى مستشفى أو قل هي مكان حجر صحي فيه عدد من الاكواخ البائسة يحبس فيها المصابون بمرض البرص و الامراض الزهرية.

بالإضافة إلى الثمور تشتهر ولايات البصرة و بغداد الكبيرة بالأرز و الملح و القمح و الدواب و احصنة الحروب و كلها منتجات تسمى اليها البلدان الاخرى. إن موقع هاتين المدينتين استراتيجي إذ تقعان في الوسط بين الهند و بلاد فارس و تركيا لذا تردهر فيها التجارة. بسبب الاضطرابات الداخلية في بلاد فارس هاجر عدد كبير من الامرن إلى هاتين المدينتين و انشأوا فيهما مصانعهم.

و مع ان العلوم كانت تحتل مرتبة رفيعة في أيام الخلفاء إلا انها ما عادت تؤخذ بعين الاعتبار اليوم و ذلك حتى في اليمن و القاهرة. و لقد التفت بأقلية تجيد القراءة و الكتابة. في القاهرة لا تزال نجد متجرا يبيع كتبا قديمة اما في بغداد فلا وجود لمتجر مماثل. إذا أراد احدهم هنا ان يجتمع بعض الكتب و ان ينقلها بنفسه أو بواسطة شخص آخر عليه ان ينتظر موت أحدهم إذ تنقل كتبه و يتجول بها

المنادى في كافة انحاء المدينة كما لو كانت ثيابا قديمة ثم تعرض للبيع في المزاد العلني. إذا أراد أحد الأوروبيين شراء مخطوطات عربية و تركية و فارسية فخير ما يفعل هو التوجه إلى القسطنطينية حيث يجد دكاكين فيها كتب يمكن أن يشترها المسيحيون الشرقيون.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٤٤

ليست تجارة الأوروبيين في بغداد واسعة. كان للشركة الانكليزية لبلاد الهند عميلا من بومباي لكنه استدعى إلى بلده في ايامي لأن التجارة لم تكن مزدهرة. بالرغم من ذلك كان هناك تاجر من البنديفة و كانت اعماله مزدهرة جدا مع انه لم يكن يشدد على ترويجها و تسويقها كما تفعل الشركات التجارية الكبرى. وقد اعطاني السيد ليوني و هو تاجر ايطالي في البصرة رسائل توصية لتاجر البنديفة فلقيني هذا الآخر بكثير من التهذيب. يعيش هنا رجلان دين مسيحيان كرميلان احدهما مطران من بلاد ما بين النهرين و قنصل فرنسي في بغداد، كان محبوبا جدا من قبل المسلمين و المسيحيين على السواء. ترك الكويشون المدينة منذ زمن بعيد. إن كافة رجال الدين الذين يأتون إلى المدينة يعرفون شيئا عن الطب مما يجعلهم يحظون بحماية الاتراك و هم جميعا من أصحاب البعثات التي لا تهدف إلى هداية المسلمين لأن في ذلك خطرا على حياتهم بل إلى إقناع مسيحي الشرق بالاعتراف بالبابا كرئيس للكنيسة المسيحية. و كثيرا ما يشكو رجال الدين المسيحيون الشرقيون نظراءهم الأوروبيين مما يؤدي بالحكومة التركية إلى جعل هؤلاء الاخرين يدفعون ضريبة من المال خاصة إذا كانوا أغنياء. بالرغم من ذلك استطاع الرهبان الكرمليون في بغداد ان يجتذبوا أكبر عدد ممكن من المسيحيين الشرقيين الموجودين. أما الساطرة و هم المسيحيون القدامى فقد اجبروا على التخلي عن كنيستهم إلى هؤلاء المسيحيين الجدد. هناك الكثير من اليهود في بغداد لكننا لا نجد فيها عبدة النار أو البانايان.

سبق و ذكرت ان معرفة الطب تؤمن للأوروبيين حماية الاتراك لكن الاطباء الأوروبيين يجنون ثروة بصعوبة فائقة من جراء مهنتهم. يحكى عن طبيب يدعى اربيل (Erbel) سافر إلى القسطنطينية مع السفير الامبراطوري ثم أراد ان يوسع اسفاره لرؤية العالم فتوغل في أعماق آسيا لعله يجني و لو مصاريف رحلته ثم جاء إلى بغداد. في هذه المدينة أصبح في البداية الحكيم باشي أى طبيب الباشا و كان يعمل على شفاء أهم شخصيات المدينة لكنه كان يجنى القليل حتى ان الباشا لم يكن يعطيه اى شىء بالرغم من تدمره. و في النهاية قرر ان يكسب عيشه عند التنكيز في بلاد الهند. وصل إلى خارج المدينة للتوجه إلى حاله لكنه أجبر على الرجوع بأمر من الكخيا الذى ادعى ان الباشا كان يحارب العرب و ان كثيرا من الجرحى سيستقون في هذه المعركة لذا فعليه ان يبقى لمعالجتهم. في هذا الوقت أرسل الطبيب بمساعدة الانكليز كل ما لديه إلى البصرة ثم حصل يوما على إذن بزيارة مريض هام في مشه على فذهب إلى البصرة و لقد التفت به هناك و كان يستعد لركوب سفينة انكليزية متجهة نحو بومباي و البنغال، ثم عاد إلى أوروبا و لرما اعطانا وصف رحلته يوما ما.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٤٧

كنت قد ذكرت ان السلطان مراد اتزع مدينة بغداد من الفرس عام ١٦٣٨ م اى ١٠٤٨ هـ منذ ذلك الحين حكمها الباشاوات التالية اسماؤهم :

الاسم/ الوصول إلى الحكم/ المدة

١- كوجك (الصغير) حسن باشا/ ١٠٤٩ / ١

٢- درويش (الزاهد) محمد باشا/ ١٠٥٠ / ٢

٣- كوجك حسن باشا/ ١٠٥٢ / ٢

٤- دلي (العرب الاطوار) حسن باشا/ ١٠٥٤ / ١

٥- كوجك موسى باشا/ ١٠٥٥ / ١

٦- محمد باشا/ ١٠٥٦ / ١

٧- المقتول ابراهيم باشا/ ١٠٥٧ / ١

٨- ارسلان باشا/ ١٠٥٨ / ١

٩- شاطر حسين باشا/ ١٠٥٩ / ١

١٠- الملاك (أو الوسيم) أحمد باشا/ ١٠٦٠ / ١

١١- قره (الاسود) مصطفى باشا/ ١٠٦١ / ٤

١٢- سلحدار مرتضى باشا/ ١٠٦٥ / ٣

١٣- آق محمد باشا (الكريم)/ ١٠٦٨ / ١

١٤- خاصكي محمد باشا (نال لقب خاصكي لأنه خدم في القسطنطينية في الوحدة المسؤولة عن مهاجمة قاطعي الطرق)/ ١٠٦٩ / ٣

١٥- كيبور (الاحديب) مصطفى باشا/ ١٠٧٢ / ٢

١٦- قطن (الشديد البياض) مصطفى باشا/ ١٠٧٤ / ١

١٧- سلحدار قره مصطفى باشا/ ١٠٧٥ / ١

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٤٨

١٨- ابراهيم باشا/ ١٠٧٦ / ٢

١٩- قره مصطفى باشا/ ١٠٧٨ / ٤

٢٠- السلحدار (حامل سيف السلطان) حسين باشا/ ١٠٨٢ / ٤

٢١- عبد الرحمن باشا/ ١٠٨٦ / ١

٢٢- قيلان باشا/ ١٠٨٧ / ٢

٢٣- عمر باشا/ ١٠٨٩ / ٤

٢٤- ابراهيم باشا/ ١٠٩٣ / ٢

٢٥- سلحدار عمر باشا/ ١٠٩٥ / ٢

٢٦- سرهوش (السكر) احمد باشا/ ١٠٩٧ / ٢

٢٧- عمر باشا/ ١٠٩٩ / ١

٢٨- حسن باشا للمرة الاولى / ١١٠٠ / ٢

٢٩- بازركان (التاجر) احمد باشا/ ١١٠٢ / ١

٣٠- كشتدا احمد باشا/ ١١٠٣ / ٢

٣١- قليلى احمد باشا/ ١١٠٥ / ١

٣٢- على باشا/ ١١٠٦ / ٢

٣٣- اسماعيل باشا/ ١١٠٨ / ٢

٣٤- دلتيان (الذى لا يرتدى سروالا احمر) مصطفى باشا/ ١١١٠ / ٢

٣٥- يوسف باشا/ ١١١٢ / ١

٣٦- على باشا/ ١١١٣ / ١

٣٧- حسن باشا للمرة الثانية/ ١١١٤ / ٢٢

٣٨- احمد باشا للمرة الاولى / ١١٣٦ / ١١

٣٩- حاجي اسماعيل باشا/ ١١٤٧ / ١

٤٠- توبال (الاعرج) محمد باشا/ ١١٤٨ / ١

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٤٩

٤١- احمد باشا للمرة الثانية/ ١١٤٩ / ١٢

٤٢- الحاج (الذى حج إلى مكة) احمد باشا/ ١١٦١ / ١

٤٣- رجب باشا//

٤٤- أُلشي باشا//

٤٥- محمد باشا تراقي المهيج (هؤلاء الاربعة حكموا جميعا و معا لمدة سنتين)// ٢

٤٦- سليمان باشا/ ١١٤٣/ ١٣

٤٧- علي باشا الأعجمي (الفارسي)/ ١١٧٦/ ٢

٤٨- عمر باشا/ ١١٧٨/ ١١

بقيت بغداد حتى عام ١١١٤ (١٧٠٢ م) أي السنة التي تولى فيها حسن باشا الحكم للمرة الثانية بحالة سيئة لأن الباشاوات قبل ذلك لم يحكموا إلا لفترات وجيزة و سوريا و حسب. كان الانكشاريون هم أسياد المدينة الفعليين و العرب خارجها. و لم تكن التجارة محمية في هذه الولاية.

لهذه الأسباب صار التجار الاتراك و السوربون يسافرون إلى أصفهان حيث يلتقون بتجار من مختلف البقاع و خاصة من الهند. بقي حسن باشا مدة طويلة في الحكم، و كافية ليس لإذلال الانكشاريين و حسب بل العرب أيضا فثبت الأمن على أراضيه. لكنه لم يكن باشا إلا على بغداد و على الاقاليم التابعة لها. كان على رأس مقاطعة شهر أسول(Schahr essul) التي تشكل الجزء الأكبر من كردستان يحكمها باشا من الدرجة الاولى و كان هناك باشا آخر في البصرة و كان السلطان يعين مباشرة المسؤول عن ماردن. بما أن الحروب الداخلية الفارسية بدأت في عهده و لأن الاتراك حاولوا استغلالها لاتزاع بعض الولايات من الفرس. طلب العون من حسن باشا الذي بدأ يضم ماردن إلى حكومته. و صار يسيطر سلطته أكثر فأكثر. و كان يعرف كيف يوقف العرب أو يعيد الباشاوات الجدد أدرابهم عند ما كانوا يأتون من القسطنطينية إلى البصرة. أحيانا عند ما كان بعضهم يصل إلى البصرة سرعانا ما كان يتخلى عن الحكم لدى رؤيته يؤس سكانها و الديون التي تقوض فيها من جراء الحرب مع العرب، في الوقت نفسه كان حسن يسعى لإعطاء هذا المنصب لابنه احمد و حصل عليه بصعوبة بعد ان تعهد بدفع مبلغ من المال للسلطان كل عام علما ان مدفوعات السلطان في البصرة كانت أكثر من مداخيله. ثم توفي حسن باشا من جراء مرض ما في كرمشاه في قرية من قرى همدان بعد ان حكم بغداد ٢٢ سنة قمرية متتالية.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٢٥٠

أما أحمد فكان يرافق والده بصفته باشا البصرة إلى القرية السابقة الذكر فقد توسع باتجاه همدان و استولى على المدينة في وقت قليل. بعد ذلك ذاع صيته فسعى باشا على بغداد ثم استولى على البصرة و ماردن مما زاده قوة ليتابع الحرب ضدّ الفرس. و في عهده حاصر نادر شاه مدينة بغداد مدة ٢٨ شهرا عام ١٣٣٢ م. قام احمد باشا بتهدئة عدو الاتراك اللدود هذا قرّة له المدافع التي كان قد أخذها من همدان. في المرة الاولى حكم مدة ١١ سنة قمرية هو و والده.

و لشدة ما اشتدت الغيرة بالوزير الذي كان في ذلك العهد. عندما سقطت همدان طلب تعيين وزير آخر مكانه، و اعتقد الناس ان احمد لن يترك الحكم بملء إرادته. في هذه الحال كان الوزير سيهيمه بالعصيان و يطالب برأسه لكن احمد سرعانا ما خضع لأوامر السلطان. في مدة سنتين أرسل السلطان باشاوات عدة لكنهم اصبوا بالحن على السكان و على العرب. كانت الفوضى تسيطر على الحكم و بما ان القسطنطينية كانت تخاف من ان يوضع نادر باشا نفوذه في بغداد طلبت من احمد باشا ان يعود اليها فعاد هذا الأخير و راح يوضع اراضيه. لكنه لم يرغب قط بيسيطر نفوذه في فارس خوفا من نادر شاه ثم أصبح قائد الجيش التركي فاستولى على كردستان و على اقاليم الدولة الاخرى، و لم يبق منها إلا كركوك و بعض القرى التي أرسل اليها السلطان باشا من الدرجة الثانية. يزعم البعض ان نادر شاه قال في احمد انه اذكي منه و من السلطان لأنه في كل مرة يحاول السلطان ابعاده عن بغداد كان يستدرج الفرس للاستيلاء على البصرة فيعيدده السلطان إلى منصبه و لا يكتفى بذلك فحسب بل و يزوّده بالمال و المدافع من القسطنطينية و بكل ما شاء لحماية الولاية.

و يقال ان السلطان ارسل مرارا ما يعرف بالقابديجي باشا إلى بغداد لقتل احمد باشا لكن هذا الاخير كان لديه عميل في القسطنطينية بالإضافة إلى علاقات وثيقة مع الوزير فكان يعلم بأمر هذا الباشا قبل وصوله بل و بأمر كل ما يدبر ضده. و كان لديه اصدقاء يقومون بقتل هؤلاء القابديجي و هم على الطريق بل و قبل وصولهم إلى الحدود. إلا ان احدهم استطاع ان يأتي بسرية تامه و لم يعرف احمد بأمره الا قبل ساعات من وصوله. حينئذ امتطى حصانه مع ضباطه الرئيسيين و عبيده بحجة رمي العريضة. إن هذه اللعنة العسكرية التركية معروفة جدا في أوروبا. لكل فارس مساعد يركض إلى جانبه حاملا على ظهره القضيبان التي يبلغ ارتفاع كل منها اربعة أقدام. عند الوصول إلى النقطة المعينة يجلس المستون قرب الماء لارتشاف القهوة و التدخين بينما يتجول اثنين اثنين مطلقين العنان لخيولهم منتظرين الفرصة التي تسمح لهم بتوجيه ضربة إلى خصومهم. التقى احمد باشا بالقابديجي باشي قرب المدينة و استقبله بتعذيب فائق على انه مبعوث رسمي من قبل السلطان.

و لأن لعبة الجريد هي لعبة شائعة في صفوف ذوي الثمن من الاتراك دعى أحمد باشا ضيفه لمشاركتة اياها. لدى وصولهما إلى مكان معين من قبل احمد باشا طلب هذا الاخير من ضيفه ان يلعبا معا و لم يستطع القابديجي رفض هذا الشرف فجاه خادم ناوله قضيبا فما كان من احمد إلا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٢٥١

ان اخذ عصا من مرافقه الخاص و لحق بالقابديجي و طعنه به طعنة واحدة. ثم ترجل عن حصانه مسرعا و ركض إليه محتجا بأن مرافقه أعطاه القضيب الخاطيء ذا الرأس الحديدي و انه لا يضره له اى شيء. إلا أن مبعوث السلطان فارق الحياة فأرسل احمد باشا الأوراق التي كان يحملها إلى القسطنطينية مع وابل من الاعتذارات.

لم يترك احمد باشا الابنتين من زوجة واحدة. و قد وعد بتزويج البكر عادلة لأحد الاشخاص في مناسبة خاصة. كما و كان من محبي صيد الامود و لقد صرح أكثر من أسد على يديه و اذا حاول احدهم مساعدته غضب منه معتبرا انه لا يتق في قدرته على مضارعة اكثر من ٤٠ شخصا من بينهم ضباط و حرس لكن أحدا منهم لم يتجرأ على مدّ يد العون له فبقوا جميعا في الخلف ما عدا سليمان الجيورجي الذي اشتراه احمد باشا و هو صغير و اشرف على تربيته و الذي كان يلاحق سيده من بعيد. قضى احمد باشا على الاسد و ضربه برمح لكن الرمح كسر فأجبر الباشا على الهرب. عند ما رأى سليمان ما حدث هبّ لمساعدة سيده فصرع الاسد و انقذ حياة الباشا. و هكذا وعده هذا الاخير بتزويجه ابنته البكر و وفى بوعدة فتحول سليمان من صاحب مهنة عاديه إلى أمين الخزينة ثم صار يتدرج في المناصب الجيدة إلى ان أصبح كخيا و هو منصب بالنسبة للبيگداديين يشبه وزير السلطان في القسطنطينية.

بعد أن حكم احمد باشا ٢٣ سنة قمرية في بغداد مات في حملة شنها على الاكراد لأنهم أبوا ان يدفعوا الخراج المعتاد. إن حكام غالبية المقاطعات و المدن مدينون بثروتهم لاحمد باشا و حسن باشا. و كان الجميع راض بسليمان كخيا بسبب والد زوجته و جدّه اما في القسطنطينية فلم يكونوا يرغبون بترك الحكم في يدى هذا العائلة خاصة في ولاية مهمة كهذه. فأرسل السلطان باشا جديده إلى بغداد و لإرضاء رعاياه عين سليمان باشا على البصرة.

إلا ان صعوبات كثيرة قد واجهت الباشاوات الجدد. هاجم العرب احدهم و هو في طريقه إلى بغداد فسلوه امواله مما جعل أهل المدينة يسخرون منه منذ بداية عهده، و هناك باشا ثامن مات أثناء رحلته إلى بغداد. و كانت التمردات تصل إلى بغداد و تقول بأن هؤلاء الاسياد ليسوا اكفأ لتحمل مسؤولية مهمة كهذه. باختصار أرسل اربعة باشاوات اليها في مدة سنتين و لم يرض السكان عن اى منهم. في النهاية جاء سليمان باشا مع جيشه من البصرة إلى السماوة(Semaue) أمره الباشا المعين بأن يعود أدرابه لكنه واصل تقدّمه حتى الديوانية التي كان يحكمها على آغا الذي تمرد على الباشاوات السابقين و الذي كان من مؤيدي سليمان باشا. إلا انه سرعانا ما هرب إلى بغداد و نقل إلى الباشا أخبار سليمان التوسعية فألّف الباشا جيشا من ١٤ ألف رجل و ترأسه و سار به لمواجهة سليمان فوجده قرب الحلة مع ٨٠٠ شخص و دهش لرؤيته ينتظره مع هذا العدد القليل

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٢٥٢

من الرجال. لكن أثناء اقامة على آغا في بغداد حشد رؤساء القبائل لصالح سليمان باشا. زحف العدو مع جيشه باتجاه الباشا مباشرة كما كان متفقا مع على آغا، فهرب الباشا بعد فترة وجيزة و استسلمت الفرق البغدادية إلى الراح. لدى عودة الباشا إلى بغداد وجد الابواب كلها موصودة.

اما سليمان فقد لقي ترحابا شديدا. بنى السكان ديوانا كبيرا تجتمعت فيه أهم شخصيات بغداد. ثم أعدوا لائحة شكواى ضد الباشاوات الذين حكموا بغداد في هاتين السنتين و وقعها كافة الاعضاء لتقدمها إلى السلطان و قرر الجميع ان لا أحد يمكنه انتشال المدينة و

سكانها من الحالة السيئة التي وقعت فيها منذ وفاة احمد باشا الا سليمان باشا. باختصار لم يحظ سليمان على موافقة الباشا على توليه بغداد وحسب بل واعطى كافة الولايات والاقاليم التي كان احمد باشا يضع يده عليها.

حكم سليمان باشا مدة ١٣ سنة قمرية ولشدة ما تأثر العرب عند وفاته نظموا اغنيات محزنة لرثائه وصاروا يرددونها إلى اليوم في المقاهي وفي شوارع بغداد. ولا يبد من القول ان العرب لم يكونوا يوما نظاميين في هذه المنطقة كما في عهده وعهد حميه. في الماضي لم يكن أحد يتجرأ على السفر من الحلة إلى البصرة دون ان يأخذ معه دليلا يدفع له اموالا طائلة لكن بعد ذلك صار بإمكان كل فرد ان يسافر وحده دون ان يخاف من السرقة على اراضي سليمان باشا سواء عن طريق البر أو عبر دجلة أو الفرات. ولأن التجار كانوا غير مطمئنين للذهاب إلى بلاد فارس تحولت التجارة الهندية من غيرون واصفهان إلى البصرة وبغداد فأزدهرتا.

ولم يكن سليمان يتسائل مع العرب، كان كثيرا ما يهاجمهم بغته أثناء الليل غير تارك لهم فرصة الهروب إلى الصحراء. لا يزال البدو يسمونه ابو الليل لأنه كان يهاجم دائما في الليل ولا يهدأ له بال الا بعد ان ينال منهم. اما في بغداد فكان يدعي سليمان الأسد وقد أكد لي البعض انه ذهب إلى دمشق واستطاع ان يسليها في تسعة ايام لأن العرب الخاضعين لباشا دمشق كانوا قد نهروا قافلة كبيرة من بغداد. وكان يحاسب باشاوات الاراضي المجاورة عند ما لا يضعون حدا للقبائل العربية التي تتجول على اراضيهم. قد يتفاجأ اى اوروبي لدى سماعه هذه الاخبار لأن دمشق وبغداد خاضعتان للسلطان كلتاهما إلا انه من المعتاد ان يشن الباشاوات معارك على بعضهم.

ومع ان احمد باشا كان يقدر الشجعان حتى لو كانوا اعداء إلا ان سليمان باشا كان عكسه تماما فكلمًا كان عدوه المهزوم معروفا بآسه كلما زاده ذلك فخرا علما ان اعداءه لا يمكن ان يلقوا من طرفه اى رحمة حتى لو دفعوا عن أنفسهم بشجاعة ضده. وبلوم الناس سليمان باشا لأنه خاضع كثيرا لزوجته. فعادلة خاتون أى السيدة عادلة ابنة الباشا من الزوجة الاولى لم تنس ان زوجها كان فى صغره عبدا عند والدها لذا فقد كانت وقحة وشديدة الطموح. كانت تحذد أياها فى الاسبوع يزورها فيها الناس لطلب خدمة ما. وبما انها سيده مسلمة لم يكن يسمح لها بالتواجد

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٥٣

مع ذكور فكان الغلام المخصص يستقبلهم في غرفة على حدة ثم يخبرها بطلبها. وكانت احيانا تتخذ قرارات تناقض كلها القرارات التي يأخذها زوجها ووزيره بعد تفكير وتمحيص. وكانت عادلة خاتون تعرف كيف تدر على نفسها بعض المداخل. و جدير بالذكر انه عندما يكلف الباشا آغا ما بمهمة وينفذها هذا الاخير يعطيه الباشا عباة مبطنة بالفرو. أما شيخ القبيلة العربية فيحظى بالمناسبة نفسها عباة.

في البداية اهدت زوجة سليمان باشا للأغاوات الكبار الذين خدموا عند والدها وجدها عصبية من الحرير يلقونها حول رؤوسهم و يتميزون بها عن باقي ضباط الباشا في الاعياد والاحتفالات.

ومع الوقت صار الباقون يسعون للحصول على العصبية نفسها بواسطة الهدايا ثم جرت العادة أن يحظى منمذ المهمة بعصبية مماثلة ليست ذات شأن إلا ان ثمنها كان غاليا. وكانت عادلة خاتون على علاقة سيئة بشقيقتها. فقد تزوجت هذه الاخرى من أحمد آغا و هو آغا ابا عن جد بجه الجميع وخاصة سليمان باشا. يقال إن الوزير يوم ما على احمد آغا ولاية عديلة إلا انه رفض ذلك باحتقار. ما ان عرفت عادلة خاتون بما جرى حتى نقلت الخبر إلى زوجها مدعية ان احمد آغا هو صاحب المرض فما كان من الباشا إلا ان قتله. وهكذا ازدادت عداوة الشقيقتين إلى ان أقتع سليمان باشا اخت زوجته بالزواج من عمر الكخيا الخاص به.

ولم يكن سليمان مستعدا لإرخاء الجبل لأى قابدىجى باشا تماما كحماءه. ويقال ان السلطان حاول ان يرسل أشخاصا لقتله بالسز. كما و يقال انه كان هدفًا لعدة طلائق ناربية و لربما كان الوزير هو المحرض، في حالات كهذه لا يجرى اى تحقيق في الموضوع لكن اذا عرفت هوية مطلق النار بعدم مباشرة.

كنت قد ذكرت أنفا ان احمد باشا مات في حملة ضد الباشاوات في كردستان. ومع انه مات ميتة طبيعية الا ان عادلة خاتون لم يهدأ بالها لأن زوجها لم يتأر لأبيها. ومع ان سليمان باشا ذهب عدة مرات إلى كردستان الا انه لم يعثر يوما على القاتل الذي كان يهرب إلى الجبال. في النهاية حاول القاتل الاعتذار والتودد وكان صادق في ما يفعل فأرسلت له عادلة خاتون عصبية ثمينة جدا من الحرير كدليل على عفوه عن. فاقنع الكردي بذلك وجاء إلى بغداد لكن ما ان وصل حتى زج في السجن و قتل في اليوم التالي.

لم تسمح هذه السيدة الطموحة لزوجها بالافتراق بنساء اخريات ولا باتخاذ جوار. و هي لم ترزق بأولاد فعندما مات سليمان كانت وريته الوحيد ولا تزال إلى اليوم تعيش في بغداد وتعتبر من

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٥٤

اكثر الناس ثراء. بنت في هذه المدينة مسجدا و خانة اتخذت اسمها و شيدت أبنية مماثلة في مدن أخرى.

عندما توفي سليمان باشا كان على آغا يحتل منصب المتسلم في البصرة . و كان على آغا قد شغل عدة مناصب مهمة في هذه الحكومة و كان الشعب يحبه و يحترمه فأمل بتعيينه باشا.

وسرعان ما نال فرمان الباشا الذي يكلفه بهذا المنصب اذ ان توصيات عديدة وهدايا قيمة أرسلت من الديوان إلى القسطنطينية مرشحة اسمه الا انه لم يحكم الا ٢٢ شهرا و يشكك في أن عادلة خاتون هي السبب في ذلك. و لم يكن أصل على آغا عبدا بل كان أهله من المسلمين الفقراء في بلاد فارس. في صباه عمل عند رئيس خدم احمد باشا ولشدة ما كان حسن السلوك وضعه الباشا في حمايته وعلمه كافة الامور التي يجب ان يعلمها اى تركي يتحدر من عائلة عريقة ثم رقاها إلى عدة مناصب. وكانت عادلة خاتون تأمل في الحفاظ على حصتها من الحكم بعد موت زوجها باعتبار ان على باشا مدين لوالدها في منصبه و ماله الا انها لم تحظ بمبتغاها. أراد على باشا ان يحكم وحده و بحزم. كان الانكشاريون شديدى النفوذ في تلك الايام في بغداد خاصة لأن الباشا قد مات و الباشا التالي لم يستلم زمام الحكم بعد. أراد على باشا ان يضعف الانكشاريين لكن عددا من البورجوازيين كان خائزا على لقب انكشارى فقامت ثورة نظمت بالتشاور مع جيش السلطان مما أجبر على باشا على ترك المدينة. إلا انه ما لبث ان عاد و ساعده في ذلك عدد من كبار رجال بغداد و من القبائل العربية الرئيسية فقطع رؤوس بعض الانكشاريين. بعد ذلك بقليل انتفض بعض الباشاوات في كردستان بالإضافة إلى قبيلة خزاعل( Chasael). لكنه أخضع الاتراك إلا ان قبيلة خزاعل هزمت فظم الشعراء العرب اغنية حول نصر «معدن» هذا صارت تغنى حتى في بغداد. و لم تستطع عادلة خاتون احتمال اهمال الناس لها و عدم استئذانها بنسى. و كانت تسمح ان على باشا يريد ابعادها عن بغداد فقررت ان تقتله. و كان يقال ان على باشا كان ينتسى سرا إلى المذهب الشيعي و كان يحب الفرس و الدليل على ذلك انه تعامل بقساوة بالغة مع الاكراد و الانكشاريين و هم من أصل السنة بينما ترك قبيلة خزاعل تهزم جيوش السلطان علما انها قبيلة شيعية. و صار الشعب يتذكر حالات اخرى كان فيها على باشا مع الشيعة ضد السنة، و قرر الجميع انه كافر و انه يتحيز الفرصة لجعل الفرس يستولون على بلاد السلطان.

من بين كبار رجالات بغداد هناك خمسة أسيداء اشتراهم الباشاوات السابقون كعبيد و ربوهم على الديانة الإسلامية. شغل هؤلاء بالدور أهم المهام في المدينة و في مكان إقامة الباشا أو من

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٥٥

الولايات الأخرى، كانوا يعيشون كإخوة و يعرفون على جيدا لأنهم ساعدوه على أن يصبح باشا دون أن ينتهوا إلى الضجة التي حلت مؤخرا. في الوقت نفسه كانوا يجلون عادلة خاتون لأنها حديدة و ابنة ثم زوجة المحسنين إليهم السابقين مع أن سلوكها لم يكن دائما يعجبهم. ثم مات أحد هؤلاء الخمسة فجأة فأرادت عادلة خاتون إيهامهم أن الباشا هو الذى سمعته و انه طلب من القسطنطينية الإذن بالقضاء عليهم جميعا. فظنوا أن الألوان قد آن لتأمين استمرارهم علما انهم كانوا في السابق أكثر من يعتمد عليه الباشا و هم الذين أعادوه إلى الحكم بعد أن طرده الانكشاريون من المدينة فتحولوا إلى رؤساء ثورة لم يعرف الباشا عنها شيئا إلا عند ما تجسّدت المدينة بكاملها ضده.

لم يجد على مفرا من الهرب متكررا بثياب امرأة. بعد مرور بضعة أيام ألقى القبض عليه و هو يسعى إلى الخروج من المدينة لطلب النجدة من العرب فاقبده إلى السرايا و أعدم فيها.

بعد موت على اجتمع الديوان لاختيار باشا بين الاسياد الاربعة السابقين. اثنان منهم رفضا هذا الشرف معتبران عمر كخيا هو الاحق بالمنصب لزوج ابنة احمد باشا. الثالث و هو محمود كان غائبا لأنه كان يحتل منصب المتسلم في البصرة لكن كان حاضرا. و لم يكن هذا الاخير رجلا ذا شخصية فذة أو ضابطا بارعا بل اختاروه بسبب زوجته و هي امرأة رقيقة يحبها الشعب عاتن من مقتل زوجها

الاول ظلما و من غرور اختها. وهكذا اقترح الديوان بكامله عمر الكخيا ثم اعاد الجميع رسالة إلى السلطان كتبوا فيها ان علي باشا كافر كان يريد تسليم المدينة للفرس و ان الشعب نار عليه ثم قتله و ان العرب و الاكراد ناروا هم أيضا و ان عمر باشا وحده قادر على إرجاع الامن إلى المدينة لذا فقد رجاه الديوان ان يتحمل مهام الحكم على أمل ان يوافق السلطان على ذلك. وهكذا سعى باشا في صيف ١٧٦٤.

في السنة التالية سار عمر باشا إلى الجبال لمواجهة قبيلة خزاعل. فأضرم النار في لموم مكان إقامة الشيخ وقطع رؤوس ستة أو سبعة من الشيوخ الرئيسيين ثم أرسلها إلى القسطنطينية كرسالة تقول إنه لشدة ما أذلّ العرب، لن يضايقوه أبدا في المستقبل. بهذه المناسبة حصل على تعانق الوزير. في هذا الوقت عاد الشيخ الحاكم الذي كان قد هرب لدى قدوم الباشا فأجبر الشيخ الجديد على إرجاع الحكم له، و لم يرغب الباشا في شن حملة جديدة فتركه في منصبه. كنت قد ذكرت سابقا ان قبيلة كعب هي الاخرى تزعم الباشا. و قلما تمر سنة دون ان يحصل فيها باشا بغداد على العرب أو الاكراد لكن الباشاوات كانوا يتأكدون من ان السلطان لا يعرف شيئا أو يعرف القليل عما يحصل في الحكم.

لم تكن زوجة عمر باشا قد سمحت له باتخاذ زوجات اخريات أو جاريات و لم يحصل منها على أي ولد. و كان الاتراك اكيد من التخلص من عائلة احمد باشا عندما يموت عمر باشا الا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٥٦

ان اهل المدينة قد اعتادوا منذ سنوات عديدة على اختيار رئيسهم بنفسهم مما اضطر السلطان مرارا إلى الموافقة على خيارهم حفاظا على هذه الولاية الجميلة و كي لا تسقط في أيدي الفرس .

إن شكل الحكم في بغداد يشبه الحكم في القسطنطينية. يوزع الباشا المهام على ذوقه لكن الامور الهامة تخضع للديوان. أما الاشخاص الذين يحتسب صوتهم في الديوان فهم:

- جميع المستنيرين الذين خدموا بصفة كخيا الباشا و المتسلمين في البصرة و «الويوذة» في ماردين و الذين حكموا المدن أو الاقاليم و الموجودين في بغداد.

- الباشا آغا أو رئيس فرقة الخيالة.

- الآغا أو رئيس الاكشاريين.

- رئيس العلماء. لا أحد يطلب إعطاء هذا اللقب إذ يكتسبه مباشرة الذين يشتهرون بعلمهم و معارفهم. إن هذا اللقب نادرا جدا في تركيا .

- قاضي المدينة و يكون مآ و يغيره مفتى القسطنطينية كل عام.

- مفتى المذهب الحنفي.

- مفتى المذهب الشافعي.

- نسيب الشرف أو رئيس سلالة محمد في هذا الباشاليك يكون هذا في الوقت نفسه (الموتلى) أو مفتش مسجد الشيخ عبد القادر و مقامه.

- الخطيب الشيخ و هو خطيب مسجد الشيخ عبد القادر.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٥٧

- الخطيب زرمشاب(Zermashab) أو خطيب المسجد الذي دفن فيه ابو حنيفة.

الضابط الاساسي للباشا هو الكخيا و يكون في الوقت نفسه الوزير تماما كوزير السلطان. و للباشا أيضا مجموعة من المستشارين و يجب ان يكونوا ممن شغل مناصب هامة. في أيامي كان في البلاد رجل يدعى عبد الله بك أخ شيخ قبيلة عبيد(Obed) و كان الابايبك باشا أو قائد الخيالة لكن لشدة ما كان محترما كان الباشا يستشيريه في كافة الامور و خاصة تلك المتعلقة بالعرب.

بالاضافة إلى ذلك نجد الدفتر دار أو امين الخزينة . و أُنسدى الديوان أو امين سر الدولة. يحل محلّ الكخيا عندما يغيب القابديجي قججازي(Kehajasi) هناك أيضا الحريم قججازي أو المسؤول عن بلاط الباشا. السلام أغاسي هو رئيس التشريفات، المير

أهورAhor هو قائد السلاح هذا بالاضافة إلى رئيس ضباط العدالة أو الشاويشلقججاسي. يبقى هذا الاخير إلى جانب الباشا كالتشاويش الأمين الذي يبقى إلى جانب الكخيا لتلقي اوامره، يلازم باشا بغداد القائد باشا المذكور في القسم الذي يتناول البصرة. أما المسؤولين عن جباية الضرائب و الخراج (و ما يدفعه المسيحيون و اليهود) فهم يعينون من قبل الباشا.

لكل الباشاوات و خاصة باشاوات بغداد عدة آغاوات. إن هؤلاء بمثابة حرس و يخدمون الباشا بأنفسهم عندما يخرج الباشا على ظهر الخيل يسيرون خلفه على خيل رائعة و قد ارتدوا ابهى ثيابهم و لكل منهم خادم يهتم بفرسه يخضعون جميعا لأمين صندوق الباشا و السلحدار أو حامل السيف الا ان الاول يعطهم الاوامر في المدينة بينما الثاني في القرى.

الضابط الثالث الاساسي هو التشوقدار باشا. ان ٢٤ من الانس آغاسي(İtsagasi) من المكلفين بمهام خاصة يحيطون دائما بالباشا و لن أذكر منهم إلا التالية أسماءهم:

- الكستنجي المسؤول عن تفتيش الخزانة.

- الايريقدار الذي يحمل للباشا الماء حتى يغتسل.

- السدجي باشي الذي يحمل له الماء ليشرب.

- الفهوجي باشا الذي يهتم بتحضير القهوة.

- الانس قلرجي الذي يحفظ المرعى.

- الرشتوان الذي يهتم بالخيل.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٥٨

- الانس معشر باشي الذي يهتم بالسجاد.

ان أحد هؤلاء الانس آغاسي هو أيضا لالا. أو رئيس العلمان براقب هؤلاء الشبان الصغار و الفتيان و هم بغاليتهم مسيحيون من جيورجيا أو من مناطق اخرى يباعون كعبيد. إن قسما منهم يتحدر من أبوين مسلمين يجب الاهتمام بتربيتهم على الاصول التركية و بتعليمهم القراءة و الكتابة و ركوب الخيل و حمل السلاح على الطريقة التركية. إن الالذكيا و الساهرين من بين هؤلاء يرقون إلى منصب إتش آغاسي و غيره من المناصب المشرفة من غير أخذ أصلهم بعين الاعتبار اما الباقون فأملهم ضعيف في الوصول إلى مرتبة رفيعة في هذا البلد. يسمح لحملة لقب إتش آغاسي بإطالة شاربهم لكن إذا بلغوا مناصب ارفع يصبحون صغلى آغاسي أو سغلى آغاسي و يسمح لهم بإرخاء لحيثهم من جهة ذقنهم. يعمل عند الباشا ما يقارب ١٥٠ من هؤلاء الاخرين.

و هناك ايضا التشوقدار أو المختارين من بين الانس آغاسي. و هؤلاء لا يمتطون الخيل في خدمتهم. إن رئيس الفريق الاول هو التشوقدار باشا و يكون الفريق مسؤولا. عن نقل اوامر الباشا إلى الولايات. اما المختارين فهم مسؤولون عن تفتيش الخيم في القرى و يقومون بمهام مخزية أحيانا.

إن ذهاب الباشا إلى المسجد يكون بمثابة احتفال يحيط به من جهة التفتكجي باشي و من جهة اخرى المدرجي باشي و يسبقه عدة موسيقيين و عدد من الانس آغاسي على ظهر الخيل هذا بالاضافة إلى عدد من الضباط الاخرين الذين يرافقونه كالالواتوس و

السراج باشي و القواس و الشاطر لكنى لا أعرف ما هي مهامهم.

يؤلف الانس آغاسي الفرق العسكرية الاله و لباشا بغداد من المشاة فهم ما يقارب ٨٠٠ رجل

اما الكخيا و الاسياد الباقون في بغداد فعدددهم ٢٠٠ رجل

إن خيالة الباشا المسماة لوند و التي تكثر في كوك الحلة لضبط العرب تتألف من ١٠٠ بريق

كل واحد من ٢٥ رجلا عند ما يكون كاملا لكن في المطلق يصل عددها إلى ١٥٠٠

المشاة و يسمى هذا الفريق برتولى يتألف من ٣٠ فرقة كل واحدة من ٤٠ رجلا في ايامي كان مجموع المشاة يوازي ٨٠٠

يقدر عدد التفتكجي أو الجنود في خدمة الباشا ب ٢٠٠

إن جيش الباشا النظامي و المدرب على الطريقة التركية يتألف من أقل من ٣٥٠٠ شخص.

إلى جانب ذلك هناك فرق من الاكشاريين و من رجال المدفعية إلا أنه خاضع للسلطان اي انه لا يحق للباشا أمره بالتوجه لمقاتلة

التوار من العرب و الاكراد يعتبر الانكشاريون رجال المدفعية

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٢٥٩

انهم يقومون بأعمال تزيد عن اللازم لأنهم يحمون المدينة و القلعة من اعداء السلطان و من الباشا شخصياً. و هم يخضعون للقوات المسؤولين عن قطعهم في القسطنطينية و التي ترسل لهم الضباط يكون جنودهم من اصل البلد و من انصار الباشا خاصة اذا اذدق عليهم شرف السماح لهم بالاتضمام إلى هذه القطعة. لم استطع معرفة عدد الانكشاريين الموجودين في بغداد بدقة إذ قال البعض انهم يبلغون عشرة آلاف بينما أصر آخرون ان عددهم يصل إلى ٢٠ الفاً. ان الرقم الاول يمثل العدد الرسمي لدى السلطان، أما العدد الثاني فيتألف أيضا من السكان و الأغاوات المسجلين عند الانكشاريين للتمتع ببعض الامتيازات و لحماية انفسهم اذا تعرض لهم الغير بتميز اعضاء كل قطعة بقبعاتهم الخاصة التي تميزهم عن القطع الأخرى. أما من حيث اللباس فكل شخص يرتدى ما يشاء.

في ولايات اخرى لا وجود لكلمتي لوند أو برتولي لكن يقال لخيلة الباشا دلي(Deli) و للمشاة تفنكجي و سقمان.

عند ما يحتاج الباشا إلى مزيد من الفرق العسكرية في حملاته ضد العرب و الاكراد يتفق مع بعض الضباط فيجند كل واحد اشخاصا يكون مسؤولاً عنهم. تسمى هذه القطعة المستحدثة سردنجسى. يقبل جميع الاشخاص المتطوعين و يقادون مباشرة إلى المعركة دون تدريب يذكر على السلاح الذي يعطى لهم. بعد عدة أشهر و هي المدة التي تستمر فيها الحرب، يطلق سراح هؤلاء، في ايامي جندت عشرة بيارق كل واحد مؤلف من ٤٠ رجلاً أرسلوا إلى البصرة لمحاربة قبيلة كعب. و حتى خادمي انخرط في الصفوف و أصبح سردجسى ليدخر المال الذي اعطيته اياه و يعود به فاضطرت إلى استبداله بماروني من حلب. بما ان البيردقار كان يطهه عدة مرات، سأله ما إذا كانت الفرق قد تموت فأخبرني ان الضابط تلا الفاتحة معهم ثم كلمهم على التحضيرات اللازمة للسفر و أعطاهم المال اللازم لذلك ثم طلب منهم ان يكونوا شجعاناً و شرفاء و بعد ذلك فرز منهم. عند الحاجة يمكن للباشا تجنيد ٣٦٠٠٠ شخص آخرين في ولايات البصرة و الحسكة و ماردين و كردستان و من العرب المتجنولين في أراضيه لكن عدد القاطنين منهم في الحرب لا يكاد يصل إلى ١٠٠٠٠ رجل و الباقون يسيئون إلى الجيش أكثر مما يفيدونه.

من أهم مدن الحكم: البصرة، أربيل، الحلة، رماحية، مشهد، على، كربلاء، الطالق، أثنون كبرى، قره طاغ، مندلي، بدره، خراسان، مهورت، بهروز، قول رباط، خانقين، قصر شيرين، (بجوار بلاد فارس) شهربان، حرانية، بنكجة، برة دان، دجيل، تكريت، (على دجلة) ساموا، (على دجلة)، دور، رنكباد، دروزين، خرنبات، عانة (هذا المكان و الاماكن التالية تظل على الفرات) جبلة، هيت، حديد، الروس، كيسيبة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٢٦٠

أثناء سفري لم أر الا القليل من هذه المدن و الضواحي و القرى لذا لا أستطيع تحديد مكان البليات. إلا اني نقلت اسماءها لأنها تستحق أن ينظر فيها الجغرافيون قريبا استطاع المسافرون من بعدى ان يعرفوا من أين حصلت بلاد دروزين على اسمها هل يوجد فيها دروز حاليا ام هل كانوا فيها في السابق؟ و لست متأكدا من الكتابة العربية لبعض هذه الاسماء لأن الملمأ الذي كتبها لي كان خطه سيئا فكنتها بأحرف المانية وفقا لطريقة لفظها بالعربية.

لا يرسل الباشاوات أى حاكم تركي للأكراد و البدو إذ يجب أن يكون رؤسائهم من القبيلة نفسها فيعين الباشا الشخص الذي يختارونه. كنت قد دوتت اسماء القبائل العربية الاساسية في هذا الحكم في هذا الكتاب و في كتاب وصف الجزيرة العربية هناك قبائل تملك قري كثيرة لقاء مبلغ سنوي تدفعه للباشا.

و مع اني لم أكن في كردستان إلا اني سأنتقل المعلومات التي تلقيتها في إطار الحكم في بغداد لأن جزءا كبيرا من كردستان يخضع لباشا بغداد.

إن كردستان بلد جبلي خصب يشتهر بالمعص الذي تصدّر منه كل سنة كميات هائلة إلى حلب و منها إلى أوروبا و بالممر الذي يستعمل بدلا من السكر في هذه الأجزاء و بالقطن و الأرز و التبغ و العنب و التين. كما و تشتهر هنا بزراعة الكراب (أو الفؤة) و العقس و هي انواع من الحرير الذي يظهر على الشجر و العلك لكنه كبير جدا كما علك جزيرة شيو، لأن سكان هذه الانحاء الجبلية قد حظوا دائما على حاكم منهم فقد استطاعوا بالتالي الحفاظ على لغتهم التي يزعم ان لها ثلاث لهجات. إن لهجة إقليم قلعة جولان قريبة جدا من اللغة الفارسية و لغة إقليم كوي سنجاق قريبة من العربية و من اللغة الكلدانية أما الجزء الشمالي من كردستان فلهجة قريبة من التركية.

تشكل قلعة جولان أو قره جولان الولاية الكبرى في بلاد كردستان و هي تابعة للسلطان. تحكم الولاية عائلة سوران المنحدرة من قبيلة بوب(Bobbe) و يدعى رئيسها باشا. إن هذا الباشا و الباشاوات الاكراد على حد سواء لهم طرق واحد يتلقونه من باشا بغداد فهم بالثالي لا يتساوون مع الكوات الاثراك الذين يتلقون طوقهم مباشرة من السلطان. يكثر عدد أبناء العائلة الحاكمة و كلهم يودون الاستئثار بالحكم و التحول إلى رتبة باشا لذا يحملون على بعضهم إلا ان باشا بغداد يعين باشا على قلعة جولان الشخص الذي يدفع اكثر. و لا شك ان شعب هذه الامة يعاني بالاضافة إلى ظلم الاثراك من طموح العائلة المالكة. لذا، لا نجد مدنا في هذا البلد فتحى قلعة جولان مكان إقامة الباشا ليست الا قرية متواضعة جدا.

لو أردنا بكلمة واحدة ن نحدّد طبيعة الاكراد لقلنا إنهم ذوو طابع انتقامي. قتل و وصولي إلى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٢٦١

الموصل بفترة وجيزة قتل الملمأ باشا قلعة جولان و هو في سريره أثناء الليل لأنه كان قد قتل أخاه.

في الجزء الجنوبي من كردستان و على اراضي باشا قلعة جولان هناك إقليم شهره زول و هو اسم كان يتخذه احد الباشاليك القديمة. أعضد ان قرية عالمبور الواقعة بين سنجاق و كركوك كانت في السابق مكان إقامة الباشاوات. و لم أسمع عن سرداوا و باسيان و مرجي و سنغانا و أغبجر إلا أنها قري من كردستان.

يقال إن لسردست قلعة صغيرة.

الباشا الكردي الثاني الخاضع لباشا بغداد و الذي يدافع له ضريبة أو قل جزية يسكن في كوي سنجاق و هو مكان معروف بعيد عن أربيل مسافة ثلاثة أيام و عن التون كوبري مسافة يومين. إن القرى الوحيدة التي سمعت بها في أراضيه هي روش و موران، و دوين و حرير، تبعد القرية الأخيرة مسافة ستة فراسخ عن اربيل اما دوين فهي مسقط رأس أيوب والد صلاح الدين.

تقع بلباس على جبل عال و تبعد سفر اربعة إلى خمسة ايام عن الموصل. يطلق اسم بلباس أيضا على قبيلة متجولة. إن عدد هذه القبائل البدوية الكردية كبير في بلادها و هي لم تكف بذلك بل انتشرت ايضا في سوريا و بلاد فارس.

وفقا للوصف الذي وصلني، تقع لوندوس في واد صغير على جبل عال و متزوج لا يمكن الوصول إليها الا من خلال طريق واحد ضيقة كثيرا. يقال ان سكان هذا الاقليم يدفعون احيانا لباشا كوي سنجاق مبلغا زهيدا لكن الحكم هنا لا يبقى في العائلة نفسها كما و السكان لا يسمحون لأى جبار مجاور اقوى منهم ان يرسله لهم رئيسا من قبله. لكن يقال إنه عند موت الرئيس تجرى مبارزة (أو ربما حرب داخلية) التي أكثر شيوعا عند المسلمين من المبارزة) و يفوز من جزائها من هو الحاكم الجديد.

إن الباشا الكردي الثالث الخاضع لباشا بغداد يدعى (وفقا لاسم العائلة) باشا درنة و هو يحكم في شاول، إقليم يقع عند الحدود الفارسية. إن المقاطعات الصغيرة في كردستان التالية اسمائها لا تخضع لباشا بغداد و تكون إما مستقلة أو تدفع جزية للباشاوات المنصبيين على المناطق المجاورة.

عميدية هي قلعة صغيرة واقعة على جبل منحدر يصعب التبل منها في هذا الاقليم. تبعد عن الموصل مسافة ١٨ فرسخا أو ١٣ و ١٤ ميلا المانيا، يدعى حاكمها الحالي بهرام و هو يتحدر من عائلة الـبلدينوس(Baldinous) التي حكمت هنا في أيام الخلفاء العباسيين. يلقَّب بالبيك

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٢٦٢

و بالباشا و بريد ان يستقل كليا. لكن عندما تصل جيوش الباشاوات المجاورين إلى هذا الاقليم عليه ان يهدق عليهم الهدايا و إلا يهدمون قراه الواقعة في السهل. تكثر الفاكهة في أراضيه بالاضافة إلى مناجم الرصاص التي تدع عليه ارباحا طائلة. يملك باشا عميدية مدينة عكر الصغيرة التي تبعد سبعة أو ثمانية اميال عن الموصل. كانت هذه المدينة شهيرة منذ أيام الخلفاء و لا تزال حتى اليوم ذاتعة الصيت لأنها تزود المدن المجاورة بالأرز.

زاخو هي مدينة صغيرة في هذا الاقليم. أما الاسماء التالية فهي لقري: جزيرة، نفاكر، شاه، خان، صخوك، زبار، و اسماعيل. القرية



الاحيرة تقع عند نهر دجلة و على الطريق التي يسلكها الزيديون من جبل سنجار إلى قبر شيخهم الكبير عدى.

جكارية في إقليم في كردستان يقع شرقي مقاطعة عميدية و بالقرب من وان، إن هذا الاقليم جلي و يسكنه النسطوريون ولديهم بطرك خاص يدعى شمعون. ان هذا الاقليم مستقل تماما عن الكوش. يقال ان باشا و ان يرسل أحد البكاوات يقطن في قرية قمرية الا ان السكان لا يكثرن له و هم يتجنون أى اتصال بالمسلمين خوفا من الخضوع لثبرهم. و لا يسمح الناظر في حقارى للتجار المسلمين بالقدوم اليهم كما و لا يسمحون لأى مسلم بالسكن عندهم.

يقال إنه في يازيد و هو إقليم آخر قريب من وان، هناك باشا كردى بالوراثة حكمت عائلته الاقليم لسنوات عديدة بالاضافة إلى إقليمين آخرين هما جولمرک و بدليس. في هذا الاقليم الأخير تشكل منطقة موش المكان الرئيسى اما زازون فهى قرية صغيرة عند ما كنت أستعلم في الموصل عن عملات قديمة رومانية و يونانية و فارسية، أكد لى الناس اننى يمكن ان اجد مثلها في كردستان إذ يتعامل بها الشعب لأن العملة تنقص فيه. و قد وجدوا في البلد نفسه كميات من هذه الاموال كانت مدفونة تحت الأرض إلا ان الجزء الأكبر منها قد أرسله تجار الموصل و نصيبين و ماردين و ديار بكر إلى مدن أخرى مقابل العنص إذ عندما يكتشف باشا أو قاض تركى ان احدهم يريد عملات قديمة يرجه في السجن و تسحب منه كل ممتلكاته أو يرحض ضربيا ليجعله يعيد الكونز التي لم يجدها بعد. إن العملات و القطع النقدية القديمة العربية ليست نادرة في الشرق لأن العادة تجرى على ان توضع سلاسل منها حول رؤوس الاولاد و أعناقهم و هم يفضلون القديم منها لأنها منقوشة بآيات قرآنية ليست موجودة على الجديدة إذ استبدلت عليها الآيات بأسماء الحكام و مناصبهم لا يزال سكان هذه المناطق الكثيرة الاضطراب.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٦٣

إلى اليوم يذوقون أسياءهم الثمينة حفاظا عليها لأنه يصعب عليهم تشغيلها بأمان كما في اورويو كما يصعب عليهم حفظها لأن خزاناتهم و بيوتهم سيئة الصنع و البناء. و غالبا ما يرفض حتى المريض ان يروح لأهله بالمكان الذي دفن فيه أشياء الثمينة كى لا يستعملوه قبل الاوان. و يحكى منذ سنوات قليلة ان كرديا من قبيلة كيكى وقع عن حصانه و رفض إخبار ابنه بالمكان الذي دفن فيه ماله، و عند ما تأكد من أن أمه في الحياة فسيل جدا كان قد فقد القدرة على النطق و لم يستطع ان يقول إلا اعلى تله، فقام الابن بالبحث على عدة نلال لكنه لم يجد شيئا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٦٤

### سير رحلتى من بغداد إلى الموصل

#### إشارة

خلال اقامتى في بغداد، تم تمر بعنات كبيرة، لأرقفها إلى حلب عن طريق الصحراء، كما و ان السفر وحيدا محفوظ بالمخاطر. في هذه الأثناء، كانت احدى القوافل تستعد للذهاب إلى دمشق، فاستغل معظم التجار، الذين يبيعون السفر إلى حلب، هذه الفرصة، و ارتأت ان احذو حذوهم.

وقبل انطلاق القافلة، علمت ان القبيلة العربية في سوريا، قد تخاصمت مع باشا الاتراك، و ان احد اعيان المنطقة بدل رأيه، و عدل عن مرافقة القافلة المذكورة فأحسنت فعلا بالبقاء برفقته في بغداد، إذ تعرضت القافلة للنهب على مقربة من دمشق، و سرت الخزنة التي ارسلتها إلى حلب.

ان الطريق المؤدية إلى الموصل، عبر كركوك و أربيل، خالية من المخاطر، و يمكن سلوكها دون انتظار مرور القوافل الكبيرة؛ اختار احد المسافرين سلوك هذه الطريق، خاصة و اننا تصادف عليها مدنا كثيرة، خلافا للطريق المؤدية من بغداد إلى حلب، حيث لا تقع الا على قربتين أو ثلاث.

ولما استعلمت عن القوافل الصغيرة المتجهة إلى الموصل، علمت ان بعثة مؤلفة من ٢٥ أو ٣٠ يهوديا تستعد للانطلاق، كان هؤلاء الآخرون يتناولون الحميم، و يستعملونها لنقل بضائعهم؛ و هم يلبسون ملابس رثة، و لا يحملون الأسلحة. و الجدير ذكره ان سكان اسم الشرق يحتفرون اليهود شأنهم شأن الأوروبيين، فاخذت بالتالي اسوأ صحبة للسفر برفقتها. و لكن قائد القافلة كان تجارا عجوزا من الموصل، قام برحلات كثيرة في هذه الاقاليم، و خاصة في كردستان، و يمكنه ان يزودني بمعلومات واقية عنها. و قد أكد لى ان الطريق آمنة جدا. و لا داعى للخوف اهدا، و لما ادركت انه يجدر بى انتظار وقت طويل حتى تمر بعثة اخرى، قررت متابعة رحلتى برفقته. كنت احمل معى فرمان السلطان، الذى حصلنا عليه عند انطلاقنا من القسطنطينية، فضلا عن جواز سفر من باشا بغداد رغم ان القضاة و رجال الحكومة لا يسألون المسافرين عن جوازات السفر هذه، الا اننى فضلنا ان احمله معى، لأن عامة الشعب يحترمون حامله فاستأجرت حصانا لى و بغلين لخادى و امتنعتى و غادرت بغداد في ٣ آذار/ مارس.

اتجهنا مباشرة من بغداد إلى بانكشا (للرحلتان XLI و XLV)، و وصلنا اليها مساء السابع من آذار/ مارس. في الطريق، لم ألحظ شيئا مميذا خلال الايام الخمسة الاولى و لا حتى خلال الايام

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٦٥

الثلاثة الاخيرة. غير اننا شاهدنا في هذه الصحراء، هضابا من التراب و الصلصال على ارتفاع ٣٣ ٥٧ من القطب، في بقعة كانت تقع فيها قديما مدينة قرفة، التي لن يتبق منها الا اسوار صرح عال بناه خليفة، اتخذه مع سواره مقرا له؛ و مما لا شك فيه ان طريق قرية دربلا، تضم انقاضا مثيرة للاهتمام؛ فلسنوات خلت عثر في خان مصبح، على قبة كبيرة، و أضرحة حجرية، تعود إلى زمن الاشوريين أو الفرس القدامى.

منذ اليوم الاول، لاحظت جن صحابى؛ فقد تعارك عدد من البغاليين المسلمين، و آثاروا ضجة كبيرة، فاضطرب اليهود من جراء ذلك، رغم ان عددهم يبلغ أربعة أضعاف عدد المسلمين، و خشوا ان يصبّ هؤلاء الآخرون جام غضبهم عليهم و يسلبوهم ما لهم. فتوسل الى احدهم ان اعيره مسدسى، و سألته ان كان يتجرأ على اطلاق النار فأجابتى انه يريد وضعه على خصره، دون تلقيه، كى يخيف من يحاول نهبه فأخرجت مسدساتى لأفرغها من الرصاص، و تجمع حولى اليهود، متوسلين الى ان لا أثير سخط البغاليين، و ان لا اطلق النار و ألفت انتباه اللصوص البنا. و تدل هذه القصة على مدى خوف اليهود من المسلمين، مما يعنى انهم لن يحاولوا قطف حمل السلاح و اعلان الحرب على الاتراك و غزو ارض الميعاد، مهما ازيد عدد رجالهم. فقد حسبوا في تلك الساعة، ان الخطر يحدق بهم رغم ان الوضع لا يدعوا للخوف. و بعد ان تعارك البغالون، عادوا و تصالحوا، و تابعنا رحلتنا بلاسلام.

تقع قرية بانكشا على ارتفاع ٣٤، ٥٢ من القطب و كانت في هذا الفصل شبه خالية من السكان، لأن معظمهم انتقل إلى الخيم ليرعوا ماشيتهم و خاصة التماح.

قرب دوس جارموت، على مقربة من بانكشار، مناجم ملح و زفت معدنى و نفض.

تكثر مناجم الزفت المعدنى في هذه المنطقة، و هو يستعمل في (هبت) لطلى السفن من الخارج. أما النفط فهو نادر الوجود و يستبدله السكان بالزبل و زيت الحيتان لإشعال قناديلهم. غير انه نفوح من هذه التربة الضمغية، خاصة في الفصل الحار، رائحة كريهة تمنع الفلاحين من استعمالها في منازلهم. أما المشاعل التي نجدها في منازل باشاوات بغداد و اعيانها، فهى عبارة عن خرق صغيرة تمل بالنفط و تجفف لاحقا. و الجدير ذكره ان الجمال تفرك بهذا النفط، في فصل الربيع، عند ما ينمو و يرها الجديد. و يقال ان هذه المنطقة غنية بالنفط الابيض الذى يستعمل كدواء للاسنان. فقد أكدوا لى، ان هذا النفط يتغلغل إلى الجسم، ان سكب على رأس الانسان، و يخرج بعدها من الاصابع و الأرجل.

في ٩ آذار/ مارس، و بعد ان احتفل اليهود بالسبت قطعنا أربعة اميال و نصف من بانكشا لتصل

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٦٦

إلى قرية طوق، التي غالبا ما تظهرها مياه النهر. نشاهد على الطريق، مروجا و حقولا في غاية الجمال، و يقال ان طوق كانت تعرف قديما بدكاوك ، و قد بقى منها اليوم بوابة كبيرة، و جامع رجب، مبنى من الآجر المشوى. كما و ان معظم المنازل مبنية من الطين و الصلصال. نشاهد، على مقربة من القرية، ضريح ولى مسلم، يدعى زين العابدين، يقال انه بعيد كل سنة، إلى احد العميان يصصره فلا عجب اذن ان يزور ضريحه الملايين من المسلمين؛ و علمت ان ابيه، ايمان محمد دفن ايضا في هذه المنطقة، و ان تربة ضريحه، تستعمل للشفاء من كافة انواع الامراض.

في ١٠ آذار/ مارس، سرتنا خمسة اميال لتصل إلى كركوك؛ و في الطريق شاهدنا سلسلة جبال منخفضة تحمل اسم رجل يدعى

الاسكندر، مدفون فيها، ولا أخال ابدا انه الإسكندر الكبير (ذو القرنين)، كما اخبرني رفاقي في الرحلة. سمعنا في طوق روايات عديدة حول اللصوص الذين يزعمون الخوف في نفوس اليهود بغية الحصول على جزية منهم. وأسأت احد الذين قضيت الليل في منزله، عن بنديته و سيفه، فأجابني ان رحالته لا يحسنون استعمالها، قد قدموها هدية له، يوم كان يعمل جنديا و يرافق القوافل.

تقع كركوك في واد جميل وخصب، على ارتفاع ٣٥، ٢٩ من القطب. غير انه لم يتيق الا بعض الآثار من المدينة نفسها، الواقعة على سفح هضبة متعرجة، بقيت عليها حامية للاكشاريين، و حصن معين، شديد القذارة. و نشاهد في هذه البقعة ثلاثة جوامع تطولها ابراج شاهقة، و يضم احدها اضرحة الانبياء، دانيال، و ميخائيل، و حنانيا، و اليعازر. و الجدير ذكره ان اليهود لا يشكون ابدا ان هؤلاء الانبياء قد دفنوا فعلا في هذا المكان. غير ان المسلمين لا يسمحون لهم بالدخول إلى الجامع و ممارسة شعائهم الدينية.

في كركوك انضم، حوالي ٤٠ كلدانيا أو نسطوريا إلى الكنيسة الرومانية، و عندما علموا ان أوروبا وصل إلى البلدة، جاؤوا لزيارتي، معربين عن فرحهم بمقابلة رجل من ارض القديس بطرس، و طلبوا مني بالبحاح ان أمضى معهم بضعة ايام. و كم تدمروا من تصلب رأى مسيحي الشرق، و رفضهم تصحيح اصططاهم السابقة و الاعتراف بالبابا كحبر أعظم فنصحت هؤلاء الناس الطيبين بالتخلي بالصبر، دون ان ألفت انتباههم إلا ان لا يشاركونهم الرأي. بصورة عامة، لاحظت ان مسيحي الشرق، يتبادلون الاحترام، و لا يطبقون الكاثوليكيك الرومان. أما المسيحيون الذين ارتدوا إلى الدين على يد الكهنة الاوروبيين فهم اعداء المسيحيين المحافظين اللدودين.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٦٧

تعد كركوك مقر إقامة الباشا، و هو يفضل الإقامة على الضفة الأخرى، قبالة المدينة، و يخضع اقليم شهر الصول الممتد من طوق إلى أربيل، لحكومة بغداد، كما اشرت اعلاه، اذ استطاع نادر شاه بسهولة فائقة الاستيلاء على المدينة و على الحصن المجاور لها. و لكنه لم يستمتع بإقامته في الموصل، و فضل الانسحاب منها على الفور و خسارة كل شيء. و شاهدت على الطريق عددا هائلا من القبائل التي تركها الفرس خلفهم منذ ٢٠ سنة تقريبا.

تكثر في هذه المنطقة الطواحين التي تعمل على المياه، لهذا السبب تنقل كميات وافرة من الطحين إلى بغداد، التي تصدر في المقابل التمر و غيره من البضائع. و يزعم ان المناطق المحيطة بكركوك غنية بمناجم النفط و الزفت المعدني. تتميز منطقة بابا غرغر بترتها الساخنة، التي يمكن استعمالها لطهي الطعام. و أكد لي بعض الاشخاص الذين زاروا هذه المنطقة، ان اللهب يتصاعد منها ليلا. خطر لي، انه قد ينسني لى الوقت لزيارة هذه المنطقة لأن مسلمي القافلة، كانوا يتنوبون قضاء يومين في كركوك للاحتفال بالبيرم. و لكن صباح ١١ آذار/ مارس وصلت قافلة أخرى متجهة إلى اربيل، فقررتنا السفر برفقتها. لم تصادف في طريقنا اى قرية أو مدينة، حتى بلغنا الطون كويرى. مساء ١٢ آذار/ مارس؛ غير اننا التقينا بعائلات كردية ترعى ماشيتها في تلك الحقول الخصبة. تتألف مدينة الطون كويرى (أو جسر الذهب) من ٤٠٠ أو ٥٠٠ منزل، و هي تقع في جزيرة، شاسعة تستمد اسمها من جسر عظيم مبني على ساعد النهر. و لاحظت ان الجسر القديم، الذي تدعى منذ عدة سنوات، كان كثير الارتفاع، لأن المهندس المعماري لم يحسن تشييده على علو منخفض. في ذلك المساء هطلت الامطار بغزارة، حتى بللتنا و انهكت قوتانا. غير ان القافلة اجتازت المدينة، و حطت رحالها على الجهة الأخرى من النهر، في وسط الريف. و نصحني الجميع بالتحاق بالقافلة، لأن منسوب مياه النهر كان مرتفعا، و العبور يقربه مخوف بالمخاطر.

لم اختلف نصيحة سكان البلاد حتى تلك الساعة، و لكنني كنت ابحث عن منزل دافئ اجفف فيه ملاسسي و أخذ قسطا من الراحة. فطلبت من البغال ان يأخذ الحنائب و يسبقني، بينما بقيت في الخلف برفقة خادمي. كان سكان الطون كويرى يحتفلون بعيد البيرم، و يتباهون بوسائل التسلية نفسها التي شاهدتها في القاهرة، و منها الراجيح التي يركب عليها الصغار و الكبار على حد سواء، و حلبات المصارعة التي يتبارز فيها المتصارعون بالعصى .

تقع قرية كوى سنجاق، مقر الباشا الكردي على بعد ١٢ فرسخا شمالي شرقي هذه المنطقة.

و كانت اربيل و الطون كويرى تابعيتين لنفوذ الباشا المذكور.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٦٨

أما اليوم، فيرسل باشا بغداد حاكما إلى بغداد، و يعين هذا الاخير آغا على الطون كويرى.

صباح ١٣ آذار/ مارس، كان منسوب مياه النهر مرتفعا للغاية، و خشيت ان اعبره و اجازف بحياتي و لكنني اضطررت للحاق بالقافلة لأتني ارسلت امتعني و ساعتى الشمسية مع البغال. و لما كان رفاقي في السفر قد سبقوني بحوالي ساعة، عبرت النهر برفقة خادمي، الذي كان شديد الخوف، و لحقت بالقافلة في قوس تاب في الطريق، أقبل شيخان نحوي، و في نيتهما نهبي؛ و لما ادركا انني احمل اسلحة نارية، و اجيب بجسارة على اسئلتهم حول رحلتي، دون ان تظهر على وجهي بوادر الخوف، لم يتجرأ على توقيفي. شاهدت غربي الطريق جبل كارا جوف الشاهق الذي تكثر فيه بقايا مدن و قرى قديمة، غير ان طريقه مخوف بالمخاطر، لأن سكان هذه الجبال، لا يكثرنون للحكومة التركية.

اخذت قرية قوس تاب اسمها عن هضبة صغيرة، و لأول مرة في رحلتي، شاهدت على رأس الهضبة المذكورة مسلما يتلو صلاته. كان العلماء الاوروبيون، يتساءلون ان كانت النساء المسلمات، مرغمات على الصلاة، و ان كنَ يأمرنَ بدخول الجنة. فأكد لي الشيوخ المسلمون، الذين لاحظوا اهتمامي في هذه المسألة، ان النساء يصلين خمس مرات في اليوم، و لا يتوانين ابدا عن تأدية هذا الفرض.

تعرف قرية قوس تاب، بخان عدليل. فقد تحولت هذه المنطقة الخصبة، إلى صحراء قاحلة، يقطنها الاكراذ الرحل.

و لكن احمد باشا، حفر بئرا في هذا المكان و بني قرية منزلا مخصصا لراحة سعاة البريد. و لكن ابنته عايدة خاتون شيدت خانا للمسافرين، و وعدت الفلاحين بمنحهم امتيازات كثيرة ان اقاموا في جواره، في ظهور قرية كبيرة خلال وقت قصير. و هذا يعني انه من السهل جدا على باشاوات الاتراك ان يعمرؤا مناطقهم الخصبة، و لكنهم لا يقيمون في المناطق الا لفترة قصيرة و يحاولون اثناها استغلالها قدر المستطاع، فيفرضون ضرائب عالية، دون ان يحاولوا حماية الفلاحين الفقراء من العرب و الاكراذ الرحل. فلا عجب اذن ان تتحول اقاليم الامبراطورية التركية إلى مناطق قاحلة و مهجورة.

في ١٤ آذار/ مارس قطعنا ثلاثة أميال و نصف لنصل إلى مدينة اربيل، التي ذاع صيتها بعد معركة الاسكندر و داربوس. حكم الامراء المسلمون الورثة هذه المدينة سنوات طويلة، و امتدت منطقة نفوذهم إلى طرووس في بلاد فارس. و لكن المدينة كانت شاسعة للغاية، و تضم قسرا مبنيا على هضبة مرتفعة. أما اليوم فلم يبق منها سوى ذلك الحصن المسور، و منازل مبنية من الصلصال من جهة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٦٩

أخرى لا نشاهد في هذه المنطقة بقايا جديرة بالاهتمام باستثناء انقاض جامع كبير، بناه السلطان «سافره». أما المنارة التي شيدت إلى جانبه، فهي مصنوعة من الصلصال و الطين، و يمكن الوصول اليها عبر باين و سلمين متقابلين.

تقع مدينة اربيل على ارتفاع ٣٦ و ١١ من القطب. و هي تخضع اليوم لحكومة بغداد، و تضم حامية من انكشاري القسطنطينية. تقع مدينة قرميا الفارسية على بعد خمسة ايام منها. اخبرني اشخاص عدة ان جبل بستان، الواقع بين قرمستان و مهدان (يدعى يهودي من الموصل انه يقع بين حلوان، و مهدان) يضم رسومات و نقوش مختلفة، غير ان هذا المكان بعيد جدا عن طريقني. لكن ان قصد احد الاوروبيين اصفهان، يمكنه ان يسلك هذه الطريق لنقل نقوش جبل بستان، و يبدو لي انها كتبت بالانجليزية نفسها التي استعملت في نقشى رستم والتي نقلتها في اللوحة XXXIV.

لا نغذى مياه الانهر بلاد مقاطعة اربيل، كما في بغداد و البصرة، غير ان القمح الذي ترويه مياه الامطار فحسب، يعطى طحيننا افضل و مغذ اكثر. و الجدير ذكره ان القمح يحصد هنا ١٥ مرة مقابل ٢٠ مرة في بغداد، لأن المناطق التي ترويهها مياه الامطار تزرع فيها البذور بكمية أكبر، و يتعرض بعضها للجفاف أو تأكلها المصافير.

كانت القافلة التي انضمنا اليها في كركوك توجه إلى اربيل. و علمنا حينها ان قافلة اخرى ستفادو المنطقة في ١٦ آذار/ مارس، فانطلقنا برفقتها عند طلوع النهار، و سرنا تسع ساعات أو خمسة أميال و نصف لنصل إلى زعب (أو زرب باللغة التركية) التي نصب فيها مياه اقليم حاكرى في كردستان. يقال ان منسوب مياه هذا النهر ينخفض جدا في الفصول الحارة. لكن عند مرورنا بقره، كان منسوب المياه مرتفعا و مجرى النهر قويا.

#### ملاحظات حول الزيديين

لم نفع في طريقنا من اربيل إلى زعب إلا على قرية واحدة. أما على الضفة الأخرى للنهر، فتقع قرية عبد الحفيظ، التي يقطن فيها

اليزيديون. و لما كان الأتراك يحظرون ممارسة الشعائر الدينية، على الشعوب التي لا تملك كتابا مقدسا، مثل المسلمين و المسيحيين و اليهود، اضطر اليزيديون للحفاظ على سرية مبادئهم الدينية. فهم يحترمون القرآن و الانجيل، و المزامير، و كتب موسى الخمسة و ان اتهمهم احدهم بالانتماء لمذهب اليزيديين، زعموا انهم من اهل السنة. و يدعى البعض منهم من عبدة الشيطان، الذي يسمونه شلبي أو السيد. و يزعم البعض الآخر انهم يعبدون الشمس و النار، و انهم من

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٧٠

الوثنيين الفظين و انهم يقيمون طقوسا مربعة. و لعلمهم يتنمون إلى مذهب البيعزيين في عمان. و لما كان عدد اليزيديين مرتفعا في زعب و سوريا و أرمينيا، و معظم سكان المدن المجاورة يعرفونهم جيدا، سأعرض عليكم في ما يلي رأى السنّة و مسيحي الشرق في اعمالهم و خطاياهم. فهم يزعمون ان المدعو شاه عدى اسس ديانتهم و انهم ذرية العرب الذين قتلوا بناء على اوامر الشمر، الحسين، حفيد محمد، و اضطهدوا عائلة علي، في ظل حكم الخليفة يزيد. لهذا السبب يقال ان اليزيديين يعتبرون شمر هذا وليا عظيما، و لما كان الحسين شهيد اهل الشيعة الاكبر، يفتخر هؤلاء أشد الفخر بقتل احد اتباع هذا المذهب. و هم يحتفظون بصور الاقاعي، و الماعز و غيرها من الحيوانات، فالأفعى تذكّرهم بوقوع حواء ضحية الأفاعم، و الماعز بطاعة ابراهيم العمياء، حين كان مستعدا للتضحية بابنه في سبيل الله. و قد أكدوا لى ان اليزيديين، لا يبتهلون ابدا إلى الشيطان، و يعبدون الله وحده، لأنه خالق البشر و ولي نعمتهم، و هم يرفضون الكلام عن الشيطان أو حتى سماع اسمه كما و انهم يفضلون ان يقف البشر على الحياذ ان وقع خلاف بين الله، و ملائك من العالم السفلي و ان لا-يحقر الفلاحون ضابطا غضب عليه الباشا و هم يؤمنون ان الله لا يحتاج إلى مساعدتنا لمعاقبة الشيطان على عصيانه، فإن عفى عنه يوما ما، قد نشعر بالخجل في محكمة الله، ان كنا قد أسأنا إلى احد ملائكته دون ان يستغث بنا احد. فلا داعي اذن لأن نولى الشيطان امتامنا، بل يجدر بنا ان نبذل قصارى جهدنا حتى لا نثير غضب الله علينا. عند وصول اليزيديين إلى الموصل، لا تصدر الحكومة امرا بالقاء القبض عليهم رغم انه من السهل التعرف عليهم. و لكن الشعب يحاول احياا خداعهم، فحين يعرضون البيض و الزبدة للبيح، يبدأ السكان بتوجيه الشتائم للشيطان، بحجة ان الاسعار مرتفعة أو ان البضاع فاسدة فيفضل حينها اليزيدي ان يعيد البضائع إلى مكانها بدلا من أن يسمع هذه الشتائم المريعة. و الجدير ذكره ان لا احد يتجرأ على اطلاق شتائم مماثلة، في مناطق نفوذ اليزيديين، إلا إذا كان مستعدا للمجازفة بحياته.

يخشى اليزيديون على فرار المسلمين، و يحتسون الخمر و غيره من الكحول، و لكنهم يمسكون الكأس بيدهم الانتين مخافة ان يقع الخمر ارضا و تطأه الأرجل. فلو اوحى محمد لاتباعه باحترام الخمرة إلى هذا الحد لما حظر عليهم احتساءها، إذ ان اليزيدي لا يشمل ابدا، علما ان النبي كان يسعى لتفادي ذلك. يرتدى رجال الدين اليزيديين أثوابا سوداء مختلفة كليا عن تلك التي يرتديها المسلمون. و يقال انهم يصومون ثلاثة أيام في السنّة، و يحجون إلى ضريح شاه عدى، الذي دفن بين عكر و الموصل، و الجدير ذكره اننا نشاهد قرب هذا الضريح خزان مياه يرمي فيه اليزيديون المال و الذهب اكراما لوليهم. حاول احد التنسطوريين، المقيمين في الجوار، الدخول ليلا إلى المستنقع لجمع هذه الثروات، و في تلك الاثناء، كانت ابنة المفتش تملأ جرتها ماء من الخزان المذكور فشاهدت التنسطورى في قلب الخزان، فحظر لها انه شاه عدى، خاصة و انها لم تتوقع

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٧١

رؤية لص في هذا المكان المقدس، و اسرعت إلى والدها تخبره ان وليهم ظهر في الخزان. فانتشر الخبر بين اليزيديين الذين شعروا بفرح عظيم، بينما احسن التنسطورى استعمال الكونز التي عثر عليها.

يظن المسلمون ان سكان جبل سنجار، الذين يتبعون المذهب اليزيدي، يحتفظون بكثرة ثمين في بئر أو مستنقع اكراما للشاه عدى. و بعد تعرض بعض المسافرين من بغداد للنهب و السرقة، اضطهد سليمان باشا قبائل اليزيديين، و اجتاح جبل سنجار، و نكل بالبعض، و قتل البعض الآخر دون ان يتقبل احدهم الكشف عن مكان الكنز.

اشتهر اليزيديون بأعمالهم المريعة بين اهل السنة، حتى ان العلامة الشافعي كان يخلق الاصدار لكل مسلم يقتل احد اتباع ذلك المذهب. و مما لا شك فيه ان كل عثماني، كريم النسب، يسافر في قافلته، يسلم امره لهؤلاء الاشخاص، خلال مروره في زعب. فمتنوب مياه النهر كان مرتفعا للغاية، و من الصعب اجتيازه على ظهر الحصان، و وحدها زوارق اليزيديين، الراسية قرب قرية عبد

الحفيظ تستطيع نقلهم إلى الضفة الاخرى.

لم اشاهد في حياتي زوارق اسوأ من زوارق اليزيديين، فهي مصنوعة من جلود الماعز (٤ بالطول و ٨ بالعرض) المعلقة بسياج شانك . في الطريق طلب منا الامتناع عن اطلاق الشتائم أو ذكر اسم الشيطان، في حضور اليزيديين، حتى لا-يقلبوا الزورق معرضين حياة المسافرين للمخطر.

و رغم اضطراب مياه النهر، و ادعاء اليزيديين القوة، خاصة و انهم يثيرون قلق رفاقي في السفر، لم تظهر على بوادر الخوف مطلقا. كان عدد الزوارق ضئيلا جدا، و لا يكفي لنقل ركاب المقابلة كلهم دفعة واحدة، فسارع الجميع للصعود اولا، رغم انهم رفضوا ان يدفعوا المال لليزيديين، فأدى ذلك إلى نشوب خلافات قوية بينهم، و الى اطلاق الشتائم ضد اليزيديين، مع العلم انهم اسياذ هذه المنطقة، في هذه الاثناء فضلت الوقوف على الحياذ، و تجنب العراك مع هؤلاء الاشخاص، فدفعت لأحد البحارة اجره و طلبت منه ان يقلني بزورقه إلى الضفة الاخرى. فأمر بالتالي رجالة بنقل امتعنى إلى الزورق.

و لما لاحظ احد اعيان الاتراك ان اليزيدي فضلى عليه، وجه لنا افظع الشتائم. في هذه الاثناء كانت امتعنى كلها قد نقلت إلى الزورق، علما ان مجرى المياه كان قويا للغاية، و يهدد بأن يغمر الزورق في جوفه، و لكن بعد عناء شديد، بلغنا الضفة الاخرى بسلام.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٧٢

كانت الدواب تقطع النهر سباحة، فوضع احد اليزيديين جلد ماعز منفوخ، على صدره، و قاد ثلاثة أو أربعة احصنة و بغل إلى الضفة الاخرى. أما الحمير فعلقت جلود الماعز على ظهرها، و عاونها بعض الرجال على العبور إلى الساعد الآخر. و بعد ان غرق حمار احد المسلمين، راح يطلق الشتائم عشوائيا، دون ان يراعى خاطر احد، غير ان اليزيديين سرقوا حمارية الآخرين في الليلة التالية. و تركوه يندب و يبكي قدر ما يشاء.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٧٣

#### رحلتي من بغداد إلى الموصل

في ١٧ آذار/ مارس قطعنا أربعة فراسخ لتصل إلى كرمليس، مروراً بنهر شافر، الذي ارتفع متنسوب المياه به بفعل هطول الامطار الغزيرة :

تكثر على الطريق المؤدية من شافر إلى الموصل حقول القمح و القري الصغيرة. و علاوة على تلك التي اشرت اليها في اللوحة XLV، نجد ايضا قرى شاه امير، امسيدان، باز خرتان، و باز شهرة؛ تقع هاتان القريتان الاخريان على جبل عين صفراء، الذي اخذ اسمه من ينبوع مياه، لونها اصفر، و تستعمل في الشفاء من عدة امراض.

تضم مدينة كرمليس ٦٠٠ أو ٧٠٠ منزلا، مبنية من الطين و الحجارة و الجدير ذكره ان سكان كرمليس كانوا قديما من التنسطوريين.

عند وصولي إلى المدينة، استقبلني اكثر سكانها نرا، و دعاني للاقامة عنده. فوجدت في منزله.

١٢ أو ١٣ شخصا، يرتدون ثيابا نيفة. و بعد ان استعلموا عن حالي و عن رحلتي من بغداد، سألتني احدهم ان كان اليايا رئيس الكنيسة المسيحية ام لا؟ و لما كنت اجهل ان كان الرجل المذكور كلدانيا أو تنسطوريا، أو خلافة، أجنه أنه رئيس الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فحسب، علما ان الارمن و اليونان و الأقباط، ينتخبون بطريركا لهم، شأنهم شأن التنسطوريين، يعترف باليايا كرئيس له.

و لكن أكد لي خصصى ان اليايا ليس وريث القديس بطرس رغم ان المسيح قال له انت الصخرة و على هذه الصخرة سأبنى كنيستي، فأثبت لى هذا الكلام انه كلداني و ليس تنسطوريا فأجنه قائلا ان القديس بطرس بشر بالانجيل في روما، حيث كل بابا زعيم ووحى، و غير انه بشر بتعاليم المسيح في مدن اخرى، و الانجيل لم يذكر ابدا ان رئيس الكنيسة في روما، هو رئيس المسيحيين اجمعين، و قلما

يهمنى ان يعترف الناس باليايا رئيسا روحيا لهم على الأرض، فالمسيحيون يؤمنون

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٧٤

بالانجيل، و بتعاليم يسوع المسيح التي بشر بها القديس بطرس، و ان بذلنا جهدا بسيطا لتنايع هذه التعاليم لن يفرق الله ابدا بين التنسطورى و الكلداني و غيرهم من المسيحيين. فقال حينئذ: حسبتك يونانيا. فأكدت له أنني اوروبي، و أنني للمجموعة المسيحية

التي لم تعرف بسيادة البابا الا منذ ٢٠٠ سنة. ورغم ان باقي اعضاء البعثة اكفوا حتى الان بالاستماع، بدأ بعض السطوريين بالمشاركة في الحديث. فقال احدهم كان من الافضل لك ان تحافظ على ديانة اسلافك و لا تحرض اصدقاءك و اهنا على ان يخذو حذوك، ضارين بعرض الحائط بنطار كنتا، و مفضلين عليهم زعيما روحيا اوروبيا. و كم اسأت لاستنكار الفريقين هذا الحديث، فأكدت لهم ان نصف الدول الاوروبية تخضع للكنيسة الكاثوليكية الرومانية بينما نصفها الاخر يرفض الاعتراف بالبابا، مع الاحتفاظ بدينه المسيحي شأنه شأن مسيحي الشرق، في الامبراطورية التركية الواسعة النطاق.

و طلبت منهم ان يدعوا لكل فرد منهم حرية اختيار دينه دون ان تمس صداقتهم بالسوء. لم يرق هذا الحديث للقس، و أكد ان المبشرين الاوروبيين في الموصل، أخبروه ان الدول الاوروبية كافة اعترفت بسيادة البابا و اخرج من صدره كتابا لاتينا، ترجم إلى العربية و السريانية، ليذكرني بقول المسيح ات الصخرة و على هذه الصخرة ابني كنيسةي، فقلت له اتنا قد تحدثنا عن هذا المقطع الوارد في كتب الديانة المسيحية كافة، و انه جرى نقاش حاد بين رجال الدين حول هذا الموضوع، دون التوصل إلى نتيجة حاسمة فيه.

حاولت بعدها ان أغبر مجرى الحديث، و اتناول موضوع خصوبة الحقول، التي تفوق محاصيلها محاصيل مصر و غيرها من المقاطعات الشرقية، ب ١٥ مرة. فشعر رجل الدين بخيبة الامل، خاصة و انه وجه الدعوة للبعثة على امل ان يوافقه الاوروبي الرأي. غير اني وطلدت صداقتي بأفراد البعثة كلهم، و لما حان موعد صلاة المساء توجهنا جميعا إلى المعبد، حيث اعتاد مسيحيو الشرق ان يؤدوا شعائزهم الدينية. تحمل هذه الكنيسة اسم القديسة بربارة، حيث دفنت تلك الشهيدة المزعومة و خادمها، رغم ان المسيحيين لا يقصدوا قبر هذه الاخيرة ليتهلوا اليها.

تحدت القرية هضبة مرتفعة، يزعم انها كانت تضم قصر والد القديسة بربارة، و هي تطل على منظر جميل للوادي المجاور. و على بعد ثلاثة فراسخ شمالي شرقي كرماليس، يقع جبل القديس متي، و قرية مسورة يقم فيها المسيحيون اليعقوبيون، و يزعم اتنا نجد في هذه البقعة آثارا قديمة غير جذيرة بالاهتمام. و على بعد فرسخ و نصف شمالي شرقي كرماليس، تقع قرية بشاشرا، حيث دفن القديس دانيال، و تقع قرية باشان على بعد ثلاثة فراسخ شمالا، و قرية باراتول، حيث يقم اليعقوبيون، على بعد فرسخ شمالي - غربي كرماليس. نجد غربي كرماليس، قرية شاسنا طوبى المأهولة بالمسلمين أما قرية مینار التي تبعد فرسخا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٧٦

و نصف عن كرمليس، فكانت قديما مأهولة بالمسيحيين، و لكنها تضم اليوم عددا من المسلمين، بينما لا نجد في قرية قراقوش، الواقعة على بعد ميل جنوبي غربي كرماليس، إلا اليعقوبيين.

يتكلم مسيحيو قري هذا الاقليم السريانية، و لكن اللغتين السريانية و الكلدانية تختلفان كثيرا عن اللغات التي وضعت فيها الكتب المقدسة. و لما كان المسيحيون يحسنون الكردية و التركية و العربية، تستعمل كلمات كثيرة من هذه اللغات، في السريانية الحديثة. و اشير إلى ان بطريك السطوريين، يقم في قرية القوش، المجاورة للموصل، و يدعي انه ايليا و يزعم ان مناطق نفوذه تشمل ٣٠٠ قرية، بعضها مأهول بالمسيحيين، ذكرت سابقا ان بطريك حكارى لا يحترم ابداء امره. يقم بطريك اليعقوبيين في ديار بكر، كما سأذكر لاحقا. تتميز قرية القوش بقبر النبي ناحوم، الذي ولد و دفن فيها. كما و ان اليهود يحجون إلى ضريحه، و لعل القوش هي مدينة القواشي المذكورة في تاريخ العالم، و التي كانت تتميز بحصنها في القرن السابع من الهجرة.

في ١٨ آذار/ مارس قطعت ثلاثة أميال من الحقول المحروقة لأصل إلى الموصل. تقع شمالي الطريق قري باشيتا، و بسوا و خجيلي، و جنوبه، قريتا منارة و كوجاف.

قبل بلوغنا الموصل، مرنا في مدينة نينوى التي يدعى مسيحيو الموصل انها تمتد من قريتي قاضى كند و بنجاه اللتان تبعدان عن بعضها البعض حوالي الميلىن، و تغمان على ضفاف نهر دجلة.

غير ان اليهود، يزعمون ان طولها يوازي مسيرة ثلاثة أيام. لم أدرك اتني بلغت منطقة شهيرة إلى هذا الحد الا عند اقترابنا من النهر المحاذي لحجيلي. فشهدت على هضبة مرتفعة، قرية منية التي دفن داخل مسجدها النبي يونس غير ان اليهود يتهلون اليه من الخارج اذ لا يسمح لهم المسلمون بالدخول اليه. و لا أظن ان هذه الحجة مقنعة ابداء، لأنه يسمح لمسيحي الموصل بزيارة ضريح احد القديسين المدفون في كنيسة تحولت لاحقا إلى جامع. و لعل اليهود يرفضون الدخول إلى معبد اتباع ديانة اخرى. نشاهد في هذه المنطقة هضبة اخرى تعرف بقلعة منية أو حصن نينيف، أرشدني سكان الموصل إلى اسوار نينوى التي حستها في البداية سلسلة هضاب. فرست لاحقا منظرا عاما للمكان. و نقلته على اللوحة ١ . XLVII) الجامع حيث دفن النبي يونس (٢ قرية منية ٣) اسوار نينوى المزعومة (٤ جبل عين صفرا.

بنى من نينوى إلى الموصل جسر شبيه بالجسر الذى يصل ببغداد بالحلّة. و لكن عرض النهر لا يتجاوز ٦٠ قدما مزدوجة (حوالي ٣٠٠ قدما) و لا يفوق عدد مراكبه العشرين. و بعد هطول الامطار الغزيرة، أو بعد ذوبان الثلج عن الجبال المجاورة، يرتفع منسوب المياه، و يفضل الجسر عن الضفة، حتى لا يجرفه التيار، فقد حصل ذلك في ٢٣ آذار/ مارس، للمرة الثانية أو الثالثة هذه السنة. و لكن

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٧٧

منسوب المياه لم يرتفع ارتفاعا شديدا، و اعيد الجسر إلى مكانه في الاول من نيسان/ أبريل.

لسنوات خلت بنى الباشا سدا، أو جسرا إلا ان قناطره كانت ضيقة و منخفضة العلو فجرفها التيار عند ارتفاع منسوب المياه؛ مما زاد الطريق المؤدى إلى الجسر و عورة.

لا يتأذى المسافر ابداء، من رسوم المرور المفروضة في هذه المقاطعات. ففي بانكشا و كركوك و الطون كوبري و اربيل، و نهر زعب، تفرض عليه ضريبة رمزية، تعرف بالباج. في الموصل، نقلت امتنعي إلى الجمارك، و لم ادفع للموظفين الا بعض الحلويات حتى يشحنوها لي.

يدفع التجار على حمولة الجمال، من حرير أو قمشة قطنية أو أقمشة ناعمة، عشرة قروش، و على حمولة القهوة، سبعة قروش و نصف، و على حمولة البهار و غيره من البضائع ستة قروش و ربع.

و ان كانت البضائع محملة على الحمير أو على البغال، تزان و يدفع الباج نسبة للوزن.

للاتقال من الموصل إلى بغداد، يمكننا السفر نهر غير دجلة اتنا لا نجد هنا الا مراكب الكليك التي يستعملها التجار لنصدير بضائعهم. و ان شاؤوا السفر مع البضائع، بناو غرفة صغيرة على متن المركب، ليحتما من الامطار و من حرارة الشمس. في فصل الربيع، و بعد ارتفاع سرعة مجرى النهر، يمكننا السفر في غضون ثلاثة أو أربعة أيام بينما في الفصول الاخرى، يتطلب السفر ١٥ يوما. و ان سافرا برا، يمكننا التوقف في مدينتي تكريت و سامراء، كانت تكريت قديما مدينة شهيرة. و لم يتبق منها اليوم الا بعض الانقاض. أما سامراء، فكانت مقر عدة خلفاء، و ثلاثة أئمة من الشيعة، يزور الفرس اليوم اضرحتهم. و يقال انها تضم برجاً عليا، يمكننا الوصول اليه عبر منحدر وعر من جهة اخرى، تكثر في سامراء و على ضفة نهر دجلة، من هنا إلى بغداد، بقايا الاضرحة القديمة، غير انها لا تستحق عناية تفحصها خاصة و انها بنيت كلها في عهد المسلمين. نشاهد قرب حصن نمرود المتداعي على بعد ثمانية فراسخ من الموصل سدا لرى الارياض المجاورة. لا أخال ان هذا السد قد بنى على يد المسلمين، لأنه صمد في وجه التيار أكثر من الف سنة. و نجد قرب فتح، حيث يتابع دجلة مجراه عبر جبل حمارين، شلالا للمياه خطيرا للغاية خاصة ان كان منسوب المياه منخفضا، و لكن ان كان البحار يحسن قيادة الكليك، لن يخشى شيئا على الاطلاق.

و الجدير ذكره ان هذه الشلالات تكثر في نهر دجلة، بين ديار بكر و الموصل، حيث تستعمل زوارق الكليك ايبضا.

ان الملاحة صعبة للغاية بين بغداد و الموصل، و لكن البحار ينقل جلد الماعز إلى المناطق الاخرى على ظهر الحمير بينما يبيع ما تبقى منها، مع السياج الخشبي الذي علقت فيه.

غالبا ما تسلك القوافل المسافرين من بغداد إلى الموصل، طريق الصحراء، فهو اقصر من الطريق الذي يمر عبر كركوك و اربيل، و لكن الاوروبي لا يجذب سلوك هذه الطريق خاصة و انه لن يصادف فيها الا قرية تكريت.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٧٨

لما كنت احمل رسائل توصية إلى البعثات الريفية في الموصل، توجهت فور وصولي إلى الموصل لمقابلتهم، أما ان يؤمنوا لي منزلا في الحي المسيحي. كانت البعثة تضم راھين دوينيكيين، عين واحد منهما طبيبا للباشا، و لما علما اتني دامنركي و بروتستانتى، رفضوا مساعدتي، فاضطرت لاستئجار غرفة في خان أو مسكن عام. من جهة أخرى، استطلعت ان أوصل صداقتي مع الكهنة الاوروبيين

كافة. ورغم المحاولات التي بذلها احدهم لتحويلني عن معتقداتي، بقيت علاقتنا متينة، علما ان الجميع كان مسرورا بمقابلة رجل اوروبي. غير ان وجودي في الموصل أثار سخط الرهبان الدومنيكيين، ففي زمن الصوم يمنع النسطوريون والعقوبيون عن تناول اللحم والحليب والبيض والزبدة، فتضعف صحتهم ويصابون بالمرض. فهم يمتنعون عن الاكل والشرب وتدخين السجائر عن طلوع الشمس إلى الظهور. والجدير ذكره ان الرهبان الدومنيكيين يتبعون صياما قاسيا، لأن سكان البلاد يعتبرون ذلك فرضا أساسيا من فروض الديانة المسيحية. فلو أخبرني هؤلاء الرهبان ذلك، منذ البداية، لصمت معهم، ارضاء لهم. فحسبت ان مسألة صيامي قلما تهتمهم.

ولكنهم ما لبثوا ان ادركوا انني لا أصوم ابدا. فسأل بعض الكهنة النسطورين، الذين تحولوا عن دينهم على يد هؤلاء الدومنيكيين، و يخالون ان الاوروبيين يتبعون جميعا الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، أطباءهم عني، فوصفوا لهم البروتستانتى بطريقة مرعبة للغاية، حتى ان جميع المسيحيين اعتبروني ملحدا، باستثناء بعض التجار الذين وطلدوا علاقاتهم بالانكليز في حلب. حتى المسلمين بدأوا ينظرون الي بطريفة غريبة، متسائلين عن سبب الخلاف بيني وبين المبشرين الاوروبيين؟ وفي سبيل تقادي احتقار الجميع لي، حاولت ان اكسب صداقة طبيب الباشا أو الحكيم باشي، فاشترت له عملة قديمة، دفعت ثمنها غاليا. ولما قدمت له، وراخ يتحدث عن مسيحي الشرق بالسوء، كما كان يتحدث عني من قبل؛ بعبارة أخرى، تمكن هذا الرجل من تحويل عدد كبير من مسيحي الشرق عن دينهم، مؤديا بذلك خدمة عظيمة للكنيسة؛ ولكن رأيه، بالمسيحيين الآخرين، ليس مسيحيا ابدا.

وفي سبيل محو الفكرة التي زرعه الرهبان في ذهن السكان، خاصة و انني وصلت إلى المدينة برفقة اليهود، حاولت ان انتهر الفرس لأحسن صورتي أمام الباشا، رغم انني كنت انفادي ذلك في المدن الاخرى. فساعدني صديق لي يدعى ايليا، في بلوغ غايتي، دون ان يأخذ مني قرشا، فقلل للبخيا، انني قادم من الهند، و انني زرت بلاد فارس واحسن العربية، و حتى ينقل ذلك للباشا.

وقمت ايضا بزيارة المفتي، واستقبلت عددا من المسيحيين، من نسطورين وعقوبيين، بعبارة أخرى، كانت اقامتي في الموصل مرضية ومريحة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٢٧٩

#### ملاحظات دوتهيا في الموصل

تقع مدينة الموصل على الضفة الغربية لنهر دجلة قبالة مدينة نينوى القديمة، وعلى ارتفاع ٣٦ و ٢٠ من القطب. يدعى اليهود انها كانت تدعى قديما عطور، و ان النبين عاديا و يفتح الجلعادي مدفونان فيها. ولكنني اظن انهما يختلفان عن النبين المدكورين في الكتاب المقدس، لأن يفتح الجلعادي مدفون في مدينة جلعاد (سفر القضاة الفصل ١٢، ١١) غير انني لم استطع جمع معلومات وافية عن تاريخ هذه المدينة، ولا عن تاريخ تسميتها كالانثى. ولكن يقال انها دمرت ثلاث مرات. و اظن انها مدينة قديمة للغاية، لأن مفتي الموصل زعم ان المسلمين استولوا عليها منذ فترة طويلة.

حكم الامراء المسلمون (الصحابة) مدينة الموصل، كما حكموا هذه المقاطعة كلها، حيث ازدهرت اشد ازدهار.

نقلت على اللوحة XLVI موقع المدينة الحالي ومساحتها. يحد المدينة من الجهة الجنوبية الغربية سور و برج حديشين، والجدير ذكره ان جزءا كبيرا من المدينة خال من السكان. يقال ان عددا من المنازل يتراوح بين ٢٠ و ٢٤ ألف منزل، ولكنني اظن ان هذا العدد مبالغ فيه. أما شوارعها فضيقة و متعرجة، ولها منفذان، أما منازلها فمبنية من الطين والصلصال ولها عدة قب. في فصل الشتاء تنخفض درجات الحرارة انخفاضاً شديداً، حتى ان نهر دجلة، غطى ل عشر سنوات خلت بالجليد عدة ايام. يعيش سكان هذه المدينة طويلا، نظرا لتقاوة الهواء ونظافة المياه. تكثر قرب نهر دجلة، ينابيع المعدنية، التي تضيئ على مياه النهر طعم الكبريت. غير ان هذا الطعم يخف تدريجيا تحت الجسر، في الجهة المقابلة للمدينة. على بعد أربعة فراسخ جنوبي المدينة، نجد نبع مياه ساخنة يعرف بحمام علي، يطغى عليه طعم الكبريت. و يقال ان هذا النبع يقذف كمية كبيرة من الزفت المعدني.

اشرت إلى ابواب الموصل و اصطحنا على خارطة هذه المدينة بالتسلسل العدي:

١- باب الماضي، سد هذا الباب يوم حاصر نادر شاه المدينة، و لم يفتح مذكاً، و الجدير ذكره ان هذا الباب مذكور في تاريخ العالم، زمن الحملات الصليبية، مما يعني ان موقع المدينة، لم يتغير من هذه الجهة.

٢- باب سنجار

٣- باب الباد

٤- باب الجديد

٥- باب الجيش

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٢٨٠

٦- باب الطب

٧- باب الجسر

٨- باب القلعة، أو الحصن الداخلي؛ يقع هذا الحصن على جزيرة صغيرة مستطيلة، في نهر دجلة، و هو يستعمل اليوم كمخزن للأسلحة. و لم اجد احدا فيه سوى مفتش المخزن، الذي كان يدخن الغليون على باب المدخل و لم يحاول اعتراض طريقي، و دعاني للقيام بجولة في المكان.

غير اننا لا نجد في المخزن سوى بعض القنابل التي قذفها نادر شاه على المدينة، خلال حصاره الاخير لها. اما المدافع فمعظمها مهترى، و مغطى بالصدأ. أما الصروح فمعظمها متساق و ابوابها كلها مفتوحة، و هي تضم مخزنا للخبز يعود إلى ٢٠ سنة. في القسم ٩، نشاهد السراى أو قصر الباشا، الذي يتألف من عدة اجنحة. و في القسم ١٠، نشاهد الجامع الكبير الذي بناه نور الدين، والى دمشق غير انه لم يتبق من الجامع سوى منارته و جزء من سوره. و الملفت للنظر، ان هذه المنارة، شاهقة للغاية، مقارنة بمنارات الموصل التسع؛ غير انه تكثر في المدن الاسلامية الاخرى المنارات الشاهقة، علما ان الاوروبي لا يجدها غير عادية. نشاهد في وسط المكان القبلة، التي تذكر المسلمين بضرورة ان يستديروا صوب مكة، لأداء صلاتهم؛ و هي مبنية من المرمر و مغطاة بكافة انواع الزينة. و الجدير ذكره ان اعمدة هذا المسجد مبنية بشكل مستطيل، و مغطاة بالحجارة المنحوتة. يتميز جامع النبي جرجس بخزان المياه الذي يعلوه، و الذي يزعم انه يجذب حيوان السمارموغ، الذي يأكل الجراد كان هذا الجامع قديما كنيسة مسيحية، و يقال ان القديس جورج مدفون هنا، غير اننا نجد قبره في مصر العتيقة، في منطقة راما، و في الاراضي المقدسة و في مقاطعة كسروان في جبل لبنان.

خارج المدينة، نشاهد قرب الرقم ١١، جامعا قديما يعرف بجامع الأشمر، الذي بنى عام ٥٧٦. و رغم ان اسم بانيه غير واضح، إلا انه يقال ان مجاهد الدين قد شيده، و يبدو انه مجاهد الدين كيمار نفسه المذكور في تاريخ العالم. مما يعني ان الجامع قد شيده بناء على طلب سيف الدين غازي بن معدود. الذي قضى في تلك السنة. و نشاهد في هذه البقعة نقوشا مختلفة، بعضها كوفي، شبيه بتلك التي

نشادها في اللوحة XLIII قرب الصورة (E)، و بعضها عربي حديث،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٢٨١

مأخوذ من القرآن. و الملفت للنظر ان معظم النقوش و الزخرفات قد حفرت على جدران الجامع بالكلس. و يقال انه في غابر الازمنة، شيدهت كنيسة في وسط المدينة، و جسر للمراكب على نهر دجلة.

لم يدع صيت اي امير مسلم مثلما ذاع صيت الامير لؤلؤ الذي حكم في القرن السابع الهجري، و الذي بنى السراى الكبير، قرب الرقم ١٢. شاهدة في هذا القصر الإسلامي ٨٠ أو ١٠٠ صورة بشرية، علما ان رأس معظمهم مقطوع أو متلف، و هم مكتفو الأيدي، و متشابهون إلى حد بعيد، و كأن النحات نقشها عمدا بشكل متشابه. و بنى لؤلؤ ايضا، المدرسة (١٣) علاوة عن صرح كبير على ضريح المدعو يحيى بن الحسين. أو كما يدعوه البعض ابو الحسين (١٤).

يسمى المسيحيون يحيى، حنا العسكري، مار جرجس و يعتبرونه قديسا عجائبييا، و قد سد قبره من الجهتين الجنوبي و الغربية- و الشمالية- الشرقية، و يزعم ان الامير لؤلؤ شيده سلسلة من الاصرحة، بدءا من المدرسة و وصولا إلى سور المدينة، متوليا في طريقه، على ضريح هذا القديس المسيحي، دون ان يحظر على اتباعه زيارته، داخل المسجد. شاهدة حول السور الداخلي صفا من حجارة المرمر، تعلوها زخرفات منحوتة بشكل جميل، فضلا عن مجموعة من النقوش، حفرت احرفها بالطين، و لا عجب ان يستعمل الطين في بغداد و بابل، حيث المرمر و غيره من الحجارة، نادرة الوجود، غير انني فوجئت برؤية هذا العدد الوافر من المرمر داخل هذا الصرح و

غيره من اصرحه الموصل القديمة.

يملك مسيحي الموصل حوالي عشر كنائس صغيرة. و بعد ان شاركوا في الدفاع عن المدينة خلال حصار عام ١٧٤٣، سمح لهم الباشا ببناء بعض الكنائس الجديدة، و ترميم القديمة منها.

فبنى السطوريون عندئذ كنيسة جديدة، قرب الرقم ١٥، و يعقوبيون، قرب الرقم ١٦، و اظن اني لم اشاهد في بلاد الشرق كنائس تضاهيها جمالا. و بعد ان طلبت من احد المسيحيين ان يشرح لي النقوش المنحوتة على جدرانها، علمت انه العام ١٧٤٤ ميلادية، و ٢٠٥٥ بعد وصول الاسكندر إلى الحكم، بنيت هاتان الكنيستان، و لهذا السبب يستعين مسيحيون هذه المقاطعة بهذين التاريخين، في نقوشهم، و في وثائقهم المهمة، علما ان الفرق بينها يوازي ٣١١ سنة، فالترتيب الزمني للاسكندراني، يتوافق مع ترتيب سلسوس الزمني حيث يعتبر تشرين الأول/ أكتوبر، أول شهر في السنة .

تضم مدينة الموصل ١٥ خاناً، يتزل فيها الاجانب، خمسة منها صغيرة و قدرة، و العشرة الباقية

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٨٣

شاسعة و نظيفة كما و انها تجرى مقاء عامة، و حمامات، و اسواقا شعبية يعود معظمها لعائلة عبد الجليل، اى اقارب امين باشا، حاكم المدينة الحالي، كان عبد الجليل نسطوري الاصل. و بعد ان تكاثرت ذريته في الموصل، ازداد نفوذها، و اجبرت السلطان على تعيين احد افراد عائلتها في منصب الباشا، خاصة بعد ان تسلم الحكم في السنوات الاخيرة حاكم اجيني من القسطنطينية. ففي اغلب الاحيان، كان سكان المدينة، و العرب و اليزيديون المقيمين في الارياف، يثرون ضد الباشا، الذي كان مجبرا على حشد عدد وافر من الجنده، غير ان هذا الامر كان يكلف اموالا طائلة، و يحول دون جمع السلطان ايرادات هذا الاقليم، يدفع الباشا للتسني عن منصبه، و لكن حين عين باشا من عائلة عبد الجليل، وقف الاعيان إلى جانبه، و ايدته سكان المدينة اجمعين، و ما احتاج بعدها لحدس الجنده، و وفر بالتالي المال لدفع الجزى. و لما كان سلطان القسطنطينية يضع هذا البند في المقام الاول، استطاعت العائلة المذكورة من بلوغ غايتها دون ان تنكبد اى عتاء يذكر، و ما لا شك فيه ان الرعايا هم المستفيدون، لأن الباشا يسعى لكسب حبههم و تقنمهم خاصة ان كان بنوى البقاء في منصبه طوال حياته. و لكن الاجنبي يسعى لجمع المال، لتقديم الهدايا لسلطان القسطنطينية، خاصة و ان لن يبقى طويلا في هذا المنصب.

ينقسم سكان الموصل إلى سنة و حنفيين و شافعيين، و على رأس كل منهم يعين مفتى يقض لمفتى القسطنطينية. و يبلغ عدد منازل المسيحيين ١٢٠٠ منزلا، و هم ينقسمون إلى نسطوريين و كلدانيين و يعقوبيين. و من بين المسيحيين المولودين في هذه المدينة، نادرا ما تصادف شخصا يحسن اللغة السريانية المستعملة اليوم في القرى. تعد العربية للغة الام في الموصل، بينما يكتب التجار و الكهنة اللغة الكرشونية اى العربية بأحرف سريانية غير ان كتبهم الدينية، موضوعة باللغة العربية القديمة .

لا اظن ان المسيحيين يعيشون بونام مع المسلمين في اقاليم الامبراطورية التركية الاخرى، باستثناء الموصل، فهم يرتدون الازياء الاسلامية، و يعمل بعضهم في خدمة الباشا، حتى طباطح زوجة الباشا، كان مسيحيا، شغل والده المنصب نفسه، لدى والد الباشا، منذ سنوات طويلة.

تجدد في الموصل ايضا حوالي ١٥٠ منزلا يهوديا. مما لا شك فيه ان هذا الشعب يتمتع في بلاد الاتراك بحرية العمل اكثر منه في اوربا حيث فصلوا جميعا من منتهم. غير انهم عرضة للاحتقار في بعض المدن اكثر منه في بلادنا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٨٤

و حتى في مدن هذه المقاطعة، حيث يقطن عدد هائل من المسيحيين، لا يجزؤ اليهودى على الظهور في الشارع، حتى لا يسىء الصبية معاملته، في حضور الوالى المسلم. سألتو عليكم في ما يلى حادثة وقعت في الموصل مع بعض اليهود. ذات يوم، و في طريق عودتهم من الحج إلى قبر النبي نعيم القوش، ضاع احد الاطفال في القرى المسيحية، المجاورة و بعد بحث طويل عثر عليه في بئر، و قد قطع لسانه، و تعرض لضرب مبرح، فاتهم اليهود بخطفه و ارغموا على دفع ألف دوقية للباشا، لإنهاء القضية. و يدعى مسيحيو الشرق ان اليهود يخطفون اولادهم، و انه تم العثور في حلب، على طفل مسيحي مصاب بجروح طفيفة، و مرمى في كهف يهودى، فأرغم الباشا اليهود على دفع مبلغ كبير من المال، لحفظ القضية.

يبلغ طول مدينة الموصل جنوبا تسعة فراسخ، و شمالا ثمانية فراسخ، و يبلغ عدد القرى التابعة لنفوذها ٣٠٠ قرية. في الفصول الممطرة، يكثر القمح، و العدى، و البقول، و السمسم، و القطن، و لكن منذ عدة سنوات، ساد الجفاف البلاد، فعرف السكان المجاعة، خاصة في ديار بكر، مما دفع المسيحيين لبيع اطفالهم للمسلمين ، في الواقع، اعاد البعض شراء اولادهم، بينما فضل بعضهم الاخر تركهم في منازل المسلمين اثريا. علما ان هؤلاء الاخرين رفضوا اعادتهم لهم، فأدى ذلك إلى اضعاف المجموعات المسيحية. تنكز في هذه المدينة، مصانع النسيج، و المصانع و المطابخ، التي تشكل مهين المسيحيين الاساسية، فضلا عن التبادلات التجارية.

يملك باشا الموصل عادة ثلاثة اذئاب خيل أو اطواق، و لكن امين باشا كان يملك طوبخين فحسب و يأمل ان يصبح باشا من الطراز الاول. فقيل لى انه يدفع سنويا ٣٥ أو ٤٠ كيسا (صرة نقدية) يحوى كل واحد منها ٥٠٠ قرش أى ما يعادل الالفى قرش، أو ١٣ الف ريال. علاوة على ذلك، يقال ان السلطان يجنى من هذه المقاطعة حوالي ٣٠ كيسا من ضريبة الاعناق. تعرف هذه الضريبة بالخراج، هى تفرض على اليهود و المسيحيين. يدفع الثرى أربعة أكياس، و المتوسط الحال كيسيين، و الفقير دوقية، و يأخذ كل واحد منهم، في المقابل، وصل أمانة، يحتفظ به حتى لا يضطر لدفع الضريبة من جديد. لست ادري ان كان يفرض على اليزيديين المقيمين في القرى، دفع الخراج، غير اننى احوال ذلك ممكنا، علما انهم كانوا في الاصل مسيحيين، و ارتدوا عن دينهم. وحدهم المسلمون يعقون من هذه الضريبة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٨٥

يعمل في خدمة باشا الموصل حوالي ٢٠ سقاليا غربيا أو ضابطا، يتولون مناصب مهمة و يقودون الجيش بالتعاون مع اليزيديين و العرب. يبلغ عدد الجنود المشاة حوالي المئة، و الخيالة ١٢٠، و البحارة ١٢٠ موزعين على ثمانى سفن حربية، و الفرسان ١٢٠. يملك هؤلاء الاخرين ارضا في امبراطورية السلطان، و غالبا ما يخلف الفارس والده. و الجدير ذكره ان هذه المدينة ليس لها حدود معينة، لذلك لا نجد فيها كشلنة، أو مقرا عاما لفيلق من الاكشاريين و رغم ذلك، يكثر في المدينة، الضباط الاكشاريين، الذين يجندون كل مواطن يطلب الانخراط في صفوفهم، على ان يتمتع بكافة الامتيازات التي وعدها السلطان الاكشاريين بها. لا يحق للمسيحيين الانخراط في صفوف الاكشاريين أو التمتع بامتيازاتهم، غير انهم يدفعون مبلغا زهيدا من المال، لينضموا إلى الفيلق بصفة خدم فحسب، فلا يخشون حينئذ ان يتعرضوا للنهب أو الضرب من الاكشاريين، ان تدهورت الحالة الامنية في المنطقة. و ان احتاج الباشا لعددو اكبر من الجنود، انشأت في الموصل و بغداد و البصرة، فرقة من السردانفتى تضم عددا كبيرا من المسيحيين. رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر ؛ ج ٢ ؛ ص ٢٨٥

عام ١١٥٦ هجرية (أى ١٧٤٣) قصفت نادر شاه مدينة الموصل بالمدافع لمدة ٤١ يوما، و كاد ان يستولى عليها، حين بلغ بانفلاج ثورة جديدة في بلاد فارس، فاضطر حينها لتفك الحصار و العودة إلى دياره. من خلال الروايات الكثيرة التي سمعتها، ادركت ان هذا البطل الفارسي، الذى كان يخشاه اعداؤه في وسط الارياف، لم يكن يحسن فعلا محاصرة الحصون، مما يدل على جهل الفرس بسلاح المدفعية فقد شن هجوما من الجهة الشمالية، الغربية للمدينة، في حى باب العمادى، حيث السور منح للغة، و المدينة شبه مهجورة من السكان. فأضرم النار بمخيم الباشا، خلف السور، و كان حسين باشا، والد الباشا الحالي، يفتقر إلى الذخائر الحربية كافة، و لا يستطيع مقاومة المدافع التي تحيط بمدينته فعاد سريعا إلى قصره. تاركا للعدو حرية قصف الخيم الفارغة، قدر ما يشاء.

يؤكد سكان الموصل ان نادر شاه ألقى حوالي ٤٠ الف قبلة على المدينة و لكننى اظن ان كلامهم هذا مبالغ فيه. و مما لا شك فيه ان القصف كان عنيفا رغم ان المدينة لم تتضرر كثيرا، فمعظم المنازل مقيمة و مبنية من الحجارة و الطين، و غالبا ما كانت تنفجر القنابل في الهواء أو بين الخيم الفارغة. و لما كانت المدافع تحدث فجوة في الاسوار، كان السكان يسارعون إلى سددها، و الجدير ذكره ان المسيحيين لعبوا دورا فعالا في هذا المجال، لم ينسه ابدا المسلمون. كما و أنهم اظهروا شجاعة بالغة، علما ان عددا منها اقدم ليلا على سرقة مخيم الفرس.

اتاحت لى الفرصة في الموصل للحصول على اسماء القرى التابعة للباشا، و سأدرجها كلها في

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٨٦

ما يلى: صحيح ان معظمها صغير جدا، و لكن العلماء قد يجدون بين هذه الاسماء، اسماء قديمة اتى على ذكرها المؤلفون، في منطقة



ينوي.

نجد شرقي النهر وجنوبي الموصل، قرية نونياً أو نى، حيث دفن النبي يونس، يارمجا، شمس الدين، قوس فخره، قره كوني صفظا، كيريدلي، سولامى، نمرود، تحدثت سابقاً، عن اسوار هذه المنطقة، على ضفاف نهر دجلة، و يقال انه تكثر فيها ايضا اقتناض المنازل، التي قد تثير اهتمام المسافر. تل خونديس، يازدلي، خضر الياس، و هو دير لليقويين، تل يعقوب، فاني حرامى، قرية باتا، عبد الحفيظ، جو دليدا، قرقانه، تل اللبن، خام كرم محمد، دافر يارمجا، صخرة خاتون، بدنا، طرجلة، كرمليس، قراقوش، بعاده، قراشور. قهرسى، قراولي. قابر، شاه قولي، قراولي، دار ملنه، قبة، عيدور دورماس، بانكشا صفظا، آغا شابر، يرخانتى، السبا، قمشين، باس تدماس، على ريش، عمر خان، مناره، تترى، لعك دراسى، جلوخان، تنور طوب، حسنا طوب، برتوله، باش بيتا، لعث فشر، قره شوان، عشق، سارى بولاق، أو عين الصفراء، اسقف، شيخ امير، كانون، قصر سويدي، قبان، عجي سنجى، بير بنوك، بير هلاز، باش حسن، باشيكا، طالب سوى، طاس شراب، قره طوب، قولان طوب، عرله شراب، تيلار، وادى سبخ، عمر لييجي، امام فصله، عباسى، اعلايش، قبقلي، هاشمى، غربي، ببل طوب، بوسيا، خانوغ، أو قلعة نونيا (اللوحة XLVI).

نجد شرقي نهر دجلة وشمالي الموصل قرى قاضى كنت، راشيدى، شيرى خان قره خوان الييا، شيخ محمد، جمالي، ترناجى، خليل، مله، عون، قفريق، مسركند، بوسا، پسيان، دوسا، جانيق، علملم، مشرف، دار بويوسف، ام توتاه، يونا، جرنيس، تعلمتا، تل ميان، ثور، باتد، باب نير، خراييك، كسريك مشريف، دار حال، تل قنيسا، سوط، مشاد، دار الجندى، اجاجا، قلعة، قره بولغ، فاني شريم، قري (يدعى شعب الموصل، ان يوتان رمى على الشاطيء و قذفه الحوت من الخليج الفارسى إلى نهر دجلة). خاتق، علق، زينه، قيسى، نمر، قره مشكك، خان بركان يقات (و يقطن فيها اليزيديون و المسلمون)، عتر، برشان، عميرى (و فيها عدد من اليزيديين) دار ستون، بيوس، قصر باهندا (و هو مكان قديم للغاية يضم عددا من اليزيديون، و يقع قرب القوش مقر البطريرك الييا) بدري، فرنجى، هتارا (حيث يقيم اليزيديون و المسلمون) قرى هاتورا، قري، شراب، والد، شراب كابر، زى محال، تل شاخ، كجك هارا، رايناك، باير، مناره، تل عدس، خان نسرين، تل زين، مسك علاه، فسان، فر اسحاق، تل اسقف (حيث يقيم التطوريون) باققا، بعاده، شرش خان، شفتستان. يقيم فى القرى الاربع الاخيرة المسلمون و اليزيديون فى ونام و سلام. قرية نصرى، حيث نجد مسلمين و مسيحيين و يزيديين، قرية بطه، التي تضم عددا من المسيحيين الذين اعترفوا بالبابا زعيما روحيا لهم، و نجد قربها دير مار ورا القديم التابع للسنطوريين، قرية تل

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٨٧

كيف، التي يزعم انها تضم ٤٠٠ منزل، و يتبع نصف سكانها البابا، بينما يتبع الاخر المذهب السنطوري. بيت قره، حسان الجيلان، قره شراب، شيخ حى، شيخ على، شراب بيت، قلجاق، حوش عمير، نجمه، بيوش، لعث قره، قيم، رسنا، سماقى، شوكالى، غريان، قلعتا، نصرى، سندانق، كنيك، كيس قلعة، عون، داس، قطان، عين بكاره، غرموه، رقصه، حسين، برسوا، شرايوك، المان، شفشرنى، قر شال، قندال، محمدان، (حيث نجد يزيديين و مسلمين) قر مبارك، شفته بعد، عين السفنه، بعدرى، و شرفان، بسان، جرابى، قمونه، عين زال، الواقعة غربى دجلة، سيد كند، التي تضم سلالة محمد، قر قرآن شكشى، دارك.

نجد غربى دجلة، جندر، كواسير، شكارى، شطه، بدوش، اسماعيل، على بعد ثلاثة فراسخ من الموصل، على طريق حلب. مدرسى،

هاله، دار مخايل، آغا كند، قنطرة، كافور، بيق شولى، مهران، حجر صفتين، شرار، مالك احمد، حمام على (منجم زفت معدنى)،

جهانه، دفرمان الداسى، منيره، صف السنود، صناديق، كفن كسكى، قيره.

و نجد شرقي دجلة، قلعة قفشاش القديمة، و قرية حفار، على نهر شافر، و حسن بركان، و عرداق، شغرشى.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٨٨

#### الرحلة من الموصل إلى ماردن

يمكن ان تسلك من الموصل إلى ماردن طرقات عدة، و يعتبر الدرب الذي يمر عبر الجزيرة اطولها، فضلا عن أنه جبلي و صعب، و يتطلب الوصول إلى نصيبين عبر هذا الطريق اثني عشر يوما فقط، و لكنها منطقة أهلة بالسكان، كما يبدو على خارطة السير على اللوحة XLV و اللوحة ١. و هناك درب آخر يمز عبر الصحراء، و هو أقصر من غيره، أى إن المسافة الفاصلة بين الموصل و ماردن هي حوالي ٤٠٠ ميل. يمكن قطعها بحوالى ٥٣ ساعة مع قافلة كبيرة. و يمر الدرب من الموصل إلى اورفه فحلب قرب ماردن، و تبعد الموصل عن ماردن عبر هذه الطريق حوالى ٨٦ فرسخا أو ٦٤ ميلا. و كنت قد قررت السفر عبر الجزيرة للقيام بدراسات جغرافية لن تتاح لي الفرصة للقيام بها في الصحراء، لكن بما أن الدرب بين الجزيرة و نصيبين غير آمن، و بما أنى وجدت قافلة تستعد للوجه إلى حلب، قررت السفر معها عبر الصحراء. و قلما نجد على هذه الطريق قرى أهلة، لكن لا ينبغي الاعتقاد انها صحراء قاحلة لا ترى فيها سوى الرمال. فالأرض خصبة للغاية، تكثر فيها المراعى الرائجة، و تطلعتنا بقايا قرى و مدن تهدمت تحت حكم المسلمين، على يد البدو و الاكراد و اليزيديين و على يد الحكام الاثراك الطغاة. و تقع هنا على العديد من الجداول، لكنها تجرى اليوم عبر السهول الجميلة من دون ان يستفاد منها، و هي مياه عذبة في معظم الاماكن.

أتى كنت كيرس(Quinte Curce) على ذكر المراعى الجيدة التي تصادفها في هذه المنطقة.

و يقول في أول كتابه الخامس ان البلاد الواقعة بين دجلة و الفرات خصبة للغاية، لذا لا ينبغي ترك المواشى لترعى طويلا هناك. و خلال رحلتنا، عادت بعض الجمال مريضة من المراعى ثم نفقت، لكن لا أظن أنها اكثرت الأكل، كما أن الجمالين أعطوها عند الصباح بعض الملح كى تأكل و تشرب أكثر. و يدعى البعض أن الأعشاب فوق اعشاش الجراد سامة فما نأكلها الجمال و الخيول و البغال حتى تنفق. و قد رأيت في هذا الموسم قرب تل الهوى قطعة كبيرة من الارض مغطاة بجراد صغير ، و لعل المواشى تنفق حين تتبلع بعض الحشرات السامة.

و قد يود البعض معرفة كيف يتحضر لرحلة في هذه المناطق غير أهلة بالسكان، و سأشير هنا باختصار إلى بعض الامور التي يعتبرها

الشرقيون ضرورية، و التي اتيحتها انا نفسى. حملت عذة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٨٩

الطبخ كاملة في كيس واحد، و هي عبارة عن و عاين بغطاءين، يوضع احدهما في الآخر، فضلا عن طبقتين و ابريق قهوة و كلها مصنوعة من النحاس المطلي بالقصدير، قد لا يعجب ذلك العديد من الاوروبيين الذين يرفضون استخدام النحاس في المطابع، لكن اؤكد لكم انه مقصدى في البلاد الشرقية بشكل جيد كما في اوربوا، اذ ان الشرطه مشددة حبال هذا الموضوع، و يعاقب النحاس الذي يستخدم قصديرا سببا لطللى الاوانى بصرامه. و يتم طلى الاوانى من الداخل و الخارج، و ينظفها الطباخون بشكل جيد، لذا لا يخشى استعمال النحاس في البلاد الشرقية في حين ان الاوروبيين يشكون من استخدامه، أما بالنسبة للملح و التوابل فوضعتها في علبة خشبية، كل صنفت منها على حدة، كما احتفظت بسكين و ملعقتين و شوكتين، علما ان الشرقيين لا يستخدمون هذه الأدوات لأن اللحمة تقطع إلى قطع صغيرة و تقدم مع طبق الأرز المغفلل. و لا يستعمل الشرقيون ابدا الطاولة و الكرسي، أما سماطى فعبارة عن قطعة قماش مستديرة الشكل تنتهي بحلق من الحديد يمرر فيها حبل يسمح بتعلقها في سرج الجواد. و أحمل نصف دزينة من فاجين القهوة موضوعة في جراب من الخشب المغطى بالجلد، لذا يمكننا ان نرميه في أى مكان من دون ان نخشى تكسرها، كما وضعت الشموع الصفراء في علبة مماثلة تحفظ في كيس جلدى، و في ظرف هذه العلبة أنبوب تثبت فيه الشمعة فيستعمل كشمعدان. و نجد ما يكفى من المياه على هذه الطريق، لذا لم أر ضرورة حمل جلد الماعز لأضع فيه مؤتى من المياه، لكن يحمل كل مسافر جزء من الجلد السميك، يعلقها على سرجه كى يشرب عند الحاجة، كما يحتفظ كل منهم بكوب من النحاس المقصدى، يستعمل للشرب في الآبار و الينابيع و الانهار التي يصادفونها. و نجد في المدن التي يعيش فيها المسيحيون ما يكفى من الكحول، فحملت معى مؤنة في جلد ماعز مخصص لهذا الغرض، لأن المياه تتغير من منطقة إلى أخرى خلال الرحلات، يعتقد المسيحيون أنه من الافضل ان يضاف اليها بعض الكحول، لكن هذا الشراب ليس بلدينى، و يأكل المسلمون الكثير من التوم، اذا ما حصلوا عليه، بسبب هذا الاختلاف في المياه. و اقتصر مؤتى من الطعام على الأرز و الزبدة التي تدوب و تحفظ في قرب جلدى، فضلا عن البسكويت و الطحين لصناعة الخبز اثناء الرحلة، و الفواكه المجففة، و اللحمة المجففة و القهوة الخ ... و قبل مغادرة اى مدينة، تزود باللبن حيث يوضع في كيس و يخفض، و مع خروج المياه منه يضاف الحليب حتى تحصل على كمية الجبن اللازمه، و اذا ما اضيف اليه الماء لاحقا، حصلنا على شراب منمش للعطاشى و اذا ما اكلناه



رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٩٠

مع البسكويت اشبع هذا الطبق رجلاً جاعاً. بشكل عام، لا ينبغي ان يكون المرء حساساً و إلا تعرض لمشاكل عدة. كنت احمل معي ترجمة فارسية في كيس جلدي يتدلى من سرع جوادي، و لم تكن خيمتي كبيرة كما لم استعملها كثيراً أثناء الرحلة كي لا يكثُر زواري من العرب، اما سريري ففراش و غطاء رقيق و مخدة. و ينام العرب بملابسهم، لكن الأوروبيين الذين يعبرون ملابسهم غالباً ليسوا أنظف، لأن العرب يتسلون كثيراً. و تعتبر السجادة في رحلات كهذه أمراً ضرورياً لأنهم يفرشونها وإنما يفرشونها في منزل أو في الهواء الطلق. و وضبت كتي و ثيابي في خيمتي، فيما وضعت آلاتي في العلب الخاصة بها، و لم استأجر سوى ثلاثة جياد لها ولي لخدومي.

و تضم قافلنا ألفي دابة محملة، ١٣٠٠ منها تحمل المعص من الكردستان، و يحمل ١٢٠ جملاً أقمشة مختلفة من الهند، و بلاد فارس، و بغداد، و الموصل، فضلاً عن ٤٥ جملاً تحمل القهوة، فيما تنقل الجياد و البغال و الحمير خمسمائة أو ستماية حمل آخر. لكن هذه البضائع غير متوجهة إلى حلب فقط، فمنها ما يرسل إلى ماردين و اورفة و ديار بكر و حتى إلى أرمينيا. و في مدن أخرى، يكلف التجار عرب القبايل الكبيرة المجاورة نقل البضائع على جمالهم عبر الصحراء، لكن في رحلتي هذه، أكدوا لي أن أصحاب الدواب المحملة في قافلنا يتيمون في الموصل و المدن المجاورة، لذا لا يستفيد العرب و الاكراد من نقل هذه البضائع.

يبلغ عدد المسافرين، بما في ذلك حراس الجمال و الجياد حوالي ٤٠٠ رجل، اما عدد المرافقة فحوالي ١٥٠ جندياً، جنّد معظمهم التجار بأنفسهم لذلك بهمهم الا يتعرض اصحاب عملهم للنهب و السلب، فكان قادرين برأيي على الدفاع عن انفسنا ضد اي عدو قد يهاجمنا خلال الرحلة.

و بما ان الزيديين من جبل سنجان نهوا منذ اشهر قافلة صغيرة قرب رملة (Ramala)، امر الباشا الجند بمرافقة قافلنا حتى كاسي كوبري (Kassi Kupri)، و هناك انضم اليها ابن شيخ قبيلة طي العربية، و معه حوالي ٢٠٠ خيال و مئة رجل من المشاة. و صادفنا قرب رملة، اربعة يبارق (حوالي ١٠٠ رجل) من الخيالة خاضعة لحاكم ماردين، و بدأ العرب يرحلون قرب رجل العباس، لكن التقينا قرب تل الشير التفتحي باشي من ماردين و معه حوالي ١٥٠ رجلاً من المشاة. و يكلف هؤلاء التجار الكثير من المال، فضلاً عن أن مرافقتنا من العرب كانوا و قبحين و يشكون عينا علينا نحن كسافرين، لكن باشا الموصل و شيخ قبيلة طي و حاكم ماردين يحاولون الاستفادة من القافلة بحجة تغطية التجارة و حماية القافلة من النهب، فيجبرون التجار على القبول بمرافقتهم و على دفع مبالغ طائلة لهم. و تلقى شيخ قبيلة طي لدى وصوله حمولة كاملة من البن و الكثير من التبغ و الأرز و الزبدة و المؤن الاخرى فضلاً عن ٥٠ عباءة و رُجّ قسماً منها على رجلاه و القسم الاخر على شيوخ الاكراد الذين ترددوا علينا خلال رحلتنا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٩١

كان قائد القافلة احد اهم التجار بين المجموعة، فتولى مهمة دفع رسوم المرور و اعطاء الهدايا للاكراد و لمرافقتنا، و قترحها على الحمولة كلها. و كان للجمالين و المكاريين مسؤولاً خاصاً عنهم، لكن ما من نظام خاص متبع أثناء الرحلة، فما ان تشرق الشمس حتى ينظم كل شخص حمولته، و يسير في الطليعة من يتمكن من توضيب اغراضه قبل غيره. و عندما نخيم، يضرّب كل من المسافرين خيمته حيث يحلو له، من دون ان يهتم قائد القافلة أو غيره بذلك. و عند المساء، لا يقوم احد بالحراسة، أما الموكلون بهذا الامر فيبحثون عن الراحة قبل غيرهم باستثناء بعض الجنود الذين يعملون بخدمة التجار و لا يهتمون أبداً بأغراضهم، و أثناء الرحلة، يعرض علينا الاكراد نهارة شراء الماعز و الحليب و اللبن، و يعود هؤلاء لسرقتنا و قد سلب بغل خيمتي، فاستفاق صاحبه و أثار الجلبة، لكن الجنود و العرب لم يتحركوا لمساعدته و أكملوا نومهم، و لاحق مع بعض اصحابه السارق، و بعد ربع ساعة، عاد بالداية. ما إن خيمنا قرب رجل العباس، حتى شعرنا بالحاجة لجنودنا و للعرب و جند ماردين الذين التقيناهم، اذ رأينا في البعيد، وراه الثلج، سحابة غبار كبيرة ترتفع، و اعتقدنا أنهم اعداء يتحضرون لمهاجمتنا. و يسارع اصحاب الدواب إلى اعادة الجمال و الجياد و البغال التي ترعى إلى المخيم، و بعد قليل، عاد البعض ليقول انه رأى ألفي كودي فيما قال البعض الآخر انه شاهد اربعة الاف فارس وراء التلة. و تقدم الاثراك و العرب بغير انتظام نحو العدو المزعوم، لكن بعد نصف ساعة، عادوا ليعلمونا ان اربعة خيالة و معهم زوج كلاب صادفوا قطعاً كبيراً من الاغنام أثار سحابة الغبار هذه و سبب هذا الهلع.

و يمكن الوصول بستة ايام من الموصل إلى نصيبين عبر الطريق التي سلكناها لكن قافلنا سارت بطيء لأن اصحاب الدواب وجدوا الكثير من المراعي الخصبة على الطريق حيث ترعى مواشيهم من دون مقابل و لأن مرافقتنا من عرب و اثراك يحون العيش طويلاً على حساب التجار.

قطعنا في ١١ نيسان/ أبريل من الموصل نحو الشمال الغربي و وصلنا دبس (Dubs) بعد خمسة فراسخ و نصف أو اربعة اميال.

في ١٢ نيسان/ أبريل من دبس نحو الشمال الغربي و وصلنا كاسي مايرى بعد اربعة فراسخ أو ثلاثة اميال.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٩٢

في ١٥ نيسان/ أبريل من دبس نحو الشمال الغربي و وصلنا هوجن (Hojne) بعد ثلاثة فراسخ أو ميلين

في ١٦ نيسان/ أبريل من دبس نحو الشمال الغربي و وصلنا افناد (Avnad) بعد اربعة فراسخ أو ميلين و نصف

في ١٧ نيسان/ أبريل من دبس نحو الشمال الغربي و وصلنا تل الفترة بعد خمسة فراسخ و نصف أو اربعة اميال.

في ١٨ نيسان/ أبريل من دبس نحو الشمال الغربي إلى رملة ستة فراسخ أو اربعة اميال و نصف.

في ١٩ نيسان/ أبريل من دبس نحو الشمال الغربي إلى رجل العباس ستة فراسخ أو اربعة اميال و نصف.

في ٢٠ نيسان/ أبريل من دبس نحو الشمال الغربي إلى تل الشير اربعة فراسخ و نصف أو ثلاثة اميال.

في ٢١ نيسان/ أبريل من دبس نحو الغرب إلى نصيبين اربعة فراسخ و نصف أو ثلاثة اميال.

في ٢٥ نيسان/ أبريل من دبس نحو الشمال الغربي إلى ماردين عشرة فراسخ و ربع أو سبعة اميال و نصف.

و لا تقع على طول المدرج بين الموصل و ماردين على قرية واحدة، بل على بقايا متفرقة لمدن و قرى أشرت إلى موقعها على خارطة خط سيرى صليبي صغير، و يبدو ان كاسي كوبري كانت مدينة كبيرة لكن لم يبق منها ما يستحق الاهتمام سوى جزء من جسر. و على بعد فرسخ و نصف من هذا المكان، أي على مسافة تسعة فراسخ من الموصل، و حيث يصب نهر صغير في دجلة، نجد بقايا مدينة كبيرة تحمل اسم اسكي موصل (Eski)، و كلمة اسكي هي كلمة تركية تعني عجز أو قديم و بالتالي يعني اسم المدينة الموصل القديمة. و يعتقد بعض رفاقي ان مدينة الموصل التي نعرفها اليوم لم تبني الا بعد تهديم المدينة القديمة لكنهم مخطئون في ذلك. اذ ان الموصل كانت مدينة كبيرة حين استولى عليها المسلمون للمرة الاولى، كما اقاموا في اسكي موصل هذه، و بالتالي فهذه المدينة كمدينة براسلو في المجر التي لا يعرفها الاثراك اليوم الا باسم اسكي اسطنبول أو اسطنبول القديمة. و بما ان القافلة توقفت ليوم كامل في كاسي كوبري، قصدت اسكي الموصل علني اكتشف فيها آثاراً مهمة. لكنني وجدت العشب العالي يغطي المكان، و لم أبدأ البحث تحت كومات الحجارة خوفاً من أن اقع على أفعى اذ يقال انها تكثر في هذا المكان.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٩٣

و بقي من المدينة جزء كبير من سورها، و نلاحظ على تلة مرتفعة تسمى الحصن، صرحاً صغيراً مبنيًا من حجارة بيضاء و بعض القباب التي بدت لي كسقوف منازل اخفت تدريجاً مع مرور الزمن، و تقع خارج المدينة، على بقايا صروح ظنتها قباب أو قبور مسلمين، و لم أتوقع إيجاد اضرة هنا، لأن هذه المنازل مغطاة بالغبار و تعلق فوقها الاعشاب، و لم أجد بالتالي أي كتابات باستثناء السطر «و» على اللوحة XLIII، و ذلك على حجر يبدو و كأنه وقع من بناء ما و هو بالتالي غير مسطح انما عامودي، و هذه الحروف اقرب إلى الكوفية منها إلى السريغالي (التي يستخدمها مسيحيو الموصل حتى اليوم)، و هي بالتالي إسلامية و ليست كتابات من سكان البلاد القدامى. و اثار انتباهي هنا، سور بناء السكان القدامى في نهر دجلة لجمع المياه للزرع، و يبدو ان سكان شرق دجلة يستفيدون منه حالياً، في حين ان الصحراء تمتد غرب النهر.

و يبدو ايضاً ان هوجن كانت مدينة، و نجد هنا بقايا ابنية على تلة قريبة عنها قلعة في ما مضى.

و تقع على بعد نصف فرسخ إلى الجنوب في هذه التلة، على صرح قديم يقوم على تلة أيضاً و يحمل اسم قصر شرح (Kasf) (Scherridch)، لكن لا يبدو و كأنه قصر، كما يدل عليه اسمه، بل لعله كنيصة صغيرة. و لا يتعدى طول الصرح ١٣ خطوة مزدوجة، و عرضة تسع خطوات، و قد بني من الحجارة المضقولة الكبيرة، و لم أجد أي كتابات هنا باستثناء السطرين (G) على اللوحة XLIII و ذلك على حجر انفصل عن الجدار و لم اتمكن من التعرف على هذه الكتابة و تشبه إلى حد بعيد تلك التي نسخها ايف عن تلة

بين الفرات و حلب.

تبدو الآثار الاخرى التي نجدها على الطريق بين الموصل و نصيبين مجرد قرى، و بنى الاكراد رملة منذ سنوات لكن امير الجزيرة هدمها كلياً.

و تألف مدينة نصيبين التي اشتهرت في الماضي من حوالي ١٥٠ منزلاً سيئة البناء، لكن نجد في القلعة (كما يسمونها) بعض المباني القديمة المشيدة بالحجارة المصقولة. و تقع المدينة غرب نهر صغير يرتفع منسوب المياه فيه احياناً بشكل كبير فيصبح بالتالي عريضا للغاية، و تصب فيه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٢٩٤

انهار صغيرة اخرى اُشرت اليها على الخارطة، ثم تصب بدورها في الخابور (Khabur) الذي يعود و يصب في الفرات . و تتميز المنطقة المحيطة بنصيبين بكثره المستنقعات، و تكثر فيها زراعة الارز. و أهم ما يلفت الأنظار هنا هو جسر على النهر الذي جنت على ذكره آنفاً، و قسم من كنيسة بنيت تكريماً للقديس يعقوب، مطران نصيبين، و المشهور هنا بتصديده لعقيدة اريوس (Arius) في مجمع القسطنطينية. و يقوم الجسر على اثنتي عشرة قنطرة، و لا يزال في حالة جيدة، إنما لم يبق من البرج الواقع امام المدينة من هذه الجهة و الذي يستعمل لمراقبة الطريق إلا الحافظ الرئيس. بنيت كنيسة القديس يعقوب من حجارة مصقولة، لكنها انهارت حالياً، و نجد قربها صرحاً صغيراً، حاول احد الحكام المسلمين استخدامه كمخزن للقمح لكن القديس يعقوب ظهر له في الحلم و سأله لماذا يبدس معبده، مما دفع المسلمين (بحسب ما يروي المسيحيون) إلى اخلاء المبنى، و بناء منبر فيه. و يستخدم العقوبيون حالياً هذه الكنيسة الكبيرة نوعاً ما، لكن الرعية صغيرة فلم يعين لها كاهن دائم إنما يستقدم واحد من ماردين عند وفاة احد المسيحيين أو عند عمادة احد الاطفال، و يقيم الارمن الذين يتبعون روما قدامهم في الكنيسة الكبيرة. و نرى على مقربة من هذا المكان خمسة عواميد منتصبة، لكنها سيئة الصنع. اما بالنسبة للكتابات، فلم أر أي منها في نصيبين، لكن أكدوا لي ان هناك قبر يحمل كتابات اوروبية (لعلها لاتينية).

و قادمي الرجل الذي راقتني إلى كنيسة القديس يعقوب إلى قبر هذا الاخير اولا، فوجدت تابوتاً حجرياً بعلوه غطاء ثقيل، و رأيت في جانب القبر نقبا كبيرا يمكن تمرير اليد منه. و حاولت معرفة ما اذا كان جسد القديس موجوداً، لكن مرافقي الذي بدأ قلماً من حشرتي أكد لي أنه دفن تحت التابوت كي لا يسيء اليه المشركون. و علمت لاحقاً ان الكهنة الروم أرسلوا منذ زمن جسد هذا القديس و غيره من القديسين الشرقيين إلى اوروبا، و قال لي مرافقي، إن هذا القبر في التابوت يسمح للمسيحيين المؤمنين بأخذ حفنة تراب منه، و إن هذه الحفنة اذا ما خلطت بالماء تشفى من الحمى.

و تصادف على ريع فرسخ من نصيبين بناء مهدهم، يزوره اليهود باستمرار، و يؤكد سكان المنطقة ان قديساً اسمه أمنا (Amma) دفن فيه، لكن حاخاماً من براغ، كان في قافلتنا، أطلق عليه اسم يهودا بن بتاره (Juda Ben Patara) و قال ان التلمود اعلى على ذكره، و يعتقد ان الحاخامات القدامى اعتادوا ان يسئوا نصيبين منزيفين (Menziven).

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٢٩٥

أما حاكم نصيبين فيبيك، يستلم مهامه من والي ماردين، علماً ان هذه المنطقة كانت تتبع في ما مضى باشا ديار بكر، و يدفع المسافرون حالياً رسم مرور لموظف خاضع لوالي ماردين و مكس لمدير الرسوم في ديار بكر. و لا يوقف الاول المسافرين طويلاً لأنه لا يحسب الجمولة التي يترك امرها لرجال الجمارك. و أراد خادمي، و هو ماروني من حلب، ان يتفاحر و أن يتال التقدير في القافلة، فأشاع اني سيد ثري عائد من الهند، مما جعل رجال الجمارك يظنون اني احمل معي الكثير من اللآلئ و الاحجار الكريمة، فطلبوا مني فتح كافة الصناديق، في حين ان رجال الجمارك في المحطات الاخرى ما أن يروا كنيبي يعتبروني درويشاً لا يحمل بضائع. لكن خادمي هذا لا يعرفني حتى المعرفة، بل انه يجهل اسمي، فقد استخدمته في بغداد بدل أحد المسلمين الذين عاد إلى البصرة و بما ان العرب و الاتراك يسألونني غالباً عن اسمي و يجذونه غربياً فينسونه على الفور، و بما أنهم يظنون اني شرح معنى تنبيروا باللغة العربية، و يستغربون كيف لا تحمل اسماء كأسمانهم الخ، اسميت نفسي عبد الله لأن هذا الاسم شائع بين المسيحيين الشرقيين و بين المسلمين فتخلصت بذلك من استئلة و اجوبة غير مجدية. و سمعني خادمي الحالي أقول عبد الله آغا، فأخذ يدعوني بهذا الاسم و لم يعرف اسمي الحقيقي إلا حين وصلنا إلى حلب.

و حاول خادمي هذا التعرف على كافة المسافرين في القافلة، و عاد قبيل وصولنا إلى نصيبين يرافقه يهودي من براغ علم اني اوروبي. و هو حاخام، جاء لزيارة قيور يونس و حزقيال و غيرهما من الانياء و الشخصيات الوارد ذكرهم في التلمود، و لاحظت انه باع كتباً عبرية في هذه البلاد لتغطية نفقة سفره التي لا اظنها مرتفعة لأن اليهود الشرقيين في المدن مضيفون لأبناء دينهم كالاوروبيين.

و اشتكى هذا الحاخام من تاجر من ابناء دينه من الموصل، طلب منه تسليفه المال الذي يحمله حتى حلب، لكن الحاخام رفض ذلك. و اضاف ان هذا التاجر يسيء حالياً معاملته، و أن غيره من اليهود لا يحركون ساكناً حين يطلابه المكاري، و هو مسلم لا يمكنه التفاهم معه بلغته، بالمال لسبب اواخر و حتى حين ينال عليه بالفسر. أما السبب الحقيقي الذي دفع هؤلاء اليهود الشرقيين إلى ترك هذا اليهودي برأيي، فهو لأنه حاول التفاضر بعلمه و مقامه و لأنه بخل للغاية في حين انه يحمل ما يكفي من المال. و رجاني أن أخلصه من ابناء دينه الذين اظهروا قساوة تجاهه، فأسدبت له هذه الخدمة، و أمنت له مكارياً مسجياً قسم أغراضه على بغاله كافة، و يكره المسيحيون عادة اليهود أكثر من المسلمين في هذه البلاد الشرقية، لكنهم لم يقدموا على اهانته لأنه وضع نفسه في حمايتي، و قد شكرني على ذلك. و بما أن المسيحيين يعلمون ان اليهود لا يسافرون نهار السبت، انطأ المكاري علي بعد فرسخ من ماردين، و بقي مع اليهودي و خادمه، و هو شاب من براغ، لكنها لم تكن سوى حجة للحصول على المال، و طلبه بقرشين ليكمل السير في ذاك اليوم، واضطر اليهودي إلى دفع المال، و هكذا أوصلته إلى ماردين، نهار الجمعة عند المغيب،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٢٩٦

و قابلته مجدداً في حلب، فأخبرني أنه تعرض للسلب بين ديار بكر و حلب، و كان يعلم ان المسيحيين و المسلمين لا يكثرون لليهود الذين يسافرون في قافلته ان اكملوا الرحلة يوم السبت ام لم يفعلوا، كما يعلم ان الدررب غير آمنة لمسافر وحيد، لكنه ترك القافلة تتحرك نهار السبت صباحاً، فسقط عليه تر كمانتي بعد ساعات قليلة. و بقي امامه حلان، إما ان يحتفل بالسبت عارياً و جاتعا و يسافر يوم الاحد، و إما ان يطلق على الفور. فانتخذ القرار الحكيم و سارع للحاق بالقافلة.

و لم يكن ينبغي ان يظهر ايماناً زائداً، بل ان يتأقلم مع الوقت و الظروف و يتبع مثل اليهود الشرقيين و خادمه الخاص الذي راقق القافلة في ذاك اليوم منتزها (و لا يسمى هذا سفراً يوم السبت) و حافظ على ثيابه، و اشتكى الحاخام من الشرقيين بشكل عام، و لم اسد اليه سوى نصيحة واحدة و هي تعلم لغة اهل البلاد و التعمد على عاداتهم و تقاليدهم عندما يريد السفر.

و تعرضت اننا نفسى للمشاكل على الطريق بين الموصل و نصيبين، فحين عدت عرب كاسي كوبري الجمولة كلها، بغية أخذ رسوم المرور المعتادة، و قد نظر خدم الشيخ إلى سريري و سرير خادمي، و عند المساء، جاؤوا لأخذها لسببهم، و لم انتجراً على الاعتراض لأنهم قالوا انهم يقومون بذلك بناء على اوامره، و قد رأيت الطريقة التي يعامل بها هؤلاء كبار التجار المسلمين. و قصدت اولاً قاندة القافلة و اشتكيت له مما حصل. فكلم الشيخ في الليلة نفسها لكني لم احصل سوى على سريري و مخدتي.

و في اليوم التالي، قصدت الشيخ بنفسى، فسخر هذا الاخير من قلة تهذيبي لأنني لم أشأ مفاسته سريري لبيع ليل، و هو شيخ قبيلة طي في حين أنني لست سوى مشرك، و تحت حمايته، أما بالنسبة لخادمي فيمكنه الاستغناء برأيه عن السرير. عندها، ابرزت فرمان السلطان الذي احمله، و أمر باشا بغداد، علّه يظهر بعض الاحترام لأوامر اسياده، مما زاد الامور سوءاً، و قال لي انه سلطاني و سيدي في الصحراء، و أن اوراقى لا تنزيمه مطلقاً، فاضطرت إلى العودة كما جئت، و تناقشت مع كبار التجار حول الفرق في طريقة معاملة الغرباء بين اوروبا و بلادهم. و حين وصل جند والي ماردين الذي يدفع له شيخ طي ضريبة معينة، استعلمت من الضابط الرئيس اذا ما كان الوالي في محيط نصيبين كما يتردد و يبدو ان حديثي هذا سمح بإعادة كافة اغراضى بعد رجيل الشيخ، و ما كنت لأحصل على الغطاء الذي اخضرته معي من الهند من دون ذلك، لأنه اعجب الشيخ.

و بما اننا سنتوقف مطولاً في نصيبين بسبب رسوم المرور و الضرائب، قررت زيارة والي ماردين، الذي ضرب خيامه على بعد ميل و نصف من المدينة الاولى. و في حين ان الاعيان في اوروبا يعضون الصيف في منازلهم الريفية، يحلو للشرقيين الاقامة تحت الخيام، و قد راقق الوالي اعيان المنطقة و فرق الخيالة كلها لكثرة الكلال في المنطقة. لكنه لم ينصب خيامه بعيداً عن مدينته طلباً للتمعة و حسب برأيه، بل لقبض الجزية من العرب و الاكراد و اليزيديين الذين يتجولون في هذه المناطق، و ليقتي قريباً إن هم تحفظوا عن الدفع. و استقبلت احسن استقبال في المخيم، و كان

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٩٧

الحاكم يتناول طعام العشاء في الحريم، فجالست كبار الضباط، وقدموا لنا حوالي ١٥ طبقا، كما ذكرت في وصف شبه الجزيرة العربية حيث وصفت هذا العشاء، ولا يقدم البهو هذا العدد من الأطباق. وصف لي ارضي من ماردن مادية اقامها شيخ من قبيلة طي لعدد من المشايخ الاخرين يرافقه الكثير من الناس كما يلي، سلق الشيخ الكبير أو شوي في هذه المناسبة، جملا بأكله. وفي حين ان الشرقيين عامة والبدو خاصة يقطعون عادة اللحمة إلى قطع صغيرة تغنيهم عن السكاكين عند الاكل، يقدم الجمل في مناسبات كهذه كاملا، ويقطع كل ضيف منه قطعة كبيرة.

ثم يقدم الأرز المغفلل في طبق كبير، يتطلب حمله أكثر من ستة أشخاص، ولا يأكل الضيوف دفعة واحدة، ويمد لكل واحد منهم يده إلى الطبق ثلاث مرات فقط. حين يجلسون، يرفعون كميته، ويجعلون من الأرز المغفلل كتلة كبيرة بقدر ما تنسج لها يدهم اليمنى، ويجلسون الزبدة التي تسيل من يدهم و ذراعهم ثم يأكلون الأرز بقدر ما يحلو لهم.

انهى موظفو جباية الرسوم عملهم في ٢٤ نيسان/ أبريل، فتركت القافلة في اليوم التالي، قبل طلوع الفجر، ووصلت إلى ماردن في يوم واحد برفقة بعض التجار. سلكتنا الطريق الذي يميز بقعر البرج حيث وجدنا بعض القرى وحقول مزروعة، ووردت أسماء هذه القرى على الخارطة.

كانت سرجا خان أو ساديه كما يسميها البعض، كانت على ما يبدو قلعة كبيرة، بني سورها من الحجارة المصقولة، ونجد خارجها بقايا بناء لكنه مهجور كليا، كما في قصر البرج حيث نجد منزلا حجرياً. وشاهدنا في البعيد داره أو قره درا التي كانت مدينة كبيرة في الماضي، وقد ورد ذكرها مرارا في تاريخ الخلفاء، ويعيش فيها حالياً القليل من السمان، ويقال ان سور المدينة لا زال موجودا فضلا عن آثار اخرى رائعة مبنية من الحجارة الكبيرة، وبثرا عميقا للغاية حفر في صخرة.

وتقع قح حصار(Kodsje Hissar) تحت ماردن على طريق اورفة و يطلق عليها العرب اليوم اسمها الحقيقي وهو عنصر أو دنصر(Gunasser Ou Dunasser) التي يرد ذكرها في تاريخ الخلفاء، ويعيش فيها القليل من السكان، لكن مكان اقامة سنجاخ يتسلم مهامه من والي ماردن، كما نرى فيها خمس مآذن قديمة، وشاهدنا دريا قديما مهدما على جبل قرب غنصر.

يقال ان هناك تلة قرب غنصر، نجد عليها احيانا قطعاً نقدية قديمة و أحجارا محفورة، وقد يكون هذا الامر صحيحا، لكن مسيحي المنطقة يتحدثون ايضا عن كنوز مخفية، يصدفون فعلا هذا الامر، لذا سأورد للقارئ قصتين يروونهما. يقال ان فلاحا كان يلحق بقرته في الصحراء، فرآها توجه نحو تلة فتبعها، ورأى هناك غرفة كبيرة مليئة بالذهب والأحجار الكريمة، لكنه لم يتمكن من لمس أى شيء فيها و اكتفى بإعادة البقر، ولم يتمكن بعدها من إيجاد الكهف مرة اخرى. ورأى شخص آخر في المنطقة الجبلية قرب ماردن غرفة مفتوحة في صخرة، فدخلها ورأى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٩٨

شخصين جالسين و أمامهما كثر كبير من الذهب و الاحجار الكريمة، و أعطاه احدهما بعض الكحل و طلب منه فرك عينيه به، ففعل و أصبح اعمى و لم يشف يوما.

طلبت أسماء القرى والمدن الواقعة على الطريق بين الموصل و نصيبين عبر الجزيرة، من أناس قاموا غالبا بهذه الرحلة، و سجلت هذه الاسماء على خارطة سيرى. الجزيرة أو جزيرة ابن عمر(Dsjesiret el Ommera) هي مدينة صغيرة على دجلة، تحكمها منذ سنوات عائلة بختان(Buchtan) الكردية، و يسمى زعيمها امير أو بيك، و تقع الاراضي التابعة لها و التي تضم حوالي ٤٠ إلى ٥٠ قرية بين الموصل، و العمادية ديار بكر و ماردن. و كان باشا ديار بكر يثبت الامير في الحكم لأنه اقوى جيرانه، لكن منذ ان اصبحت ماردن تابعة لبغداد، يتدخل باشا هذه الاخيرة في حكم الجزيرة. حالياً، يتصارع أخوان من عائلة بختان على الحكم، فيساعد الباشاوات واحدهما ضد الآخر بحسب المبلغ الذي يدفعه، فنهار المنطقة يوما بعد يوم. و يستخدم الباشاوات عادة هذه السياسة مع العائلات التي يحق لها الحكم في الاقاليم الصغيرة استنادا إلى نسبها، و مع الببدو أيضا. يحاولون دائما زرع الخلافات بين العائلات الحاكمة. فيستفيدون ماديا و يمنعون هذه العائلات من ان تصحح ثرية و قوة بعدم ابقائها طويلا في الحكم، كما لا يهتمون ان أقلت مناطق السلطان و انهارت.

اما غالبية سكان جبل مدياد(Midiad) أو جبل طور فمن الاكراد و الزيديين، و لا يهتم هؤلاء بالحاكم التركي المجاور و لا يدفعون له أى جزية. و أهم العائلات الكردية التي تتولى الحكم هنا هي دجورى(Dakschorie) ، بطقية(Butakie) ، اشنية(Aschetie) و مهلمية(M'hallemie) ، و تخضع لهذه الاخيرة حوالي ٥٠ قرية، و في حين ان معظم العائلات الكردية حافظت على لغتها خارج البلاد، نلاحظ ان هذه العائلة اعتمدت اللغة العربية. و لم اسمع سوى بقبيلة شلقية(Tshalkie) من بين القبائل الزيدية التي تعيش هنا.

يقال ان هناك منطقة صغيرة تدعى طور، شمالي الجبل، يعيش فيها اليعقوبيون، و لهم فيها مطرانهم الخاص المستقل عن مطارنة ديار بكر اليعقوبيين، فضلا عنه لا يطلب فرمانا من السلطان كمطران من السطوريين في حكرية(Hakkerie) في الكردستان. و يقم هذا المطران في دير مدياد على جبل عال للغاية، و يقوم على سفح الجبل دير آخر في قرية معين(Maarin) ، و نجد بالقرب منها قرية تدعى قصر مرية(Kasr MarBaBa) أو مرابام(Marabaem) و فيها دير يحمل اسم دير السيد(Dar Esseide) و ينقل اليه

اليقوبيون موتاهم من على بعد خمسة ايام سفر و يقدمون للدير

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٢٩٩

البغل الذي حمل رفات الميت. و يحمل المرضى إلى دير مار ملكي، و يزعمون انهم يشفون بفضل صلوات رهبان هذا الدير. هناك حوالي سبعين دريا مهدما على هذا الجبل بشكل عام، و يتحدث اليعقوبيون كثيرا عن الآثار الرائعة في المنطقة، منها اديرة و منها قرى و مدن، و أشك بأنها تستحق ان يزورها الاوروبيون بسبب هندستها المعمارية.

و شاهدنا، جنوب الدرب الذي سلكتاه جبل سنجا، و يقع في سهل خصب للغاية، هواؤه عليل و صحي للغاية، و تكثر في المنطقة الفواكه الشهيية، لا سيما تين سنجا الشهير. و كان لهذا الجبل في زمن الخلفاء صاحبه الخاص (امير مسلم) الذي يقم على سفحه، على بعد يومى سفر من الموصل، كما نجد، ضمن المنطقة التابعة له، مدينتين أخريين كبيرتين، لكنهما مهدمتان، فلا تصادف اليوم على جبل سنجا كله سوى قرى بانسة. و في حين كان معظم السكان في زمن الخلفاء من المسيحيين، بنيت معظمهم حاليا ديانة الزيديين و البقية ديانة المسلمين، و لا يدفعون اى جزية كما يسطون على القوافل الصغيرة.

و بما ان المنطقة قريبة من الموصل، تختلف درجة و قاحة اللصوص باختلاف الباشا، فإن كان جنديا ماهرا، ينقض عليهم فجأة، و يأسر الرجال و النساء و الاطفال و يبيعهم كعبيد، ثم يحرق القمح في حقولهم على سفح الجبل، و لا يسمح لهم ببيع اى شيء في المدينة ما لم يدفعوا أو يعدوا بتحسين طريقة تصرفهم.

و لم يتمكن باشا بغداد من لجهم يوما، فما ان يعلم الزيديون ان الجيش يتحرك حتى ينسحبوا إلى الجبال حيث لا يجرؤ الاتراك على ملاحقتهم.

و أهم قبائل أو عائلات جبل سنجا هي كابارية، شنانية، جنوبية، حركيه و ذنيدى. و تنبع اول عائلتين الديانة الإسلامية اما الاخرات فالزيدية، و تتميز هذه العائلات بأنها تترك شعرا ليصبح طويلا جدا، و تقيم كلها في قرى. و نجد عند سفح الجبل، في السهل، العديد من القبائل الزيدية التي تقيم في الخيام و تعيش من المواشى كالبدو.

أما أبرز قبائل الاكراد التي تقيم في هذه المناطق مع خيامها، و تدفع جزية لوالى ماردن فهي كيكى(Kiki) ، و ميلي(Milli) ، و ساجلى(Sadsjeli) ، و مزيان(Musesjan) . و لا تصادف هنا من البهو سوى قبيلة طي، و هي قبيلة كبيرة، و يتلقى الشيخ الحاكم فيها بصفته بيك (منطقة خصبة بحد ذاتها، لكنها جرداء حاليا) ذنب حصان من والي ماردن .

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣٠٠

و سيؤد علماء الجغرافيا معرفة ما اذا كانت المدن، التي اتي على ذكرها المؤرخون القدامى، لا تزال موجودة حاليا أو انها تهدمت كليا، سأورد أسماء مناطق لم أزرها بنفسى، بل اخذتها عن أناس ربما لم يزوروا أيضا.

رأس العين، و تقع على بعد ١٢ أو ١٤ فرسخا إلى الجنوب الغربي من ماردن، و على منبع نهر الخابور، و هي مدينة مهدمة كليا. وبران شهر، مدينة مهدمة، تقع بين ماردن و اورفة.

حسن كيف(Hassan Kaif) ، و هي مدينة اشتهرت في الماضي، و لا تتعدى اليوم كونها مكانا صغيرا على دجلة، على بعد ١٦

فرسخا من ماردن.

ونجد إلى غرب سنجار و في بحيرة، جزيرة صغيرة يسكنها العرب، و تدعى خاتونية. تتصل بالبابسة بسد ضيق للغاية، و نجد عليها هرما بنى بطريقة متينة و يستحق زيارة المسافرين .

تل غفر، و تقع جنوب جبل سنجار، و تدفع هذه المنطفة و خاتونية سنويا جزية معينة لشيخ قبيلة طى العربية.

يقال ان هناك طريق تؤدي مباشرة من جبل سنجار إلى القدس، و تكثر عليها الخانات التي يبعد الواحد منها عن الاخر مسافة يوم سفر واحد. و يزعمون ان بقايا هذه الابنية العامة المخصصة للمسافرين لا زالت واضحة، لكن وفقا للتقارير تهدمت القرى الواقعة في هذه المنطقة المخصبة كليا. و يناسب هذا الطريق مسيحي الموصل و ماردن الذين يؤدون فريضة الحج إلى القدس، و الذين يضطرون إلى المرور بحلب و دمشق، أو الانتقال إلى الاسكندرون و منها إلى باقا بجزءا، لكنه نسي تماما، حتى اقترح عربي منذ ستوات على مسيحي من ماردن، لم يتمكن من اللحاق بغيره من الحجاج، أن يوصله عبر هذا الدرب، و يقال ان هذا المسيحي وصل بعد ثمانية ايام.

اكند لي عرب من قبيلة طى انه، على مسافة يومين من الموصل و على طريق عنة (Ana) (مدينة على الفرات)، هناك بقايا مدينة كبيرة و هي الحضرة (El Hoddur)، و تحتها كمية من الجثث المتحجرة . و يدعون انهم شاهدوا مفتين و قضاة و غيرهم، باختصار رجلا و نساء و اطفالا تحجروا، وفقا لأقوالهم، في ليلة واحدة، و لا عجب في أن يخطيء بدوى بمضى حياته في الصحراء و لا يملك ادنى فكرة عن اعمال النحت لأنه لم يرها يوما، كما انه قد لا يعرف المفتي و القاضي بل

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣٠١

سمع عنهما و بالتالي ظن ان التماثيل الحجرية ما هي الا اشخاص تحجروا. و لعل هناك فعلا بقايا مدينة و تماثيل تستحق أن يدرسها اوروبي يقوم برحلة من الموصل، و علمت لاحقا في حلب ان اوروبيا، عاندا من الهنء، أكد لمواطنيه المقيمين في المدينة انه رأى بنفسه بقايا مدينة في الصحراء تحجر سكانها كلهم في ليلة واحدة. و أظهر أحد مواطنيه، اذ لم يصدق ما تقدم به الرجل، رغبة في رؤية المكان، فإن تجمد الكل في ليلة واحدة، لا بد ان يقع على نساء و رجال في اوضاع فريدة، على حد قوله و لم يتمكن المسافر من التراجع عن اقواله و إلا اعتبر كاذبا، فأقسم انه بالفعل صادف وضعيات مماثلة، و أكد بالتالي ما رواه لي العرب.

تقع مدينة ماردن في أعلى جبل شاقق و وعز شيئا ما، على ارتفاع القطب ٣٧ و ١٩، و كانت في ما مضى حصنا مشهورا، لكن لا نجد حاليا إلا بقايا من سور المدينة بعد ان تهدمت القلعة كليا. و كانت هذه الاخيرة تقع على صخرة عالية و وعرة تشرق على المدينة، و هي طويلة و ضيقة، و يعتبر الطرف الشمالي منها اكثر ارتفاعا و تحصينا من غيره لأن الدرب المؤدى اليه ضيق، تحف به بقايا أبراج. و قد حفر الدرب المؤدى إلى القلعة الرئيسة جزئيا في الصخر، و نجد حتى اليوم عند مدخلها بابا فضلا عن بعض التماثيل المحفورة في الحجر من زمن المسيحيين. و تكمن مناعة هذه القلعة في أن الصخرة شبه عامودية، زد على ذلك، انها تحاطة بسور من الاعلى، و المنازل المبنية حول اكثر من نصف الصخرة متراسة و متلاصقة. و نجد في المنطقة آبارا، لكن يقوم الاهالي بجمع مياه الامطار في خزانات كبيرة اثناء فصل الربيع. حين يود سكان ماردن وصف مناعة قلعتهم، يروون ان تيمورلنك حاصرهما طويلا، و تمكن من اكل التين و العنب من اشجار زرعها على تلال في أسفل المدينة، ثم اضطر إلى فك الحصار. لكن هذه الطريقة التي يعتمدها الشريون في الروايات تدخل في باب الكفاية و لا تعنى سوى ان القلعة تعرضت للحصار لوقت طويل، لأن الترى يمكن ان يطبل له اكل التين و العنب المزروع، لكن لا أظن انه فكر يوما اثناء حصار ما يزرع الاشجار. و قد استولى على المدينة و دمرها، و نجد هنا قلعتين اخريين هما طورخان قلشي (Tarchan Kalsi) و قلعة المررا (Kalla el marra)، و تقع الاولى في حرم سور المدينة، و الثانية على جبل منفصل و قد تهدمتا كليا.

يتكون الجبل الذي تقوم عليه ماردن من حجر كلسي لين، يسهل استخدامه، و قد بقيت معظم المنازل لهذا السبب من الحجارة المصقولة و بشكل مقبب، و تعلو احداها الاخرى، لأن الارض التي بنيت عليها المدينة منحنية للغاية، فتشكل سطوح بعض المنازل و بعض الشوارع فناء للمنازل التي تعلوها، كما تشكل هذه السطوح في بعض الاماكن الشارع بحد ذاته. و تظل المنازل كلها على سهل بلاد ما بين النهرين الواسع و الخصب. كان في القلعة ٢٠٠ منزل، أما اليوم فلا يتعدى

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣٠٢

عدد السكان الثمانين نسمة، و لا يتجاوز عدد المنازل في المدينة و القلعة الثلاثة آلاف . و يقم في حوالي ألفي منزل مسلمون من أهل السنة، و في المنازل الباقية مسيحيون، كما نجد في المدينة قرابة العشر عائلات يهودية. و يملك المسلمون عشرة جوامع، فضلا عن المساجد الصغيرة، بعضها قديم و جميل البناء، تعلو اثنين منها فقط مئذنتان، و نجد في المدينة ايضا مدرسة تمتد على مساحة واسعة، و تحمل اسم مؤسسها و حازم بادشاه الفتى (Khassem Padischa Takkie)، الذي تتلقى منه سنويا عشرة آلاف قرش بغية اعالة بعض الاشخاص فيها و التي اوضحت مهامهم وراثية، لكن يتوجب عليهم الحصول على تثبيت في مهامهم من القسطنطينية. و يعتبر المتولى الذي يهتم بحسابات الطائي، و الذي يشير على الموظفين الاخرين من أين يحصلون على رواتبهم، إما من الاراضي و اما من المنازل، الموظف الرئيس في هذا المسجد. و هناك اربعة مدرّسين فضلا عن إمام يصلى للشعب و آخر يصلى للسلطان، و مؤذن يدعو الناس إلى الصلاة، و آخر يهتم بالسجاد المستخدم للصلاة، و سرقي (Sarukdsja) تنقص مهمته على وضع عمامة نظيفة كل يوم جمعة على حجر جازم بادشه، و بواب، و عمال ينظفون الثلج في الشتاء (و هؤلاء هم من المسيحيين)، و كياك يوزع المؤن، و طياح، و بستاني، و عامل نظيفات و يتلقى الطلاب اسبوعيا مبلغا معيناً، لكنهم لا يكفون حاليا الكثر لأن المدرّسين يفتقرون إلى مستمعين. و نجد خارج ماردن بعض التكايا التي يستحيل العيش فيها، لكنها تتلقى مردودا تطلبه من مدرسة في القسطنطينية، و تعطى الافضلية في هذه التكية لابن موظف متوف على الغريب. و يتبع مفتى ماردن المذهب الحنفي، و بعينه هي منصبه مفتى القسطنطينية، أما القاضي فيعنه قاضي ديار بكر.

رسمت المنظر العام لماردن الواقعة على جبل وعز على اللوحة (XLVII)، و تستعطي هذه الصورة للقارى فكرة عن موقع المدينة، سيما و أن وضع خارطة لها أمر صعب للغاية. نجد قرب الرقم ١، القلعة الرئيسة، و قرب الرقم ٢ المنطقة التي خيم فيها تيمورلنك، و فيها حاليا بسايتين فاهكة رابعة، قرب الرقم ٣ قلعة قلشي، ٤ قلعة المررا، ٥ بقايا كنيسة كبيرة هي كنيسة مار يوحنا، ٦ دير صفران (Dan Safferan)، محل اقامة مطران يعقوبى و يقع في منطقة جميلة، على بعد فرسخ من المدينة. و نجد في ماردن عددا كبيرا من الكتابات بالعربية الحديثة، و معظمها للصحابة الذين حكموا البلاد، و اذا ما اراد احد ما ان يكتب تاريخ هذه المدينة، يمكنه ان يستفيد من هذه الكتابات، و لأني وجدت السكان مشككين و لأن الرهبان الاوروبيين المقيمين في المدينة لم ينظروا بعين الرضا إلى عمل كهذا، لم أنسخ اى من هذه الكتابات.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣٠٤

تتمتع ماردن بهواء عليل و صحي، و بما أنها تقع على مرتفع، يبقى صيفها معتدلا و شتاؤها باردا إلى حد ما. و حين يشتد البرد، و لا يتمكن السكان من اتقائه بفروياتهم، يشعلون، كما في مناطق أخرى في الشرق، الفحم في وعاء مليء بالرماد و يسمى تنور، أو يشعلون الحطب في مدفأة يسمونها «كانونه» أو «جاق»، و تتدفأ النساء هنا، كما في مناطق اخرى من تركيا، بانصرعونه تحت طاولة غير مرتفعة، يغطيها بساط، يشدونه على أقدامهم، بعد ان يجلسن متربعات حول الطاولة. و تعتبر هذه الطريقة في تدفئة المنازل عملية للغاية و اقتصادية لكنها خطيرة ايضا، لأن الارض حيث يوضع الاناء الذي يحمل النار، و الطاولة التي تعلوه مغطيان بالبسط و السجاد مما يسبب الكثير من الحرائق. و عندما يكثر تساقط الامطار في فصل الربيع يتوقع اهالي ماردن محصولا غنيا، و من اواسط شهر أيار/ مايو و حتى تشرين الأول/ أكتوبر، لا تهطل الامطار و بنام السكان في الهواء الطلق ليلا. تكثر المياه العذبة في هذه المنطفة، و نجد قرب المدينة و في الجهة الاخرى للجبل الكثير من البساتين المثمرة، سيما العنب و الاجاص و التفاح و القستس الطيبى و البندق اللج، الخ. و تشتهر ماردن بخوخها الذي ترسل كميات منه سنويا إلى بلاط السلطان. و يكثر الكرز البرى في هذه المناطق، و تزدهر تجارة خشبه في البصرة و حلب، و يتاجر السكان بالزبيب لكثرة الكروم، كما أن اسعار التبيذ و الكحول منخفضة بين مسيحي المنطقة. أشرت في وصف شبه الجزيرة العربية، إلى أن المن يجمع بكميات كبيرة هنا، و يعمل السكان في زراعة الحنطة و الشعير، كما ترى الكثير من المراعي الرائعة في سهول بلاد ما بين النهرين، و يشتري اللحم اللذيذ بأسعار بخسة. و نجد في المدينة العديد من المصانع الجيدة، لا سيما للكتان و القطن، فضلا عن مصنع للزجاج، و بشكل عام تشهد التجارة مع المدن المجاورة ازدهارا كبيرا.

أشرت سابقا إلى أن والى ماردن يحمل لقب و يوده، و كان السلطان يعينه فيما مضى، لكنه حاليا يسلم مهامه من باشا بغداد، و يقال ان عدد القرى في منطقة بلاد ما بين النهرين الخاضعة لهذا الحاكم بلغ في ما مضى ١٦٠٠ قرية، بقي منها حاليا ١٥٠ قرية و أظن ان

الرقم مبالغ به.

و يبلغ عدد القرى في المناطق الجبلية ٢٠٠ قرية، ويقال ان السلطان يقبض سنويا ١٠٠ كيس نقود (٣٣٣٣ درهم) من هذا الحاكم، فضلا عن ٢٧ كيس نقود (٩٠٠٠ درهم) كجزية من المسيحيين واليهود، لكن باشا بغداد يحتفظ لنفسه بمئتي كيس نقود بعد احتساب النفقات.

و يخضع لويوده ماردین عدد من الآغاوات، والشوکاردار وغيرهم من الضباط كما لو انه باشا، فضلا عن أربعة ييارق مشاة، يتألف كل منها من ١٢٠ رجلا. و لكل ييارق بولكباشى (Balukbaschi) و اوزباشى (Odesbasgi) و شوس (Tschau) و بيرقدار، كلهم تحت أمره تفكجى باشى (Taffenschi) . و تخضع الخيالة لأمره لأمره باش آغا، و تقسم إلى ييارق، و يحمل الضباط الألقاب

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣٠٥

نفسها كضباط المشاة. يستخدم الويوده جيشه لقتال العرب و الاكراد و اليزيديين الذين يتجولون على اراضيه، و عندما لا تكفيه القوى المتوفرة يقوم بتجنيد غيرها، و يجد العديد من الناس المستعدين للحاق بالجيش لكسب بعض الغنائم اذ ان الجمال و الاغنام و الابقار التي يأخذونها من قبائل البدو أو من السكان المتمردين تصحیح ملكا للويوده، في حين ان الخيول و غيرها من الغنائم تقسم على الرجال.

يدفع السلطان أجور حامية القلعة، و هي تخضع لأمره دسدار(Desdar) الذي يخضع له عدد من الضباط. و تسمى ميليشا المدينة «عزب» و هي تابعة للسلطان، و تحمل طيلا كبيرا، في حين أن رجال الويوده لا يحملون سوى دقوف نحاسية.

و يملك الارمن الذين يتبعون الكنيسة الكاثوليكية، فضلا عن الكلدانيين (اليعقوبيون و النسطوريون الذين يتبعون الكنيسة الكاثوليكية) كنيسة خاصة بهم في ماردین، و تتميز كنيسة الفريق الاول بجمالها. كما يملك اليعقوبيون ثلاث كنائس، واحدة داخل المدينة و اثنتين خارجها، و يملك المطران على بعد فرسخ من المدينة، و في منطقة جميلة، ديرا تحدثت عنه سابقا لكنه معظم الوقت في المدينة. و يعتبر السشميون(Schemise) من اتباع اليعقوبيين، و يبدو ان هؤلاء حافظوا على ديانتهم التي كانت منتشرة بين المسلمين و بين المسيحيين، و أكد لى رجل عجوز، أنه في شبابه عرف عدة قرى في المنطقة الجبلية تتبع هذه الديانة. و يظنون ان هذه الديانة اختفت من القرى، لكن نجد في ماردین مئة عائلة من اتباعها في حين مختلفين، و كان اتباع هذه الديانة، منذ سنوات، يشككون مجموعة مستقلة بلداتها، لكن السلطان مصطفي أراد إجبار المسيحيين و اليهود في مملكته على اعتناق الدين الإسلامي أو مغادرة البلاد، و بما ان الاعيان، و حتى المفتى نفسه، رفضوا الخضوع لهذا الأمر لأن محمد نفسه منح المسيحيين و اليهود حمايته لقاء جزية سنوية يدفعونها.

و لإرضاء الحاكم، صدر امر بأنما يقم في البلاد إنما أهل الكتاب أى المسلمون و المسيحيون و اليهود. أما اليزيديون و الدروز و النصريريون و اتباع الديانات الاخرى الذين يقيمون في المناطق الجبلية و الذين يخضعون لأمراتهم و شيوخهم فلم يكثروا لهذا الأمر، في حين ان السشميين كانوا ضعفاء و يقيمون في المدن حيث يراقبهم القاضى المسلم، فخصعوا لمطران اليعقوبيين في ديار بكر.

و اصبحوا يعتبرون انفسهم مسيحيين و يتزبون بزيتهم. و تقتصر مسيحتهم على اللباس و على تنصير اولادهم، و قلما تجدهم في الكنيسة باستثناء زوج منهم يرسلونه كى لا ينهوا بعدم ارتياد الكنيسة، كما يستدعون كاهنا يعقوبيا لحضور دفن موتاهم، لكنه لا يدخل المنزل قبل اقفال النابوت، فيفتح الجنازة إلى مدافنهم. باختصار، يعيش هؤلاء بعيدا عن المجموعات الاخرى، و لا يتزوجون حتى من اليعقوبيين. لم أتمكن من معرفة اى شىء ايجابي حول مبادئ دينهم، و قال لى المسيحيون في

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣٠٦

ماردين انهم يتنون ابواب منازلهم الرئيسية عند شروق الشمس، و انهم ينظرون باتجاه الشمس عند اداء صلاتهم، و انهم يحلقون شعور موتاهم و يضعون في افواههم دوقيتين. و عند الزواج، يبارك كاهن يعقوبى الزوج و الزوجة، لكنهما يقادان عبر الشراخ، و يقال انها العادة المتبعة كى ييرا امام حجر كبير معين يعتبرونه مقدسا و يظهرون له الكثير من الاجلال.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣٠٧

#### الرحلة من ماردین إلى حلب عبر ديار بكر

#### اشارة

في ١٠ أيار/ مايو صباحا، غادرت ماردین مع قافلة صغيرة، و توجهت نحو ديار بكر، و تبلغ المسافة بين هاتين المدينتين حوالي ١١ ميلا نحو الشمال مباشرة، و يمكن قطعها بسهولة في يومين، لكن المراعى الخصبية و الرائعة أفرت اصحاب الدواب فتركوها ترعى، و سافرا ببطء فوصلنا ديار بكر في ١٢ أيار/ مايو صباحا. اما الدرب فضعب و جبلى، و المناطق المحيطة غير مزروعة لقلّة السكان فيها، و لا يستفاد من النتائج المتدفقة التي يمكن ان تجعل البلاد خصبة و غنية، إنما نرى في أماكن عدة كروما مهملة مما يدعى بالاعتقاد بأن المنطقة عرفت في ما مضى زراعة افضل من اليوم، ثم اجتزنا غابة سديان صغيرة يستخرج منها المن بغزارة وصلنا إلى شيخ خان، و هي قرية يسكنها الاكراد شتاء فقط، لأنهم يتجولون مع خيامهم صيفا، و تقع في واد كبير و خصب. وقد أخذت اسمها من خان حفر كليا في الصخر، و كلف من دون شك مبالغ طائلة، لكنه ليس بجميل أو بمریح لا سيما و أنه لا ينظف ابداه، و هو عبارة عن اسطبل للخيول، حفرت في جدرانها كوات تستخدم كعرف للمسافرين. و هدمت القلعة، التي بناها السلطان مراد حين قام بحملته الشهيرة على بغداد، منذ فترة طويلة.

و لم اشاهد اثارا تلتف الانتباه على هذه الطريق، سوى قصر زرزواو(Kasr Zerzaua) ، و هو قلعة بنيت على قمة جبل، انما مهجورة كليا، و قد نصبت الخيام فيها قبيل الظهر. و بالرغم من الحرارة، تسلقت الجبل آملان أن أقم على بعض المباني الاثرية الجميلة تحت البقايا التي رأيناها من بعيد، لكنى لم أجد سوى جدران المباني المنهارة المنيئة من الحجارة الكبيرة، و حتى أن الطوابق السفلية لبعض المنازل حفرت في الصخر. و وجدت بعض واجهات المنازل المقوّنة مما يؤكد ان سكان هذه المنطقة عرفوا في الماضى السطوح المائلة كما في اوروبا، و لم اكتشف اى كتابات هنا. و لا يعرف احد هنا متى هدمت القلعة و متى بنيت. لكن يبدو من البقايا أنها قديمة للغاية، إذ ان الحجارة صلبة جدا، بالرغم من أنها تعرضت للعوامل الطبيعية، و يقال ان سيدا اقام فيها، و قد اعتاد ان يطالب المسافرين برسوم المرور، و بالضرائب، و غالبا ما سطا عليهم.

و يقع الدبر الذي يطلق عليه الارمن اسم دير رباط(Dar Rabat) ، و الاراتك اسم قره قليف

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣٠٨ ( Kara Klife )

(الكنيسة السوداء) بالقرب من الطريق، عند قرية سرتانل(Surtanel) ، و قد بنى من الحجارة المصقولة، و يقال ان له ابوابا عدة من هذا الحجر ، و يعيش في الدبر مطران و كاهن و الشيطان. و بروى، تصدق عامة الشعب من الارمن هذه الرواية كإنتاجيهم، أن مطرانا من هذه البلاد، حكم على الشيطان، الذى طرده من جسد احد الاشخاص، بأن يكس كل ليلة الدبر بأكمله، و بأن يزيل الاوساخ، و يؤكدون ان الكنيسة، و مساكن الكهنة، و المطبخ تبدو نظيفة كل صباح منذ ذاك الوقت. و يدرّ الشيطان على رجال الدين الربح، اذ يجعل من بعض المسافرين شهودا لهذه المعجزة فيقدم هؤلاء الهدايا للدبر. و قد علمت بالامر متأخرا، و لم اشارك رفاقي، لا سيما و انى لا اعتقد ان هذا الشيطان سيجعلنى لاحقا في مأمن من اللصوص، و إلا لوددت رؤية دير رباط.

و يصبح الدرب قرب ديار بكر سبخا نوعا ما. و تصادف العديد من الانهار الصغيرة، تغلوا على جسور جميلة، منيئة من حجر اسود صلب. و قد رصف جزء من الدرب امامها. اما اسماء القرى الذى نمّو بها في هذه المنطقة، فسجلتها على خارطة سيرى، على اللوحة١ .

زوّدتنى راهب كرملى من ماردین، برسائل توصية للرهبان الكيوشيين في ديار بكر، و أكد لى أنهم سيستقبلونى على الرحب و السمعة، و عند وصولى إلى المدينة، توجهت إلى ديرهم مباشرة، فاستقبلونى بهتديب فاتق، و يعتمد هؤلاء اساسا على راهب واحد، و هو رجل متقف و طيب ماهر، يحبه الاعيان في المدينة، حتى ان رفاقه يبارون منه. و عرفنى هذا الراهب على كبار التجار المسيحيين، فأمضيت وقتي في المدينة بين الدبر و بين مسيحي البلاد، و تمكنت من القيام بدراساتى بالرغم من أن المسلمين هنا ليسوا بهتديب ابناء دينهم في ماردین و الموصل ازاء المسيحيين.

و اسم ديار بكر ليس بالاسم القديم، فقد عرفت المدينة في ما مضى باسم آمد( Amid) ، و يستخدم هذا الاسم حاليا في العقود و الوثائق التركية.

و تقع هذه المدينة على الضفة الغربية للجلة، و تمتد على مساحة صخرة و عرة للغاية من جهة النهر (راجعوا الخارطة، للوحة XLVIII

، و يحيط بها سور عال من الحجارة السوداء والصلبة لذا يسميها الأتراك قرّة آمد (آمد الأسود) ويتخلل السور معازل عدة أو أبراج كبيرة توضع فيها المدافع، فضلا عن أربعة أبواب: (١) بنجي قبوسی (Jeugi Kapusi) ، (٢) ماردین قبوسی (٣) اروم قبوسی رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣٠٩ (Orum)

و (٤) داغ قبوسی (Dag) . و يحيط بالقلعة (A١)، من جهة المدينة سور عظيم، كذاك المحيط بالمدينة نفسها، لكن المنازل من جهة النهر تقع على حافة الصخرة الوعرة للغاية. و كان للقلعة ثلاثة أبواب، لكن اوغروم قبوسی (Ogrom Kapusi) قرب الرقم ٥ مسدود، ويحافظ على دمبر قبوسی (Damer Kapusi) قرب الرقم ٦ مقفلا، وبالتالي لم يبق سوى باب وحيد هو باب المدينة. و يقيم باشا المنطقه، و الذي يملك ثلاثة أطواق، في القلعة، فيما اقام اصحاب المدينة أو الامراء المسلمون في قصر على التلة، لم يبق منه سوى حائط الاساس. و تستخدم هذه التلة حاليا كمريض اذ وجدت عليها بعض المدافع الموضوعة بين الاعتشاب، و من دون مرقب، و يمكن رؤية المدينة بأكملها من هذا المكان. و بلغ عدد المآذن في المدينة ١٦ مئذنة، معظمها مستدير الشكل كما في المدن الأخرى، و بعضها مربع، و يؤكد المسيحيون انها كانت اجراس كائس لكن المسلمين التزعواها، و هذا الأمر محتمل بالرغم من اني رأيت بنفسى كتابة عربية تعود لعام ٥٥٠ على إحدى هذه المآذن، و لعل هذه الكتابة تعود إلى مرمم المئذنة. و لا بد أن المسجد الرئيس، و هو مبنى رائع، كان في الماضى كنيسة المسيحيين الاساسية، و لم أتمكن من زيارته لأن المسيحيين لا يتجرأون على الاقتراب من الساحة الخارجية المحيطة به. يبلغ ارتفاع القطب في ديار بكر ٣٧ و ٥٥.

يصعب بل يستحيل الحصول على معلومات دقيقة حول سكان المدن الشرقية، اذ لا يتكيد المسيحيون أو المسلمون عناء احصائهم، و يستغريون حين يسألهم اوروبي عن عدد السكان في مدينتهم، و تأتي اجابتهم الاولى أن المدينة عالم بحد ذاته، و حين يضطرون إلى الدخول في التفاصيل، يجعلون سكانها مئات الالاف، و احيانا مليون نسمة حيث لا أفترض وجود أكثر من مئة ألف. و تبقى أفضل طريقة لحساب عدد السكان في المدن الشرقية، وضع خرائط لها، و يتبين أن أكثر المدن اكتظاظا بالسكان كالقسطنطينية و القاهرة و دمشق و حلب و ديار بكر و الموصل و بغداد، لا يتعدى عدد سكانها عدهم في المدن الأوروبية التي تشهد ازدهاما سكانيا. و ليقابل من يهमे معرفة عدد سكان ديار بكر الخارطة التي وضعتها للمدينة مع خارطة مدينة اوروبية و يستنتج بالتالي عددهم. لكن المنازل داخل حرم المدينة، و كانت هذه الأخيرة تمنع بالسكان قبل المجاعة منذ تسع سنوات، لكن معظم مساكنها خالية حاليا. و يبلغ عدد المنازل المسكونة حوالي ١٦٠٠٠ منزل، يقيم في ريعها مسيحيون. و تتميز منازل المدينة بسطوحها المصقولة، و الطابق العلوى من الطين.

و لاحظت ان قب بعض المساجد و المآذن الكبير مغطاة بالرصاص، و هذا لم أراه في البصرة و حتى هنا، لكنه امر شائع في سوريا و الاناضول. كما تتميز بشوارعها المرصوفة و بنظافتها النسبية، و مياهها

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣١٠

الجزيرة من نهر على بوار (Ali Poar) و من الشايح. قرب الرقم ٧ خارج المدينة، نجد حفرا لجمع التلوج، و قرب الرقم ٨ ثلاثيات كبيرة، اما المدافع المشار اليها بالاحرف التالية LLL LL كبيرة. و نجد خارج المدينة بساتين مشرمة و كروم، و اراض شامعة مزروعة، و نرى على مسافة ١٦٠٠ خطوة مزدوجة من ماردین قبوسی جسرا جميلا على نهر دجلة يقوم على عشر قناطر، و قد بنى من الحجر الاسود الصلب. لكن الكتابة الكوفية التي نراها، نقشت على حجر لين و تأثرت بالعوامل الطبيعية، لذا لا يمكن ان نكتشف في أية سنة تم بناؤه تبدو هذه الكتابة أقدم من تلك التي نقلتها عن سور المدينة، و بالتالي فإن هذا الجسر على الأرجح هو الجسر الذي بنى في العام ١٢٤ للهجرة.

إن أبراج المدينة و معازلها مستديرة الشكل و مربعة و مثنئة الزوايا، لكنها لم تبني في الوقت عينه، و تبدو المرعبة منها أقدم من غيرها اذ نقشت عليها كتابات بالاحرف الكوفية. و قد نسخت ثلاث منها على اللوحة XLIX، أما الكتابة الموجودة قرب الحرف (A١)، فقد نقشت في العام ٤٤٤ للهجرة، و يرد ذكر العام ٤٣٧ في السطر الاخير للكتابة (B١)، و تقع هذه الكتابة قرب بنجي قبوسی، و يربط في هذا المكان حارس لأن الفرس استولوا يوما على المدينة من هذه الجهة، في حين ان الابراج الأخرى تترك من دون حراسة. حفرت معظم الكتابات الكوفية على حجارة بيضاء ليثة أو على الطين المشوى في الفرن كما في منطقة بابل، و اذ ما وجدنا احداها على الحجر الذي بنى منه سور المدينة، ألفيناها سنية فلا ننتبين سوى أن الحجر صلب بالنسبة للذي حفره هذه الحروف، و أنهم يستخدمون الحجر الابيض لأنه لين و يسهل النقش عليه. نجد هنا الكثير من الكتابات، بالأحرف العربية الحديثة، التي اذا ما نستناها كلها، اعطتنا معلومات وافية عن الامراء المسلمين الذين حكموا البلاد، و قد نقشت بإتقان، لكن الحروف كتبت بفن و بشكل متداخل على طريقة العرب. طلبت من تاجر مسيحي ان ينسخ اثنين من الكتابات بحضورى، لكنى لم انشر سوى احداها، لأن الأخرى نسخت بشكل غير واضح و تخللها اخطاء عدة .

يستحيل على المسافر ان يجمع معلومات دقيقة حول ايرادات السلطان من أقاليمه المنخفضة،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣١٢

و لا ينبغي ان يستغرب المرء هذا الأمر لأننا في اوروبا حيث يكتب الكثير حول السياسة، لا يمكن ان نحصل على معلومات اكيدة حول مردود احد البلدان. و يملك المسيحيون ارقاما دقيقة حول الخراج (Charedsch)، ففي ديار بكر، يتلقى مدير عام الضرائب الذي يحمل لقب و يوده، ايراداته من الضريبة، و يدعون انه يدفع منها سنويا ٥٥٠٠٠ قرش فضلا عن ٥٠٠٠ قرش كهديا لبعض ضباط السلطان في القسطنطينية، كما يتلقى من من يجمع الجزية في مدينة ديار بكر مبلغا يقدر بحوالي ١٣٠٠٠ قرش.

و يقيم في ديار بكر بطيريك كان، احدهما لليعقوبيين، و يسمى ايضا بطيريك انطاكية، و الاخر لأولئك المستوطنين كلدانيين. و يحمل الاول اسم ايناس و هو بطيريك كافة المسيحيين يعقوبيين أو السريان في الامبراطورية التركية كلها باستثناء سكان جبل طور، و هو الذي يعين كاهنا لمسيحي القديس توما في الهند. و يدعى البطريرك الثاني يوسف، و هو رئيس السنطوريين و يعقوبيين الشرقيين الذين يعترفون بسلطة البابا. اما البطريرك الحالي فهو الرابع الذي يحمل هذا اللقب الرفيع. فمنذ حوالي مئة عام، تشاجر احد الكهنة السنطوريين الكبار مع مطرانه، فقصده روما و أعلن طاعته للبابا الذي اعاده، بموافقة السلطان، إلى ديار بكر و هو يحمل لقب البطريرك الاول للسنطوريين و يعقوبيين التابعين للكنيسة الكاثوليكية في روما، و منذ ذلك الحين، سمع الشعب بطيريك للكلدانيين. و بما أن المطارنة الجدد كانوا من السنطوريين، ضعفت سلطة بطيريك القوش، فقد كان احدهم من مواليد تل كهيف (Tel Kaf) يتابع عدد كبير من سكان هذه المنطقة البابا، و ازداد عدد هذه الجماعة من مسقط رأس كل بطيريك. و اضطر الاخير إلى ترك البلاد لأنه اجبر غالبا على دفع غرامات اذ جعل المسيحيين يتبعون جماعة غير الجماعات الشرقية. و نجد هنا العديد من الارمن، و بعض السنطوريين و القليل من الشمسيين فضلا عن يعقوبيين و الكلدانيين، و قد التجأ الشمسيون، كما في ماردین، إلى جماعة يعقوبيين، و يعتبر عدد اليهود في المنطقة قليلا، لكن تبقى الديانة المسيطرة هي الإسلام.

لم استطع الحصول على معلومات وافية حول مختلف سننجان هذه الحكومة، لكن يقال ان ارغانا (Argana)، و شرموك (Tscharmuk)، و بهغازبود (Pahirgaspu)، و معدان (Moadden)، و جيبان (Gibban) هي اماكن مهمة، و تكثر المناجم في منطقتين منها.

و اتحت لي فرصة السفر إلى حلب مع قافلة صغيرة، غادرت في ١٩ أيار/ مايو، يوم عيد الاضحى. و يسافر العرب عادة على طريق سوريك (Suerak) عبر خان شرموك (Chan Tscharmuk)، حيث تصادف قرى عدة ادرجت اسماءها على الخارطة على اللوحة ١.

توجهنا نحو الجنوب، و لم تقع على قرى سوى على بوار (Par) التي لا تبعد عن ديار بكر الا

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣١٤

ربع فرسخ، لكن شاهندا في أماكن عدة بقايا قرى دثرها التركمان و الاكراد، و ربما الحكام الأتراك، و اجتزنا غابة صغيرة في منطقة يوجو اوجوك (Jogouk Ojuk). إن الدرب الذي سلكتاه سبيء للغاية، تتخلله حفر هطول الامطار، و تكثر على الحجارة، لكن المرعى خصبة لذا اختار المكاريون المرور عبر الصحراء. وصلنا سوريك في ٢٣ أيار/ مايو، و تبعد هذه المدينة الصغيرة عن ديار بكر حوالي عشرة أميال، و لزمنا ٢١ ساعة لقطع هذه المسافة.

تقع سوريك في واد، على ارتفاع القطب ٣٧ و ٤٦، و يبلغ عدد منازلها حوالي ٢٠٠٠ منزل. يسكن حوالي ١٥٠ منها ارمن. و نجد في المدينة ثلاثة مساجد تعلوها مآذن و ثلاثة حمامات عامة، و لا نشاهد فيها اعمال تحصين، انما تلة مرتفعة من التراب، كما في اربيل و



كر كوكك، تعلقوها اسس قلعة. و تصادف خاراج سوريك العديد من الجائز الجميلة الغناء والكثير من الكروم، و قد أشرت في وصف شبه الجزيرة العربية إلى مردود الحظوة المرتفع في هذه المنطقه.

يمكن سلوك طرق عدة من سوريك إلى البرية(El Bir)، وود التوجه مباشرة إلى اورفه لأنى كنت على مقربة من المدينة القديمة الشهيرة، لكن المكاريين آتروا المرور في منطقة قاحلة واضطرت إلى مرافقتهم حتى ملةً سروسا(Mullaserio) ، و هي اول قرية تصادفها على هذه الدرب. في ٢٨ أيار/ مايو، أرسلت خادى مع القافلة، و سافرت مع المكارى إلى اورفه التى وصلتنا سالما من دون ان اصادف اى قاطع طريق. و تبعد سوريك عن ملةً سروسا حوالى سبعة أميال و نصف، و تبعد هذه الابيرة عن اورفه خمسة أميال و نصف، و في اليوم الاخير للرحلة، عبرت منطقة جميلة تسمى جهبان(Dsjuhban) نسبة إلى قرية تقع فيها، و رأيت أنهار صغيرة عدة تنمو على ضفافها الحدائق والأشجار.

و بما أن وقتى لا يسمح لى بالتوقف طويلا في أورفه، سارعت إلى دراسة موقع المدينة و وضع خارطة لها تجدونها على الواجهةLI. و يشبه موقعها على حدّ بعيد موقع مدينة تعز في اليمن، لأن القلعة الواقعة في احد جوانب المدينة على تلة، يشرف عليها جبل شاهق و بالتالى لا فائدة هنا ضد عدو اورويى، لكن اورفه تعتبر محصنة جدا بالنسبة لهذه البلاد. يحيط بالمدينة من كافة الجهات سور مبنى من الحجارة الكلسية البيضاء، و تقوم في جهة من جهات المدينة حفرة عميقة في بعض الاماكن، تصب فيها المياه من نبع غزير و بالتالى يمكننا ان نعتبرها جدولا، و قد حفر الخندق المحيط بالقلعة في الصخر. و هو جاف كليا. و للمدينة أربعة أبواب: ١) مسط قبوسى (٢) ، (Samsat) جنفى قبوسى (٣) ، (Gengi) بيك قبوسى، (٤) حران قبوسى (Haran) . و نلاحظ في القلعة قرب الرقم ٥، وجود عمودين منتصبين و بناءين منهارين، لكنى لم أرها إلا من بعيد فضلا عن الآثار على الجبل خلف القلعة. أما هذه الابيرة فتحصل اسم نمرود. و يعتقد الاهالى ان

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣١٥

نمرود الذى ورد ذكره في الكتاب المقدس اقام في قصر هنا لذا حملت القلعة اسمه، و هي قديمة للغاية و تستحق ان يشاهدها اى اورويى يقصد البلاد. و في الجبل غرف عدة محفورة في الصخر، لكنها مهجورة باستثناء تلك الواقعة قرب الرقم ٦ فهي مسكونة حاليا. احصيت في هذه المدينة ١٢ منڈة، بعضها مربع الشكل، و يشبه احداها إلى حدّ بعيد جرس كنيسة مسيحية. أما المنازل فبنيّة بشكل جيد و متين، و جل ما يلفت الانظار هو مسجد جميل و كبير، قرب الرقم ٧، بناه على ما يبدو و مسلم مؤمن حلم ان ابراهيم صلى في هذا المكان، و تدفع هذه الاحلام المسلمين إلى بناء المساجد كما بنى الهنود معابدهم، و يطلق عليه اسم خليل الرحمن و مقام ابراهيم. كما نجد عند سفح الجبل نبجين غزيرين، برويان البساتين و الحقول و يديران الطراحين، و تقوم امام كل من البنين بحيرة واسعة و جميلة تكثر فيها الاسماك و مخصصة لإبراهيم، و يحمي القاضى هذه الاسماك، كما يرون ان الله عاقب من حاول المساس بها، لكن بالرغم من ذلك يقال ان العديدين يستفيدون منها .

يقيم الارمن في حوالى ٥٠٠ منزل في المدينة، و يملكون كنيسة كبيرة و رائعة قرب الرقم ٨ على الخارطة. تهدم قسم كبير منها لكن القسم المتبقى زين بسجاد عجمى جميل، كما يصلون في كنيسة اخرى خارج المدينة قرب الرقم ٩ و تدعى خضر الياس. و لليغوثيين كنيسة هنا، لكن رعيتهم لا تعدى المئة و الخمسين منزلا، و حاول المبشرون الكاثوليك دعوة الناس مرارا في هذه المدينة لكنهم لم ينجحوا في ذلك.

علمت ان الحكيم باشى (أو طبيب الباشا) اورويى، لذا اعتبرت أنّ من واجبي زيارته، و تصورته جراحا ايطاليا أو فرنسا ففوجت حين ألفتيه شابا يونانيا في الخامسة و العشرين من عمره. كانت ارض غرفته مغطاة بسجادة جميلة، على الطريقة الشرقية، و وضع قرب الحائط أريكة مريحة، و يتدلى من الحائط حسامه و مسدساته المطبّية بالفضة فضلا عن سرجه و لجامه المزينين بالمعدن نفسه.

و لم يجيبني على اسئلتى بل اكتفى بالحديث عن نفسه، فقد درس لسنوات في جامعة ايطالية كثيرة من الاطباء اليونانيين الميسوريين، و يؤمن بعلم الفلك و بالاحلام، و روى لى احلاما عدة تحققت، فقد حلم على سبيل المثال بعزل (بالايطالية رها) بعدها أصبح سيده باشا هذه المنطقة التى تسمى الرها. و أكد ان منزلته عالية عند الباشا و انه لا ينظر سوى لحظة يصبح هذا الاخير فريحتا ان الثروة ستهبط عليه عندها، لكن هذا الامر لم يتحقق في وقت قريب لأن الباشا لم يتزوج

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣١٧

سوى امرأة واحدة، و لا يملك جوار يكلفن غيره من الباشاوات مبالغ طائلة، لكن زوجته هي أخت السلطان و قد طاب لها أن تبقى في العاصمة، لذا مصاريفها باهظة، و بالكاد يتمكن هو من العيش بطريقة لائقة في مركزه هذا. يقال انه قلما تتبج هذه الاميرات أزواجهن، و يؤكدون أنّ أئى باشا يتزوج ابنة السلطان، شابة أم عجوزا، و تقيم على بعد مئة فرسخ، لا يتجرأ على الزواج من امرأة، أخرى أو على امتلاك الجوارى . كما يزعمون أن الباشا يجبر على ترك زوجته حين يتفضل عليه السلطان بتزويجه من اخته أو ابنته، و أنّ إحدى هذه الاميرات زوّجت مرات عدة قبل أن تبلغ و قبل ان تخرج من قصر السلطان. و روى لى هذا الاورويى قصة تظهر حماقة الاتراك اذ لم يتمكن اهم ضباط السلطان من الاجبار في مركب بناء مرتد يوناني، فانقلب فيهم وسط بحيرة و غرقوا جميعا.

يطلق اليونانيون اسم ادبسه(Edessa) على اورفه، و يسميها الارمن ادبسيه(Edisja) ، و استنادا إلى اليهودى الذى ذكرته آنفنا،

يسمى كتاب هذه الامة القامى، مدينة اورفه اوركاسلوم(Orcaslum) لكن الاتراك يدعون منطقّة حكمهم هذه الرها لأن مدينة

بهذا الاسم، تهدمت بمعظمها كانت محل اقامة الباشا فيما مضى. إن مدن و مناطق عدة جميلة و خصبة أضحّت حاليا قاحلة جرداء و

تركت لمدمريها من عرب و اكراد و ترڪمان. تستخدم اللغة التركية خاصة في ديار بكر و اورفه، في حين أن اللغة الكردية شائعة في

الريف بين الموصل و اورفه، و العربية في ماردين و الموصل. و يتكلم اهل البلاد الذين يسافرون كثيرا، سيما التجار و المكاريون هذه

اللغات الثلاث عادة، و إن كانوا من الارمن فإنهم يتكلمون ايضا لغتهم الام.

في الليلة الاخيرة بثّ عند كاهن ارمنى، خارج المدينة كى اتمكن من السفر في صباح اليوم التالي قبل فتح الباب. و بدأ يضيفى مرتابا لأنه ظننى كاثوليكيا، لكن حين قلت له انى انكليزى، و قد تعرف في حلب على هذه الامة التى أجهها كثيرا لأنها لا ترسل المبشرين إلى تركيا، أصبح مهذبا و لطيفا و امر بتحضير عشاء لذيد و اكلنا معا تحت شجرة. في الاول من شهر حزيران/ يونيو، قطعت ١٤ فرسخا أو حوالى عشرة اميال حتى البير (للوجهLI) ، و صادف الكثير من الاماكن المهدمسة، و لا نمود كلها لقرى، اذ وجدت في أربعة أو خمسة أمكنة، بقايا احجار كبيرة و بالتالى فهي بقايا قلاع أو اصرحة اخرى كبيرة. و لم تسمح لى الظروف بأن أدرس هذه البقايا باهتمام اكبر، و بما ان مرافقى لا يهتم ابدا بأسماء المدن القديمة المدمرة و لم يسلك هذه الطريق إلّا نادرا، لم اتمكن من معرفة اسم واحد من اسماء هذه الاماكن. و في ذاك اليوم، كنت الدليل اكثر من مرة، فقد استعملت في اورفه عن موقع البير، و وجدت استنادا إلى البوصلة انها تقع في الجنوب الغربى، و عند تقاطع الطرق، أخطأ مرافقى مرارا، و لاحظ ان الالة التى احملها تدل على الطريق الصحيح، فأخذ

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣١٨

يطلب منى عندما يشكك بالطريق التى ينبغي سلوكها ان أسأل ساعتى عن هذه الطريق.

و صادفنا يتابع عدة، تفصدها فتيات القرى أو القبائل الرحالة من اكراد و ترڪمان لسقى الماشية، و لم يكن يغطين وجههن كما في المدن، و يتميزن بجمال لاقت لكن الشمس احرقتهن، و ما ان نرمى عليهن التحيّة و نزل عن جيادنا حتى يحملن البنا الماء و يستين مطابانا. و قد عولمت بهذا اللطف في أماكن أخرى، لكن لطفهن بدا لى فريدا، لأن ربيكا، التى من دون شك ترعرت في هذه المنطقة، أظهرت هذا اللطف اتجاه المسافرين (سفر التكوين XXIV) و لعلى شربت الماء من النبع نفسه، لأن حران(Haran) ، و هي حاليا منطقة صغيرة على بعد يومى سفر إلى الجنوب الشرقى من اورفه و التى يزورها اليهود غالبا، و هي على ما يبدو المدينة التى غادرها ابراهيم قاصدا بلاد كنعان (سفر التكوين XII) و لمل عائلة اخيه ناحور(Nachor) بقيت في البلاد .

و عند المساء، و على بعد ميل من البرية التقينا كرديا على جواده، يرافقه ثلاثة اشخاص سيرا على الاقدام، و كنت وحيدا مع المكارى لكننا كنا نمتطى جوادينا، و احمل بتدقيقه صغيرة في سرجى، و مسدسا في حزامى والى جانبى حسامى، و كنت قد أعرت مسدسى الثانى للمكارى الذى يحمل ايضا سيفا. للوهلة الاولى، اعتبرناهم اناسا قد يسطون علينا و يسلبوننا ما نحمل، مما دفعنا إلى التوقف على مسافة منهم حين توجه رئيسهم بالحديث لينا. لم أنهم أى كلمة أو كلام الكردى. لكن مرافقى اخبرنى لاحقا انه استهفم اذا ما كنت ذاك الاورويى الآتى من اورفه، و انه تفاجأ حين علم انو قد قطع المسافة بين اورفه و البير بيوم واحد، الفخ، باختصار، سمع على فى المدينة، و لم يخرج هذه الليلة أبّا لجمع بعض الناس للسطو علىّ في اليوم التالي، لكنه لم يكن يحمل سوى رمح و سيف و لم



تسلح جماعته إيا بالسيف، في حين اتنا نحمل اسلحة نارية جاهزة، فرأى انه من الافضل ان يدعنا نكمل رحلتنا بسلام. انهيت رحلتى إلى اورفة من دون اى لقاءات مزعجة اخرى، و لا. انصح غيرى من المسافرين بتقليدي، فقد يصادفون، في هذه المنطقة الثانية، مجموعة من الناس يمكن ان تسطر عليهم لفقرها أو لوقاحتها. وتصل هذه الامور في اوروا، فكيف بالآخرى في بلاد لا يسافر فيها المرء وحيدا. و لا ينبغي ان يسافر الاجنبي وحيدا، و أن يقطع حوالى عشرة أميال وحيدا في منطقة لا يجد فيها قرية واحدة وتكثر فيها القبائل الرحالة من اكراد و تركمان. و لا يتعرض للخطر من المجموعات الكبيرة إن لم تكن في حرب ضد الباشا، إذ تحتاج القبائل لأعداد كبيرة للقيام بأعمال كهذه، و قد يتمكن احد افراد القافلة من التعرف على زعيمهم فيعاقب الباشا القبيلة بأسرها. إن قطاع الطرق في تركيا، ليسوا فقط من التركمان و الاكراد

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣١٩

و العرب، فمعظمهم اناس طردهم الحاكم التركي من خدمته و لا يريدون العمل.

لحقت بقافلتي في البير، و تقع هذه المدينة على جبل عال على الضفة الشرقية للفرات، و يحيط بها من جهة اليابسة، سور يعلو تلالا عدة تجرى بينها جداول صغيرة. و في الطرف الشمالي الشرقي للمدينة نجد قلعة صغيرة على تلة ورة مغطاة بالحجارة المصقولة، قطعت اطراف زواياها كالحجار قرب سطح الهرم الثاني في محيط القاهرة. و لا يمكن لأحد ان يتسلق التلة، لذا اعتبرت هذه القلعة، عندما ما لم يكن هنا مدافع، منيعة، لكنها انهارت كلياً، و لا يمكن للمدينة أو للقلعة اللتين يمكن رؤيتهما من الجبال المجاورة ان تصمدا طويلا. بنيت تحصينات هذه المدينة و منازلها من الطشور، فإن سطعت الشمس، و هبت الرياح، عانت العيون الامرين بسبب الغبار القوي و بسبب الحجارة البيضاء التي تعكس اشعة الشمس. نجد حاليا حوالى ٥٠٠ منزل في هذه المدينة، لكن بما أن كافة المسافرين المشوجهين من ديار بكر أو غيرها إلى سوريا يفضطرون إلى عبور الفرات في البير، يقيم فيها مستمسماً تابع لباشا اورفة، و آغا للانكشاريين، و ضابط يقبض رسوم المرور على البضائع، كما يدفع رعايا السلطان المسيحيين في هذه النطقة جزية معينة.

يقال انه في القرن الاول بعد ان استولى المسلمون على هذه البلاد، كانت هذه الاموال تدفع للجنود الذين يرافقون القوافل و المسيحيين في رحلاتهم، أما حاليا فلا وجود لهؤلاء الجنود، و إن أرسل الحكام الاتراك مرافقة مع القوافل، ينبغي ان يدفع لها المال على حدة، لكن المسيحيين و اليهود لا زالوا يدفعون هذه الجزية، التي قد تبلغ قيمتها قرشين للشخص الواحد. و طلب من خادمي ان يدفع هذه الضريبة، و بما انى احمل فرمانا من السلطان، لم أكن مضطرا لدفع المال و ان كان ماروتيا و من رعايا السلطان، لكنى لم اشأ التفاوض مع الاتراك من أجل امر تافه كهذا فأعطيتهم المال، و أبلغت الجباة انهم طلبوا من خادمي لرا لا يحق لهم طلبها.

إن الفرات قرب هذه المدينة أعرض من دجلة قرب الموصل ، و وجدت المراكب اكثر متانة و راحة مما توقعت في هذه المنطقة، لأن الحمولة لا تنزل عن ظهور الجياد و الجمال. و اجزت هذا النهر مع القافلة بأسرها في الثاني من شهر حزيران/ يونيو، لكننا لم نصل في ذاك اليوم سوى إلى حالة كوي(Hale Koi) ، و هي قرية مهدمة على بعد ميلين إلى الجنوب الغربي من البير. و بما اتنا وصلناها قبل الظهر، حملت ساعتى الشمسية و قست ارتفاع القطب استنادا إلى ارتفاع الشمس فبين لى انه ٣٦ و ٧٧، و بالتالى يمكن اعتبار ارتفاع القطب في البير ٣٦ و ٥٩.

و قطعنا في الأيام الثلاثة التالية ١١ ميلا خلال ١٧ ساعة و نصف و وصلنا أختران(Achteran) .

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣٢٠

و اشرت إلى اسماء القرى القليلة التي صادفها على الطريق. و التي تهدم بعضها، على اللوحة LII ، و تجدر الإشارة أننا لا نرى ما يثير الاهتمام في هذه المنطقة. و نجد في الشمرلي(Tschamurli) كهفا كبيرا محفورا في الصخر، بلجا إليه المسافرون في الطقس الرديء، و علمت ان كهوفا كهذه تكثر في بير اختران التي تحولت اليوم إلى قرية بانسة. بنيت المنازل هنا من الصلصال و تشبه إلى حد بعيد كتلة الغرانيت، و هو نوع من هندسة العمارة شائع في محيط حلب و حتى في ضواحيها.

و نشاهد شمال قرية اختران، الكثير من بقايا سور قديم، حول تلة، فضلا عن خان قديم مقبب، مبنى بشكل متين للغاية.

في ٦ حزيران/ يونيو، تركت القافلة مع بعض التجار، و وصلنا في اليوم نفسه إلى مدينة حلب، و قطعنا قرية هيلان التي أخذت اسمها، بحسب آراء المسيحيين، عن الامبراطورة هيلانة التي امرت ببحر المياه إلى حلب بواسطة قناة لا زالت تغذى المدينة حتى اليوم. ثم اجتزنا منطقة جميلة، تكثر فيها البساتين التي يروها نهر القويق(Koik) ، و حيث يحلو لسكان المدينة الاقامة صيفا.

و تقع مدينة عينتاب على بعد حوالى ١٠ فراسخ إلى الشمال الغربي من البير، قرب الطريق المؤدية من هذه الاخيرة إلى حلب، و هي مدينة كبيرة كطرابلس، و لا يحيط بها سور، انما نجد في وسطها قلعة مبنية على جبل. و بنيت مدينة اعزاز(Anzar) ، المهدمه حاليا و الواقعة على بعد سبعة فراسخ إلى الشمال الغربي من حلب، على الطراز نفسه، و تقع بالقرب من مدينة كلس التي لا تزال أهله بالسكان حاليا. ان قرية منبج(Bambadsh) القريبة من الفرات هي مامبي(Mambie) أو بامبيس(Bambyce) القديمة، و يقال اننا نجد في منطقة حلب بقايا تسمى خنصرة(Chanasera) ، و راونت(RaWant) هي مدينة اخرى تقع على بعد سبعة فراسخ و ربع إلى الشمال الغربي من عينتاب.

أوردت المعلومات التي جمعتها حول قبائل العرب البدو في المناطق الصحراوية من شبه الجزيرة العربية و المناطق المجاورة و وصفي لشبه الجزيرة العربية. و لم أتمكن خلال رحلتى من التعرف شخصيا على اكراد، لكن، و بفضل صداقة الطبيب باتريك راسل المقيم في حلب، و الذى يعاين زعماء اهم القبائل، حصلت على لائحة عن قبائلهم المختلفة و التي تسعد قرانى من محبى الجغرافيا. إن عدد افراد العديد من هذه القبائل قليل. و اسمائها جديدة و قد تنسى قريبا، زد على ذلك، انه لا ينبغي الاعتماد على صحة هذه المعلومات حول كبر هذه القبائل، لكن بعض هذه القبائل قديم و كبير. و تكمن اهمية هذه اللائحة في انها تشير إلى قبائل الاكراد، أو التركمان التي تغير مكان اقامتها.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣٢٢

#### لائحة بمختلف قبائل التركمان

قبيلة بكداى تملك ١٢٠٠٠ منزل اى خمية و تقيم في منطقة اورفة.

مهملتى تملك ٥٠٠ خيمة بايندر تملك ٣٠٠ خيمة تقيمان في محيط اورفة

بهليوالى تملك ١٥٠٠ خيمة و تقيم بين سيواس و انغوره(Angora siwas) .

كوجكلى تملك ١٠٠٠٠ خيمة بين سيواس و انغوره.

اوشر و تملك ٥٠٠ خيمة

جريد تملك ٥٠٠ خيمة لك تملك ١٠٠ خيمة في منطقة سيواس و انغوره

بهداى تملك ١٠٠٠ خيمة

اغجه قيونلى و تملك ٥٠٠ خيمة

شام بيادلى تملك ٥٠٠ خيمة، بين سيواس و انغوره.

براى تملك ١٠٠٠ خيمة جفر غنائلى ٢٠٠ خيمة صيفا قرب سيواس و شتاء في الزور

ريخانلى ٢٠٠٠ خيمة، تقيم صيفا في منطقة سيواس و شتاء في منطقة حلب.

قولق ٢٠٠ خيمة، تقيم شتاء قرب عدن و صيفا في منطقة قيصرى(Kaisari) .

دادلى ٢٠٠ خيمة، صيفا في منطقة قيصرى و شتاء في مقاطعة اورفة.

اولشلى ٢٠٠ خيمة في منطقة حلب.

جاخللى ١٠٠٠ خيمة قرزق ٢٠٠٠ خيمة دادة قرزن ١٠٠٠ خيمة منطقة عينتاب

قابلى ١٠٠٠ خيمة قره قيونلى ٥٠٠ خيمة منطقة دمشق

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣٢٣

صوفولر ٥٠٠ خيمة فولنجفلى ٥٠٠ خيمة في منطقة سيواس

بوروك ١٢٠٠٠ خيمة، في منطقة انغور.

ايلكلى ٢٠٠٠ خيمة، يقيم نصف اباء هذه القبيلة في اقليم سيواس و النصف الاخر في منطقة حلب.

قوة جه جكرد ٥٠٠ خيمة في منطقة قيصري.

شرفلى ٥٠٠ خيمة ايالى ١٠٠٠ خيمة في سوريا سيما في منطقة دمشق

فيجلى ٢٠٠ خيمة

ايبر ٥٠٠ خيمة

طوخامرلى ٥٠٠ خيمة صرة جلر ٥٠٠ خيمة كيكلى ٢٠٠٠ خيمة عزة دنلى ٥٠٠ خيمة عوزراى ١٠٠٠ خيمة في سوريا سيما في اقليم

دمشق

دندشلى ٥٠٠

موسه بيكلى ٥٠٠ خيمة- ديشلمى ٣٠٠٠ خيمة، في منطقة عينتاب.

#### لائحة قبائل الاكراه الرحالة

كاسكنلى ١٠٠٠ خيمة

واد كلنلى ٥٠٠ خيمة

برازلى ١٠٠٠ خيمة

كوريكلىلى ١٠٠٠ خيمة

شقاى ١٠٠٠ خيمة

كوراللى ٥٠٠٠ خيمة

قوجوماللى ٥٠٠٠ خيمة

مامانلى ٥٠٠٠ خيمة

سيكى ٥٠٠ خيمة

صورنلى ٥٠٠ خيمة

بيره بادنلى ٥٠٠ خيمة

جماد نلى ١٠٠٠ خيمة

تقيم هذه القبائل في منطقة قرص (Kars) صيفا، و في منطقة روان أو اروان في بلاد فارس شتاء.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣٢٤

زرفى ٥٠٠ خيمة

بادبلى ٢٠٠٠ خيمة

شاذلى ١٠٠٠٠ خيمة تتجول هذه القبائل في منطقة ارضروم و ديار بكر (Arzerum).

ايزولى ١٠٠٠ خيمة

جهانكلى ١٠٠٠٠ خيمة

يالبالى ٥٠٠ خيمة

موريس ١٠٠٠ خيمة، تقيم صيفا في منطقة ارضروم و في منطقة اورفه شتاء،

موسبالى ٢٠٠٠ خيمة، تقيم في منطقة جبل سنجار.

رشوان ١٢٠٠٠ خيمة، تقيم في منطقة سيواس صيفا، و في منطقة حلب شتاء.

ملى ١١٠٠٠ خيمة، تقيم في منطقة ارضروم صيفا و في منطقة اورفه شتاء .

ظاظة ٢٠٠٠٠ خيمة، تقيم بين سوريك و ارضروم.

بيجاقلى ١٠٠٠٠ خيمة، في محيط سوريك.

كوره جكلى ٥٠٠ خيمة، في منطقة عينتاب.

اوقچه عزنلى ٥٠٠ خيمة، في منطقة كلس

قوة كجلى ٢٠٠ خيمة بين اورفه و ديار بكر.

صجبالى ٢٠٠ خيمة، تقيم صيفا في منطقة سيواس و شتاء

كيكى ١٠٠٠ خيمة، في منطقة ماردن.

بيزكى ١٠٠٠ خيمة في منطقة اورفه

دوكرلى ١٠٠٠ خيمة، في منطقة اورفه.

كوره جكلى ٥٠٠ خيمة

اطمالي ١٠٠٠ خيمة

حويدلى ٢٠٠٠ خيمة

سيبالى ١٠٠٠ خيمة تقيم كلها شمال عينتاب

قلجلى ٤٠٠ خيمة

جقلى ٧٠٠ خيمة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣٢٥

و أعطاني تاجر من ماردن، سافر مرارا بين مدينته و حلب و القسطنطينية الاسماء التالية لقبائل الاكراه.

قبيلة شيخ بزنى ١٠٠٠٠ خيمة، و تتجول بين ماردن و بولى.

قبيلة شراقانلى ٨٠٠ خيمة، تقيم في السهل بين ماردن و اورفه.

سوركجى ٢٠٠ خيمة و منزل في المنطقة الجبلية لماردين.

باران على ١٠٠٠ خيمة بين ماردن و نصيبين.

دودكى ٦٠٠ خيمة بين ماردن و اورفه.

كوم بل ٣٠٠ خيمة بين ماردن و اورفه.

بريفى ٤٠٠ خيمة بين ماردن و الموصل

هولرى ٢٠٠ خيمة بين ماردن و اورفه.

جركى ٢٥٠ خيمة

خلاجة ٣٠٠ خيمة، في منطقة ماردن.

دنبلى ٥٠٠ خيمة

دريشانلى ٣٥٠ خيمة، في جنوب ديار بكر.

صوحانلى ٧٠٠، و لا تملك هذه القبيلة حاليا أى زعيم لها. و قد اختلطت بالقبائل الاخرى المذكورة اعلاه.

كابلور ٣٠٠ خيمة، في منطقة ماردن.

سليفية ١٠٠٠ خيمة، بين ارضروم و بلاد فارس.

اومرالى ٩٠٠ خيمة، في منطقة ماردن الجبلية.

كركرى ٣٠٠ خيمة، بين سنجار و الجزيرة.

شخابنة ٢٥٠ خيمة، في منطقة ماردن .

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣٢٦

نجاى ٢٠٠ خيمة، و تقيم كذلك في اقليم ماردن.

و زودنى التاجر الماردنى المذكور بأسماء القبائل العربية التي تقيم في منطقة الخير، و هي صغيرة مقارنة مع قبيلة طى، كما تضع

نفسها تحت حماية هذه الاخيرة، وهذه القبائل هي:

بنو كعب ١١٠٠ خيمة.

بلكاري ٩٠٠ خيمة.

حجاشة ٥٠٠ خيمة.

ذبابات ٦٠٠ خيمة.

شراة حوالي ٧٠٠ خيمة. و يتوزع اعضاء هذه القبيلة على القبائل الاخرى.

ويتبع الاكراد و التركمان الديانة الإسلامية. و يعود اصل اهم العائلات الكردية إلى كردستان، و العائلات التركمانية إلى تركستان. يقولون ان العديد من التركمان الذين بقوا في المنطقة، أتوا إليها مع جيوش تيمورلنك، لكن عامة الشعب منهم و من الاكراد، تتحدر اساسا من المناطق التي تجول فيها حاليا و كان قسم كبير منهم يتبع الديانة المسيحية. و عندما يهدم الحكام و الاثراك أو البدو قرى هؤلاء الناس لا يجدون وسيلة اخرى للبقاء سوى طلب حماية التركمان و الاكراد و العرب، و بما انهم يفتقرون هنا ايضا للكناس و لرجال الدين، يتسبون تدريجيا ديانتهم و لغتهم الاولى، زد على ذلك ان تشدد رجال الدين الشرقيين غير المناسب ساهم ايضا في تراجع المسيحية و انحطاطها.

و يقال مثلا ان ابناء قبيلة بهلوانالي كلهم كانوا من المسيحيين، و قد طلبوا من مطرانهم إذن تخفيف صومهم أو على الاقل السماح لهم بأكل الزبدة و البيض و شرب الحليب اثناء الصوم، لكنه رفض ذلك، فما كان من القبيلة إلا ان اعتنقت الإسلام. و هي تعتبر حاليا من قبائل التركمان.

و يطلق لقب آغا على زعيم الاكراد و التركمان. و يقال ان الاخيرين لا- يهتمون اطلاقا بحسبهم و نسبهم. بعكس الاكراد، الذين ينادون بأصلهم كشيوخ بدو. و تختلف طريقة تفكيرهم عن طريقة تفكير العرب اذ يحتفلون بولادة الفتاة كما يحتفلون بولادة الفتى، و لأنهم مسلمون يحتل لهم الزواج من أكثر من امرأة واحدة، و لا يقترن آغا الاكراد بفتاة اوضح نسبا منه. و يزعمون ان الكردي المتحدر من عائلة عريقة يطلب خمسين كيس مال (ما يزيد عن ٦٥٠٠ درهم) حين يزوج ابنته، و يعطيها مهرا صغيرا، في حين ان اعيان العرب و الاثراك، يضمنون في المهر كل ما يتلقونه من الزوج و أكثر من ذلك، لذا تعتبر بعض الفتيات كترا.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣٢٧

و يرأس الاكراد و التركمان، الموزعين في القرى، زعيم من بينهم. و سمعت، في القرى الواقعة بين دجلة و كردستان، عن العائلات الكردية التالية باجلان(Badsjelan)، لاك(Lak)، ساريليه(Sarilie)، وغيرها و لكل منها كخيا(Kichja)، إلا أنه لا يعتبر حاكما انما فلاحا كخيشة عائلته، لكن بما انه الاقدار على التعاطي مع الحكام الاثراك أو على حل الخلافات، يفترض ان من واجبه التحدث باسمهم من دون ان يتلقى اجرا على ذلك. و قلما نجد عائلات كردية أو تركمانية أو عربية تحتفظ بشجرة عائلتها.

و بالرغم من اني لم اقصد بنفسى قيسارية و توكات(Tokat) و ارضروم و وان(Wan)، سأشير إلى بعض الطرق المؤدية إليها، كما اقترحها علي، أناس يؤجرون الجياد و البغال، و بالتالي يعرفون هذه الطرق جيدا. و يحتسبون المسافات بساعات السفر، لكن بما ان الدروب ليست مستقيمة دوما، و تمر عبر جبال يمكننا ان نعتبر جغرافيا ان كل ساعة توازي نصف ميل.

#### الطريق من ديار بكر عبر ارضروم

تبلغ المسافة بين ديار بكر و شيرتين خانى ستة فراسخ، و بين هذه الاخيرة و بردنيس خانى ستة فراسخ اخرى. و ينبغي قطع ستة فراسخ للوصول إلى اورطى خان، و اربعة فراسخ منها إلى خان، و ثمانية فراسخ حتى بللو، و ثمانية اخرى حتى تسي، و ثمانية فراسخ حتى جون، و حتى هورهور ثمانية فراسخ، و سبعة فراسخ حتى كوى زمير، و ثمانية فراسخ حتى ميلي كان، و ستة فراسخ حتى باش كوى، و سبعة فراسخ حتى دولزلي، و ستة فراسخ حتى خانجى، و ستة فراسخ اخيرا حتى ارضروم (ارزروم)، و بالتالي تبعد هذه الاخيرة عن ديار بكر اربعة و تسعين فرسخا، كما تبعد ارضروم عن قارص ستة ايام سفر.

#### الطريق من قيسارية إلى ديار بكر و من ديار بكر إلى توكات

تبعد قيسارية عن بارسونما(Barsonma) خان اربعة فراسخ، و تقطع بعدها اربعة فراسخ لنصل إلى سلطان خان، و ستة فراسخ اخرى لنصل إلى جمارك(Dsjamerk)، و ثمانية فراسخ إلى شابر كيسل(Schaber Kisle)، و تسعة فراسخ تفصلنا عن خانة(Chane). و من ثم نسير تسعة فراسخ و نصل إلى اولاش(Ulash)، و تسعة فراسخ فنصل إلى كنگال(Kangal)، و ستة فراسخ إلى الاجية خان(Aladsjie Chan)، و سبعة فراسخ حتى حسن شلبى(Hassan Schellebi)، و خمسة فراسخ حتى حكيم خان، و ستة فراسخ حتى حوران(Cherren)، و اربعة فراسخ حتى أوغلى(Oguli)،

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣٢٨

و ثمانية فراسخ حتى دانغيسلى، و اربعة فراسخ حتى معدن(Maaden) و سبعة فراسخ حتى أربوبو(Arpaud)، و ستة فراسخ حتى هربود(Charpud)، و ستة فراسخ حتى حايبوسى(Hobusi)، و تسعة فراسخ حتى بازخان(Bas Chan)، و اربعة فراسخ حتى اورطة خان(Orta Chen)، و ستة فراسخ حتى بوردينس خان، و ستة فراسخ حتى شربتين خان(Cherbetin Chab)، و ستة فراسخ حتى ديار بكر. و تبعد بالتالي قيسارية عن ديار بكر ١٣٩ فرسخا.

و من ديار بكر حتى توكات، نسلك الدرب نفسه اى مسافة ٩٩ فرسخا من ديار بكر اولاش، ثم نجتاز سبعة فراسخ حتى سيواس، و ١٢ فرسخا حتى ينكى خان(Jengi Chane)، و سبعة فراسخ حتى بولوس(Bolus)، و سبعة فراسخ اخرى حتى توكات. و بالتالي، يقطع المرء ١٣٢ فرسخا ليصل من ديار بكر إلى توكات.

#### الطريق من توكات إلى اماسيا(Amasia)

تفصل بين توكات و ايفناخان(Igna Chan) ستة فراسخ، و تبعد هذه الاخيرة عن توربال(Turbal) ثمانية فراسخ، و ينبغي قطع ثمانية فراسخ للوصول إلى اماسيا. تصبح المسافة بين توكات و اماسيا بالتالي ٢٢ فرسخا.

#### الطريق من وان و ديار بكر إلى ارضروم

زودنى ارمنى، اعتاد السفر خلال شبابه بمعلومات حول هذه الطرق، لذا لا ينبغي الاعتماد على المسافة الفاصلة بين الاماكن، إلا استنادا إلى الطرق السابقة التي جمعت المعلومات عنها عن مؤجرى الجياد و البغال.

تبعد و ان عن ميراك(Mirak) ثمانية فراسخ، و تبعد هذه الاخيرة عن ارديش(Ardish) سبعة فراسخ. و يجب قطع عشرة فراسخ حتى مالاسگرد(Malasgerd)، و تسعة فراسخ حتى بوستانديبى(Bostandibi)، و ثمانية فراسخ حتى يزيدكوى(Yasid Koi)، و واحد عشر فرسخا حتى مليك كوى(Mellik Koi)، و ثمانية فراسخ حتى خانيس(Chanis)، و ثمانية فراسخ حتى طورطان(Turtan)، و ستة فراسخ حتى اريتيف(Ertif)، و منها إلى ارضروم ستة فراسخ.

على طريق ديار بكر، تبلغ المسافة بين و ان و مسطان(Mastan) ستة فراسخ، و ثمانية فراسخ من هذه الاخيرة حتى بلية(Pelie)، و عشرة فراسخ حتى تلوان(Tatwan)، و تسعة فراسخ حتى سورب(Surp)، و ثمانية فراسخ حتى زعق(Zaek)، و أحد عشر فرسخا حتى سوغورد(Sugurd)، و منها إلى ديار بكر اربعة ايام سفر.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣٢٩

#### ملاحظات حول سوريا و سكان جبل لبنان

#### اشارة

عند وصولي إلى حلب، قصدت اول منزل القنصل الهولندى العام، السيد ماسبيك، الذى دعانى في بغداد لزيارته، فاستقبلت بحفاوة بالغة، فمضت سنوات عديدة لم اجلس في صحبة اناس بهذه اللطافة. حتى اننى صادقت اشخاصا من بلادى. ولد السيد ماسبيك في

هولستن. و هو يعد بالتالي من رعايا الملك الدانمركي. أما السيدة ماسبيك، و كنيها غوفرتس، فولدت في هامبرغ. بذل مضيقي قضارى جهده لجعل اقامتي في هذه المدينة مسلية جدا، فعرضني على الاوروبيين المقيمين فيها، و من بينهم السيد بورى، الذى يعمل فى متجر السيد ماسبيك، و يقيم فى منزله، و الفليب باتريك روسيل، شقيق صاحب كتاب وصف حلب (بالانكليزية) و السيد دايفيس، رئيس ادارة المصنع الانكليزي، و الوالى الحالى، بيتون، و السيد سميت، و السيد ابوت، و غيرهما من التجار الانكليز. فوجدت نفسى وسط مجموعة من الاصدقاء الاوروبيين، و نسبت فى خضم الاحاديث المتاعب التى مرت بها حتى الان. فى هذه الاثناء تلقيت فى حلب الامر من جلاله الملكة تقضى بالعودة إلى قبرص، و نسخ النقوش التى نقلها السيد بوكوك، و التى يخالها العلماء الاوروبيون فينيقية، و تستدعى بالتالى التوضيح. كان سكان هذه الجزيرة قد قبلوا حاكمهم من فترة ليست بعيدة، و اعلموا الجزيرة ساحة حرب، ففضلت الانتظار قليلا قبل القيام بهذه الرحلة، و لما كان البعض يحاول تعظيم الامور، اسرعت بالذهاب إلى اسكندرون، للانتقال منها إلى قبرص، فور سماعي اخبارا جيدة، تؤكد ان محيط لارنكا، حيث عثر السيد بوكوك على النقوش، اصبح آمنا، و قصدت بعدها يافا، و اورشليم و عكا، و صيدا، و دمشق و طرابلس و اللاذقية، لأعود لاحقا إلى حلب، بانتظار وصول القافلة التى ستقلني إلى القسطنطينية، مروراً بعدن، و كوثاهية و بورصة، غير اننى سأحفظ بوصف هذه الرحلة للجزء التالى، و سأكتفى بأن أضيف هنا بعض الملاحظات حول سوريا.

تنقسم سوريا إلى عدة مقاطعات، على رأس كل منها حاكم يملك ثلاثة اطواق؛ تعد المناطق التابعة لحكومة دمشق الاكبر مساحة و الاكثر ربحا، لأنها تضم الاراضى المقدسة. تليها المناطق التابعة لباشا حلب، و الجدير ذكره ان باشا طرابلس و باشا صيدا، يملكان عدة اقاليم تابعة لنفوذهما، علما ان معظم رعاياهم يقيمون فى جبل لبنان، رغم انهم ينتمون لمذاهب و ديانات مختلفة، و ينتخبون شيوخا و امراء من قومهم يستأجرون بعض الاقاليم من الباشاوات، و يرفضون دفع الاجار إلى ان يستدعيهم الجيش التركى و يرغمهم على دفع ما يتوجب عليهم.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٣٣٠

حلت اللغة العربية محل اللغة السريانية القديمة. و يزعم ان بعض سكان القرى التابعة لحكومة دمشق، يستعملون اللغة السريانية الحديثة التى تختلف كليا عن القديمة منها. يتكلم الاكراد و التركمان المقيمين فى جبل الاكراد و فى مقاطعة التركمان، أو فى سوريا تحت الحميم، اللغتين الكردية و التركية المحليتين. و لكن منذ ان خضعت البلاد لحكم الاتراك و الذين عينوا فى هذه المقاطعات باشاوات لا يفهمون العربية، اصبحت اللغة التركية، اللغة المستعملة فى البلاط، سواء فى هذه البلاد أو فى المقاطعات الاخرى التابعة للسلطان، غير ان هذه اللغة ليست مألوفا هنا، شأنها شأن الفرنسية فى المانيا.

تعد الديانة الاسلامية، و خاصة المذهب السنى، الديانة المهيمنة فى هذه البلاد، و نجد ايضا يهود و مسيحيين و متاوله، و دروز و نصيريين و اسماعيليين و اتباع مذاهب اخرى لا يولها السكان اهتمامهم.

يقيم اليهود فى المدن، و هم جميعا من التلموديين، و برغم اننا نصادف فى دمشق، بعض القرائين و السامريين، الذين يقيمون فى نابلس و سحم.

يكثر المسيحيون فى سوريا و خاصة فى جبل لبنان، حيث يتمتع الموارنة فى ظل الدروز، بنوع من السيادة، اكثر منه فى المدن. يعترف الموارنة بالبابا كزعيم روحى لهم، و يشهدون على انتمائهم للكنيسة الرومانية. و رغم انهم يخشون بطاركهم بأنفسهم يطلبون من البابا مباركة الشخص الذى وقع عليه الخيار و منحه لقب بطريك انطاكية. غير انهم قلما يأتون لأوامر البابا، اذ يروى ان الكهنة الاوروبيين فى جبل لبنان، اختاروا بطريكا كان فى روما و نال حظوة لدى الاوروبيين الكاثوليك، و لكن الكهنة الشرقيون اختاروا بطريكا آخر ضاربين بعرض الحائط رفض البابا منحه برسته. يختار البطريرك المارونى ١٢ مطرانا يعملون فى خدمته. يستعمل معظم موارنة جبل لبنان اللغة السريانية فى قناديسهم، بينما تخلى موارنة حلب عنها كليا و استبدلها باللغة العربية الحديثة.

يقيم المسيحيون الارثوذكس فى منطقة جبل لبنان الخصبة و الرحبة. و قد حلت اللغة العربية

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٣٣١

محل اللغة الرومانية فى قناديسهم. و هم يخشون لهم بطريكا، يسلمه البابا مهابا محددة ليقال له عن بطريكا ارثوذكسيا، فى الشرق. و الجدير ذكره ان الارثوذكس المقيمين فى مناطق نفوذ الدروز قلما يأتون لأمر هذا البطريرك، الذى لا يتمتع بأى صلاحيات تذكر، و نجد ايضا فى جبل لبنان، بطريكا للأرمن، يعينه البابا و يمنحه صلاحيات محددة. فى الواقع، يقيم هؤلاء البطاركة الاوروبيين فى هناه فى ظل الحكم الدرزي، بينما يعانى البطريرك الكلدانى فى ديار بكر، و غيره من رجال الدين المرتدين فى الشرق، الامرين، على يد اتباع ديانتهم القديمة و الباشاوات، اذ يكثر فى المدن السورية، اليونان و الارمن و اليونانيون، الذين يعترفون ببطاركة القسطنطينية، و أبح ميازين و ديار بكر، كزعما روحيين لهم، و يسرهم كثيرا ان يمنحهم البابا لقب بطرارة. و مما لا شك فيه ان انصراف الكهنة الاوروبيين و تلاميذهم عن الطقوس القديمة، ادى إلى اشعال الفتن و القضاء على عائلات غريقة. و مما لا شك فيه ان اندلاع الفتنة بين المسيحيين كان فى مصلحة الحكومة التركية.

يتبع المتاوله المذهب الاسلامى المهيمن فى بلاد الفارس، و هم بالتالى من اهل الشيعة. و على غرار سكان بلاد فارس، يتمتع المتاوله عن تناول الطعام و الشراب مع اتباع الديانات الاخرى، و لا يستخدمون طبقا اكل منه شخص غريب، الا بعد تنظيفه جيدا، حتى انهم يعثرون انفسهم مدنسين ان لمس اجنبي ملابسهم. و لما كانوا يعيشون فى ظل الحكم التركى، قلما تجرأوا على معاملة أهل السنة بازدياء، و الجدير ذكره انهم غالبا ما يدعون كرها انتماءهم لأهل السنة. فى الواقع، لا يحب السنة و المسيحيون العيش فى وسطهم، بينما يعمل الموارنة امانة سر لدى شيوخ المتاوله، و يقيمون بينهم سنوات عدة. و لكن لسنوات خلت، استطاعوا وضع يدهم على اقاليم عدة. تقيم عائلة حروفش، التى يعتبر سيدها نفسه اميرا، فى بعلبك، و تدفع اجرة هذا الاقليم لسلطان القسطنطينية مباشرة، و فى سير و المناطق المحيطة بها، التى تعرف ببلاد بشرى نجد ثمانية شيوخ من عائلة ناصيف، يدفعون الاجرة لباشا صيدا. و يحكم شيوخ المتاوله من عائلة الخنساء، منطقتى القرنة و الهرمل، المظلة على نهر العاصى؛ و هم يدفعون الجزية لكبح حمص. خلال اقامتي فى هذه البلاد، كانت عائلة حمادة تحكم اقليمى جبيل بشرى الشماليين و الواقعين ضمن مناطق نفوذ باشا طرابلس. غير ان الامير يوسف الدرزي طرد هؤلاء المتاوله، كما سأذكر فى ما بعد.

يخضع الدروز لسلطة شيوخهم الذين يعرفون بالأمراء. يقيم الامير الكبير فى دير القمر و تمتد

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٣٣٢

مناطق نفوذه إلى جزء كبير من جبل لبنان؛ و هو يدفع الجزية لباشا صيدا. يحكم اقليم راشيا الامير على، و يدفع الاجرة لباشا المقيم فى المدينة نفسها. اما فى اقليم حاصبيا فيقيم امير آخر يدعى اسماعيل، و الجدير ذكره ان هؤلاء الامراء الثلاثة ينتمون للمنزل الشهابى. فضلا عن ذلك، سمعت الناس يتحدثون عن شيخ درزى، يدعى حسين، و يحكم حوالي ٤٠ قرية فى جبل قفطين، الواقع ضمن باشاليك حلب. غير ان سكان هذه القرى لا يتبعون الديانة الدرزية بحدافيرها بل يروى انهم يقيمون ليلا اجتماعات سرية و يمارسون عادات الاسماعيليين، التى سأحدث عنها فيما يلى.

أكد لنا الفرنسيون ان دروز جبل لبنان يتحدون من المواطنين الذين لازموا المنطقة الجبلية فى الارض المقدسة، بعد ان طرد منها الاوروبيون، غير اننا لا نستطيع اثبات العكس لأن بنيامين دو تودلا أتى على ذكر الموضوع فى بيان رحلته، ص ٣٦. علما انه قصد هذه المناطق فى الوقت الذى كان فيه الاوروبيون اسياد الارض المقدسة. مما لا شك فيه ان الدروز سيريانيو الاصل، و لكنهم اعتنقوا ديانة محمد أو اسماعيل الدرزي، الذى اثار ضجة كبيرة فى مصر فى بداية القرن الخامس هجرى و يدعى بعض المؤلفين اننا نستطيع التعرف عليهم من خلال رؤوسهم المقرنة. و لما سألت الموارنة عن هذا الموضوع، أكدوا لى انهم لم يلاحظوا اى اختلاف فى رؤوسهم. كما و انهم نفوا عبادة الدروز للمجلى رغم ان المسلمين يطلقون عليهم لقب ابو العجل، و بينما اتهمهم بعض المؤلفين بالزواج من اخواتهم و بناتهم، أكد لى المسلمون و الموارنة الذين يقيمون بينهم، ان ذلك غير صحيح.

ينقسم الدروز إلى مشايخ العقل أو رجال دين و جهلة أو علمانيين. يتبع الفريق الاول شيوخ العقل الثلاثة الاساسيون، و يقيم الاول فى اقليم العرقوب و الثانى فى اقليم الشوف و الثالث فى اقليم حاصبيا. يتميز شيوخ العقل عن العلمانيين بشبابهم البيضاء و هم يملكون منازل فخمة على الهضاب المظلة على المناطق الجميلة. و مساء الخميس، أو عشية الجمعة يجتمعون كلهم فى منزل زميل لهم، للتفرغ لشعائرهم الدينية و الصلاة عن نية الامة كلها؛ تستطيع زوجات رجال الدين حضور هذه الاجتماعات بينما يحظر على الامراء أو العلمانيين المشاركة فيها. و هم يكرهون مظاهر الترف فى الدنيا، غير اننى اخالهم افاضل كرها، لأنهم سيتقون لاحقا، و بعد عودة

حاكمهم لاعتلاء العروش الملكية، و المناصب الوزارية. و هم لا يتزوجون من بنات العلمانيين، بل و انهم يشترطون من ثروات الاعيان، و يرفضون تناول الطعام لدى شيوخ و امراء امتهم. و يكفون بقبول الدعوات لتناول الطعام في منازل شيوخ العقول و الفلاحين، الذين يكسبون قوتهم من عرق جبينهم. و سمعت رجال الدين السنة يقولون انهم يرفضون تناول الطعام مع الباشا أو غيره من الاعيان الا تراك، غير ان البعض يتهمهم لهذا السبب بالخبث. و الجدير ذكره ان الدروز العلمانيين يرفضون ايضا تناول الطعام مع الجمع.

كانت زوجة احد الشيوخ، تنزل في ضيافة القنصل الفرنسي في صيدا، و لما

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبيد منذر، ج ٢، ص: ٣٣٣

ارسل لها بعض الفاكهة من حديقة منزله، قالت له انها لا تستطيع قبول هدية مماثلة من قاض أو باشا، و لكنها تستطيع تناول الطعام في منزله، علما انه كسب ثروته بعرق جبينه.

و من صفات الدروز العلمانيين اذكر لكم، حسن الضيافة، الطموح، البسالة التي قد تتحول إلى تهور، و احيانا الخبل. يتعلم الشيوخ الشبان الفراء و الكتابة، دون ان يجتهدوا للاطلاع على اصول ديانتهم، فهم يعتبرون ذلك غير ضروري خاصة و ان رجال الدين قد اخذوا على عاتقهم مسؤولية الصلاة و الصوم عن نية العلمانيين كافة. فمنذ صغرهم، يتمرن الشيوخ الشبان على ركوب الخيل، و على المبارزة بالسيف، و على حمل الحرايب، و استعمال الاسلحة النارية. و ان شوهد احد الشيوخ و الدروع في عينيه، سخر منه الجميع، علما انهم يتميزون برياسة جأشهم، و لا ميلانهم في مواجهة الموت، فهم على استعداد للقتل ان وجه لهم احدهم كلمة قد تمس شرفهم. و يسود عندهم قانون الاقوى، حتى ان مسيحي جبل لبنان يراعون هذا القانون، و تقليد الثأر الموروث. و يسعى بالتالي مطارنتهم لمصالحه الفريقتين المتخاصمين حتى لا يسيط شيوخ عقل الدروز نفوذهم على مناطق اخرى، و ان اقدم درزي على قتل مسيحي أو مسلم لا يحاكمه القاضي التركي فحسب، بل يعطي الامير الامر بنهب منزله ان امتنع عن دفع الجزية المفروضة عليه، و الجدير ذكره ان الامير قلما يفرض عقوبة الاعداء على القاتل. و تنشب بعدها خلافات حادة بين عائلة القاتل و عائلة القتيل، خاصة في الليل، دون الاخذ بعين الاعتبار عدد القتلى الذي قد يتكبده الفريقان. يتبع شيوخ الدروز قانون الاقوى، لأنهم يعتبرون التفهم في منزلة الامير، الذي لا يحق له قتلهم أو تكليف سواهم بولاية القرى، و ان شب خلاف بين شيخين ريعي المستوى، ارسلوا الفلاحين إلى قرية خصمهم لقتل السكان و قطع اشجار الخوخ و الزيتون، علما ان الامير نادرا ما يعاقبهم على هذه الاعمال العنيفة. في بعض الاحيان، يفرض على المهاجم مبلغا كبيرا من المال، و يجبره على قطع الاشجار و حرقها. و ان صادف في عائلة احد الاشخاص، قاتل أو قاتل، تعذر عليه العمل مطمئن البال في الريف، أو النوم بأمان في منزله، قد يقرر البعض التصالح مع اخصامهم غير ان العائلات المنعزلة، تعيش في حالة حرب مستمرة. و قد اكد لي سكان المنطقة ان حوالي ٣٠ شخصا، من الحكومة الدرزية في جبل لبنان، يفقدون حياتهم بسبب اعمال العنف هذه.

لما كان الدروز يتقاتلون عند سماع عبارة قفلة، يعتمد عامة الشعب الحذر في تعاملهم، فلا يتحدثون بالسوء عن خصمهم في غيابه، بل يثنون عليه و كأنه صديقهم الحميم. و ان ظن احد القفلة، انه ضعيف للغاية و لا يستطيع الوقوف في وجه عائلة القاتل، قصد منزل اهله عاقدا حول عنقه حبالا أو محرمة مؤكدا لهم ان القاتل مس شرفه بكلامه الجارح، فاضطر لقتله، و يعطى بعدها الحرية لأهل القاتل بالقضاء عليه. فيرغم غمته اهل على مسامحته. و لكن الامر لا ينتهي عند هذا الحد، و اذ يستدعي المهان الحقل، ليلحق ذق المهين.

لسنوات خلت، اشتكت احدى الامامل

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبيد منذر، ج ٢، ص: ٣٣٤

لقاتل زوجها، من الشقاء الذي سببه لها. و بعد ان التى هذا الاخير على المغدور اكد لها انه اساء التصرف و وجه له كلاما جارحا فاضطر لقتله غير انه تعهد باعالة الارملة و اولادها بقدر ما تسمح له ظروفه. و الجدير ذكره ان هذه الجرائم ترتكب في أغلب الاحيان تحت تأثير الخمر، التي يجيها الدروز كثيرا.

لما كان القتل سهلا للغاية بالنسبة للدروز، اظن ان الاجنبي سيشعر بالقلق الشديد بينهم، غير انهم يتمتعون بحسن الضيافة، شأنهم شأن العرب، و باستعدادهم للدفاع، عن كل شخص يطلب حمايتهم، ضد أعدائه. منذ أعدائه. منذ زعمه سنوات، التجأ زعيم عصابة لصوص تركية، إلى منزل شيخ من بيت تلحوق، رغم انه لم يقابله قط من قبل. عندما ابلغ باشا دمشق بالامر، طالب امير الدروز ان يعيد الصل. و لما كان الامير و أعيانه يسعون لتجنب الحرب مع الاتراك، اعطوا الشيخ الامر بتسليمه، و لكن هذا الاخير رفض رفضا قاطعا التخلي عن الرجل الذي طلب حمايته. في هذه الاثناء، انهمك الباشا في مسائل اخرى اكثر اهمية و نسي امر اللص المذكور.

اظن ان الامثلة التالية ستثبت لكم بسالة الدروز و تهورهم. في احد الايام، خطر لأحد الدروز أن ينهب في وضع النهار مقر باشا تركي في دمشق، عاصمة سوريا، حتى يتحدث التاريخ عن شجاعته. فجمع لهذه الغاية، ٢٠٠ رجل تقريبا، و قاد ٥٠٠ منهم إلى السوق الرئيسي بينما وزع الباقين على الابواب، و الضواحي، و خلف البياتين، و بعد ان اعطاهم الاشارة، فتح رجاله نيران مسدساتهم في السوق، و اوقعوا عددا من القتلى و الجرحى، ليشتي لهم، بعدها الوقت لنهب المتاجر المفتوحة. و لم يتجرأ أي تليل على مغادرة منزله و الوقوف في وجههم، و قبل ان يصل جند الباشا، كان الدروز قد غادروا المدينة، حيث كان رفاقهم بانتظارهم مع الاصفحة، خلف البياتين.

منذ فترة وجيزة، خطر لشيخ من شيوخ بيت نكد، بحكم عددا من القرى الواقعة في جوار صيدا، ان يقتل احد ضباط الباشا، خلال قيام هذا الاخير برحلة صيدا. فطلب الاتراك ترشيح من الامير، فاستدعي هذا الاخير شيوخ أمته إلى دير القمر و تقرر خلال اجتماعهم حرق منزل القاتل و قطع أشجار حقله. و بعد تنفيذ هذا الحكم، اعلم الباشا انه عاقب القاتل بشدة فادعى الباشا الرضى بينما كان يلاحق الشيخ سرا (ففي الحالات المماثلة، لا- ينال الدروز ليلتين متتاليتين في المنزل نفسه) بغية قتله. فضمم شيوخ بيت نكد، الذين يبلغ عددهم حوالي ٢٣ شيخا، على الانتقام له، مهما كان الامر. فلبسوا أزياء تذكارية و ترقبوا الاتراك عدة اسابيع في الغابات و البياتين المحيطة بصيدا، دون ان يصل احد منهم.

و في أحد الايام، ابتعد الباشا عن المدينة برفقة ٥٠ رجلا تقريبا، فانقض عليه الدروز و قتلوه مع عدد من كبار ضباطه. و لكن الاتراك عقدوا العزم على الانتقام لموتهم، فأعطى السلطان الامر لباشاوات المنطقة بهجوم الدروز بواسطة جيش كبير. فمضى الطرفان بخسائر بشرية فادحة دون ان

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبيد منذر، ج ٢، ص: ٣٣٥

يلحق الاتراك ضررا كبيرا بالعدو. فالدروز، الذين اهتموا بالزراعة، سئموا من هذه الحرب بعد مرور شهرين على اندلاعها و أزرعوا عائلة نكد، على الاحتماء بالمناولة، و التصالح معهم. و بعد ان عجز الاتراك عن الحاق خسائر كبيرة بالعدو، اظهروا استعدادهم لوضع حد لهذه الحرب، فطلبوا ١٠٠ صرة (تحوى كل منها ٣٣٣ ريالاً) لدفع تكاليف الحرب، و لما رفض الدروز دفع أكثر من ٥٠ صرة، غضوا الطرف عن مطلبهم الاول، و رضوا بالقليل. فعاد شيوخ بيت نكد إلى قراهم، دون ان يتزعج الاتراك من جراء ذلك.

لما كان الدروز يفضلون الحفاظ على سرية معتقداتهم الدينية، امام الاتراك، ادعوا الانتماء للديانة الإسلامية، حتى ان الامير و غيره من الاعيان، الذي تربطهم علاقات عمل بالباشا و غيره من الاتراك، لجأوا للختان، و تعلموا الصلاة و الطقوس الدينية حتى يثبتوا انتماءهم للمسلمين، غير انهم قلما يهون بالديانة الاسلامية، صحيح انهم شيذوا جامعا في دير القمر، الا انه كان مخصصا لاستقبال الضيوف، فإن أبلغ الامير بوصول آغا تركي، امر بتنظيف الجامع، و باقامة الطقوس الدينية، خلال اقامتهم بينهم، أما في الايام العادية، فهو يبقى خاليا كليا، و لا تستعمل المنذنة لدعوة الناس للصلاة، بل للاعلان عن شاة أو نعل ضائع، أو عن سعر اللحم أو غيرها من المواد الغذائية، في السوق. يحسنى الدروز الخمر، و غيرها من الكحول، و يتناولون لحم الخنزير و سواه، و ان اقاموا في قرى مسيحية، حضروا القداديس، خاصة النساء منهم، و ان طلب احد المطارنة الموارنة ان يعمد ابن أو ابنة الامير، منح هذا الشرف دون تردد. و يقال ان بعض الشيوخ و المجزة يؤمنون ان ذريتهم قد تستفيد من صداقة المسيحيين لهم، فيطلبون مسحهم على فراش الموت رغم انهم قضا حياتهم كلها جهلة، دون ان يعيروا الديانات كافة، اهتمامهم في بعض الاحيان، يتكف الشيخ أو الامير في شيخوخته، في دار مشيخة العقل، كى يقضى ايامه الاخيرة في سلام. و تنوفر لدينا امثلة كثيرة، عن دروز اقاموا في دمشق، و حلب و صيدا، و ارتدوا إلى الاسلام، و لكن الدروز لا يقبلون ابدا المهنتين حديثا إلى الدين، كما سترى لاحقا.

يبيع القانون أو العرف تعدد الزوجات، غير ان الدروز لا يتخذون لهم أكثر من زوجة، و نادرا ما يتزوج الاعيان من اثنتين. فيعقد قبل الزواج، اتفاقا مع اهل العروس، امام شيخ العقل، كما يفعل المسلمون امام القاضي، لتحديد المبلغ الذي ينبغي ان يدفعه الزوج في حال طلق امرأته، و قبل لي ان الطلاق سهل للغاية لدى الدروز، فإن طلبت الزوجة الاذن بالذهاب لزيارة اهلهما، يقال انها تعد طالفا، إذا اكتفى الزوج بالقول اذهبي، دون ان يضيف اذهبي و عودي.

خلال وداع اهلهم، يحضر الدروز الجائزة على الاحصنة، ويقدمون لهم السلاح، كما وانهم

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبيد منذر، ج ٢، ص: ٣٣٤

يحملون معهم علبة قش، أو قطعة خشب، ويرتدون ملابس الفقيد، لمدة سبعة أيام، ليرمونها بعدها، فوق ضريحه. في الواقع، يجتمع عدد كبير من الناس لحضور افراح واتراح اعيان الدروز، ويقضى ذلك اقامة مآدب فخمة، و صرف مبالغ طائلة.

زودني موارنة جبل لبنان، بهذه المعلومات كلها عن عادات و اعراف الدروز، و الجدير ذكره ان هؤلاء الموارنة كانت تربطهم بعلماني الدروز علاقات وثيقة، خلافا لرجال الدين. لذلك لم تتوفر لديهم معلومات وافية عن ديانتهم و عن الطقوس التي تمارس خلال اجتماعاتهم الدينية. كما و اننا لا نستطيع الحكم عليها من خلال البيانات الاخرى، أو من خلال بعض الطقوس، أو استنادا لأقوال جيرانهم، علما انهم غالبا ما يتنازعون، فيحاولون تسليط الضوء على سيئاتهم. فحاولت الحصول على الكتب التي وضعها الدروز، لأتكون فكرة واضحة عن ديانتهم فزودني انطون بطيار، مترجم السيد ماسيك، بالكتاب الاول. و يزعم ان يسوعيا يقن العربية، حل ضيفا في منزل احد الدروز، و عثر على هذا الكتاب، في ركن الغرفة، و نقله في الليلة نفسها، و اليكم الملاحظات التي استخلصها من هذه المخطوطة.

يتبع الدروز عقيدة محمد بن اسماعيل و يعبدون حاكمه، (الحاكم بأمر الله) الذي يجسد الله .

و هم يطلقون على انفسهم لقب الموحدين، و يؤمنون انه العام ٤٠٠ هجرية (١٠٠٩ ميلادية)، حلت الألوهية في الحاكم، و لم تظهر للناس الا العام ٤٠٨، حين راح محمد بن اسماعيل يبشر بعقيدته الجديدة. و يعتبر الدروز العام ٤٠٩، عاما مشؤوما لأن الألوهية هجرت حاكم خلاله.

و لكنهم يزعمون انه منذ بداية العام ٤١٠ و حتى بداية العام ٤١٢ (تاريخ وفاته) حل الله فيه ثانية.

استنادا إلى هذا الكتيب، ظهر الله ست مرات، في صورة انسان، (١) في الهند، في مدينة جين ماشين، تحت اسم العلي (٢) في اصفهان، تحت اسم البار، (٣) في اليمن، تحت اسم عليا (٤) في بلاد البربر، تحت اسم الملاء، (٥) في مهدي في بلاد البربر، تحت اسم القائم (٦) تحت اسم المعز (٧) تحت اسم القيس (٨) تحت اسم ابو زكريا (٩) تحت اسم المنصور (١٠) تحت اسم الحاكم، كملك مصرى.

أما اهم رسل محمد بن اسماعيل، فهم:

(١) حمزة.

(٢) محمد الكلمة

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبيد منذر، ج ٢، ص: ٣٣٧

(٣) ابو الشعر

(٤) بهاء الدين أو علي بن محمد السماكي

لا يأتي هذا الكتاب على ذكر محمد بن اسماعيل، كمؤسس للديانة الدرزية، غير ان الكاتب يتحدث غالبا عن حمزة بن علي رسوله الاول. و استنادا لهذا الكتاب، يبدو انه ظهر سبع مرات في العالم (١) زمن آدم، تحت اسم شعما (٢) زمن نوح، تحت اسم بيناغوروس (٣) زمن ابراهيم، تحت اسم داود (٤) زمن موسى تحت اسم شبيب (٥) زمن يسوع المسيح، تحت اسم العيازور (٦) زمن محمد تحت اسم سلمان الفارسي (٧) زمن سيد، تحت اسم صالح. و هو مؤلف كتاب القوانين الدرزية الاساسي، الذي يوازي مؤلفي اسماعيل و بهاء الدين أهمية، فهما يحترمان العهد الجديد أكثر من كتب الديانات الاخرى، و يعتقدان ان حمزة هو الذي وضعه، مما يعنى ان المدعو حمزة هو المسيح الحقيقي و قد تجسد في صورة رسول، و علم القانون ليسوع المسيح، الذي يسميه الكاتب المسيح الدجال. كما و انها يدعيان ان ارواح الرسل الدروز الاخرين قد حلت في جسد تلاميذ يسوع المسيح و رسله.

غالبا ما يستعمل الدروز عبارتي الملائكة و الشياطين، الاولى للدلالة على اتباع حاكم و الثانية على الكفار. أما الملائكة الخمس الذين يحملون عرش الله، فهم ٥ رسل (١) جبرائيل، و يعنى حمزة (٢) ميكايل و يعنى محمد بن وهاب (٣) اسرافيل، سلامة بن عبد الوهاب (٤) عزرائيل، بهاء الدين (٥) مطروم، على بن احمد. و الجدير ذكره ان كل واحد منهم يحمل لقباً معينا كالقديم و المناير، و البوق و غيرها. و هم يؤمنون ايضا ان الحاكم سيظهر مرة اخرى في شكل انسان، بعد ان ينتصر المسيحيون على المسلمين، فيحكم بعدها الحاكم العالم بقوة السيف. و يرفع الديانة الدرزية فوق الديانات الاخرى، مشيرين بذلك فرح المسيحيين و تعاسة المسلمين.

في سبيل الكشف عن حقيقة هوية كل من يدعى انه درزي علماني (علما ان ذلك قد يحصل بسهولة بالغة، لأن العلماني يجعل تعاليم دينه) يطرحون عليه السؤال التالي: هل يزرع الفلاحون في بلادك العدس؟ فإن اجاب نعم زرعه في قلوب المؤمنين، فذلك يدل على انتماه لمذبههم، علما

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبيد منذر، ج ٢، ص: ٣٣٨

انهم لا يقبلون ابدا بالمرتدين حديثا إلى الدين، اذ يعتقدون ان الغريب الذي يرغب باعتراف ديانتهم، يعود بعد مماته إلى ديانته الاولى. و في ما يتعلق بواجبات الدرزي، اليكم ما قرأته في المخطوطة نفسها، ينبغي عليه عبادة الحاكم بصفته الله، و تصديق ادعاءات شيوخ العقل حول دينه دون القيام بأبحاث لاحقة و الايمان بأن روح الميت تنتقل إلى جسد مولود جديد، و الامتناع عن القسم، و الاكتفاء بالاجابة بنعم أو لا، و الكشف عن اسرار ديانته لامرأته، دون ان يفشى بحكمته لأى شخص غريب. و يجب عليه ايضا اللجوء إلى الواحد، و تقديم الصدقات لخواصه، و الايمان بأن اتباع الديانات الاخرى، و خاصة الاعيان منهم، الذين يتعدون على اموال رعاياهم يعرضون انفسهم لاحترام الحاكم (الله) لهم، و يحظر عليه بالتالي تناول الطعام في منازلهم، و الاكتفاء باحترام شيوخ العقل، و الايمان، و كل من يقنات من فاكهة الحقول و البساتين، خاصة و انها املاك شرعية. يحرم على الدرزي ارتكاب الزنى. يقول الكاتب انه اذا ارتكب شيخ العقل الزنى و اراد ان يكفر لاحقا عن ذنبه عليه ان يتقدم عن آتمته خلال سبع سنوات أمام شيوخ العقل الاخرين، و لكن ان رفض التكفير عن ذنبه، حلت روحه بعد مماته في جسد رجل كافر.

يعتق النصيريون ديانة خاصة بهم، يجعلها اتباع الديانات الاخرى، غير ان زعماءهم، الذين تربطهم علاقات عمل بالارتك يدعون انهم من اهل السنة . و هم يكترون بين جبل لبنان و انطاكية. و يقيم احد المقدمين في بهلولي، على مقربة من اللاذقية. و هو الأكثر نفوذا بين النصيريين كافة. و يقيم مقدم آخر في سمرين، في بلاد الشواب، في اقليم صفظا، و مقدم ثالث في جبل كلبية و هم يدعون الجزيرة لياشا طرابلس، علما انهم يصعدون التبغ الذي تنتجه اقليمهم، إلى كافة أنحاء البلاد. غير ان عددهم لا يوازي عدد الدروز، و اتباعهم لا يقفون ابدا في أعالي الجبل، مما يعنى انهم يخضعون كلياً لسلطة الاتراك . سمعت احد الموارنة يثنى عليهم، و يزعم انهم طيبو المعشر و حسنو السيرة. فقد اصطحبوه إلى معبد تظلي و مرتب يتميز بتواضعه الشديد، حيث

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبيد منذر، ج ٢، ص: ٣٣٩

انه لم يلحظ في سوى قديبل مشتمل. و علمت منه ايضا ان النصيريين يحتفلون بثلاثة اعياد في السنة، بلجأون خلالها إلى الرقص للتعبير عن ودهم. غير ان مسيحي الشرق، لم يستطيعوا ان يزودوني بمعلومات وافية عن الديانة النصيرية، علما ان المسلمين يعتبرونهم من الوثنيين الذين يعبدون الشمس و النجوم، و اظن ان مرد ذلك إلى احترامهم الشديد للزهرة التي تدل على كوكب فيوس و على فاطمة ابنة محمد في آن معا.

سنلاحظ في ما بعد ان هؤلاء النصيريين الذين سأتى على ذكرهم في «المقالة التمهيدية»، هم من المسلمين.

يقول مؤلف الكتيب المذكور اعلاه حول الديانة الدرزية، ان النصيريين كانوا قديما من الدروز، و لكن المدعو نصير اغواهم، و حنهم على نكران ألوهية الحاكم و استبداله بعلي بن أبي طالب (صهر محمد)، و اخبرهم هذا الالاهية حلت في اثني عشر إماما من سلالة علي، لتختفي مع ظهور محمد المهدي (آخر الأئمة)، و تستقر في الشمس. يقول الدرزي نفسه ان النصيريين يؤمنون بالتمص و ان روح المؤمن تنتقل بعد الموت إلى جسد نصيرى آخر. لتدخل بعدها في احدي النجوم. لكن ان تصرف احدهم بفظاظة و رفض الامتثال لتوصيات علي، انتقلت روحه إلى جسد يهودي أو سني أو مسيحي لتشهد بعدها تغيرات كثيرة، و تنظف و تنتقل في نهاية المطاف إلى احدي النجوم. أما الكفار، الذين لا يعبدون علي بن أبي طالب، فتنتقل ارواحهم إلى اجساد الجمال أو البغال أو الحمير أو الكلاب أو غيرها من الحيوانات.

توافق هذه الروايات، مع روايات اخرى قرأتها في كتيب حول الديانة النصيرية زودني به انطون بطيار. و يقال ان حرس القاضي التركي، عثروا على هذا الكتيب في غرفة نصيرى فاجأوه ليلا و اتقاه إلى السجن. و رغم انها النسخة الاصلية، الا انها غير كاملة و مكتوبة بخط ردى، و تعابير مبهمه، حتى ان المؤلف يقول في أحد الاماكن ان النصيريين اخذوا سورا من بلاد أيجوج و مأجوج أو

انهم كانوا يستعينون في كتبهم بالتعابير المبهمة لإخفاء اسرارهم عن الكفار، و وحده التصيري يفهم ما يقصده الكاتب بالمالك جبرائيل، و بالغراب، و بالسفينة، و بالحلقة و بلبقيس، و بعضا موسى، و بسنام صالح، و ببقرة الاسرائيليين، و غيرها. و الجدير ذكره ان هذه العبارات تتردد في كل صفحة دون ان تعرف معناها الحقيقي أو ما تدل عليه، غير انني سأذكر في ما يلي الملاحظات التي استنتجتها:

يعرف التصيري بالمؤمن، و هو يتحدث عن وحدة الله، اى عن على الذى سيخرج من عين الشمس ليحكم العالم، و عن الاشخاص الخمسة المجتمعين، و هم، (١ المعنى ٢) الاسم (٣) و هو يتمتع بالحكمة الحقيقية (٣) باب (٤) ايتام (٥) حسين و لكننى اعترف بأننى لم أفهم شيئا من هذه

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبيد منذر، ج ٢، ص: ٣٤٠

الخماسية، خاصة و اننى لست خبيرا في هذه الديانة. و رغم اننى لم افهم شيئا من الامور التالية، الا اننى اردت ان اتفعلها لكم لأنها تشكل اركان العقيدة التصيرية.

ظهر الله ٧ مرات في العالم، في المرة الاولى: ١- معنى كان آيل ٢- اسم كان آدم ٣- باب، جبرائيل ٤- الايتام كانوا ٥- أشخاص آيل- ميخائيل (او رئيس الملائكة) ب- اسرافيل (لعله الملاك الذى يتبعى عليه النسخ في الصور يوم الحساب، حسب اعتقاد المسلمين) ج- عزرائيل (ملاك الموت) د- مالك (بواب الجحيم) هـ- رضوان (بواب الجنة) ٥- حسين، الذى كان يدعى قاش بن مفلوح. أما اعداء الله في الظهور الاول، فكانوا، ١- قاييل ٢- عناق (اخت قاييل) ٣- بابلو (وزير قاييل) ٤- الاقعي ٥- الطاوس.

في الظهور الثاني ١- معنى كان سيد، ٢- و اسم نوح ٣- باب، وائل بن فاطمة ٤- و الايتام ٥- عنقيل ب- افراون ج- كنعان د- افريكائيل ٥- افريكان ٥- الحسين، حوش. أما اعضاء الله كانوا ١- حام بن نوح ٢- و الشيخ حسا ٣- يوك ٤- يوفوت ٥- نصر.

في الظهور الثالث ١- معنى يوسف ٢- اسم يعقوب ٣- باب حام بن قوش ٤- و الايتام هم ٥- يهود ب- حاشور ج- مالك د- مملك ٥- عنقيل. ٥- حسين، مامب بن منصور- أما اعداء الله هم ١- خاجلول ٢- سيما- ٣ ملك الهند ٤- حيطار ٥- نائل.

في الظهور الرابع ١- معنى كان يوسف ٢- اسم، موسى- ٣- باب، دان بن صبان ٤- و الايتام هم ٥- يهندان ب- حاروق ج- عبد الله د- اسرايل هـ- عمران، ٥- الحسين، روبل بن صالح. اما الاعداء هم ١- فرعون ٢- حمان ٣- كريم.

في الظهور الخامس ١- معنى، عساف ٢- اسم، سليمان ٣- باب عبد الله بن سمعان ٤- و الايتام هم ٥- شاذلي ب- شاذلي ج- حرناش ٤- مصقول- عصير هـ- ٥- الحسين، بانتور دكن. و الاعداء هم ١- نمردود ٢- عاد- نمود.

في الظهور السادس ١- معنى، سمعان ٢- اسم، يسوع ٣- باب، زروبا بن مزربان ٤- و الايتام هم ٥- حنا قم الشهاب ب- حنا دلمى ج- بولس د- بطرس هـ- متى ٥- الحسين، أيوش بن مانكيجا و الاعداء هم ١- هيروودوس ٢- يابس- ٣- توس.

في الظهور السابع، ١- معنى على ٢- اسم محمد المهدي (المنتظر) ٣- باب، سليمان بن بحيرد الثور ٤- و الايتام هم ٥- مقداد بن الأسود الكندي ب- ابو الدور ينداب بن ينادا الغفري

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبيد منذر، ج ٢، ص: ٣٤١

ج- عبد الله بن ربي النصاري د- عثمان بن مأذن مجاشي هـ- كمار بن كاظم دوفي ٥- الحسين، حمدان. اما اعداء الله فهم ١- ابو شامل ٢- سجد ٣- سنجوق.

و يضيف الكاتب ايضا ان التصيريين يؤمنون ان محمدا، و فاطمة، و حسن و الحسين و محسن يشكلون وحدة متكاملة تجسد على. و يعتقد المؤمن انه لثة ٥ ايام، و ١٢ نقيبا (أو قائد من سلالة محمد) و ٢٨ مختاراه، و مختصا و مخلصا و منتجا. كما و عليه ان يعترف بأربع سنائر، ١- سنائر الامام أو تسلسل الائمة من ابل إلى على ٢- ستر الائمة، اى الاسياد من حسن الاول إلى حسن الاخير ٣- ستر الرسالة أو تسلسل الرسل، من ادريس و نوح، حود ... ٤- ستر النبوة، أو تسلسل الانبياء، من عنوش، و اسحاق، و يعقوب ...

يمين الكاتب آدم، و ابراهيم و موسى و المسيح و محمد انبياء، و وائل و حمدان و عبد الله، و سلمان، و ابو الشنتيل، و محمد و مفضل، و ابو الشايب، رسلا. و يدعى ان المدعو اسحاق هو اكبر عدو للتصيريين لأنه اراد ان يقتل سيد ابو الشايب .

تدخل روح التصيري المؤمن الجنة، بعد ان تنتقل بين عدد بسيط من الابدان. و لكن ارواح الاخرين تمتك في ٨٠ بدنا. (هذا ما يعرف بالجحيم)، تمر روح الكافر في خمس مراحل مريفة.

(فح، و نج و مح و وج و رج) لتستقر بعدها في جسد ناعم حتى عودة الصخرها (فاطمة). فمن يخال ان مؤسسي ديانات مماثلة قد يجدون لهم اتباعا؟.

و يفيد كتاب التصيريين ان المعنى يحظر عليهم تناول لحم الجمال و الارانب و الحنكليس، و الاسم، بمنعهم من تناول لحم الخنزير، و الحيوانات التي لا تذبح شرعا، و الباب ينهيم عن سمك الزلور الاسود الذى يكثر في العاصي، و عن كل الطعام المحروق. علاوة عن ذلك، يفرض الكاتب على التصيريين ان يتكلموا عن تعاليم ديانتهم امام الغرباء و ان يجيوا اخوتهم، و ان يتبعوا عن السرعة، و عن القسم، و عن قطع الوعود، و ان تصيروا على فقرهم و ان يتحملوا سوء معاملة نساءهم لهم.

لم أجمع معلومات واقية عن الديانة الاسماعيلية، و لم اطلع على اى من كتبهم. يروى مسلمو و مسيحيو الشرق ان نساء الاسماعيليين تجتمعن ليلا في شفة مظلمة، و يتبعن لاحقا عدد مساو من الرجال، و بينما يلهو كل واحد منهم مع اول امرأة يقع عليها، يقرأ احد رجال الدين مقطعا من

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبيد منذر، ج ٢، ص: ٣٤٢

كتابهم المقدس، في غرفة اخرى. و هم يعتقدون ايضا انه يحق للأب ممارسة الجنس مع ابنته، كما يأكل البستاني فاكهة الاشجار التي زرعها بنفسه. و يضيف البعض انه خلال هذه الاجتماعات، يشمر احدهم ثيابه، و يقف في مكان مرتفع. لتأمل المجموعة جسده. و هم يعرفون بالتالي بأيو الفرج. و لكن كم من حماقة رويت حول عقائد و طقوس قوم لا تربطهم بهم علاقات وثيقة و لا اطلعوا على اى من كتبهم.

ان عدد اتباع المذهب الاسماعيلي ليس كبيرا، و هم يقيمون في كيليس، بين شغر و حما، و في جبل كلييه، الذى يقع قرب اللاذقية، بين حلب و انطاكية و هم يعرفون بالقفطون، تيمنا بإحدى قرى هذه المنطقة. اما في ضواحي الموصل فيعرفون بمطفيو الشمع، و في المناطق الكردية و التركية، فيعرفون بيك داستلي (اسياد الصخرة)، و يستهترون بطقوسهم الدينية المرعبة، و لكننى لم ألق على اى شخص حضر هذه الاجتماعات أو قرأ كتابا من كتبهم. لذلك ارجو ان لا تكون اخلافتهم فاسدة بقدر ما يشاع عنهم.

هذه هي المعلومات التي جمعتها عن اقاليم المتأولة و التصيريين و الاسماعيليين، غير ان هذه الجماعات ضعيفة للغاية و لا تقوى على الوقوف في وجه الباشاوات الاتراك. اما الدرود فهم اسياد الجزء الاكبر من جبل لبنان، و اقوى سكانه نفوذا. يرأس هذه الجماعات عدد من الشيوخ الورثة الذين يختارون من كل عائلة قائدا عاما، يحمل لقب امير، و يكونون اليه مهمة الدفاع عن قومه.

يتوجب على هذا الامير ان يجدد كل سنة العقد المبرم مع الباشاوات من اجل دفع جزية الاقاليم المختلفة، و ان اقتضى الامر، دعا قادة القوم للاجتماع في دير القمر، لتحديد المبلغ الذى يجدر بكل شيخ ان يجمعه من اقليته، اما لتسديد جزية الاتراك أو لدفع النفقات الاخرى.

يتفق الشيوخ في ما بينهم على حجم الضريبة السنوية التي يجدر بهم دفعها لتخاشي سخط الباشاوات عليهم. فكان الامير حيدر يدفع سنويا ١٦٠ كيس نفود (حوالي ٥٣٠٠٠ ريال) و الامير ملحم، الذى يخشاه الاتراك ٧٠ كيسا (حوالي ٢٣٠٠٠ ريال) و يوضع مبلغ من

المال جانيا لإعالة الامير الحاكم و لتأمين نفقات الاجتماعات، و المآدب من أرز و زبدة و خبز و بن و شموع و علف للاحصنة.

تحدد الجزيات التي يدفعها الرعايا بشكل دقيق. فكل ١٦ أو ٢٠ سنة، تعمم مذكرة على كافة انحاء البلاد، يحدد فيها قدر الغلة التي يحصدها الشيخ أو النبيل أو الفلاح من حقله و بسايتيه و دواليه و شجر الزيتون، و شجر التوت، و شجر الليمون و غيرها، حتى يدفع سنويا ضريبة محددة، إما نقدا أو بالمواد الغذائية، إلى ان تظهر ضرائب جديدة. يجي تجار بيروت و صيدا جزءا من هذه الضريبة،

فحين يزودون الامير الحاكم بالأرز أو غيره من المواد الغذائية يكلفهم هذا الاخير، بجباية

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبيد منذر، ج ٢، ص: ٣٤٣

ضريبة هذا الاقليم أو ذاك، أو زيتا أو خمرا أو غيرها من السلع.

يتعاضد افراد العائلة نفسها على الحكم في المقاطعات الدرزية، غير ان الاين لا يخلف دوما اباه في الامارة. و لكن كبار الشيوخ يختارون اكثر افراد العائلة كفاءة و يعينونه خلفا للامير الراحل، فيرسل له الباشا، كل سنة، فرمانا كتعبير منه عن تأييده له كأمر حاكم.



و يمنح الحاكم الدرزي رعاياه، من دروز و مسلمين و مسيحيين و متاوله الحرية في بيع الاراضى و الهجرة من البلاد، علما أنهم جميعا من الجند. و يزعم ان هؤلاء القوم يستطيعون ان يجهزوا جيشا مؤلفا من ٤٠ الف رجل رغم ان خزينة الدولة لا تدفع الرواتب الا لثنتين أو ثلاثماية منهم، يعرفون في اوروبا بالأممورين القضايين. من جهة اخرى، يعد الشيخ قائد هؤلاء الرعايا، و الامير الحاكم قائدهم العام.

و من خلال تعيينهم للامير، كان الدرودز يحولون دون تعين الاتراك قائدا غربيا عليهم، شأنهم في ذلك شأن البدو. و يزعم ان إحدى العائلات، اعلنت نفسها زعيمة على الدرودز، بمساعدة الباشا، الذى قادها على رأس جيش كبير إلى دير القمر، و فرضها على سكانها. و لكن تصرفه هذا أثار سخط كبار الشيوخ، فاضطر للتخلي عن منصبه.

غير ان هذه المسألة ولدت الاشتباكات، فحرص الاتراك بالتالى على اثاره الفتن بين القبائل العربية، التى تعيش في الخيم، قرب القرى الكبيرة.

ذاع صيت الدرودز في اوروبا في عهد الامير فخر الدين المعنى الكبير. اذ لم يكنف بسط نفوذه على جبل لبنان من عكا إلى اللاذقية، بل استولى ايضا على المدن الساحلية التركية، و منها صيدا، و طرابلس، و نهب دمشق مرة واحدة. و لكن في عهده، انقسمت البلاد إلى فريقين: عرف الفريق الاول بالقيسى، و علمه احمر، و يساند الامير فخر الدين، بينما عرف الفريق الثانى بالينى و علمه ابيض، و هو يقاوم الامير، و بعد ان حظى الفريق الثانى بمساندة الاتراك له، استطاع ان يرغم فخر الدين على التخلي عن منصبه لانه البكر على، و مغادرة البلاد إلى ايطاليا، حيث قضى بعض الوقت في فلورنسا. بعد مرور فترة وجيزة، عاد الامير إلى سوريا، علما ان الفريق الينى كان يتمتع بمساندة الباشاوات له، فأرسل الاتراك اسطولهم إلى صيدا. فخرس ابنه على حياته في احدى المعارك، و حوصر والده فخر الدين من جميع الجهات و اضطر للفرار إلى جزين و الاختباء في احدى المغاور. و في نهاية المطاف استسلم للاتراك، شرط ان يقاد للممثل امام السلطان في القسطنطينية. و يقال انه كان سيعاد إلى الحكم لو لم يعين ابن اخيه ملحم اميرا خلال هذا الوقت، لأن الاتراك يقدرون فخر الدين، و يجذون فضائله فهو انسان حكيم و اعندق على

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبيد منذر، ج ٢، ص: ٣٤٤

القسطنطينية الهدايا، و خاصة على كبار ضباط السلطان. و بعد توقيفه، كان من المقرر ان يستلم الامارة ثانية. و لكن الامير ملحم فأجأ الاتراك بقتله عددا كبيرا منهم مما اثار سخط السلطان، الذى امر بقتل فخر الدين على الفور.

لم استطع ان اعرف كم من الوقت استمر حكم المعنيين. يقول ارفيو ان الاميرين احمد و قرقماز، ابني الامير ملحم، تسلما الامارة، و حكما البلاد معاه و تزوجا فتابن من عائلة شهاب.

و لكن الامير قرقماز قتل بطريقة وحشية على يد الاتراك. يقول لاروك، في كتابه «رحلة إلى سوريا و جبل لبنان» الجزء الثانى ص ٢٧٥، ان المدعو أبو موسى ابن علاء الدين، خلف الامير احمد في الحكم، غير اننى لم اعرف ايدا ان كان ابو موسى هذا من المعنيين ام لا.

يحكم الشهابيون اليوم الجماعات الدرزية، يدعى الموارنة انه بعد وفاة معظم افراد عائلة معن، لم يشأ الامراء و الشيوخ تعيين واحد منهم، لأنهم متساوون جميعا، و لا يقبلون باختيار واحد منهم زعيما عليهم، فوقع بالتالى الخيار على الامير حيدر من آل شهاب، و كان حاكما على حاصبيا و تربطه بالمعنيين علاقة وطيدة. سمعت ان عائلة شهاب، الحاكمة حاليا في جبل لبنان، تتألف من ٢٠ أو ٢٥ فردا فحسب. كان الامير حيدر ابن الامير منصور، و شقيق الامير شهاب، و والد الامير قاسم، الذى عند و ختن رغم ائتمانه للطائفة الدرزية، و يقيم اليوم في مدينة غزير المارونية ..

انجب الامير حيدر من زوجاته الثلاث، احمد، ملحم، منصور، على، معن، يونس، و حسين و قاسم، و انجب هذا الاخير ابنا اسمه على، فأنجب بدوره صبيا اسماء بشير. بعد موت الامير حيدر استلم ملحم الحكم رغم انه سنى، من دمشق. و أنجب اميرا اسماء يوسف. اما ابناؤه الاخرون فهم، محمد، على (و كلاهما اكبر من يوسف) قاسم، عمر و الامير اعدى. خالف الامير ملحم الحظ في حملاته كلها، و لم يخسر المعارك التى خاضها ضد المتاوله و العرب و الباشاوات الاتراك. و بعد ان حكم البلاد ٢٥ سنة، طلب ابن الشيخ ضاهر منه العون، ضد ابيه. و لما شعر بضرورة تلبية النداء، دعا إلى اجتماع لمناقشة هذه المسألة. و لكن الشيوخ الدرودز رفضوا تقديم العون لهذا الابن العاق، فأعاد حينئذ الامير ملحم ختم الامارة و انضم إلى شيوخ العقلم و لكننى لا اظن ان هذه القضية وحدها دفعتة لاختاذ هذه الخطوة الجريئة. و بعد تصميمه على الاستقالة، اختار الدرودز (سنة ١٧٥٤) الاميرين احمد و منصور، شقيقى الامير ملحم، ليحل محله، و بعد موت الاول، استلم منصور دفة الحكم لوحده. و بقى حيا حتى العام ١٧٧٣ و انجب صبيا اسماء سمعان.

ينقسم اعيان الدرودز إلى جنيلطين و يزبيكين، و رغم ان عددهم كبير. إلا انهم يحكمون مقاطعة صغيرة، و اننى اعنى بكلامى هذا العائلات التى تختار الامير الحاكم، أو عقد الصلح. أما أهم

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبيد منذر، ج ٢، ص: ٣٤٥

العائلات التى تجتمع في دير القمر للبحث في هذه القضايا فهى :

١- شيوخ آل جنيلاط

٢- شيوخ آل بوهرموش

٣- شيوخ آل شمس

٤- شيوخ آل عيد

٥- شيوخ آل بو نكد

٦- شيوخ آل شوينفات

و الجدير ذكره ان هذه العائلات كلها موالية للشيوخ على جنيلاط بينما العائلات التالية موالية الشيخ عبد السلام الزيركى:

١- شيوخ آل زيرك

٢- شيوخ آل بوعلوان

٣- شيوخ آل تلحوق

٤- شيوخ آل عبد الملك

٥- شيوخ آل ابي اللع

يحمل افراد بعض العائلات، لقب امير. كآل شوينفات و آل ابي اللع. و يقال ان العائلة الاولى كسبت هذا اللقب منذ عدة قرون. غير ان معظم افرادها متوسط الحال، لأن الابن الاصغر يرث والده شأنه شأن الابن البكر. أما عائلة ابي اللع فلم تكنسب هذا اللقب الا منذ ١٥٠ سنة علما ان هذه العائلة تملك قرى عديدة. على خلاف شيوخ هذه المنطقة، يحق لهاتين العائلتين ان تربطا بعائلة شهاب بالزواج، اذ ان الامراء لا يقترنون بنات الشيوخ، و لا يتخذ الشيوخ لهم زوجات من الطبقات الادنى مستوى. و في المقابل، يحق للشيوخ التصويت في الاجتماعات شأنهم شأن امراء آل شوينفات و ابي اللع.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبيد منذر، ج ٢، ص: ٣٤٦

تنوع المناخ في الاقليم الدرزي. فعلى الساحل ترتفع درجات الحرارة، بينما يغطى الثلج جبل لبنان في الشتاء. و بحث هذا الامر الدرودز على تغيير مكان إقامتهم بشكل دائم، كى يتمتعوا بربيع دائم. يتميز مناخ جبل لبنان بلطافة هوائه، حتى ان معظم الناس ينامون في الصيف على سطوح منازلهم. أما الامطار فتعطل بجزارة و تغذى الشيايح و الانهر التى تروى الوديان المجاورة بنى التى يوسع في الاصحاح الرابع على نيذ جبل لبنان، و يؤكد انه في غاية الجودة.

يزرع السكان اشجار التوت و الزيتون، و يتاجرون بالحريز و الزيت. كما و انهم يصدرون القطن، و الصوف، و المن و المعص و زهر الليون، و الصابون و الحظنة. و هم يقطفون فواكه ممتازة، و يملكون حقولا غنية. اما التبغ فيزرع بكمية قليلة في المناطق الدرزية بينما يعد تبغ اللاذقية الذى يزرعه جيرانهم التصيريون من اجود انواع التبغ في المنطقة. بعبارة اخرى، تتوفر في هذه البقعة الصغيرة من الارض، كل ما يحتاجه الانسان في حياته اليومية. إليكم المعلومات التى جمعتها عن الاقاليم و القرى، و الضواحي التابعة لهذه المقاطعة.

١- اقليم الشوف، الذى يضم:

أ- وادى المناصف، دير القمر، الواقعة في جوار نهر الدامور، على بعد يوم من صيدا، يقيم في هذه المدينة الامير الحاكم، و هى تضم

اصرحه كبيرة بعضها ملك للدولة، وبعضها ملك للشيوخ و الامراء، الذين يعدون فيها اجتماعاتهم أو يعضون فيها فترة الصيف، و نجد فيها أيضا جامعا كبيرا له منذنة.

بلدة بعقلين، التي يقطن فيها الدرور و المسيحيون، و هي تمتاز بوجود دواليها: قري كفر قطرا، دير دوريت، مشفى، بستان الدوير (كذا)، عين المعاصر، بتدين، و قربنا كفر محمد و الناعمة، الخاضعتان لنفوذ آل بو نكد، حيث نجد ديرين للموارنة.

ب- الشوف الحيتي، يقم في هذه المنطقة احد مشايخ العقل، و هي تضم، بلدة المختارة، مقر الشيخ على جنبلاط، زعيم الحزب الذي يحاول الحد من نفوذ الامير الحاكم.

قري بعذران، عماطور، عين قنية، المزرعة، نيجا، التي تضم اغلبية درزية، و اقلية مسيحية، و نشاهد قرب قريتي شمشوي و قيتولة، اذيرة للموارنة، تخضع لنفوذ آل جنبلاط

٢- اقليم العرقوب، الذي يضم: بلدة الباروك، حيث يقم الشيخ عبد السلام من آل يزبك.

و هو زعيم الحرب الموالي للامير الحاكم.

٣- اقليم الجرد، و هو يضم قري عين زحلتا، عين دارا، رشيمه، و تضم هذه القرية الاخيرة دريا للموارنة، يخضع لنفوذ آل شهاب.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٣٤٧

٤- اقليم جزين، لم اجمع معلومات وافية عن هذا الاقليم باستثناء انه يضم المغارة التي حوصر فيها فخر الدين.

٥- اقليم الشحار، و هو يضم بلدة كفرمتي.

٦- اقليم الخروب، الواقع بين دير القمر و صيدا، و هو يضم قري برج، و شحيم، و عين مزبود، و عانوت، حيث نجد دروزا و مسيحين و مسلمين، غير ان هؤلاء الاخرين يقيمون في قري منفصلة، حيث بنوا لهم جوامع. كان المسلمون راضين من حكم الدرور اكثر من حكم الاتراك. لذلك، البسوا قراهم ابهى حلة، اذ كانت تكثر فيها الفاكهة على انواعها، و اشجار الزيتون، التي تعطى اجد انواع الزيت.

و نجد في اقليم الخروب على بعد ثلاثة فراسخ من صيدا، دير المخلص، حيث يقم بطريرك الروم الذين انضموا إلى الكنيسة الرومانية.

٧- اقليم التفاح، الواقع على حدود قري المتاوله، من جهة منطقة صور، يتألف سكانه من الاغلبية السنية و هو يضم قري جياح الحلاوي، كفرحونه.

٨- اقليم سوق الغرب، و يضم قري عين السبع و بشامون و الشوفيات. يملك الروم دريا في هذا الاقليم تابعا لنفوذ آل تلحوق، و الموارنة ديرين خاضعين لسلطة امير من آل شهاب.

٩- اقليم صليما، و يضم بلدة صليما، و مقر امير من آل ابي اللعج، و دريا للروم و ديرين للموارنة، يقم مطران في واحد منهما.

١٠- اقليم الراس، و يضم بلدة الراس و مقر اقامة درزي من الاعيان يحمل لقب امير.

١١- اقليم برمانا، و يضم بلدة برمانا، و مقر اقامة احد الامراء، و ديرين للموارنة، و آخر في نهر الكلب.

١٢- اقليم القاطع، الواقع في كسروان و هو يضم اغلبية مارونية، بنت لها ثلاثة اذيرة خاضعة لحكم الامير ابي اللعج. و تذكر من قري هذا الاقليم قريتي بكفيا و بيت شباب. تنتج هذه المنطقة افضل و اجد نبيذ في جبل لبنان فهو يحفظ في جرار كبيرة، كان يحفظه يعود اليمن و ازم من بلاد فارس، و سكان الاراضي المقدسة، في زمن يسوع المسيح. و يشتري السكان البراميل الصغيرة من قرص ليصدروه منها إلى الخارج.

١٣- اقليم بسكتنا، و يضم اغلبية مسيحية و خمس كنائس و مقر الامير، فضلا عن دير للموارنة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٣٤٨

١٤- اقليم العنتين، و يضم دروزا و مسيحيين و مسلمين، يخضعون لسلطة الامير المقيم في بلدة العنتين. يملك الموارنة ديرين في هذا الاقليم، كما و ان الروم يملكون دريا قرب قرية الشوير و مطبعة شهيرة، غالبا ما نشاهد كتبها في المكتبات الاوروبية .

١٥- اقليم حمانا، لم اجمع معلومات وافية عن هذا الاقليم باستثناء انه يضم بلدة و مقر مقدم.

١٦- اقليم الشانية، الذي اطلق عليه هذا الاسم تبعا باحدى القرى.

١٧- اقليم عين دارا الذي يحكمه عدة شيوخ، و يحمل اسم قرية صغيرة.

١٨- اقليم كسروان، و يبلغ طوله و عرضه مسافة يوم سير، و يمتاز ببناءه بالفاكهة و خاصة التوت و العنب و الزيتون.

حكم هذا الاقليم في عهد الامير فخر الدين، مسلم يقم في غزير و يدفع الجزية لباشا طرابلس، غير ان الامير المذكور تعاون مع الموارنة، لطرد عائلة المسلم، و بتسليم الحكم لهم. اما اليوم فلا يقم في هذه المنطقة سوى درزي واحد من آل شهاب. و لا يدفع سكانها سوى ٣٠ كيسا للامير الحاكم في دير القمر. و ان اعلن الدرور الحرب على جيرانهم، يجبر الموارنة على إرسال جيش لهم بقيادة شيوخهم. و يسمح لهم بارتداء الملابس الخضراء و باعتبار عمامة خضراء، علما ان هذا الشرف لا يمنح، في المقاطعات التركية الا لذرية محمد. و يتمتع هؤلاء القوم بثقة الدرور و يسمح الشيوخ و الامراء للموارنة بتربية اولادهم شرط ان تعنى النساء بالنسب و الرجال بالصبية.

و يعهدون اليهم كافة اعمالهم، و يستخدمونهم كأمناء سر و وزراء. بعبارة اخرى، يشغل الموارنة لدى الدرور المناصب التي تتطلب حكمة و فاء. و لكن شيوخ العقل الدرور يرفضون ان يتزرع اولادهم في منازل شيوخ الموارنة، حتى انهم يرفضون تناول الطعام معهم. و ان اراد سيد ما ان يعاقب درزيا على خطأ ارتكبه، تسعى عائلة هذا الاخير للانتقام. بينما يقض المسيحي و عائلته الطرف عن كل ما يفعله به سيده.

#### سيطرة الموارنة على جبل لبنان

يعتقد الموارنة ان الياها هو رئيس الكنيسة، نجد من بينهم يسوعيين و فرنسيسكان و كيوشيين لذا فإن علاقتهم بالاوروبيين تعتبر اوثق من علاقة اي امة شرقية بهؤلاء الاخرين إلا انهم لا يهتمون

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٣٤٩

كثيرا بأموال العلم و الفن كجيرانهم الدرور و العرب و الاتراك. و لا يجنذ الموارنة تربية اولادهم في اوروبا لأن هؤلاء لا يأخذون عن الاوروبيين إلا عاداتهم و هم يؤذون بذلك بلدهم اكثر مما يفيدون . و قد أكد لي الناس أن ٣٠ شابا مارونيا يمكن ان يتلقوا العلوم و المعارف مجانا في مدرسة الموارنة في روما الا ان أربعة أو خمسة شبان فقط يذهبون إلى روما لأن الفقراء الموارنة يخشون من ان يتشرب أولادهم العادات الاوروبية، و هكذا فإن احد الموارنة الذي تعلم في اوروبا كاد أن يموت من الجوع في بلده لأنه لم يجد اي عمل يعاش منه غير الانضمام إلى رجال الدين علما ان عائلات رجال الدين الشرقيين ليست جيدة كمعادات نظرائهم الغربيين.

إن مشايخ مسيحي الشرق يخدعون شعبيهم كواجب مفروض عليهم. و مع انهم من جباة الضراب الا ان الدرور لا يدفعون لهم شيئا و يحرض باقي الشيوخ و عامة الشعب على عدم إعطائهم من المال ما يزيد عما عليهم دفعه للدرور. هؤلاء الشيوخ انفسهم يصحون الرؤساء في أيام الحروب. و لأن طريقتهم في القتال تختلف كثيرا عن طريقتنا فإن اي ماروني عمل كضابط في أوروبا سيجد الناس يسخرون منه و يستعدون عن المعارك خاصة إذا اراد ان يعلم الفلاحين طرق القتال الاوروبية. إن المحاكم عند الموارنة نادرة اكثر منها عند الاتراك. عندما تنشأ خلاف بين الموارنة يذهبون إلى المطران أو البطريرك على انه رئيس امتهم كما و يختارون حكاما آخرين يمكن ان يكونوا مسيحيين و دروز و مسلمين.

عام ١٦٠٠ عندما كان دنديني(Dandini) في جبل لبنان لم يسمع شيئا عن الامراء الموارنة و كان يسميهم نواب الكهنة ، و لا زال نجد في كسروان و في اقليم باشا طرابلس ثلاث عائلات يعتبرها المسيحيون من العائلات العريقة و هي: حبيش و العاقوري و الخازن. يزعم ابناء عائلة حبيش ان اسلافهم كانوا ذائعي الشهرة منذ سبعة إلى ثمانية قرون و انهم كانوا يملكون عدة قري في جبل لبنان. حاليا هناك اكثر من مئة شخص من حاملي اسم هذه العائلة بلقب الاغنياء منهم باسم شيخ

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٣٥٠

من قبل باقي المسيحيين الذين يحتاجون لمعونتهم. و بما انه في هذا البلد لا يمتز الابناء عن بعضهم و تفرع الاراضي بالناسوي عليهم لذا نجد الكثير من ابناء هذه العائلات الذين يجدون انفسهم مضطرين للعمل كموظفين أو كمعلمين عند الدرور و احيانا يمارسون

مهما بانسة دون ان يهتم بهم الموارنة الاخرون أو ابناء الديانات الاخرى .

انقسمت عائلة حبيش إلى اربعة فروع:

١- اولاد بو يزيك و هو فرع كبير يسكن اهله في غزير و غوسطا و الساحل و بيروت.

٢- اولاد بو شديد

٣- اولاد عادل و يسكنون في غزير.

٤- اولاد بو نزار و يسكن جزء منهم في غزير و الجزء الآخر في الساحل .

تقيم عائلة العاقوري في أراضي باشا طرابلسي و هي عائلة قديمة لكنها فقيرة و بالرغم من ذلك فهي متمسكة جدا بعراقتها و تفضل الا تتزوج بناتها أبدا على ان يتزوجن من موارنة لا ينتمون إلى العائلات العريقة. في هذه العائلة ٢٠ شيخا تقريبا.

إن عائلة الخازن هي الأكثر ثراء لكن عمرها لا يزيد عن ١٥٠ عاما إن اول شخص من هذه العائلة صار مشهورا في جبل لبنان هو ابو نادر. شغل منصب وزير عند الامير فخر الدين اي كان مستشاره الشخصي و امين خزنته و في الوقت نفسه ضابطا شجاعا. كان ابنه يدعى نادر الخازن لكنه غير اسمه و صار يكتب باسم ابنه: ابو نوفل.

كان الوالد قد جمع ثروة كبيرة من جراء خدمة الامير فخر الدين و اشترى اراض عديدة ثم قرى بأكملها في كسروان. صار الشيخ ابو نوفل يضاعف ثروة والده لأنه و اولاده خدموا الامراء التالبيين.

و هذا هو الشيخ الذي كان اول من سمح للرهبان الاوروبيين ببناء اديرتهم في جبل لبنان كما و اعطاهم بيوتا. كان ذلك كافيًا لذبوع صيت هذا الشيخ في اوروبا. صار الرهبان يكتبون في رسائلهم إلى روما و باريس عن امير كبير محسن الديانة الكاثوليكية من الكفار الذين يحفظون بها. لذلك نصبه البابا هو و ابنه فارسين.

أما ملك فرنسا فتمتبه تقصلا له في بيروت. و كان هذا قد أعطى لنفسه لقب امير الموارنة فصار

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبر منذر، ج ٢، ص: ٣٥١

الرهبان يسمونه هكذا في رسائلهم فما كان من البابا و ملك فرنسا الا ان صاروا يخاطبونه بهذا اللقب. إذن سمى ابو نوفل اميرا من قبل الاوروبيين في الوقت الذي كان فيه مشايخ عائلتي حبيش و العاقوري لا يعتبرون عائلة خازن عائلة عريقة.

ترك الشيخ ابو نوفل قصة حياة الامير فخر الدين لكن يشكك في انه لم يكتبها بنفسه بل ساعده في ذلك الرهبان الاوروبيون لجعله كاتبًا ذائع الصيت. لقد عرفه آرفيو(Arvieux) و روك(Roque) شخصيا و حكيا عنه مطولا. كان الاخير مسافرا و التقى به عند الرهبان الذين تلقوا حسنات كثيرة منه و كانوا ينتظرون المزيد. و قام بطبع الرسائل التي ارسلها اليه ملك فرنسا و وزراءه كي لا يترك اي سبيل للاوروبيين للشك في ان الشيخ كان شخصية مهمة. أما ارفيو الذي عاش عدة سنوات في السيد(Seide) و الذي قام بأعمال كثيرة مع أبي نوفل و وصفه عكس ذلك تماما كما أتخيل اي شيخ ماروني في موطنه و قد اتعب الرهبان رأسه بألقاب الامارة و القفضلية.

توزع خلف أبي نوفل إلى فروع خمسة هي:

١- اولاد بو كزرو و المقيمون في غوسطا

٢- اولاد بو ناصيف في عجلتون

٣- اولاد بو نوفل في غوسطا و عجلتون

٤- اولاد موسى في ذوق مكابيل

٥- اولاد بو شديد في ساحل المتن

لو أن الرهبان الاوروبيين لم يتقوا في جبل لبنان لما كنا سمعنا المزيد عن الامراء الموارنة.

لكنهم إلى اليوم يذكروننا بهم دائما. و غالبا ما يرسلون ابناء محسنين، أقرتهم الحروب الداخلية أو قضاة الطرق المتأولة إلى اوروبا باسم امراء جبل لبنان أو امراء فلسطين، يعطون الشيخ رسائل توصية إلى روما. و بما انه كاثوليكي يحرص من في روما على اعطائه رسائل اخرى للابراطور.

لدى وصوله إلى فيينا يقدم اليه مسكن مجاني و يحصل كل شهر على مبلغ من المال يعايش منه.

كما و يعطيه مدير المحطات بطاقة مرور تخوله التنقل مجانا ليس في بلدان الاعبراطور و حسب بل و ايضا في كافة الامبراطورية الرومانية، و يعطيه وزير الخارجية رسالة توصية إلى كافة الملوك و الامراء، و هكذا يشهد سيادة الامير جيشا ذهب زاعما ان الاتراك و العرب و المتأولة و التصرييين و باختصار كل الكفار قد سلوه اراضيه و ان حتى زوجته و اولاده الامراء و الاميرات افسحوا في السجن. و هو لا ينتهيون في سفرهم الا إلى اسماء المدن التي يمرون بها و أنواع العملات

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبر منذر، ج ٢، ص: ٣٥٢

المستعملة في كل بلد و الحسنات التي يحصلون عليها و المقاهي التي يدفعون لهم فيها و الاعمال التي دفعوها للجمارك. و هم بغالبيتهم لا يعودون إلى بلادهم الا بعد ان يكونوا قد جمعوا المال الكافي لشراء بستان فيه شجر زيتون و تين و بعض الاراضي. حينئذ يخبرون اهلهم بالحفاوة التي استقبلهم بها الملوك و الامراء الاوروبيون و يسخرون منهم لأنهم دعوهم إلى موادتهم بصفتهم امراء.

و سرعا ما يمتنى احد اصداقائهم القيام برحلة مماثلة ليس رغبة بالدين المسيحي بل لجمع المال.

فياخذ خارطة الطريق و يستعلم عن المدفوعات و المداخل التي يمكن ان يحققها امير الزيتون (هكذا يسميهم ابناء بلدهم على سبيل السخرية) العائد و يأخذ رسائل توصية إلى روما يكتبها له بعض البطاركة و الرهبان الاوروبيون (لقاء بعض المال أو لقاء بعض الهدايا) ثم يشتري سيفًا جميلًا و خنجرًا رائعًا و يستأجر خادما قام بهذه الرحلة من قبل ثم يتجه نحو اهم بلدان و مدن اوروبا حيث قبض صديقه الامير المزيّف اكثر مما دفع.

لقد اعدت هذه المهنة اموالًا طائلة على الامراء الموارنة الذين قاموا بالسفر. اما الاسياد الاوروبيون فلم يرغبوا قط في معرفة الحقيقة. لقد كان الفضول يتملكهم هم و سيدات البلاط للتعرف على امير عربي أو على امير من جبل لبنان أو من فلسطين. و لم يكونوا يكتفون بالاستماع إلى أقواله بل و يدعونه إلى ولائهم و متى اشتدت الروابط معه يرسلون اليه الهدايا. لكن هذه المهنة لم تعد تدرّ الكثير من الاموال على امراء الزيتون بسبب الاعداد الكبيرة التي تغد منهم إلى أوروبا.

عرفت عددا من امراء الزيتون في اوروبا و كانوا يتذمرون من أن الملوك و الاعراء لم يعودوا سلسلين كما في السابق اذا انهم لا يسمحون لهم بالتجول مجانًا في كافة المدن و القرى كما كانوا يفعلون في السابق و يجنون الهدايا من الناس و يظليون المال من الفلاحين الذين يدفعون لهم دون تردد لأنهم طردوا من بلدهم على أيدي الكفار. و لأن الفلاحين يجنون رؤية الامراء العرب في ثيابهم الشرقية (التي يزينها هؤلاء الامراء الشحاذون بالذهب و الفضة على طريقة الشرقيين) كما لو انه حيوان غريب في السوق أو فانوس سحري ... لكن نظرا لكثرة هؤلاء الامراء الوافدين بدأ مسؤولو القرى و الفلاحون يسأمون منهم. لهذا السبب لم يعد الامراء الاوروبيون يسمحون لهم باللف و الدوران بل صاروا يعطونهم هدية نقدية و يدفعون كلفة اقامتهم في التزل احيانا ثم يرسلونهم في أسرع وقت ممكن. و هكذا فإن الامراء الموارنة هم اسرع من يقوم بأسفار. أنا شخصيا لم احس بالشفقة على أي من هؤلاء الامراء المزعومين الذين التقيت بهم في اوروبا سوى المدعو عيود بن شديد فلقد كان ينتمي فعلا إلى إحدى الفروع العريقة من عائلة حبيش و كان يحمل رسالة توصية اعطاها ملك فرنسا في الماضي إلى والده ثم إليه. كان والده يملك قرى في منطقة الفتح بالإضافة إلى

أراض واسعة و بساتين و بيوت في غزير لكنه اصبح فقيرا بسبب الحروب الداخلية مع

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبر منذر، ج ٢، ص: ٣٥٣

المتأولة. و قد كان لبلدو علاقات كثيرة مع دروز من طبقات راقية. و كان يعرف بلده جيدا لذا فأنا مدين له بالكثير من المعلومات الجغرافية و البشرية التي ذكرتها في هذا الجزء و كان يتمتع بكثير من الطموح و عزة النفس ليؤدي دور المتسول في اوروبا لذا فقد منعت صفاته من جمع الكثير من الاموال. يقول البعض ان قسما من أبناء هذه العائلة قاموا بالسفرة مرة اولي على انهم خدم مرة اخرى على انهم امراء. أظن اني رأيت واحدا منهم في كوينهاغن كان يرافقه ماروني شاب يرتدي ثيابا اوروبية و كان يسميه امين السر و كان في الوقت نفسه خادمه و رفيق سفره و ربما يرافقه لتعلم المهنة.

إن الموارنة مضيافون جدا في بلدهم. لأن الفنادق العامة قليلة عندهم و عند الدروز و العرب و الاتراك. هناك غرفة شافرة في منزل كل شيخ لاستقبال الضيوف و المسافرين مجانا. و متى كان في المنطقة نفسها اكثر من شيخ يكون دور كل منهم في شهر واحد و

عليهم التنبه إلى حسن استقبال الضيف و معاملته. احيانًا يستغل الناس حسن استقبالهم. كان هناك ماروني ولد في حلب لكن عمل كخادم في فيينا فجاه إلى غزير بلباس الاوروبيين و اصطحب معه مترجما استقبله شيوخ غزير استقبالًا جيدًا على انه سيّد ألماني و جعلوه يزور كافة الشيوخ الاخرين و دعوه إلى رحلات صيد و فعلوا المستحيل لجعل اقامته في لبنان لائفة جدًا. بعد سنة أشهر عاد إلى دياره سعيدا بعد مضي بضع سنوات سافر إلى فيينا ابن احد الشيوخ الذين استقبلوه بحفاوة بالغة و كان متكررا يرى امير فعتر على ضيف والده لكن بدلا من ان يجده سيذا المانيا وجده مارونيا يعمل كتاجر في فيينا.

في خريف عام ١٧٧٧ وصل إلى كوينهاغن رجل من عائلة حبيش ادعى انه امير من فلسطين و كان اكثر مهارة في ناحية دوره من كافة زملائه السابقين. بالاضافة إلى اللغة العربية كان يتكلم الايطالية و الفرنسية و بعض الالمانية و الانكليزية و لم يكن يعرف بلده جبل لبنان جيدا. اعتقد انه ابن احد الامراء المزيفين الذي سافر إلى اوروبا مع ابنه و الذي مات في المانيا. اذ لم اكن محتظا فإن هذا الامير المزعوم قد عاش عشرين عاما في اوروبا. فمن غير الغريب اذا ان يتكلم لغاتها. و بدا انه تعلق بنمط الحياة الأوروبية و لم يعد يرغب بالعودة إلى سوريا فقرر التجول في اوروبا قدر ما استطاع و طالما هناك اسبأد يوافقون على مده بالمال الا انه افسد هذه المهنة فما عاد خلفاؤه يستطيعون الاستفادة منها من بعده.

إذا اراد القراء معرفة رأى باقي المسافرين في امراء جبل لبنان فما عليهم الا مراجعة كتاب بوكوك وصف بلاد الشرق، الجزء الثاني القسم الاول، ص ٩٦، و كتاب يوناس كورتس و ستيفان شولتز الجزء الخامس. يقول الاخير ان العائلة الحبيشية العريقة تقسم إلى قسمين: «قسم يعيش

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣٥٤

يشرف فيعض افراده يشغلون مناصب وزراء في الدولة أو ضباطا عند امير جبل لبنان أو امراء اقطاعيين بينما القسم الثاني خسر كافة امواله في القمار و الميسر و استحلال عليه استعادتها فصار على افراده ان يعيشوا بفقرف كفلأحين ...» من هذا القسم الثاني يفد الامراء إلى اوروبا. اذا قارنا هذا بما سبق نجد ان شولتز لم يجمع الكثير من المعلومات الصحيحة حول العائلة الحبيشية و ان حكمه كان جانرا. إن عبود بن شديد الذي التفت به لم يكن ابدا من هؤلاء الاشخاص الذين يتكلم شولتز عليهم. لقد زار بوكوك احد هؤلاء الامراء في غزير و اليكم ما جاء به «ان شيخ الموارنة يتكلم الايطالية و امضى ثمانى سنوات في اوروبا. هناك شخصان أو ثلاثة اشخاص زاروا اوروبا ايضا و لا شك انهم رافقوه اليها و كان احدهم قد زار بريطانيا . اعتقد انه سافر متكررا بشخصية امير من جبل لبنان لأن الذين يسافرون إلى اوروبا بهذه الصفة هم غالبا ابناء الشيوخ الذين يملكون قرى بكاملها و ابناء امراء دروز. و نظرا إلى انهم محترمون جدا في بلدهم، يعطيهم الرهبان رسائل توصية إلى اوروبا على انهم امراء من جبل لبنان. غالبا ما يعودون اغنياء لأنهم يشحذون بطريقة مهذبة حاجتهم في ذلك ان الموارنة مضطهدون من قبل الاتراك لأنهم مسيحيون. سأل كوش احد رجال الدين من جبل لبنان عن هؤلاء الامراء الذين يسافرون غالبا من جبل لبنان إلى اوروبا فضحك هو و الراحب الذي كان معه و أشار بأصبعه إلى فلاح يمر على حصانه و يحمل رمحا على كتفه و يقول انه على سبيل السخرية يستسى امير كل عربي غنى يستطيع امتطاء الخيل و يحمل رمحا على كتفه. و يحكى دولابروك في رحلته إلى سوريا و جبل لبنان قصصا كثيرة يمدح فيها الامراء الموارنة من غير المسافرين لأنهم في ذلك الوقت لم يكونوا قد سافروا بعد بل كانوا لا يزالون يحيطون الرهبان بمعاملة خاصة.

إن أهم مناطق كسروان هي التالية:

غزير، و هي مدينة صغيرة فيها نهر يدعى المعاملتين و يصب في البحر في الشتاء. في الصيف تستهلك مياهه كافة في الحقول و البساتين. إن سكان هذه المدينة هم جميعا مسيحيون و بغالبيتهم من الموارنة. يمتلك شيوخ عائلة حبيش غالبية البساتين و الحقول المجاورة. يجمع اربعة شيوخ يترأسون هذه العائلات الضرائب المفروضة و التي تدفع لأمير الدروز و في أيام الحروب يصبحون قادة على السكان. لا يوجد حاكم أو قضاء في هذا القطر. هناك خمس كنائس في غزير و بالقرب من الضواحي هناك دير للموارنة و آخر للأرمن الذين انضموا إلى الكنيسة الرومانية.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣٥٥

إن قصر الامير المسلم الذي طرد فخر الدين من هنا صار منذ بضع سنوات ملكا لأبى شدول من عائلة حبيش. و لشدة ما كان هذا الاخير كريما مع راهب كيوشي فرنسي، أراد ان يهديه القصر لكن الراهب كان واعيا فلم يوافق على اخذه مجانا فاشتره سوريا بقيمة ٣٣ قرشا، و هكذا تأكدت جماعة الكويشيين من أن ورة هذا الشيخ لن يظلوا بالقصر أبدا لأن عقد الشراء بحوزتهم. إذا فالكويشيون يسكنون اليوم في قصر امراء كسروان السالفين بينما شيوخ الموارنة الذين يرسلون اولادهم إلى اوروبا بصفة امراء مزعومين يسكنون المنازل البائسة. لا تزال نجد في غزير مسجدا كبيرا مع منذنة يعود لأيام الامراء المسلمين، و يستعمل مسيحي المنطقة هذا المسجد احيانا كزريبة للمواشى.

في جوار غزير هناك اقليم يدعى الفتوح فيه القرى التالية:

الصفراء البوار، كفر حباب، فتقة، غدراس، كفر شريف، حالات، الحصين، غباله، الغينة، و الكفور.

الجديدة هي قرية تقع بالقرب من نبع النهر الصغير الواقع قرب غزير و هناك كنيسة في القرية و خارجها دير للموارنة.

عروم هي قرية فيها كنيسة و خارجها هناك ديران للموارنة، دير مار عباد، و دير سيده الحقل للرهبان و الراهبات. من غير الضروري الاشارة إلى ان النساء يعشن فيه على حدة. شحوتل هي قرية في المنطقة نفسها و وطى الجوز تعتبر مكانا رائعا بشكل مصيفا للعائلات العريقة الدرزية و المارونية.

لا تشترك قرينا دلينا و شنتعير إلا بكنيسة. هناك ثلاث كنائس في ساحل علما و بجوارها دير للموارنة. بالقرب من هنا نجد الغفر أو برج جونه قرب نهر الكلب حيث يطلب الموارنة عشر بارات عسرية من المسلمين الذين يعمرون في المنطقة. في الماضي كانت هذه الضرائب تعود إلى عائلة حبيش لكن امير الدروز وضع يده عليها ثم اعطاها لعائلة الخازن. كما الاتراك و الانكليزيون و المسلمون المتكبرون لا يعطون كلمة صدق للموارنة عند ما يطالبونهم بهذه الضريبة، و حدهم التجار الصغار يعتقدون ان هذا المال الضئيل لا يستحق ان يؤدي إلى عراقك مع الموارنة. من هنا فإن هذا المال لا يكفي لإعطاء الجابي راتبه. اصف إلى ذلك ان الموارنة فخورن بأنفسهم لأن المسلمين يدفعون لهم الضرائب.

حارة صخر هي قرية فيها كنيسة و خارجها يوجد دير للرهبان الموارنة. هناك كنيستان في غزير و دير كبير للراهبات.

في الماضي كانت صربا مدينة كبيرة فيها قلعة اما اليوم فقد تحولت إلى قرية بانسة. اما عمشيت فلا يوجد فيها الا كنيسة واحدة.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣٥٦

نجد ثلاث كنائس في ذوق مكابيل و خارجها دير للروم احدهما للرهبان و الاخر للراهبات.

ذوق مصبح هي بلدة فيها اربع كنائس لا تبعد كثيرا عن نهر الكلب. بالقرب منها يوجد دير للموارنة فيه ذكور و إناث. أخذ نهر الكلب اسمه عن كلب كبير محفور في الصخرة. في الماضي كان الكلب مشدودا إلى الصخرة اما اليوم فنجده عند مصب النهر و قد فقد رأسه. نجد في هذه المنطقة كتابات عربية و لاتينية قديمة جدا. ربما يجدر بي نقل هذه الكتابات . هناك العديد من المغارات المحفورة في الصخور بالقرب من نبع النهر و يقال ان فيها كتابات قديمة جدا.

نجد كنيستين في ذوق الخراب و في جوارها ثلاثة اديرة للموارنة اما جعيتا فهي قرب منبع نهر الكلب و فيها كنيسة واحدة.

في عيظورة هناك كنيسة واحدة و دير للراهبات المارونيات و آخر لليسوسيين.

في الحراش هناك كنيسة و دير للراهبات المارونيات.

درعون هي قرية فيها كنيستان بالقرب منها نجد دير الشرفي للرهبان و الراهبات و دير مار شليطا للرهبان و الراهبات ايضا و مكان اقامة احد مطارنة الموارنة.

حريصا هي قرية فيها دير للفرنسيسكان. اما كهنة كنيسة الدير فهم جميعا من الموارنة.

غوسطا هي مدينة صغيرة تقع على تلة و تبعد عن غزير مسافة فرسخين و عن البحر مسافة ثلاثة فراسخ. يسكن في غوسطا شيوخ عائلة الخازن الرئيسيون. في غوسطا ثلاث كنائس و بالقرب منها ثلاثة اديرة احدها دير للارمن و الاخر للموارنة يسكن فيه بطريركهم احيانا. اما الثالث فهو ايضا للموارنة و يسكن فيه احد المطارنة.

معراب هي قرية فيها كنيسة. بالقرب منها آثار برج قديم نجد فيه احيانا عملات نقدية قديمة.

هناك كنيسة في كل من قرى بلطحا و رعشين و الغالة. اما عشقوت ففيها كنيستان.

في بزمار هناك دير يقيم فيه بطرك الارمن الذين التحقوا بالكنيسة الكاثوليكية .

و نجد في ريفون كنيسة و بالقرب منها دير للموارنة.

في بلدة عجلتون هناك خمس كنائس و خارجها هناك دير للموارنة. اما القليعات فهي قرية

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣٥٧

صغيرة فيها كنيسة و بالقرب منها بقع دير رومية. و هو دير كبير للموارنة.

تقع القرى التالية في اقليم يسمى جرد كسروان:

فيطرون و هي قرية كان سكانها جميعا في الماضي من المسلمين لا يزال بعض المزارعين يعتقدون الدين الإسلامي إلى الآن لكنهم

يخضعون لشيخ مسيحي. هناك كنيسة للمسيحيين في هذه القرية.

في الماضي وحدهم المتأولة كانوا يسكنون حراجل و ميرويا و فاريا اما اليوم فلا نجد فيها الا المسيحيين ولديهم كنيسة في كل واحدة

من هذه القرى.

بغوتوتا و الغلالى و بقعاتا و زيتوة هي قرى صغيرة في كل واحدة منها كنيسة. نجد ديورا للروم قرب كل منها.

تقع المزرعة في الجزء الاعلى من جرد كسروان و فيها خمس كنائس. ان مناخها عذب جدا في فصل الصيف لذا يقصدها ذوو الثأن

من الدروز و الموارنة من سكان اسفل جبل لبنان الا انها شديدة البرودة في فصل الشتاء لدرجة انه يستحيل على السكان الخروج من

منازلهم بسبب كميات الثلج الهائلة علما ان الثلج لا يصبح قاسيا بما فيه الكفاية حتى يتمكن الناس من السير عليه. بالقرب من المزرعة

(أو كما يقول البعض من حراجل و فاريا) نجد آثار مدينة كبيرة هي فقرا و قد أكد لي الناس ان تحت الآثار نجد حجارة كبيرة عليها

كتابات و نقوش.

إن الجزء الاعلى أو قل رأس جبل لبنان بين كسروان و بعليك لا يزال خاليا من السكان. تشتد فيه البرودة في فصل الشتاء و يغطي

الثلج كل شئ. اما في الصيف فتجد حقولا جميلة و قطعانا كبيرة من الماعز و الخراف يمتلك جزءا منها الدروز و الجزء الآخر يعود

إلى بعض قبائل التركمان.

لا يبقى هؤلاء الاخيرين الا شهرا واحدا هنا ثم يقدون قطعانهم إلى دمشق و المدن المجاورة.

و عليهم دفع ضريبة بسيطة إلى امير الدروز الا ان اتباع الامير لا يدفعون شيئا لقاء علف قطعانهم من هذه الاراضي.

يسيطر الدروز ايضا على بيروت . تقع هذه المدينة في منطقة جميلة جدا على البحر بين صيدا و طرابلس. و فيها مرافأ جيد، تنشط

التجارة فيه و خصوصا الحرير و الزيتون و القطن و بضائع اخرى يشتهر بها جبل لبنان. من جهة الجبل، هناك الكثير من البساتين و من

جهة البحر هناك

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣٥٨

برجان بقعان على الصحور و يهدفان إلى حماية المرفأ الا ان حالتها يرثي لها. تشكل هذه التعزيزات الوحيدة لدى الدروز اذا ما

استتبنا الجبال المنحدرة. ان بيوت المدينة جميلة جدا خاصة الخانات منها و المحال التجارية التي يؤجرها الامير بأسعار مرتفعة

للمسلمين. في بيروت مساجد كثيرة، و يختار اهل هذه المنطقة مفتهم و قضاتهم بأنفسهم. يقيمهم الامير الحاكم في مهنتهم عندما

يدفعون ضرائب المهنة و جدير بالذكر ان قضاة بيروت لا يكسبون الكثير من المال كقضاة المدن الاخرى. عندما يرى مسلمو بيروت

ان القاضي اصدر حكما متحيزا يشكونه إلى الامير الذي يعاقبه اولاً. ان آغا بيروت أو قائدها لا يكون ددزيا بل مسلما يولد في المدينة

لكنه يخضع كليا لأوامر الامير. ان الموارنة هم اكثر الطوائف نفوذا من بين المسيحيين في بيروت ولديهم كنيسة في المدينة. في بيروت

ايضا روم و بعض اليهود. ان الدروز لا يحبون اليهود كثيرا لذلك لا نجد اى يهودى في جبل لبنان اذ يتحصرون في بيروت. لكنهم

يتجولون في اراضى الامير الاخرى بسبب تجارتهم كما في أيام بنا دو تولاد. لم يبق من التجار الاوروبيين الا فرنسى واحد مولود في

الشرق. ان تجار مرسيليا الذين تصادفهم في كافة مرافئ هذا الشاطئ. قد حاولوا كثيرا التمرکز في بيروت لكنهم غالبا ما كانوا

يتزكون المدينة و ينسحبون إلى صيدا لأنهم يستطيعون دائما فيها إجبار الدروز على الدفع لقاء البضائع التي يبيعونها ماها و ذلك

بمساعدة الباشا. اما في بيروت فيشتري الدروز بالدين بضائع كثيرة و لا يستطيع التجار استرداد ثمنها منهم حتى بواسطة العدالة.

إن القرى التالية تقع في جوار بيروت و هي تابعة للاقليم الدرزية القريبة منها القيتي، النحويطة، الاشرفية، الضبية، اليوشرية، الشياح،

برج البراجنة، حرش الصنوبر، الناعمة و النعمية.

على بعد ربع فرسخ من بيروت نجد دير الخضسر مار جرجس و هو مكرس لمار جرجس. يعتقد الموارنة ان مار جرجس هذا قتل الثنين

السدفون هنا. على مسافة غير بعيدة من بيروت تقع كنيسة انطلياس يعتقد الموارنة انها لا تزال تحتوى حتى اليوم على الكثير من الذهب

و الاحجار الثمينة المدفونة التي لم يستطع الدروز و المسلمون حملها كلها. رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر ؛ ج ٢ ؛

ص ٣٥٨

ع الاقاليم التالية اما في جبل لبنان أو على الجبل نفسه و يسكن الموارنة جزءا منها الا انها لا تتبع اراضى الدروز بل اراضى باشا

طرابلس:

١- جبة بشرى، و هي اقليم مهم في شرق طرابلس. ان غالبية سكانه من الموارنة لكن العائلات ليست مهمة كما في كسروان. يعين

الباشا جابي الضرائب من بين الضباط الموارنة أو

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣٥٩

من بين الاشخاص الذين يدفعون له لقاء ذلك فيسمى هؤلاء شيوخا، ان اهم القرى في هذا الاقليم هي: بشرى، الحدث، عنتورين،

حديث، بلوزاه، حصرون، كفر شخنا، بزعو، قرقاشا، كفر صارون.

لمسيحي هذه القرى اديرة كثيرة قريبة منها. الدير الاكثر شهرة هو دير قنوين، مكان اقامة احد البطاركة الموارنة. إن هذا الدير مرتفع

بعض الشئ و له مظل خلاب. اما عائلته فهي مهمة لكن يصر منها على الفقراء كما يطالب باشا طرابلس البطريرك بضرائب كثيرة

مما يجبره إلى الانسحاب إلى دير قريب من غوسطا يقبني في حماية الدروز و مسيحي كسروان هناك ايضا دير قرحا في هذا الاقليم

و هو محفور داخل الصخر و يقال ان الاشخاص المضطربين يقطنون فيه ثلاثة ايام ثم يشقون. كما أن للكرملين دير قرب شجر الارز

الشاقق. و نجد بالقرب من قرية اهدن و في الجزء الاسفل من بشرى هناك دير مار ليشع.

٢- الزاوية و هي اقليم صغير

٣- البترون و هي اقليم صغير يطل على البحر. نجد في هذه المنطقة الكثير من الاديرة التي تحولت إلى آثارات.

٤- العاقورة و هي اقليم فيه قرية تحمل الاسم نفسه يعيش فيها أهم شخصيات عائلة العاقورى بالإضافة إلى مطران ماروني. بالقرب من

العاقورة و في الاقليم المسمى البريع يمكن ان نجد كتابات قديمة جدا محفورة على صخرة.

٥- الفتوح. يقع هذا الاقليم جنوبي المعاملتين و شمالي نهر ابراهيم و غربى جبيل و تمتلك عائلة حيش غاليته.

عندما كنت في هذه المناطق كان السكان يعانون كثيرا من جيرانهم المتأولة الحاكمين في جبيل لأنهم لم يكونوا يكتفون بنهب بيوت

الموارنة بل و كانوا يخربون اشجار التوت فيحرمونهم من تربية دود القز، لكن في تلك الفترة طرد المتأولة من هذا الاقليم كما سنرى

لاحقا.

تقع القرى التالية في إقليم الفتوح و كلها صغيرة الحجم: كفر ياسين، الصفراء، الوار، كفر شخام، فقفا، غندراس، كفر صور، حالات،

الحصين، الغباله، الغيتي، و الكفور.

٦- تشكل الكورة اقليما مهما يسكن قسما منه الروم الكاثوليك. لهؤلاء العديد من الاديرة الكبيرة منها عينطوره و البمند و التورية.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبير منذر، ج ٢، ص: ٣٦٠

٧- الضنية هي إقليم يسكنه المتأولة و المسيحيون.

٨- جبيل هي بلدة و إقليم يسكن الموارنة الجزء الاكبر منها لكنهم يخضعون اليوم للمتأولة.

من اهم الاماكن في هذا الاقليم: جبيل، معاد، غليون، البيشة، حاقل، ممشش، لخد، اشميدش، وادى معاد، بتمايل، يقال انه يمكن ان

نجد كتابات عديدة في القصور و الاديرة بين المدفون و قيادار على مسافة ستة فراسخ.

جبة المنيطرة هي إقليم مهم كان الجزء الاكبر منها في ايامي يخضع لحكم المتأولة. في هذه المنطقة ينبع نهر ابراهيم. يقال انه عند

المنبع هناك آثار لمبان قديمة. بالإضافة إلى امكنة واسعة محفورة في الصخور كمغارة أققا. و يحكى ايضا عن آثار بروج قديمة و

معابد وعن كتابات حول جبل موسى وهو الجبل الواقع بين بلدة المنيطرة و الفتوح.

منذ رحيلي من سوريا طرأت تغييرات كثيرة في الاقليم الاخير (جبل) إذ ان درزيا يدعى يوسف طرد المتاوله من هنا مع انهم كانوا يملكون المنطقة منذ أكثر من ٢٠٠ عام وكان باشا طرابلس قد تنازل لهم عنها. وقد علمت بهذا الخبر من عبيد بن شديد و ميخائيل ماما اذ كان الاول في كوينهاغن من عام ١٧٧١ و الثاني في عام ١٧٧٢. إن هذا الحدث سيثير دهشة الكثير من الاشخاص الذين يجهلون شكل الحكم في بلاد الشرق.

كان والد يوسف درزيا يدعى الامير ملحم لكن امه لم تكن درزية بل كانت ابنة احد الشرفاء المهمين. كان لا يزال صغيرا عندما تولى الحكم عمه الامير منصور و كان الحاكم السابق ماروتيا يدعى صالح و كان رجلا ذكيا بذل كل ما استطاع لزرع روح الحكم في تلميذه و كان يظن انه سينجح اكثر من كافة ابناء الامير ملحم لأنه أعده فلقى تشنه جيدة. تعرض الامير يوسف للختان شأنه شأن كافة ابناء العائلات المرموقة من الدروز حتى يظنه الاتراك مسلما. و بما ان موارنة جبل لبنان كانوا كثيرى العدد و من حلفاء الدروز ضد الاتراك و المتاوله، حاول الشيخ صالح كسب محبتهم لسيده الصغير لهذا قام بتعميده و كان يأخذه احيانا إلى الكنيسة لكنه كان لا يزال صغيرا جدا لاستلام الحكم كما كان عمه شديد النفوذ. في البداية صار ينسى فكرة طرد الاقلية المتواليه الحاكمة و التي تكره المسيحيين من جبل و من غيرها من اقاليم ولاية طرابلس. قرر في البداية ان يطرد من جبل و من غيرها من الاقاليم في ولاية طرابلس الاقلية المتواليه الاكثر نفوذا و التي تكره المسيحيين. لتنفيذ هذه الخطة كان لا بد ان يسلمه باشا طرابلس مسؤوله هذه الاقاليم و ان يجمع المال الكافي لدفع الجزيات و تدريب جيش صغير لطرد الاسياد القدامى و السيطرة على المنطقه.

كانت تلك مهمة كبيرة جدا بالنسبة لشاب صغير في السن لا يملك من اموال الا عائدات بعض القرى المعدوده.

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٣٦١

لم يخذ الامير منصور ان يكون ابن اخيه محبوبا من الدروز و المسيحيين كان يحاول ان يسد الطريق في وجهه بنشى الحجج حتى انه احرق له بعض القرى التي كان قد ورثها عن ابيه الا انه بذلك اعطى الامير الشاب جهة للتشكي عليه. لجأ يوسف إلى باشا طرابلس ابن باشا دمشق و الذى كان لا يزال شابا هو كذلك، فنشأت صداقة بينهما. بينما حاول الباشا مصالحه الطرفين ذهب يوسف إلى دير القمر و مكث فيها بعضه أشهر و صار يدعى مصادقه عمه لكنه كان يتآمر مع على جنبلاط على الانقلاب عليه. بعد ان وثق صداقته مع عدة شخصيات درزية هامة ترك دير القمر فجأة بحجة انه يخشى على حياته و غادر مع سائقه و خادم واحد إلى دمشق. فقصده خاله الشريف و الذى كان مرموقا جدا في المدينة. يخذ باشاوات سوريا وجود مناقشات بين العائلات الدروزية الحاكمة. وهكذا ارسل باشا دمشق يطلب الامير يوسف و أعقدق عليه ألقاب الشرف و عامله معاملة الامراء. في هذه الاثناء كان باشا طرابلس ينقل إلى اهله شكوى على عائلة حمادة و هي عائلة من المتاوله تعيش في اقليم جبل. و كان السكان مستائين من حكم آل حمادة منذ سنين لان احدا لم يستطع طردهم من الحكم لعدم توفر احد يؤجر المزرعة و يستطيع الدفاع عنها ضد الاسياد السابقين. بما أن غالبية سكان جبل كانوا من المسيحيين و من اصداقاه الامير يوسف، طن هذا الاخير انه يستطيع التصدي للمتاوله. وهكذا كتب الباشا لابنه باشا طرابلس انه سيعطى جبل ليوسف لمدة سنة واحدة (كما تجرى العادة). عند ما سمع الامير بالخبر اتجه من دمشق إلى اللاذقية حيث كان الباشا و جمع في طريقه ما يقارب ٥٠٠ رجل غالبيتهم من الموارنة و ما ان حصل الباشا على الفرمان حتى عاد من اللاذقية و ضاعف جيشه. لدى وصوله إلى حدود جبل انضم اليه الف ماروني مستعدين لمحاربة المتاوله. ترأس يوسف الجيش المؤلف من ٢٠٠٠ شخص و اخبر الشيخ الحاكم اسماعيل بن سرحان ان الباشا كلفه حكم هذا الاقليم و بما ان شيوخ المتاوله لم يكونوا يعلمون شيئا عن الموضوع اجبروا على التخلي عن منصبهم و الانسحاب إلى القرى التي يملكونها شخصيا.

بعد مضى لشهر، سافر الامير يوسف إلى جبل لبنان لتنفيذ مشاريعه المتبقية مع اصداقاه الدروز و خاصة على جنبلاط استغل المتاوله غيابه لتكسيب اشجار الخوخ و التين الخاصة بالموارنة ثم احضروا مواشهم اليها فسبوا لهم بذلك اضرارا جسيمة. لان ما حصل شكل فرصة جيدة عرف الامير يوسف كيف يستغلها. قام في البداية بطرد الشيخ اسماعيل من ارضه و صادر كافة القرى و الاراضي التي لم يستطع تزاعها منه كليا طالما انه يتصرف جيدا. و كان الموارنة و الدروز من

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٣٦٢

اتباعه و جيرانه الذين عانوا كثيرا من ظلم المتاوله يسرعون للانضمام في صفوفه كما ساعده على جنبلاط ايضا. هاجم يوسف جيرانه المتاوله الذين كانوا يملكون منذ سنوات اقاليم التبرون و الضنية و جبة بشرى. قاوم المتاوله في البداية لكن سرعان ما اجبروا على التخلي عن اراضيهم و الانسحاب عند اهل دينهم في صور و عكا. اما الامير يوسف فحصل على موافقة كافة الاقاليم على حملها و اصبح سيادا على ولاية مهمة.

عندما جاء إلى طرابلس باشا جديد، خاف من سلطة الامير يوسف التي تضاعف يوما بعد يوم فأبى ان يجعله يسيطر على كافة الاقاليم و اعطى بعضا منها إلى المتاوله لقاء الكثير من المال و كان هؤلاء قد جمعوا جيشا صغيرا إلا أن يوسف قرر عدم التخلي عن اى اقليم. جاء على رأس جيش كبير إلى طرابلس و هزم دفاع الباشا و هدد بنهب المدينة. و بما ان ضاهر عمر كان يهاجم في تلك الفترة الباشاوات المجاورين له كتب باشا دمشق حامى الامير يوسف سابقا إلى باشا طرابلس يقول له انه من مصلحة السلطان ترك الامير يوسف يستولى على كافة الاقاليم التي سلمت له سابقا.

و هكذا حصل يوسف على دعم جديد فترك ولاية طرابلس. و مرة اخرى هاجم المتاوله و لشدة ما برح في المعارك بالقرب من الحدث لم يتصدوا له منذ ذلك الحين. في هذا الوقت هاجموا اقاليم اخرى في منطقة بعلبك و طردوا منها اسياها القدامى تماما كما طردهم يوسف.

بعد معركة الحدث سار الامير يوسف على رأس جيش إلى بعلبك لمحاربة الامير حيدر المتوالي. و كان هذا الاخير يدفع منذ اعوام الاموال إلى شيخ الدروز و يأخذ ذلك ما يعادل الالف شخص لمعاونته. لكن عندما اقترب يوسف و جيشه من المدينة رفض الدروز الخروج منها كما رفضوا محاربة دروز آخرين. قاد حيدر الخيالة لمواجهته لكن اخاه تخلى عنه مما اجبره على الهروب عند المتاوله في ولاية عكا. لم يستطع الامير يوسف المحافظة على بعلبك لأنه كان عليه دفع الضرائب مباشرة إلى القسطنطينية فسلم الحكم لأخ الامير حيدر. لكن بعد اشهر تصالح الاخوان و عاد الامير حيدر إلى الحكم بعد ان تعهد بدفع جزية سنوية إلى الامير يوسف او قلما يفي هؤلاء بعهودهم لمدة طويلة) و بعدم التعرض للدروز و المسيحيين في المناطق المجاورة. بعد ذلك طرد الامير يوسف المتاوله من الهرمل.

كثيرا ما تنشأ حروب صغيرة مماثلة في الولايات التركية بين مستأجري مزارع السلطان، و قلما يهتم بها الباشاوات لأن ما يهمهم فعلا هو قبض الاجار. كما ان باشاوات سوريا دائما مشغولون بحماية المدن الهامة في هذه المنطقة ضد الثوار الكبار. فعلى بك الذى استغل في مصر و الذى استولى على دمشق اجبر على التخلي عن المدينة الاخرية ثم طرد نهائيا من مصر على يدى منافسه محمد أبو الذهب لكنه حمل معه اموالا طائلة و تابع شن الهجومات على الباشاوات الاتراك

رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عيبير منذر، ج ٢، ص: ٣٦٣

بمساعدة ضاهر العمر. في هذا الوقت كان السلطان يحتاج إلى جيوش كثيرة ضد الروس فلم يستطع ارسال الدعم إلى سوريا. و لم يكن الباشاوات قادرين وحدهم على التصدي لجيش شديد القوة فأجبروا على طلب العون من دروز جبل لبنان. كان الامير منصور قد حصل على الكثير من الاموال من الاتراك و كان قد انضم اليهم اكثر من مرة على رأس جيشه لكنه كان دائما ينسحب قبل بداية المعركة. لكن بما ان يوسف مدين بالكثير للبشاوات الاتراك قرر الجميع ان الدروز سيجاريون جيدا لو ترأسهم بنفسه. و هكذا تمتى باشا دمشق ان يسمي فعليا اميرا بدلا من منصور و استغل الفرصة للقيام بذلك.

توجه الامير يوسف إلى دير القمر للاقتان بأبيرة من آل شهاب و بهذه المناسبة اجتمع الشيوخ البارزون و خاصة من اهل العريس كما وجاءت شخصيات تركية رفيعة المستوى مصحوبة بحشود غفيرة بحجة المشاركة في الفرح. كان الامير منصور يعرف ماذا يخطط العثمانيون و كان يعرف المرتبة التي يحتلها يوسف بين الدروز و محبتهم له فقرر ان يأخذ دور الاسان الشهم. فترع الخاتم المزود بالختن من اصبع الامير الحاكم و قدمه إلى ابن اخيه على انه الوحيد القادر على تولي الحكم في الظروف الراهنة. و ختما فتح الاتراك و الدروز الموجودون الامير بقبول الخاتم و بالتالي بتولي الحكم. و هكذا تراجع الامير منصور إلى اراضيه.

حاليا يحكم الامير يوسف بلدا يقارن بمملكة صغيرة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار مساحته و عدد سكانها الكثير. ان للاتراك في ضابطا شديد الاخلاص. عام ١٧٧١ أو ١٧٧٢ سار على رأس جيش كبير إلى منطقة عكا للاستيلاء على قلعة جون و هي قلعة صغيرة تطل على

نهر القاسمية كان الشيخ ضاهر و على بك يسيطرون عليها و كانت محاصرة من قبل جيش كبير ارسله باشا دمشق.  
كان ينتظر وصول مئات من الدروز من حاصبيا ليبدأ الهجوم لكن الامير منصور كان له مناصرون في الجيش هم الزبيكون. كان هؤلاء يظنون ان دروز حاصبيا من مؤيدي الاتراك فلم يكونوا يريدون انتظارهم بل صاروا يقنعون الامير يوسف بهاجمة القلعة اولاً. لكن ما ان هجم عليهم الشيخ ضاهر حتى هرب الزبيكون ثم هرب الدروز الآخرون الذين لم يعرفوا عدد الذين جاؤوا لمساندة رئيسهم كما عمت الفوضى في الجيش التركي الذي كان يظن ان العدو يلاحق الدروز.  
باختصار، تراجع جيش الاتراك و الدروز الكبير منذ اليوم الاول مسافة ١٢ فرسخاً. تبع ضاهر العمر، و على الدروز حتى اراضيهم و دمروا العديد من القرى الموالية للامير الجديد.

جازف باشا دمشق و الامير يوسف بهجوم جديد و اجبروا جيوش الشيخ ضاهر و على على الانسحاب لكن هؤلاء الاخيرين تلقوا مدافع صغيرة من الزوارق الروسية التي كانت تتواجد في  
رحلة إلى شبه الجزيرة العربية/ تعريب عبر مندر، ج ٢، ص: ٣٦٤  
الجوارق في هذا الوقت. فحملوها إلى المعركة و شنتوا بها الاتراك و السوريين و الدروز الذين لم يكونوا متعادين على التصدي للمدافع. في المرة التالية التي عاد بها يوسف إلى دير القمر قرر انه من الحكمة اعادة الحكم للامير منصور.  
لكن الامير يوسف حافظ على جبل و على الاقاليم الاخرى التي طرد منها المتاولة و من المحتمل انه سيصبح امير الدروز الحاكم الا ان ذلك لن يفرح الدروز كثيراً. ان الامير الحاكم يخضع كثيراً للشيوخ البارزين. و في عائلة شهاب الكبيرة يوجد اصحاب آخرون اذكياء يتوفون إلى تولي الحكم. هناك دائماً فريقان يقسمان الشعب سواء إلى قيسيين و بعنيين أو إلى جنلاطين و يزبيكين. سيظل الدروز منقسمين في ما بينهم أو سينشون معارك على المشاوات الاتراك.

### تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهدُوا بِأَقْوَالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/٤١).  
قال الإمام عليُّ بن موسى الرضا - عليه السلام: زَجِمَ اللَّهُ عَيْباً أَخِيّاً أَزْرَأْتَنَا... يَتَعَلَّمُ عَلَومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَخَابِرَ كَلَامِنَا لَأَنْجَحُوا... (سنن أبي الحار - في تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عُيُونُ أَخْبَارِ الرُّضَا)، الشَّيخُ الصَّدُوقُ، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧.

مؤسس مجتمع "القائمية" الشَّافعي بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادي" - "رُجَمَهُ اللَّهُ - كان أحدًا من مجاهدي هذه المدينة، الذي قد اشتهر بَعَثَهُ بأهل بيت النبي (صلوات الله عليهم) و لاسيما بحضرة الإمام علي بن موسى الرضا (عليه السلام) و بساحة صاحب الزمان (عجل الله تعالى فرجه الشريف)؛ و لهذا أتيسر مع نظره و درايته، في سَنَةِ ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠) الهجرية القمرية)، مؤسسه و طريقة لم يتطرق يصباحتها، بل تُتَّبَعُ بأقوى و أحنن موقف كل يوم.  
مركز "القائمية" التحري الحاسوبي - بأصفهان، إيران - قد ابتدأ أنشطته من سَنَةِ ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإسماعي - دام عزه - و مع مساندة جمع من غزبي الحوزات العلمية و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، في مجالات شتى: دينية، ثقافية و علمية...

الأهداف: التذلل عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافة التقلد (كتاب الله و أهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحري الأذق للمسائل الدينية، تخليف المطالب النافعة - مكان البلاط المتبدلة أو الزدينة - في المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضية واسعة جامعة ثقافية على أساس معارف القرآن و أهل البيت -عليهم السلام - بإتاحة نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغ هؤلاء برامج العلوم الإسلامية، إتاحة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة في الجامعة، و...  
- منها العدالة الاجتماعية: التي يُمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثة متصاعدة، على أنه يُمكن تسريع إبراز الترافيق و التسهيلات - في آكاف البلد - و نشر الثقافة الإسلامية و الإيرانية - في أنحاء العالم - من جهة أخرى.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبة، نشرة شهرية، مع إقامة مسابقات القراءة  
ب) إنتاج مئات أجهزة تحفيفية و مكتبية، قابلة للتشغيل في الحاسوب و المحمول  
ج) إنتاج المعارض ثَلَاثِيَّة الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركة و... الأماكن الدينية، السياحة و...  
د) إبداع الموقع الانترنتي "القائمية" [www.Ghaemiyeh.com](http://www.Ghaemiyeh.com) و عدة مواقع أخرى  
ه) إنتاج المنشجات العرضية، الخطابات و... للعرض في القنوات القمرية  
و) الإطلاع و الدعم العلمي لنظام إجابة الأسئلة الشرعية، الاخلاقية و الاعتقادية (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)  
ز) ترسيم النظام التفائلي و اليدوي للبلوتوث، ويب كسك، و الرسائل القصيرة SMS  
ح) التعاون الفخري مع عشرات مراكز طبيعية و اعتبارية، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلمية، الجوامع، الأماكن الدينية كمسجد جيمكران و...

ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبل المدرسة" الخاص بالأطفال و الأحداث المشاركين في الجلسة  
ي) إقامة دورات تعليمية عمومية و دورات تربية المرثية (حضوراً و افتراضاً) طيلة السنة  
المكتب الرئيسي: إيران/أصفهان/ شارع "مسجد سيد" / ما بين شارع "بنج زَمَضان" و"مفتري" و"قاني" / بناية "القائمية"  
تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهوية الوطنية: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: [www.ghaemiyeh.com](http://www.ghaemiyeh.com)

البريد الالكتروني: [Info@ghaemiyeh.com](mailto:Info@ghaemiyeh.com)

المتجر الانترنتي: [www.eslamshop.com](http://www.eslamshop.com)

الهاتف: ٢٣٥٧٠٢٣-٢٣٥٧٠٢٣ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية و المبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزات الحالية لهذا المركز، سعيته، تبرعه، غير حكومية، و غير ربحية، اقتضيت باهتمام جمع من الخبيرين؛ لكننا لا نؤاخي الحجب المتزايد و المسخ للامور الدينية و العلمية الحالية و مشاريع التوسعة الثقافية؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المنسى بالقائمية) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحة بقية الله الأعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يُوفَّق الكل توفيقاً مترابلاً لإعانتهم - في حد التمكن لكل احد منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله ولي التوفيق.



مركز  
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية  
الغمامة اصحمان

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى  
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

[www.Ghaemiyeh.com](http://www.Ghaemiyeh.com)

[www.Ghaemiyeh.net](http://www.Ghaemiyeh.net)

[www.Ghaemiyeh.org](http://www.Ghaemiyeh.org)

[www.Ghaemiyeh.ir](http://www.Ghaemiyeh.ir)

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

